

مَجْمُوعُ كُتُبِ سَيِّئَاتِكُ
الْإِمَامِ الْقَاسِمِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَجْمُوعُ كُتُبِ سَيِّدِ
الْإِمَامِ الْقَاسِمِ بْنِ إِسْرَافِيلَ
(الرَّسِّيِّ)

ابْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِسْرَافِيلَ بْنِ الْحُسَيْنِ
ابْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

(ت: ٢٤٦هـ)

الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ



مَكْتَبَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ (ع)

صف وتحقيق وإخراج:



اليمن - صعدة - ت (٥٣١٥٨٠) سيار (٧١٣٨٤٢٩٨٩)

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة أهل البيت (ع)



مقدمة مكتبة أهل البيت (ع)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، وبعد:
 فاستجابة لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]،
 ولقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]،
 ولقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]،
 ولقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

ولقول رسول الله ﷺ: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض))، ولقوله ﷺ: ((أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى))، ولقوله ﷺ: ((أهل بيتي أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء))، ولقوله ﷺ: ((من سرّه أن يحيا حياتي؛ ويموت مماتي؛ ويسكن جنّة عدن التي وعدني ربّي؛ فليتولّ عليّاً وذريته من بعدي؛ وليتولّ وليه؛ وليقتد بأهل بيتي؛ فإنهم عترتي؛ خلّقوا من طيبي؛ ورزقوا فهمي وعلمي)) الخبر، وقد بين ﷺ بأنهم: علي، وفاطمة، والحسن والحسين وذريتهما عليهما السلام - عندما جلّ لهم ﷺ بكساء وقال: ((اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا)).

استجابة لذلك كلّ كان تأسيس مكتبة أهل البيت (ع).

ففي هذه المرحلة الحرجة من التاريخ؛ التي يتلقّى فيها مذهب أهل البيت (ع) ثمثلاً في الزيدية، أنواع الهجمات الشرسة، رأينا المساهمة في نشر مذهب أهل البيت المطهرين ﷺ عبر نشر ما خلفه أئمتهم الأطهار عليهم السلام وشيعتهم الأبرار رضوان الله عليهم، وما ذلك إلا لثقتنا وقناعتنا بأن العقائد التي حملها أهل البيت عليهم السلام هي مراد الله تعالى في أرضه، ودينه القويم، وصراطه المستقيم، وهي تُعبر عن نفسها عبر موافقتها للفطرة البشرية السليمة، ولما ورد في

كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ.

واستجابةً من أهل البيت ﷺ لأوامر الله تعالى، وشفقةً منهم بأمة جدّهم ﷺ، كان منهم تعميدُ هذه العقائد وترسيخها بدمائهم الزكية الطاهرة على مرور الأزمان، وفي كل مكان، ومن تأمل التاريخ وجدّهم قد ضحّوا بكل غالٍ ونفيس في سبيل الدفاع عنها وتثبيتها، ثائرين على العقائد الهدّامة، منادين بالتوحيد والعدالة، توحيد الله عز وجل وتزويده سبحانه وتعالى، والإيمان بصدق وعده ووعدته، والرضا بخيرته من خلقه.

ولأن مذهبهم ﷺ دينُ الله تعالى وشرّعه، ومرادُ رسول الله ﷺ وإرثه، فهو باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما ذلك إلا مصداق قول رسول الله ﷺ: ((إن اللطيف الخبير نبأني أنها لن يفترقا حتى يردا عليّ الخوض)).

قال والدنا الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي (ع): (واعلم أن الله جلّ جلاله لم يرضَ لعباده إلا ديناً قوياً، وصراطاً مستقيماً، وسبيلاً واحداً، وطريقاً قاسطاً، وكفى بقوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام ١٥٣].

وقد علمت أن دين الله لا يكون تابعاً للأهواء: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون ٧١]، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس ٣٢]، ﴿شَرَعُوا لَهُمِ الدِّينَ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى ٢١].

وقد خاطب سيّد رسله ﷺ بقوله عز وجل: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ١٣٠ ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ١٣١ [هود]، مع أنه ﷺ ومن معه من أهل بدر، فتدبر واعتبر إن كنت من ذوي الاعتبار، فإذا أخطت علماً بذلك، وعقلت عن الله وعن رسوله ما ألزمتك في تلك المسالك، علمت أنه يتحتّم عليك عرفانُ الحق واتباعه، وموالاته أهله، والكون معهم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة ١١٩]، ومفارقة الباطل وأتباعه، ومبايئتهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة ٥١]، ﴿لَا تَحِدُوا قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة ٢٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي

وَعَدَوْكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴿[المصحة: ١]﴾ في آيات تُثَلِّى، وأخبار تُثَلِّى، ولن تتمكن من معرفة الحق وأهله إلا بالاعتماد على حجج الله الواضحة، وبراهينه البيّنة اللاتحة، التي هدى الخلق بها إلى الحق، غير معرّج على هوى، ولا ملتفت إلى جدال ولا مرء، ولا مبال بمذهب، ولا محام عن منصب، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥) ^(١).

وقد صدرَ بحمد الله تعالى عن مكتبة أهل البيت (ع):

- ١- الشافي، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة (ع)، ت ٦١٤ هـ، مذيلاً بالتعليق الوافي في تخرّيج أحاديث الشافي، تأليف السيد العلامة نجم العترة الطاهرة/ الحسن بن الحسين بن محمد رحمتهما الله تعالى، ت ١٣٨٨ هـ.
- ٢- مَطْلَعُ الْبُدُورِ وَمَجْمَعُ الْبُحُورِ في تراجم رجال الزيدية، تأليف/ القاضي العلامة المؤرّخ شهاب الدين أحمد بن صالح بن أبي الرجال رحمتهما الله تعالى، ١٠٢٩ هـ - ١٠٩٢ هـ.
- ٣- مَطَالِعُ الْأَنْوَارِ وَمَسَارِقُ الشُّمُوسِ وَالْأَقْمَارِ - ديوان الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة (ع)، ت ٦١٤ هـ.
- ٤- مجموع كتب ورسائل الإمام المهدي الحسين بن القاسم العياني (ع) ٣٧٦ هـ - ٤٠٤ هـ.
- ٥- مَحَاسِنُ الْأَزْهَارِ فِي تَفْصِيلِ مَنَاقِبِ الْعِتْرَةِ الْأَطْهَارِ، شرح القصيدة التي نظمها الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة (ع)، تأليف/ الفقيه العلامة الشهيد حميد بن أحمد المحلّي الهمداني الوادعي رحمتهما الله تعالى، ت ٦٥٢ هـ.
- ٦- مجموع السيد حميدان، تأليف/ السيد العالم نور الدين أبي عبدالله حميدان بن يحيى بن حميدان القاسمي الحسني رحمتهما الله تعالى.
- ٧- السفينة المنجية في مستخلص المرفوع من الأدعية، تأليف/ الإمام أحمد بن هاشم (ع)، ت ١٢٦٩ هـ.
- ٨- لوامع الأنوار في جوامع العلوم والآثار وتراجم أولي العلم والأنظار، تأليف/ الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع) ١٣٣٢ هـ - ١٤٢٨ هـ.

(١) التحف الفاطمية شرح الزلف الإمامية.

- ٩- مجموع كتب ورسائل الإمام الأعظم أمير المؤمنين زيد بن علي (ع)، تأليف / الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) ٧٥هـ - ١٢٢هـ.
- ١٠- شرح الرسالة الناصحة بالأدلة الواضحة، تأليف / الإمام الحجة عبدالله بن حمزة (ع)، ت ٦١٤هـ.
- ١١- صفوة الاختيار في أصول الفقه، تأليف / الإمام الحجة عبدالله بن حمزة (ع) ت ٦١٤هـ.
- ١٢- المختار من صحيح الأحاديث والآثار من كتب الأئمة الأطهار وشيعتهم الأخيار، لِمُخْتَصِرِهِ / السيد العلامة محمد بن يحيى بن الحسين بن محمد عليه السلام، اختصره من الصحيح المختار للسيد العلامة / محمد بن حسن العجري عليه السلام.
- ١٣- هداية الراغبين إلى مذهب العترة الطاهرين، تأليف / السيد الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ع)، ت ٨٢٢هـ.
- ١٤- الإفادة في تاريخ الأئمة السادة، تأليف / الإمام أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني (ع)، ت ٤٢٤هـ.
- ١٥- المنير - على مذهب الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم (ع) تأليف / أحمد بن موسى الطبري عليه السلام.
- ١٦- نهاية التنويه في إزهاق التمويه، تأليف السيد الإمام / الهادي بن إبراهيم الوزير (ع)، ت ٨٢٢هـ.
- ١٧- تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبين، تأليف / الحاكم الجشمي المحسن بن محمد بن كرامة عليه السلام، ت ٤٩٤هـ.
- ١٨- عيون المختار من فنون الأشعار والآثار، تأليف الإمام الحجة / مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.
- ١٩- أخبار فخر وخبر يحيى بن عبدالله (ع) وأخيه إدريس بن عبدالله (ع)، تأليف / أحمد بن سهل الرازي عليه السلام.

٢٠- الوافد على العالم، تأليف/ الإمام نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم الرسي (ع)، ت ٢٤٦ هـ.

٢١- المهجرة والوصية، تأليف/ الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم الرسي (ع)، ت (٢٨٥ هـ) تقريباً.

٢٢- الجامعة المهمة في أسانيد كتب الأئمة، تأليف/ الإمام الحجة مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع) ١٣٣٢ هـ - ١٤٢٨ هـ.

٢٣- المختصر المفيد فيما لا يجوز الإخلال به لكل مكلف من العبيد، تأليف/ القاضي العلامة أحمد بن إسماعيل العلقي رحمته الله ت ١٢٨٢ هـ.

٢٤- خمسون خطبة للجمع والأعياد.

٢٥- رسالة الثبات فيما على البنين والبنات، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة (ع) ت ٦١٤ هـ.

٢٦- الرسالة الصادرة بالدليل في الرد على صاحب التبديع والتضليل، تأليف/ الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع) ١٣٣٢ هـ - ١٤٢٨ هـ.

٢٧- إيضاح الدلالة في تحقيق أحكام العدالة، تأليف/ الإمام الحجة مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع) ١٣٣٢ هـ - ١٤٢٨ هـ.

٢٨- الحجج المنيرة على الأصول الخطيرة، تأليف/ الإمام الحجة مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع) ١٣٣٢ هـ - ١٤٢٨ هـ.

٢٩- النور الساطع، تأليف/ الإمام الهادي الحسن بن يحيى القاسمي (ع)، ت ١٣٤٣ هـ.

٣٠- سبيل الرشاد إلى معرفة ربّ العباد، تأليف/ السيد العلامة محمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد (ع) ١٠١٠ هـ - ١٠٧٩ هـ.

٣١- الجواب الكاشف للالتباس عن مسائل الإفريقي إلياس - ويلييه/ الجواب الراقي على مسائل العراقي، تأليف/ السيد العلامة الحسين بن يحيى بن الحسين بن محمد (ع) (١٣٥٨ هـ - ١٤٣٥ هـ).

- ٣٢- أصول الدين، تأليف/ الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (ع) ٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ.
- ٣٣- الرسالة البديعة المعلنة بفضائل الشيعة، تأليف/ القاضي العلامة عبدالله بن زيد العنسي رحمته الله تعالى، ت ٦٦٧هـ.
- ٣٤- العقد الثمين في معرفة رب العالمين، تأليف الأمير الحسين بن بدرالدين محمد بن أحمد (ع)، ت ٦٦٣هـ.
- ٣٥- الكامل المنير في إثبات ولاية أمير المؤمنين (ع)، تأليف/ الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي (ع)، ت ٢٤٦هـ.
- ٣٦- كتابُ التَّحْرِيرِ، تأليف/ الإمام الناطق بالحق أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني (ع)، ت ٤٢٤هـ.
- ٣٧- مجموع فتاوى الإمام المهدي محمد بن القاسم الحسيني (ع)، ت ١٣١٩هـ.
- ٣٨- القول السديد شرح منظومة هداية الرشيد، تأليف/ السيد العلامة الحسين بن يحيى بن الحسين بن محمد (ع) (١٣٥٨هـ - ١٤٣٥هـ).
- ٣٩- قصد السبيل إلى معرفة الجليل، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
- ٤٠- نظرات في ملامح المذهب الزيدي وخصائصه، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
- ٤١- معارج المتقين من أدعية سيد المرسلين، جمعه السيد العلامة المجتهد/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
- ٤٢- الاختيارات المؤيَّدية، من فتاوى واختيارات وأقوال وفوائد الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع)، (١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ).
- ٤٣- من ثمار العِلْم والحكمة (فتاوى وفوائد)، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤٤- التحف الفاطمية شرح الزلف الإمامية، تأليف الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي (ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٤٥- المنهج الأقوم في الرفع والضم والجهر بسم الله الرحمن الرحيم، وإثبات حي على خير العمل في التأذين، وغير ذلك من الفوائد التي بها النفع الأعم، تأليف الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع).

٤٦- الأساس لعقائد الأكياس، تأليف الإمام/ القاسم بن محمد (ع) ٩٦٧هـ - ١٠٢٩هـ.

٤٧- البلاغ الناهي عن الغناء وآلات الملاهي. تأليف الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد المؤيدي (ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٤٨- الأحكام في الحلال والحرام، للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم (ع) ٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ.

٤٩- المختار من (كنز الرشاد وزاد المعاد)، تأليف الإمام عز الدين بن الحسن (ع)، ت ٩٠٠هـ.

٥٠- شفاء غليل السائل عما تحمله الكافل، تأليف العلامة الفاضل: علي بن صلاح بن علي بن محمد الطبري (رحمته الله)، ت ١٠٧١هـ.

٥١- الفقه القرآني، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٥٢- تعليم الحروف.

٥٣- سلسلة تعليم القراءة والكتابة للطلبة المبتدئين/ الجزء الأول الحروف الهجائية.

٥٤- سلسلة تعليم مبادئ الحساب/ الجزء الأول الأعداد الحسابية من (١ إلى ١٠).

٥٥- تسهيل التسهيل على متن الأجرومية.

٥٦- أزهار وأثمار من حدائق الحكمة النبوية على صاحبها وآله أفضل الصلاة والسلام، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٥٧- متن الكافل بنيل السؤل في علم الأصول، تأليف العلامة/ محمد بن يحيى بهران، ت: ٩٥٧هـ.

- ٥٨- الموعظة الحسنة، تأليف / الإمام المهدي محمد بن القاسم الحسيني (ع)، ت ١٣١٩ هـ.
- ٥٩- أسئلة ومواضيع هامة خاصة بالنساء، تأليف السيد العلامة المجتهد / محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
- ٦٠- المفاتيح لما استغلق من أبواب البلاغة وقواعد الاستنباط، تأليف السيد العلامة المجتهد / محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
- ٦١- سلسلة تعليم القراءة والكتابة للطلبة المبتدئين / الجزء الثاني الحركات وتركيب الكلمات.
- ٦٢- سلسلة تعليم مبادئ الحساب / الأعداد الحسابية الجزء الثاني.
- ٦٣- المركب النفيس إلى أدلة التنزيه والتقديس، تأليف السيد العلامة المجتهد / محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
- ٦٤- المناهل الصافية شرح المقدمة الشافية، تأليف / العلامة لطف الله بن محمد الغياث الظفيري، ت ١٠٣٥ هـ.
- ٦٥- الكاشف لذوي العقول عن وجوه معاني الكافل بنيل السؤال، تأليف / السيد العلامة أحمد بن محمد لقمان، ت ١٠٣٧ هـ.
- ٦٦- الأنوار الهادية لذوي العقول إلى معرفة مقاصد الكافل بنيل السؤال، تأليف / الفقيه العلامة أحمد بن يحيى حابس الصعدي، ت ١٠٦١ هـ.
- ٦٧- مجمع الفوائد المشتمل على بغية الرائد وضالة الناشد، تأليف الإمام الحجّة / مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع) ١٣٣٢ هـ - ١٤٢٨ هـ.
- ٦٨- كتاب الحجّ والعمرة، تأليف الإمام الحجّة / مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (ع) ١٣٣٢ هـ - ١٤٢٨ هـ.
- ٦٩- المسطور في سيرة العالم المشهور، تأليف السيد العلامة المجتهد / محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

- ٧٠- محاضرات رمضانية في تقريب معاني الآيات القرآنية، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
- ٧١- زبر من الفوائد القرآنية ونوادر من الفرائد والقلائد الربانية، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
- ٧٢- المستزح المختار من الغيث المدرار المعروف بشرح الأزهار، تأليف العلامة عبد الله بن مفتاح رحمته الله تعالى، ت ٨٧٧هـ.
- ٧٣- متن غاية السؤل في علم الأصول للسيد العلامة الحسين بن الإمام القاسم بن محمد (ع) ت ١٠٥٠هـ.
- ٧٤- درر الفرائد في خطب المساجد، تأليف السيد العلامة عبد الله بن صلاح العجري رحمته الله تعالى.
- ٧٥- الكاشف الأمين عن جواهر العقد الثمين، تأليف الفقيه العلامة محمد بن يحيى مداعس (ت ١٣٥١هـ).
- ٧٦- الوشي المختار على حدائق الأزهار تأليف/ السيد العلامة الحسين بن يحيى المطهر (ع) (١٣٥٨هـ - ١٤٣٥هـ).
- ٧٧- عدة الأكياس المتزح من شفاء صدور الناس في شرح معاني الأساس، تأليف السيد العلامة أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي القاسمي رحمته الله تعالى، (٩٧٥هـ - ١٠٥٥هـ).
- ٧٨- معيار أغوار الأفهام في الكشف عن مناسبات الأحكام، تأليف الفقيه العلامة عبدالله بن محمد النجري (٨٢٥هـ - ٨٧٧هـ).
- ٧٩- البيان الشافي المتزح من البرهان الكافي، تأليف الفقيه العلامة عماد الدين يحيى بن أحمد بن مظفر (ت ٨٧٥هـ).
- ٨٠- أثمار الأزهار في فقه الأئمة الأطهار، تأليف الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين بن أحمد بن يحيى المرتضى رحمته الله تعالى (٨٧٨هـ - ٩٦٥هـ).
- ٨١- المختصر المغيث في علم المواريث، إصدارات مكتبة أهل البيت عليه السلام.

٨٢- مجموع رسائل الإمام الهادي إلى الحق، يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام، (٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ).

٨٣- شرح الأساس الكبير المسمى (شفاء صدور الناس في شرح معاني الأساس لعقائد الأكياس) تأليف السيد العلامة أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي القاسمي رحمته الله، (٩٧٥هـ - ١٠٥٥هـ).

٨٤- شقائق الأشجان، تأليف السيد العلامة المجتهد محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
٨٥- حديقة الحكمة النبوية في تفسير الأربعين السيلقية، تأليف الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (ع) ت (٦١٤هـ).

٨٦- هداية العقول إلى غاية السؤل في علم الأصول، المعروف بـ(شرح الغاية)، تأليف إمام المحققين الأعلام الحسين بن القاسم بن محمد (ع) (٩٩٩هـ - ١٠٥٠هـ).

٨٧- شفاء الأوام، تأليف الأمير الناصر للحق الحسين بن محمد (ع)، ت (٦٦٣هـ).

٨٨- البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، تأليف الإمام المهدي لدين الله أحمد بن يحيى المرتضى (ع)، ت (٨٤٠هـ).

٨٩- حاشية السحولي، تأليف القاضي العلامة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن صلاح الشجري السحولي رحمته الله، (٩٧٨هـ - ١٠٦٠هـ).

٩٠- مصباح الراغب شرح كافية ابن الحاجب، تأليف السيد العلامة محمد بن عز الدين المفتي (الكبير) رحمته الله، ت (٩٧٣هـ).

٩١- لباب الأفكار في توضيح مبهمات الأزهار في فقه الأئمة الأطهار، تأليف السيد العلامة أحمد بن حسن بن أحمد أبو علي حفظه الله.

٩٢- كتاب المنتخب، للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم (ع) (٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ).

٩٣- كتاب الفنون، للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم (ع) (٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ).

٩٤- (مجموع أهل ذمار) المسمى: تيسير الغفار لتجريد الخلاف من البيان وشرح الأزهار وبيان المذهب المختار من مجموع مجتهدى الأئمة الأطهار وشيعتهم الأبرار وسائر علماء الأمصار، تأليف القاضي العلامة عبدالله بن علي العنسي ت (١٣٠١هـ).

٩٥- مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام ت (٢٤٦هـ).
وهناك الكثير الطيب في طريقه للخروج إلى النور إن شاء الله تعالى، نسأل الله تعالى الإعانة والتوفيق.

ونتقدم في هذه العجالة بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إخراج هذا العمل الجليل إلى النور - وهم كثر - نسأل الله أن يكتب ذلك للجميع في ميزان الحسنات، وأن يجزل لهم الأجر والثوبة. وختاماً نشرف بإهداء هذا العمل المتواضع إلى روح مولانا الإمام الحجة / مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي - سلام الله تعالى عليه ورضوانه - باعث كنوز أهل البيت (ع) ومفاخرهم، وصاحب الفضل في نشر تراث أهل البيت (ع) وشيعتهم الأبرار رضي الله عنهم.

وأدعو الله تعالى بإدعائه (ع) فأقول: اللهم صل على محمد وآله، وأتمم علينا نعمتك في الدارين، واكتب لنا رحمتك التي تكتبها لعبادك المتقين؛ اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، واجعلنا هداة مهتدين؛ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [الحشر]، نرجو الله التوفيق إلى أقوم طريق بفضلته وكرمه، والله أسأل أن يصلح العمل ليكون من السعي المتقبل، وأن يتداركنا برحمته يوم القيام، وأن يحتم لنا ولكافة المؤمنين بحسن الختام، إنه ولي الإجابة، وإليه مستهى الأمل والإصابة، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دَرْجَتِي إِنَّي تُّبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

مدير المكتبة/

إبراهيم بن مجد الدين بن محمد المؤيدي

مقدمة التحقيق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ ١ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥﴾.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مثيل، ولا كفاء ولا نظير ولا عديل، ولا خلف لقوله ولا تبديل، خلق الخلق غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم؛ ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ١٥.

ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه وخليفه، أرسله رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً؛ فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً وأبداً.

ومن حبه ﷺ لأمته وحرصه على هدايتهم من بعده لم يفارق الدنيا للقاء ربه عز وجل حتى أبان لنا السبيل القويم والصراط المستقيم بقوله ﷺ: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)) فأخبرنا كيف ننقذ أنفسنا بعد مغادرته ﷺ هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية، وأرشدنا إلى ما فيه نجاتنا من بعده، وأمننا من الضلال إن تمسكنا به وذلك: كتاب الله وأهل بيته ﷺ، وفي هذا إشارة إلى أنه لا نجاة لمن ادعى أنه يتابع أحدهما إما الكتاب أو العترة فقط، وفيه إشارة عجيبة أيضاً إلى بقاء الكتاب والعترة النبوية الناطقة بالكتاب والعاملة به وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليه

ﷺ الحوض أي: حتى انقطاع التكليف، وهذا يدل على أنها (الكتاب والعترة) بيننا في كل عصر، وهذا من معجزاته ﷺ فيها نحن في القرن الخامس عشر الهجري وما زال الكتاب كما أنزله الله على محمد ﷺ لا زيادة فيه ولا نقصان، ولا دس ولا تحريف، وما زالت عترته ﷺ المستقيمة على القرآن الكريم وعلى نهج من قبلها من سلفها إلى رسول الله ﷺ موجودين بيننا ظاهرين لمن أراد أن يعرفهم ويتابعهم، لا لبس في ذلك ولا غموض.

وما هذا الكتاب (مجموع رسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام) إلا امتداد لعطاء الثقل الأصغر؛ فقد حرص علماء آل محمد ﷺ في كل عصر على تعليم الناس معالم الدين الحنيف، وتنقيته من كل زيف وتحريف، وانصبت جهودهم على حل الشبهات وتوضيح المبهات؛ فقاموا بعد جدهم رسول الله ﷺ وأبيهم أمير المؤمنين علي عليه السلام بإقامة عمود هذا الدين، يعرف ذلك من يقرأ التاريخ ويطالع السير.

وإذا طالعنا كتب التاريخ وجدنا أن منهج أهل البيت النبوي الطاهر ﷺ قد مر بعد رسول الله ﷺ بمراحل عصيبة من محاولة لطمسه أو تشويهه أو إنشاء البديل له، وجهد أعدائه في تصفية رموزه وقادته وأتباعهم، ومطاردتهم وتضييق الخناق عليهم، وما من دولة يستقيم لها الأمر إلا وجعلتهم لها غرضاً، وبالغت في محاولة إزالتهم ومنهجهم من على البسيطة.

وإمامنا القاسم بن إبراهيم (الرسي) عليه السلام هو أحد أولئك الجهابذة الأعلام الذين تعرضوا لمثل ما تعرض له سلفه وخلفه، فلقد دعا إلى الله في عام (١٩٩ هـ) بعد استشهاد أخيه الإمام محمد بن إبراهيم عليه السلام، وكان إذ ذاك بمصر بعد أن أرسله إليها أخوه محمد بن إبراهيم عليه السلام وكان عمره حينها ٢٦ سنة، فلما بلغه استشهاد أخيه دعا إلى البيعة، ولكنها لم تواته الظروف؛ فقد كانت الدولة

العباسية في أوج قوتها فيما يسمى العصر الذهبي وهو عصر هارون الملقب بالرشيد وابنه المأمون ومن بعدهما إلى أن ضعفت الدولة العباسية.

فالإمام القاسم عليه السلام ولد سنة (١٧٣هـ) وذلك في عهد هارون الملقب (الرشيد) بن المهدي المتوفى عام ١٩٣هـ، وتولى بعده ابنه الأمين، ثم في عام ١٩٦هـ خلع المأمون أخاه الأمين وفي محرم من عام ١٩٨هـ قتله، وبذلك استتب الأمر للمأمون، وكان داهية فعمد إلى قمع قائم أهل البيت النبوي الطاهر عليه السلام بشتى الوسائل من ذلك قتل الإمام محمد بن إبراهيم وغيره في عصره، وأيضاً قام بخداع كثير من أنصار أهل البيت عليه السلام ببيعته لعلي بن موسى الرضا بولاية العهد وتزويجه بابنته ثم دس إليه السم بعد ذلك، وكم فتك بأفاضلهم بهذه الأساليب الماكرة، ومن ذلك ما تذكره كتب التاريخ من أنه قام بملاحقة الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام وإرسال الجواسيس عليه وعلى شيعته ومحبيه، وكانوا تحت الرقابة الشديدة، فقد ذُكر في كتب التاريخ أنه دس رجلاً وقال له: «امض في هيئة القراء والنسك إلى مصر فادع جماعة من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا واذكر مناقبه وعلمه وفضائله ثم صر بعد ذلك إلى بعض بطانة عبدالله بن طاهر [وهو واليه على مصر] ثم اتته فادعه ورغبه في استجابته له، وابتحث عن دفين نيته بحثاً شافياً، وأتني بما تسمع منه»، وذهب ونفذ المهمة، وكم وكم مثل هذه المهام التي يتزيا من يقوم بها بلباس المتشيعين لأهل البيت الطاهرين عليهم السلام حتى يستطيعوا الفتك بهم أو بأتباعهم الخُلص كما فعلوه بإدريس بن عبدالله عليه السلام من قبل.

وقد عاصر الإمام القاسم عليه السلام دولة المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل بن المعتصم؛ لأن المأمون توفي سنة ٢١٨هـ ثم تولى بعده المعتصم بن هارون وتوفي سنة ٢٢٧هـ، ثم الواثق بن المعتصم وتوفي سنة ٢٣٢هـ، ثم تولى بعده أخوه

المتوكل بن المعتصم وتوفي سنة ٢٤٧هـ، وذلك بعد وفاة الإمام القاسم عليه السلام بسنة، وكل هذه الفترات عاشها الإمام القاسم عليه السلام وهو شريد طريد يتخفى هنا وهناك؛ فأراً بدينه إلى أن استقر في آخر أيام حياته في جبل الرس جنوب المدينة المنورة وبها مات عليه السلام سنة ٢٤٦هـ. وقد بويع له مرة أخرى في العام ٢٢٠هـ في دار محمد بن منصور المرادي.

فهذا الجانب من جوانب حياة الإمام القاسم عليه السلام يدل على أن المحن والشدائد قد صقلت شخصيته فنشأ قوياً في ذات الله، بعزيمة صادقة لا تعرف الوهن والضعف والجبن والخور، وما مقاومته للباطل في أوج قوته إلا دليل على علو همته وعظيم شأنه.

وإذا نظرنا لشخصيته عليه السلام من زاوية أخرى نجد أنه عليه السلام قد سافر إلى كثير من البلدان منها مصر والعراق والحجاز وغيرها، وقد كان هذا العصر عصر الانفتاح الفكري والثقافي من المسلمين على بقية الحضارات الأخرى واندماجهم معهم؛ فقد أنشأ المأمون دار الحكمة للترجمة للكتب وكان يقيم المناظرات بين علماء الطوائف وغيرهم؛ فكان عليه السلام ذا هممة عالية في الاطلاع على شتى المعارف والثقافات، واشتهر عنه أنه قرأ كتب أهل الأديان السماوية الأولى وغيرها من الثقافات كما ذلك ملاحظ في ردوده عليه السلام.

وبما أن هم أهل البيت عليهم السلام هو المحافظة على الدين الحنيف من أن يناله التحريف والدس - فإنهم يعملون جاهدين على دعوة الناس إلى البعد عن البدع، ويحذرونهم من الانحراف عن الدين؛ لذلك فأنت ترى الإمام القاسم يقف في هذا العصر بصلابة وشموخ محاوراً ومناظراً للملاحدة والزنادقة واليهود والنصارى والمشككين في شريعة الإسلام، ويقف مناظراً لأهل الطوائف الإسلامية الذين قد زاغوا عن الصراط المستقيم من رافضة وجبرية

وغيرهم؛ فيرد عليهم جميعاً بأسلوب علمي متين، يركز على العقل، ويستنبط الأدلة من الآيات الكونية والآيات القرآنية، ويوظف كل ذلك في توضيح المسألة غاية التوضيح لمن يناظره؛ ليكون على بصيرة من أمره، بلُغَةً قَلَّ أن تجدها عند غيره من فطاحلة العلماء في ذلك العصر وغيره.

وقد وَصَلْنَا في هذا المجموع المبارك ما نستدل به على غزارة علمه عليه السلام وطول باعه في شتى مجالات العلوم، يلمس القارئ ذلك من عباراته الجزلة العميقة المعاني؛ فيها هو يفند آراء الفلاسفة ويلجم الملاحدة الحجر؛ خائضاً في مناقشتهم حسب طرقهم، مبطلاً لحججهم، ذاكراً لخصونهم ومعاقلهم بأسلوب إقناعي شيق، سالكاً درب الحكمة والموعظة الحسنة، فصلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين من يومنا هذا إلى يوم الدين.

عملنا في التحقيق

١ - قمنا بصف الكتاب ثم مقابلته على النسخ الخطية وتصحيح الأخطاء الإملائية وغيرها، ثم تقسيمه إلى فقرات، ووضع علامات الترقيم المتعارف عليها.

٢ - قمنا بمراجعة الكتاب المصنف وقصاصته على عدة نسخ خطية، وبما أن الكتاب على شكل رسائل فإنها ليست مجموعة في نسخة واحدة، وإنما بعض هذه الرسائل والكتب يكون في أكثر من نسخة وبعضها لا يكون إلا في نسخة أو نسختين.

٣ - وأثناء التحقيق واجهتنا بعض الإشكالات في الألفاظ فقمنا بإرسالها إلى علامة عصرنا وعمدتنا وقودتنا وحجتنا سيدي محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله وأيده فحلها وأبان مشكلها، وقد وضعناها في الهامش وذكرنا اسمه بعدها؛ لتعرف هذه الحواشي وتتميز عن غيرها.

- ٤ - أثبتنا الاختلاف بين النسخ بين معقوفين ونبهنا على ذلك، وبعضها نذكر الكلمة المختلف فيها في الهامش وننبه عليها.
- ٥ - قمنا بوضع نبذة عن الكتاب، وكذلك ترجمة مختصرة للمؤلف عليه السلام.
- ٦ - ذكرنا وصفاً مختصراً للمخطوطات المعتمدة.
- ٧ - أعدنا ترتيب رسائل الكتاب وكتبه.

نبذة عن الكتاب

هذا المجموع المبارك يحتوي على كتب ورسائل عديدة يدور أغلبها حول أصول الدين، وبعضها حول تفسير بعض الآيات القرآنية، وبعضها حول الفقه، والبعض الآخر حول الوعظ وعلم الباطن.

وقد تناول الإمام عليه السلام هذه المواضيع بأسلوبه الجزل وعباراته البليغة التي صاغها لمقارعة الفلاسفة والملاحدة الذين لا يمكن الاستدلال عليهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية لإثبات الصانع وقدرته وحكمته وعدله وغير ذلك من صفاته تعالى، وسيجد القارئ أنه عليه السلام بث في هذه الرسائل من مكنون علمه ما يبهر الأبواب، وتحار فيه العقول، وتخر له الأعناق، فهو العربي الفصيح سليقة، والذي تربى في حجور العلماء الطاهرين من أهله ونهل من معينهم فأسلمت إليه العلوم زمامها وأسلمت له قيادها.

ومن تأمل هذا الكتاب وجد فيه بعض العبارات العجيبة التي فسر بها الإمام عليه السلام أشياء لم يتم اكتشافها إلا في العصر الحديث من أمثال قوله في وصف الفضاء المحيط بالأرض: «قلنا: قد قيل فيما تحت الأرض وما يحملها ويمسكها بحيث هي ويُقَلُّها أقوالٌ كثيرة غير واحدة، قالتها فرق ملحدة وغير ملحدة؛ فمنهم من قال: تحت الأرض خلاء، ومنهم من قال: تحتها هواء، ومنهم من قال: تحتها لج ماء، ومنهم من قال: ليس تحتها شيء من الأشياء».. إلى قوله:

«وقال حشو هذه الأمة المختلف الذي لا يفقه ولا يتصرف: قرار الأرض زعموا على ظهر حوت، ونعتوا حوتها في ذلك بألوان من النعوت. وأشبه هذه الأقوال عندنا بالحق، وأقرب ما قيل به فيها من الصدق - أن يكون ما تحت الأرض خلاء منفهقاً، أو هواء من الأهوية منحققاً، ليس فيها لسالكهما رد يرده، ولا للمقبل والمدبر فيها صدٌّ يصده؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء]».

فانظر إلى وصفه لما تحت الأرض بأنه قد يكون خلاء منفهقاً أو هواء من الأهوية منحققاً؛ ففرق بين الخلاء والهواء، ولم يعلم البشر أن بعد الهواء خلاء لا يوجد فيه شيء من الهواء إلا في العصر الحديث وإلا فإنهم كانوا يظنون أن هذا الهواء ممتد إلى السماء.

وأيضاً انظر لقوله: «ليس فيها لسالكهما رد يرده، ولا للمقبل والمدبر فيها صد يصده» وكأنه يصف ما يسمى الآن بالجازبية؛ لأنه إذا كان ما تحت الأرض لا يرد السالك فيه شيء من خلفه يرده إليه، أي: لا يوجد ما يسحبه إليه فيسير في الفضاء سابحاً، ولا للمقبل والمدبر فيها صد يصده والصد يكون من الأمام فكأنه يصف كيف تسير الأجسام إذا خرجت من الغلاف الجوي؛ لأن السالك فيما تحت الأرض لا يمنعه شيء عن الحركة لا من أمامه ولا من خلفه.

وكذلك في قوله: «إذ توجد بالعيان الأفلاك تمر من تحت الأرض دائرة، وتخفى بمرورها تحتها وتظهر عليها سائرة» وهذا يشير فيه إلى أن الأرض كروية.

ثم يقول: «ولا يمكن أن يكون مسيرها تحتها ومقبلها ومدبرها إلا في خلاء أو عراء أو هواء أو ماء، وأي ذلك ما كان مسيرها فيه احتاج من على الأرض من ساكنها إلى ما جعلهم محتاجين إليه، من تثقيل قرارهم بما ثقله الله من رواسي الجبال وغيرها مما ثقلها به سبحانه مما عليها من الأثقال» وهذا أيضاً مما اكتشفه

العلم الحديث من وظيفة الجبال في تثبيت الأرض.
ومن ذلك قوله: «ولو لم تستقر [أي الأرض] وتهدأ لكانت أنهارها متفجرة غير جارية» وفي هذا أيضاً إشارة إلى الجاذبية حيث يقال في العلم الحديث: إنها لو ضعفت لطار الناس والبحار والجبال في الهواء؛ وهذا هو انفجار الأنهار الذي ذكره ﷺ وأنها لا تجري، والله أعلم.

ومن ذلك قوله ﷺ: «كشجرة النار وأصول الأشجار التي هي من الأرض والماء والجو والسماء» فقد أثبت أن الأشجار تستمد من الأرض وذلك معلوم لأنها تتغذى من الطين، والماء كذلك معلوم، لكن قوله: «والجو» لم يكشف أن النباتات تنفس إلا في العصر الحديث، وقوله «والسماء» يدل على معرفته بحاجة الأشجار إلى ما في السماء من الشمس وأشعتها، وهذا أيضاً لم يكشف بعضه إلا في العصر الحديث.

مواضيع كتب هذا المجموع المبارك:

١ - إثبات مسائل أصول الدين وستجد ذلك في: كتاب الدليل الكبير - كتاب الدليل الصغير - كتاب المسترشد - كتاب العدل والتوحيد - كتاب أصول العدل والتوحيد - ومسائل في التوحيد - وكتاب تفسير العرش والكرسي - وكتاب الإمامة - وكتاب تثبيت الإمامة - وإمامة علي بن أبي طالب - والقتل والقتال - والهجرة للظالمين.

٢ - مناقشة الملاحدة وغير المسلمين وستجد ذلك في بعض الكتب السالفة، وأيضاً في: الرد على الملحد - والرد على ابن المقفع - والرد على النصاري.

٣ - مناقشة بعض الفرق الإسلامية والرد على شطحاتها، وستجد ذلك في: الرد على المجبرة - والرد على الرافضة - والرد على الرافضة من أهل الغلو - جواب مسألة لرجلين من أهل طبرستان.

٤ - ما يتعلق بالقرآن الكريم وستجد ذلك في: كتاب مديح القرآن الكبير -

- مديح القرآن الصغير - الناسخ والمنسوخ - تفسير القرآن الكريم.
- ٥ - الوعظ والزهديات وعلم الباطن، وتجد ذلك في: كتاب المكنون - سياسة النفس - العالم والوافد - وما بعدها من كلامه عليه السلام في الوعظ.
- ٦ - المسائل الفقهية، وستجد ذلك في: الطهارة - صلاة يوم وليلة - مسائل القاسم لابنه محمد بن القاسم.

ترجمة الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي عليه السلام

قال الإمام الحجة مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في كتاب (التحفة شرح الزلف) ما لفظه:

والإمام أبو محمد نجم آل الرسول، وإمام المعقول والمنقول، القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن السبط صلوات الله عليهم وسلامه. قام - لما سمع بموت أخيه الإمام محمد بن إبراهيم - بمصر سنة تسع وتسعين ومائة، ولبث في دعاء الخلق إلى الله إلى سنة ست وأربعين ومائتين.

شيء من فضائله:

وَرَدَّ عَنْ جَدِّهِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا رَوَاهُ أَثْمَتْنَا أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يا فاطمة إن منك هادياً ومهدياً ومستلب الرباعيتين^(١) لو كان نبي بعدي لكان إياه))^(٢).

وقيل للفقهاء العالم حوارِيَّ أهل البيت أبي جعفر محمد بن منصور المرادي: إن الناس يقولون: إنك لم تستكثر من القاسم بن إبراهيم، وقد طالت صحبتك له، فقال: نعم، صحبتته خمساً وعشرين سنة، ولكنكم تَظُنُّونَ أنَّا كلما أردنا كلامه

(١) - الرَّبَاعِيَّةُ كَثْمَانِيَّةٌ: السُّنُّ الَّتِي بَيْنَ الثَّيْنَةِ وَالنَّابِ ج: رَبَاعِيَّاتٌ وَيُقَالُ لِلَّذِي يُلْقِيهَا: رَبَاعٍ كَثْمَانٍ فَإِذَا نَصَبَتْ أَثْمَتٌ وَقُلْتُ: رَكِبْتُ بِرَدُونًا رَبَاعِيًّا وَجَمَلٌ وَفَرَسٌ رَبَاعٌ وَرَبَاعٌ وَلَا تَظِيرُ لَهَا سَوَى ثَمَانٍ وَيَبَانٌ وَشَنَاحٌ وَجَوَازٌ. أ. هـ ق، من المؤلف (ع).

(٢) - العقد الثمين في تبيين أحكام الأئمة الهادين للإمام الأعظم المنصور بالله (ع) ١٣٩، مآثر الأبرار (١/ ٣٤٠)، نهاية التنوية في إزهاق التمويه للسيد الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير رحمته الله ١٨٨، هداية الراغبين مذهب العترة الطاهرين ٢٥٥.

كَلَمْنَاهُ، وَمَنْ كَانَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ مَتًّا، وَكُنَّا إِذَا لَقِينَاهُ فَكَأَنَّمَا أَشْرَبَ حَزَنًا لَتَأْسَفِهِ عَلَى الْأُمَّةِ، وَمَا أَصِيبَ بِهِ مِنَ الْفِتْنَةِ مِنْ عِلْمَاءِ السُّوءِ وَعَتَاةِ الظُّلْمَةِ. وَرَوَى أَنَّهُ سَمِعَ صَوْتَ طَنْبُورٍ فِي جَنْدِهِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ هَؤُلَاءِ لَا يُتَّصَرُّ بِهِمْ، وَتَرَكَهُمْ.

دعا إلى الله في بعض الشدائد فامتلاً البيت نوراً.

صفته:

قال الإمام أبو طالب عليه السلام: كان عليه السلام تام الخلق، أبيض اللون. انتهى.

أولاده:

محمد، والحسن، والحسين، وسليمان، وعيسى، وموسى، وعلي، وإبراهيم، ويعقوب، وداود، وإسماعيل، ويحيى.

[بعض من أخذ عنه العلم]

قال الإمام أبو طالب: وله من الأصحاب الذين أخذوا العلم عنه الفضلاء النجباء، كأولاده: محمد والحسن والحسين وسليمان، ومحمد بن منصور المرادي، والحسن بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي، ويحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيدالله بن الحسين بن علي بن الحسين صاحب كتاب الأنساب، وله إليه مسائل، ومنهم: عبدالله بن يحيى القومسي العلوي، الذي أكثر الناصر للحق رضي الله عنه الرواية عنه. ومنهم: محمد بن موسى الحواري العابد، وقد روى عنه فقهاً كثيراً، وعلي بن جهشيار، وأبو عبدالله أحمد بن محمد بن الحسن بن سلام الكوفي، صاحب فقه كثير، ورواية غزيرة، انتهى كلامه عليه السلام بلفظه إلا تمام نسب يحيى بن الحسن، وهو الملقب بالعقيقي عليه السلام.

ومن مؤلفاته:

كتاب الدليل الكبير في علم التوحيد، قال الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة عليه السلام في سياق كلام في مؤلفات الإمام القاسم: ويحكي مذاهب الفلاسفة، ويتكلم

عليهم في التركيب والهيئة. وفي كتاب الرد على ابن المقفع ونقضه كلامه في الانتصار، وفي الكتاب الذي حكى فيه مناظرة الملحد بأرض مصر، وفي كتاب الرد على المجبرة، وفي كتاب تأويل العرش والكرسي على المشبهة، وفي كتاب الناسخ والمنسوخ، وفي كلامه في فصول الإمامة، والرد على مخالفتي الزيدية. وفي كتاب الرد على النصارى، وكتابه المعروف بالمكنون في الآداب والحكم، احتوى على علم واسع، وأدب جامع، ووعظ نافع.

قال عليه السلام: ومن أراد أن يعلم براعته في الفقه، ودقة نظره في طرق الاجتهاد، وحسن غوصه في انتزاع الفروع وترتيب الأخبار، فليُنظر في أجوبته عن المسائل التي سُئِلَ عنها نحو مسائل جعفر بن محمد النيروسي، وعبدالله بن الحسن الكلاري التي رواها الناصر الحسن بن علي الأطروش، وفي كتاب الطهارة، وكتاب صلاة اليوم واللييلة، وفي مسائل علي بن جهشيار، وفي كتاب الجامع الأجزاء في تفسير قوارع القرآن، وفي كتاب الفرائض والسنن، التي يرويها ابنه محمد، وليتأمل عقود المسائل التي عقدها فيها، وفي كتاب المناسك، إلى غير ذلك من الكتب فهي كثيرة مشهورة موجودة عندنا، فالحمد لله، انتهى كلام الإمام المنصور بالله عليه السلام.

قلت: واعلم أنه كان أعظم احتفال الأئمة القدماء عليهم السلام ببيان علم التوحيد والعدل، وفرائض الله التي ضلّت فيها غواة الأمم، ولم ينبُج من الغرق إلا من بحبلهم اعتصم، ولدينهم التزم، فإنهم حجج الله على خلقه، والدعاة إلى دينه، وما زالوا يقارعون على دين الله الذي أتى به جدّهم النبي المنذر، وتلاه في القيام به وتبليغه أبوهم الوصي الهادي، مؤسس قواعد الإسلام، الضارب عليه بذي الفقار هام المشركين، ومردّة الطغام، حتى أقام عمود الإسلام بذلك العصب الحسام، صلى الله عليهما وعلى عترتهما الأطائب الأعلام، فهم من باب المدينة يغترفون، ولذلك الأثر يقتفون، كما قال الإمام الناصر للحق الحسن بن علي عليه السلام:

وَعِلْمُهُمْ مُسْتَدٌّ عَنْ قَوْلِ جَدِّهِمْ عَنْ جَبْرِئِيلَ عَنِ الْبَارِي إِذَا قَالُوا
وهذا الإمام وأخوه الإمام محمد بن إبراهيم هما المجددان في رأس المائتين.
توفي الإمام القاسم وله سبع وسبعون سنة^(١)، ووالدهما إبراهيم بن إسماعيل
يلقب طباطبا. قال بعض السادة المحققين: معناه سيد السادات. اهـ (بلفظه من
التحف شرح الزلف).

[نبذة عن الاجتماع التاريخي لبيعة الإمام القاسم بن إبراهيم (ع)]

وذكر الإمام الحجة مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في كتابه (لوامع الأنوار)
بيعة الإمام القاسم في العام ٢٢٠ هـ نقلاً عن محمد بن منصور المرادي قال فيه: قال
-أي محمد بن منصور المرادي-: كنت في منزلي بالكوفة، سنة عشرين ومائتين
كثيراً حزينا؛ لما فيه آل محمد ﷺ وما فيه شيعتهم؛ حتى استأذن عليّ أبو
عبدالله، أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي (ع) فاستقبلته،
وأدخلته منزلي، ورحبت به، وسرّرتي سلامته من البصرة، ثم ما شعرت بشيء،
وأنا في الحديث معه، والتوجع لما فيه أمة محمد ﷺ حتى استأذن عليّ أبو
محمد، القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسي (ع)، فاستقبلته وأدخلته، ورحبت
به، وسرّرت بسلامته من الحجاز.

[ثم ذكر قدوم عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن (ع) من الشام، ثم
دخل أبو محمد الحسن بن يحيى بن الحسين بن زيد (ع).. إلى قوله]: قال محمد بن
منصور: وهؤلاء الذين كانوا يشار إليهم، ويفزع السلطان منهم، وقد امتنعوا من
الحضور عندهم وفي مجالسهم، وأخذ عطاياهم.

(١)- كذا في الشافي (١/ ٧٦٤) وغيره، والذي يفيد ما سبق في ذكر أخيه من أن عمره كان ستاً
وعشرين في سنة تسع وتسعين ومائة، وأن وفاته سنة ست وأربعين ومائتين أن عمره ثلاث
وسبعون سنة. المؤلف (ع).

[إلى قوله بعد قضاء صلاتهم:] فلما انفتلوا مدوا أرجلهم، كل واحد على سجادته يتحدثون ويغتمون لأمة محمد ﷺ وما هم فيه من الجور والظلم؛ فقمْتُ وقعدتُ على عتبة الصَّفَّة؛ ليراني جماعتهم وبكيتُ وقلت: يا سادة، أنتم الأئمة، وأنتم أولاد رسول الله ﷺ وأولاد علي وفاطمة - صَلَوَاتُ الله عَلَيْهم أجمعين - وأنتم المشار إليكم؛ وأنتم أهل العقد والحل، وأنتم العلماء والأئمة، من ذرية النبي ﷺ وولد الوصي (ع)، قد اجتمعتم، وجمع الله بينكم، ونحن بلا إمام، ولا لنا جمعة، ولا جماعة، ولا عيد فارحموا كبر سني، واعملوا فيما يقربكم إلى الله - عزَّ وجلَّ - وبايعوا واحداً منكم، أعلمكم وأقواكم، حتى يكون الرضاء منكم، ترضون به الإمام، لي ولأمثالي وللمسلمين؛ ولانموت ميتة جاهلية، بلا إمام، ويكون لنا إمام نطيعه ونعرفه، ونموت بإمام.

فقالوا: صدقت أيها الشيخ، ما أحسن ما قلت! وإن لك ملتنا ولحمنا ودمنا، وأنت منا أهل البيت، وما نطقت به فهو الصواب، ونحن نفعله بإذن الله، إن شاء الله.

قال: فقلت: فرحوني، ولا تبرحوا حتى تبرموا، ولا تؤخروه إلى مجلس آخر؛ فإننا لا نأمن من الحوادث. [ثم ذكر أن القاسم ﷺ عرض عليهم البيعة جميعاً فأبوها وأنهم أجمعوا أنه لهم رضا وبايعوه.. إلى قوله] قال محمد بن منصور: وخفت أن يفوتنا وقت صلاة العصر ولم يبرموا، حتى انتبذ أحمد بن عيسى القاسم بن إبراهيم، وأخذ يده، وقال: قد بايعتك على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وأنت الرضا. فجعل القاسم يقول: اللهم غَفْراً، اللهم غَفْراً، ثم بايعه عبدالله بن موسى، والحسن بن يحيى، ورضوا به، وقالوا لي: بايع، فقمْتُ وبايعتُ القاسم بن إبراهيم، على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، ثم قال لي القاسم: قم يا أبا عبدالله، وأذن وقل فيه: حي على خير العمل؛ فإنه هكذا نزل به جبريل (ع) على جدنا محمد ﷺ؛ فقمْتُ وأذنتُ وركعتُ وأقمْتُ؛ فتقدم القاسم (ع) فصلى بنا جماعة، صلاة

العصر، وباتوا عندي تلك الليلة، وصلّى بنا المغرب والعشاء جماعة؛ فلما أصبحوا تفرّقوا، ومضى القاسم بن إبراهيم إلى الحجاز، وأحمد بن عيسى إلى البصرة، وعبدالله بن موسى إلى الشام، ورجع الحسن بن يحيى إلى منزله، وكانوا على بيعة القاسم (ع)، انتهى [من لوامع الأنوار باختصار].

[ومن كتاب نهاية التنويه في إزهاق التمويه]

قال المؤلف: وروى الفقيه حميد رضي الله عنه عن الإمام المنصور بالله عليه السلام، يرويه عن آبائه إلى شيخ من شيوخ آل الحسن، كان يدرس عليه فتیان آل الحسن، وكان إذا دخلوا قام في وجوههم وعظّمهم، وأقسموا عليه لا فعل، وكان القاسم عليه السلام من شباب ذلك العصر، فكان إذا أتى قام في وجهه وعظّمه، فقالوا: أيها السيد إنا قد عذرناك وهذا الفتى لك أعذر، فقال: لو تعلمون من حق هذا الفتى ما أعلم، لاستصغرت ما أصنع في حقه، قالوا: وما تعلم؟ قال: هذا الفتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((يخرج من ذريتي رجل مسلوب الرباعيتين، لو كان بعدي نبي لكان هو)). وفيه يقول الشاعر من أبيات اختصرت أكثرها:

ولو أنه نادى المنادي بمكة بخيف منى فيمن تضم المواسم
من السيد السباق في كل غاية لقال جميع الناس لا شك قاسم
وله عليه السلام العلم الغزير، والتصانيف الفائقة في علم الكلام وغيره من الفنون، منها كتاب "الدليل الكبير"، ومنها كتاب "الدليل الصغير" في الرد على الفلاسفة، وكتاب العدل والتوحيد الصغير، وكتاب العدل والتوحيد الكبير، وكتاب الرد على المجبر، وكتاب الرد على ابن المقفع، وكتاب الرد على النصاري، وكتاب المسترشد، وكتاب تأويل العرش والكرسي على المشبهة، وكتاب الأهليلة في محاورة الملحد، وهو رجل من أرباب النظر من الملحدة، كان يغشى مجالس المسلمين ويورد عليهم الأسئلة الصعبة في قدم العالم، وغير ذلك، حتى وافاه

الإمام عليه السلام، وأورد ما عنده من المشكلات، فَوَضَّحَ له الحق، فتاب إلى ربه تعالى، ثم قال: تعست أمةٌ ظلت عن مثلك. ودخل جعفر بن حرب على القاسم عليه السلام وكان من شيوخ المعتزلة، فجاراه في دقائق علم الكلام، فلما خرج من عنده قال: أين كنا من هذا الرجل، فوالله ما رأيت مثله.

ومن تصانيفه عليه السلام، كتاب تثبيت الإمامة؛ في نصره مذهب الزيدية في تقديم أمير المؤمنين عليه السلام على المشائخ، وأورد من الأسئلة العجيبة في هذا المعنى على المتقدمين عليه ما يشهد على أنه البحر الزخار، والقمر النوار، والغمام المدرار، وتصانيفه عليه السلام في الفقه أكثر من أن تذكر، منها كتاب الفرائض والسنن، وكتاب الطهارة، وكتاب صلاة اليوم واللييلة، ومسائل ابن جهشيار، وكتاب النيروسي، وله عليه السلام في علوم القرآن مالميس لغيره، إذا أخذ يتكلم فيها فكأنه فنه الذي عليه نشأ، وله كتاب الناسخ والمنسوخ، وله في المواعظ والآداب كتاب سياسة النفس، فصل من فصوله يشفي كل غله، ويُبْرِئُ كل علة، بالغ عليه السلام في التزهيد في الدنيا وذمها، والترغيب في دار الخلود ووصفها، وحذر فيه وأنذر، وجمع فيه ما انتشر، من المواعظ، والآداب، والحكم، والوصايا، والملح، والنوادر، والأمثال، والغريب، ما لم يحيط كتاب بمثله.

قال الفقيه الديلمي رحمته الله: ورد في القاسم بن إبراهيم عليه السلام أحاديث كثيرة، وتصانيفه تشهد له بالعلم والفضل، وكان فصيحاً متكلماً، وكان الناصر عليه السلام يقول: لو جاز قراءة شعر أحد في الصلاة لكان شعر القاسم عليه السلام. قلت: لعل الناصر عليه السلام أراد بما قال أن شعر القاسم عليه السلام مشتمل على المواعظ والحكم والحث على طاعة الله سبحانه، والترغيب في الزهد، وقمع الشهوات، وإيثار الآخرة على الأولى، ولباس شعار الصبر في البأساء والضراء، كما روي: أن المأمون أرسل إليه عليه السلام بوقر سبعة أبغُل دنانير على أن يجيبه بكتاب، أو يبتديه

بكتاب فأبى القاسم ذلك، وأمر برد المال بعد أن وصل إليه، فلامته عليه السلام امرأته في ذلك، فقال عليه السلام هذه الأبيات:

تقول التي أنا عرس لها	وقاء الحوادث دون الردى
ألست ترى المال مُنهلة	مخارم أفواهها باللهها
فقلت لها وهي لؤامة	وفي عيشها لو صحت ما كفى
كفاف امرئ قانع قوئه	ومن يرض بالقوت نال الغنى
فلاني وما رمت في نيله	وقبلك حب الغنى ما ازدهى
كذي الداء هاجت له شهوة	فخاف عواقبها فاحتمى
وله عليه السلام في مثل ذلك:	

وعاذلة تـؤرقني	وجنح الليل معتلج
فقلت رويد عاتبة	لكل مهمة فـرج
أسرك أن أكون رتـعـ	ت حيث المال والبهج
وأني بت يصـهرني	بحر فراقه وهـج
فأسلب ما كلفـت به	ويبقى الوزر والـحـرج
ذريني خلف قاصية	تضايق بي وتنـفـرج
ولا تـرمين بي غرضاً	تطـاير دونـه المهـج
إذا أكدى جنى وطنـ	فلي في الأرض منـفـرج

وروى السيد أبو طالب عليه السلام عن الهادي عليه السلام أن بعض العلوية توسط بين المأمون والقاسم في أن يجيب عن كتابه ببال عظيم، فقال القاسم عليه السلام: لا يراني الله أفعل ذلك أبداً، ورد المال حين وصله كما تقدم.

ومن تصانيفه عليه السلام: كتاب المكنون في الوصايا والآداب، الجامعة للدين والدنيا.

نبذة مختصرة عن النسخ المعتمدة

اعتمدنا في تحقيق هذا المجموع المبارك على عدة مخطوطات كان أهمها ما أشرنا إليه بـ (أ، ب، ج) وهناك غيرها بعضها فيه أغلب الكتب والرسائل المذكورة وبعضها ينفرد بذكر رسالة أو رسالتين، وهذا وصف هذه النسخ وما لم نصفه فقد أضفنا صورة من أول كل مخطوطة تدل عليها.

١- النسخة (أ): وهي مكتوبة بخط لا بأس به قال في صفحة العنوان: «كتاب مجموع من كتب الإمام العالم القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الطاهرين، يشتمل على تسعة عشر كتاباً من كتبه صلى الله عليه وآله أولها الدليل الكبير ويجمع أيضاً فصولاً من كلامه عليه السلام غير ذلك»، ثم عدد الكتب الموجودة في المجموع ولكن على بعضها طمس لم نستطع قراءته.

ويبدو أن هذه النسخة قديمة جداً، ففي نهاية كتاب (مسائل في التوحيد) الصورة رقم (٢٩٤) ما لفظه: تمت الأصول والحمد لله وحده وصلى الله على نبيه محمد وآله الأئمة الطاهرين وسلم عليهم أجمعين. صادف الفراغ منه سلخ شعبان من شهور سنة أربع وأربعين وخمسمائة غفر الله لصاحبه وكتبه ولمن قال آمين ولجميع المسلمين. ثم قال: ومن كلامه عليه السلام في التوحيد... إلخ.

أما الصفحة الأخيرة فلم يتضح تاريخ الانتهاء من كتابة المخطوط لضعف الخط. وقد وجدنا في هذه النسخة أن كتاب (الدليل الصغير) غير الذي في بقية المخطوطات، وقد وجدنا مثله أيضاً في مصورتين من الجامع الكبير بصنعاء برقم (٧٠٩) و (٧٧١)؛ فلذلك أثبتنا الاثنين كليهما.

٢- النسخة (ب): وهي مكتوبة بخط جيد قال في صفحة العنوان: كتاب الإمام الجليل الأكرم النبيل نجم آل الرسول وسيد أبناء الوصي والبتول القاسم

بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين. وهو يشتمل على ثمانية وعشرين باباً. ثم عدّها وأولها: الدليل الكبير، وآخرها: كتاب المديح الصغير للقرآن الكريم.

وفي الصفحة الأخيرة: تم كتاب الأصول وبتمامه تم كتاب المجموع بمن الله وعزه في العشر الأولى من شهر شعبان الكريم من شهور سنة ١٠٦٦هـ ست وستين وألف والله حسبنا وكفى. مما كتبه لنفسه العبد الفقير إلى عفو ربه [علي بن محمد حميد الدين وفقه الله / ظ] بمحروس الحصن من أعمال ضوران.

٣- النسخة (ج): وهي نسخة مصورة من الجامع الكبير بصنعاء مرقمة برقم (٧١٢)، وهي مكتوبة بخط جميل وواضح سرد في أولها ما تضمنه المجموع من كتب ثم صفحة الغلاف وعليها تمالك كثيرة.

وقال في آخرها: كان الفراغ من تحصيل الكتاب المبارك يوم الأحد السابع عشر يوماً من شهر محرم الحرام سنة (١٠٨٠) ثمانين بعد الألف من هجرته صلى الله عليه وعلى آله وسلم. هذا، ونسأل الله أن يرزقنا طاعته ويرزقنا الثبات والسداد وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وأن يجزي عنا أئمة أهل البيت عليهم السلام وأشياهم رضي الله عنهم ممن نقل إلينا الدين خير الجزاء، وأن يجزل الأجر والمثوبة لكل من بذل الجهد وضحى بوقته وجهده وتعب وصبر وثابر في إخراج هذا الكتاب وغيره من الكتب وأن يجعله في ميزان حسنات الجميع، وأن يرزقنا الإخلاص إنه على ما يشاء قدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

قسم التحقيق

مكتبة أهل البيت عليهم السلام

١٤ / ربيع الأول / ١٤٤٥هـ

صور من المخطوطات المعتمدة

صفحة الغلاف من النسخة (أ)



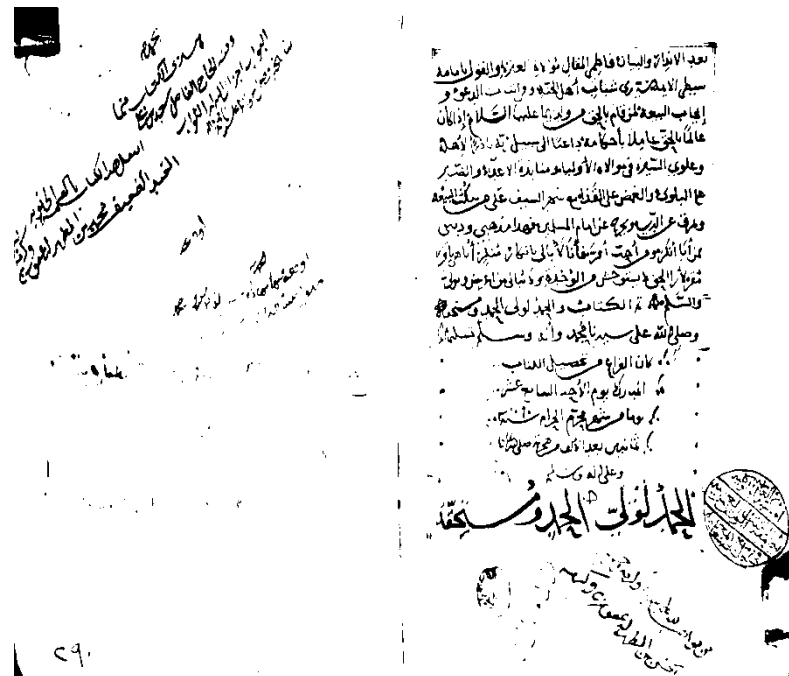
الصفحة الأخيرة من نخ (أ)



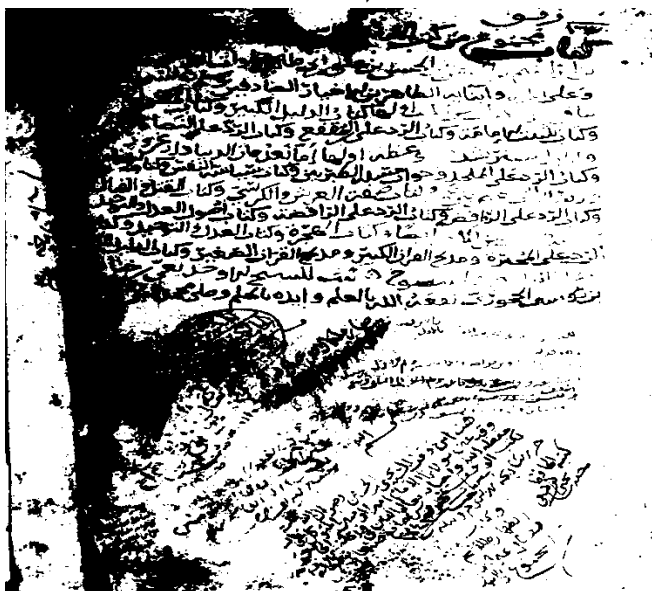
الصفحة الأولى من النسخة (ج):



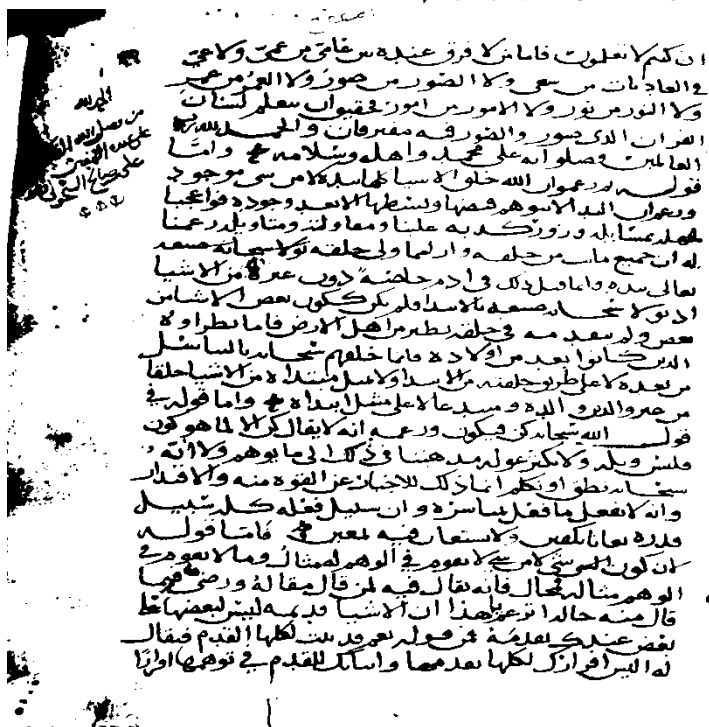
الصفحة الأخيرة من النسخة (ج):



٣- مصورة من الجامع الكبير برقم (٧١٠):



٤- مصورة من الجامع الكبير برقم (٧٧١):



٥- نسخة تحتوي على الناسخ والمنسوخ فقط:

كلام الناسخ والمنسوخ
والمبدل والمختار والمنشأ المنقول
العاسم بن ابراهيم عليه وعلى ابيه السلام

سبح الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي جعل في كل كلمة كلامه ولعمري الحمد
في الامور كلها احكامه في حكمه افعاله في اصول وقوله فانور
القول وعلى قدر بعده من شبيه الخلق في التعال والخلال بعد
منه في شئ من شئ من المفاصل فكان قوله نورا وهذا
وزوا وحكمه كله من المفاصل وحاشا لغيره فلو دخل قوله عوج ولا
اود ولا يلزمه جوة ولا ظلم مقتد كله وتبد ونور وحياه وحاشا
ونور ومصلحة ولا يحسن حتى يروجه في الدنيا ليرت فيها فضلا
انه او من غايه في دنياه غايه في اخرية فورا الحمد لله نزل الله
لنحتم به كتابا وفراغا فاني يتنزه فيه كل نبينا كما
قال سبحانه نزلنا عليه وعلى آله ونزلنا عليك
الكتاب بما نازلنا في هدى وتزجده ونسب الامم لغيره فليتب

٦- نسخة فيها مديح القرآن الصغير والكبير فقط:

صاحب النسخ الحسن بن احمد بن محمد بن ابراهيم

في مديح القرآن
سبحنا اني محمد العاسم بن ابراهيم عليه السلام

الحمد لله الذي جعل في كل كلمة كلامه ولعمري الحمد
في الامور كلها احكامه في حكمه افعاله في اصول وقوله فانور
القول وعلى قدر بعده من شبيه الخلق في التعال والخلال بعد
منه في شئ من شئ من المفاصل فكان قوله نورا وهذا
وزوا وحكمه كله من المفاصل وحاشا لغيره فلو دخل قوله عوج ولا
اود ولا يلزمه جوة ولا ظلم مقتد كله وتبد ونور وحياه وحاشا
ونور ومصلحة ولا يحسن حتى يروجه في الدنيا ليرت فيها فضلا
انه او من غايه في دنياه غايه في اخرية فورا الحمد لله نزل الله
لنحتم به كتابا وفراغا فاني يتنزه فيه كل نبينا كما
قال سبحانه نزلنا عليه وعلى آله ونزلنا عليك
الكتاب بما نازلنا في هدى وتزجده ونسب الامم لغيره فليتب

٧- نسخة فيها الوافد على العالم:

١٢
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ وَصَلَّى
 اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ الْأَمِيرِ الْأَعْزَمِ الْأَمِينِ
 مِنْ عَالَمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا نَزَلُوا إِلَيْهِ
 الْوَافِدُ نَظَرَ رَجُلًا جَسَدَهُ لَا يَشْبَهُ اسْمَهُ فَلَمْ عَلَيْهِ فَرَدَّ الْعَالَمُ السَّلَامَ
 وَأَطْلَعَ الْوَافِدَ الْوَقُوفَ وَأَطْلَعَ الْعَالَمَ السَّكُوتَ فَقَالَ الْوَافِدُ
 إِنَّ لِكُلِّ طَالِبٍ حَاجَةً فَقَالَ الْعَالَمُ لِكُلِّ كَلَامٍ جَوَابٌ فَقَالَ
 الْوَافِدُ صَدَقْتَ إِنَّ اسْمَهُ سَمَاعَةُ يَقُولُ فَاسْلُؤُوا أَهْلَ الذِّكْرَانِ
 كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَعَلِمَ الْعَالَمُ إِنَّهُ بِرَيْثِهِ تَلَمَّا فَقَالَ لَهُ الْعَالَمُ
 إِنَّ الْعِلْمَ عَجْرٌ عَمِيقٌ فَقَالَ الْوَافِدُ وَكُلُّ عَجْرٍ سَفِينَةٌ يَتَجَوَّاهَا
 رَاكِبُهَا فَقَالَ الْعَالَمُ وَمَا سَفِينَةُ عَجْرٍ الْعِلْمُ فَقَالَ الْوَافِدُ أَعْرِفْ
 فَقَالَ الْعَالَمُ أَعْرِفْ اسْمَهُ امْرُوسَمُ قَالَ الْوَافِدُ اسْمُهُ وَرَسْمُهُ قَالَ
 الْعَالَمُ كَمْ رَسْمٍ الْمَعْرِفَةُ قَالَ الْوَافِدُ كَمْ مَعْرِفَةٍ مِنْهَا جَسَدٌ قَالَ
 الْعَالَمُ وَمَا هُوَ قَالَ الْوَافِدُ تَعْرِفُ نَفْسَكَ وَتَعْرِفُ رَبَّكَ وَتَعْرِفُ
 دِينَكَ وَتَعْرِفُ دُنْيَاكَ وَتَعْرِفُ آخِرَتَكَ وَأَنْ أَعْرِفَ ذَلِكَ كُلَّهُ
 فَلَا حَاجَةَ لَكَ إِلَى عِلَاقَةٍ قَالَ الْعَالَمُ كَيْفَ تَعْرِفُ نَفْسَكَ قَالَ الْوَافِدُ
 فَمَا أَعْرِفُ حَدِّثْنِي مَا أَعْرِفُ صَنَعْتُهَا وَأَعْرِفُ عَجْرَهَا فَاجْهَدْهَا
 فِي طَاعَةِ رَبِّهَا وَاجْهَلْهَا عَلَى الْخَوْفِ بِحَالِهَا وَأَحْمَلْهَا فِي إِحْسَانِهَا
 عَلَى الطَّلَبِ لِمَا فِيهَا وَاجْهَلْهَا وَأَصْرِفْهَا مِنَ الْكُذْبِ إِلَى الصِّدْقِ وَمِنَ
 الطُّغْيَانِ إِلَى الْوَرَعِ وَمِنَ الشُّكِّ إِلَى الْيَقِينِ وَمِنَ الشُّرْكِ إِلَى الْإِخْلَاصِ
 وَاجْهَلْهَا مِنْ مَحَبَّةٍ فِي الدُّنْيَا وَارْضَ بِهَا فِي الْآخِرَةِ حَتَّى تَنَالَ كَرَامَتَهُ

السند إلى مؤلفات الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام

يروى والدنا الإمام الحجة مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي عليه السلام جميع كتب ومؤلفات الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام عن والده السيد العلامة محمد بن منصور المؤيدي رضي الله عنه، وهو عن الإمام المهدي لدين الله، محمد بن القاسم الحسيني، عن شيخه السيد الإمام محمد بن محمد الكبسي، عن شيخه السيد الإمام محمد بن عبد الرب، ويروي الإمام المهدي محمد بن القاسم ذلك وغيره عن شيخه الإمام المنصور بالله محمد بن عبدالله الوزير، عن شيخه السيد الإمام أحمد بن زيد الكبسي، عن شيخه السيد الإمام محمد بن عبد الرب، والسيد الإمام محمد بن عبد الرب يروي ذلك وغيره عن عمه العلامة إسماعيل، عن أبيه العلامة محمد، عن أبيه العلامة زيد، عن أبيه الإمام المتوكل على الله إسماعيل، عن أبيه الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد، عن السادة الأعلام: إبراهيم بن المهدي القاسمي، وأمير الدين بن عبدالله المطهري، وصلاح بن أحمد بن عبدالله الوزير، ثلاثتهم عن السيد الإمام أحمد بن عبدالله الوزير، عن الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين عليه السلام، عن القاضي العلامة علي بن أحمد، عن القاضي العلامة علي بن زيد رضي الله عنه عن الإمام المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي، عن الفقيه نجم الدين يوسف بن أحمد، عن الفقيه شرف الدين الحسن بن محمد النحوي، عن الفقيه عماد الدين يحيى بن حسن البحيح رضي الله عنه عن الأمير الخطير المؤيد بن أحمد، عن الأمير الكبير الناصر للحق الحسين بن بدر الدين محمد عليه السلام، عن الشيخ محيي الدين عطية بن محمد، عن الأميرين الداعيين إلى الله تعالى شيتي الحمد شمس الدين وبدره: يحيى ومحمد ابني أحمد بن يحيى بن يحيى عليه السلام، عن القاضي شمس الدين جعفر بن أحمد رضي الله عنه، عن القاضي أحمد بن أبي الحسن الكني، عن أبي الفوارس توران شاه، عن أبي علي بن أموج، عن القاضي زيد بن محمد، عن علي خليل، عن القاضي يوسف الخطيب رضي الله عنه، عن الإمام المؤيد بالله، والإمام أبي طالب، عن السيد أبي العباس، عن السيد الإمام علي بن العباس الحسني، عن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عن أبيه

الحسين عن أبيه القاسم بن إبراهيم عليه السلام.

ويروي الإمامان المؤيد بالله وأبوطالب وأبو العباس الحسيني عن السيد الإمام يحيى الهادي بن الإمام المرتضى محمد بن يحيى، عن عمه الإمام الناصر للدين أحمد بن يحيى، عن والده إمام اليمن محيي الفرائض والسنن أمير المؤمنين الهادي إلى الحق القويم، يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عن أبيه الحسين عن أبيه القاسم بن إبراهيم عليه السلام جميع كتبه ومؤلفاته.

ويروي الإمام الحجة مجد الدين بن محمد المؤيدي عليه السلام عن والده رضي الله عنه،
 عن الإمام المهدي لدين الله محمد بن القاسم، عن الإمام المنصور بالله محمد بن عبد الله الوزير، عن مشائخه السادة الأعلام: أحمد بن زيد الكبسي، وأحمد بن يوسف زبارة، ويحيى بن عبد الله الوزير، ثلاثتهم عن السيد الإمام الحسين، عن أبيه يوسف، عن أبيه الحسين بن أحمد زبارة الحسيني، عن السيد العلامة عامر بن عبد الله بن عامر، عن الإمام المؤيد بالله محمد، عن أبيه الإمام القاسم بن محمد، عن السادة الأعلام: أمير الدين بن عبد الله، وإبراهيم بن المهدي، وصالح بن أحمد بن عبد الله الوزير، عن السيد الإمام أحمد بن عبد الله الوزير، عن الإمام شرف الدين، عن الإمام محمد بن علي السراجي، عن الإمام عز الدين بن الحسن، عن الإمام المطهر بن محمد، عن الإمام المهدي أحمد بن يحيى عليه السلام، عن أخيه الهادي بن يحيى، وشيخه محمد بن يحيى، عن القاسم بن أحمد بن حميد الشهيد، عن أبيه، عن جده، عن الإمام المنصور بالله عز وجل عبد الله بن حمزة عليه السلام، عن محيي الدين محمد بن أحمد القرشي رضي الله عنه، عن الإمام المتوكل على الرحمن أحمد بن سليمان عليه السلام، عن الشيخ الأجل إسحاق بن أحمد، عن عبد الرزاق بن أحمد، عن الشريف علي بن الحارث، وأبي الهيثم يوسف بن أبي العشرة، عن الحسن بن أحمد الضهري إمام مسجد الهادي، عن محمد بن أبي الفتح رضي الله عنه، عن الإمام المرتضى لدين الله محمد، عن أبيه إمام الأئمة وهادي الأمة أمير المؤمنين وسيد المسلمين الهادي إلى الحق المبين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عن أبيه الحسين عن أبيه القاسم بن إبراهيم عليه السلام جميع كتبه ومؤلفاته.

الدليل الكبير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وبه نستعين، وصلواته على خير خلقه أجمعين، سيدنا محمد وأهل بيته الطاهرين، وسلم تسليماً.

قال الحسين بن القاسم بن إبراهيم: سألت أبي يوماً رحمة الله عليه، عما يقال للزنادقة والملحدون فيما يسألون عنه من الدليل على الله رب العالمين، تقدست أسماؤه وجل ثناؤه؟

فقال: سألت يا بُنيَّ عن أكرم مسائل السائلين، وعما بجهله هلك أكثر قدماء الأولين، فتخطب فيه منهم عمايةً من تخطب، وأفرط بجهله فيه منهم من أفرط، بغير ما حجة ولا برهان لمنكرهم في إنكاره، ولا عدم دليل مبين فيما هلك به من اختياره، إلا ما اتبعوا من مضل أهواء الأنفس وضلوا به لتقليد أسلافهم من غواية الجن والإنس.

وحجج الله عليهم تبارك وتعالى في العلم به قائمة ظاهرة، وشواهد معرفته سبحانه لكل من خالفها بإنكار أو اختيار غالبية قاهرة، فالحمد لله ذي الغلبة والسلطان القاهر، ولمعرفته والعلم به الحجة والبرهان الزاهر.

فدليل العلم بالله يا بني وعِصَم أسبابه، وأقرب ما جعل للعلم به من مداخل أبوابه ما أظهر في الأشياء سبحانه من آثار الحكمة المتقنة التي لا تكون إلا من مؤثر متقن، وأبان في الأشياء من شواهد التدبير الحسنة المحكمة التي لا تكون إلا من حكيم محسن، كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٩ ﴿[السجدة]، فكل ما ذكر سبحانه فجعائل لا بد لها من جاعل، وفعائل لا تقوم أبداً إلا بفاعل، ولن يوجد جاعلها وفاعلها إلا الله سبحانه ذو الأسماء الحسنی، البري من مشابهة الجعائل

والفعائل في كل معنى.

ومن أسباب العلم به ودلائله، بعد الذي أبان من أثر التدبير في جعائله، أوثق وثائق الأسباب، مما فطر عليه بنية الألباب من العلم البت واليقين المثبت الذي لا يعترى فيه -بحقيقة- شك ولا مرية، ولا تعترض فيما جعل من بصائره شبهة معشية من أن لكل ما أحس أو عقل مما أثر سبحانه وجعل خلافاً متيقناً معلوماً لا تدركه الحواس ولا الوهوم، يُعَقَّل ويُعَرَفُ بخلاف ما عقلت به الأشياء وعرفت، فتخالفه ويخالفها بغير ما به في نفسها اختلفت، فهذان أصلاً مجملان، لمعرفة الله عز وجل ثابتان، وشاهدان عدلان على العلم بالله باتان.

ولن يخلوا العلم بالله والوصول إلى المعرفة بالله من أن يكون:

مدرکاً بمباشرة حس فيكون كمحسوس.

أو يدرك بمباشرة^(١) نفس فيكون كبعض ما يدرك من النفوس. وليعلم من وصل إليه كتابنا هذا في ذكر درك النفس أن فلاسفة الروم يزعمون أن للنفس دركاً ليس بدرك الحواس ولا درك الوهوم، ولا سيما عندهم إذا كانت النفس معرّة من الأجسام، ومبرأة مما هي عليه من أوعية الأجرام.

أو يدرك من وهم جائل فيكون كمتوهم بالمخايل.

أو يكون دركه سبحانه بظن فيكون دركه كالممتظن الذي يصيب فيه الظن مرة ويخطي، ويسرع الممتظن بظنه فيه وييطي.

أو يدرك من دليل مبین فيكون مدلولاً عليه بيت يقين.

أو يكون مدرکاً سبحانه بحال واحدة دون أحوال، أو بما يمكن اجتماعه من كل ما وصفنا من الخلال.

أو مدرکاً بجميع ما قلنا وحددنا ووصفنا من الأمور كلها وعددنا.

(١) في (أ): أو يدرك من مباشرة.

أو مدركاً سبحانه بخلافه لكل محسوس الأشياء ومعقولها، في جميع ما يدرك من فروع الأشياء وأصولها.

وهذا الباب من خلافه سبحانه لأجزاء الأشياء كلها فيما يدرك من فروع الأشياء جميعاً وأصلها فما لا يوجد أبداً إلا بين الأشياء وبينه، ولا يوصف بها أبداً غيره سبحانه. وهي الصفة التي لا يشاركه عز وجل فيها مشارك، ولا يملكها عليه تعالى مالك.

ولا يعم جميع الأشياء اختلاف عمومها، ولا تصحح الألباب إلا لله معلومه؛ لأنه وإن وقع بين الأشياء ما يقع من الاختلاف فلن يوجد واقعاً إلا بين ذوات الأوصاف، وكل واحد منها وإن خالف غيره في صفة فقد يوافقه في صفة أخرى، كان مما يعقل أو كان مما يلمس أو يرى. فإن اختلف محسوسان في لون أو طعم اتفقا فيما لهما من حدود الجسم، وإن اختلف معقولان في فعال أو همة اتفقا فيما يعقل من أصولهما المتوهمه، كالملائكة والإنس والشياطين التي أصولها في النفسانية واحدة متفقة، وهمها وأفعالها مختلفة مفترقة.

فههم الملائكة الإحسان والتسبيح، وهمم الشياطين العصيان والقبیح، وهمم أنفس الإنس فمختلفة كاختلافها في قصدها وإسرافها، فتحسن مرة وتبر، وتسيء تارة وتشر.

وكل خلق من الملائكة والإنس والشياطين فقد جعل الله له صفة متممة ذاتية بها بان بعضهم من بعض، وكانت لكل من جعلها الله له خاصة صنفية، فهي لهم وبينهم ولكلهم اختلاف، وكلهم بها وبها جعل الله منها أصناف، بعضهم غير بعض، كما السماء غير الأرض.

وليس من وراء ما قلنا في الدرك لمعرفة الله والوصول إلى العلم بالله قول، ولا بعد الذي عددنا وحددنا في أصول المعارف بالله أصل معقول.

ولا بد من النظر لمن أراد يقين المعرفة بالله في تصحيح كل ما وصفنا صفة بعد

صفة في معرفة الله، ليأتي المعرفة بالله من بابها، وليسلم بذلك من شكوك النفس وارتياها، فإنه لن تزكو نفس ولن تطيب، ولن يهتدي امرؤ ولن يصيب، اعتلج في صدره بالله ريب مريب، ولا كان فيه لشك في الله نصيب.

فنستعين بالله على معرفته ويقينها، ونرغب إليه في يقين أوليائه ودينها، فإن ذلك ما لا يثبت لمن ادعاه بدعوى غير ذات بينة ولا أصل، فضلاً عما كذب دعواه في ذلك من العامة بسوء الفعل، فقال: أعرف الله بلسانه، وكذب ما ادعى من المعرفة له بكبير عصيانه.

فإذا قيل له: بم عرفت ما تزعم، ومن أين علمت ما تقول إنك تعلم؟ قال: سبحان الله! ومن يجهل الله؟! وهل يُسأل أحد عن معرفة الله؟ وليس عنده من وجوه المعارف التي عددنا كلها وجه، ولا له في الجهل بالله لفاحش عصيانه مثل ولا شبه، يقول أبدأ فيكذب، ويخوض أبدأ ويلعب، فقله خوض وزور، وفعاله فساد وبور، لا يصدق قوله بفعال، ولا يَقُوم دعواه إلا بمحال لا يفهمه عنه ليب، ولا يُصَوَّب مذهبه فيه مصيب، كالبهيمة المهملّة الراتعة التي لا همة لها إلا في مأكّل أو متعة، كما قال الله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله^(١): ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد]، وقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف]، وقال سبحانه: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر].

فنعوذ بالله - يا بني - من مثل حالهم، ونرغب إليه في السلامة من سوء فعالهم، وحسبنا الله في معرفته دليلاً وداعياً، وموفقاً سبحانه للعلم به وهادياً. فأول باب وصفناه من دركه سبحانه بمباشرة الحس، والباب الثاني من دركه

(١) في (أ): كما قال الله عز وجل.

سبحانه بمباشرة النفس، ففساد أن يكون الله سبحانه بواحد منهما مدركاً أو معروفاً؛ لأنه إن عرف أو أدرك بها أدركا به أو عرفا كان بصفتهما موصوفاً، يجري عليه ما يجري عليهما، ويضاف إليه تعالى ما يضاف إليهما من تجزئة الكل والأبعاض، وألمَّ به ما يلزم بهما من الآلام والأعراض.

لأن ما يدرك من كل محسوس وإن كان خلافاً لما يعقل من النفوس فلن يخلو من أن يكون خليطين خلطاً فامتزجا فتوحداً، أو أخلاطاً كثيرة عدن مزاجاً واحداً، فتبدلن عن حالهن الأولى، وصرن كونا من الأكوان التي تبلى، وما كان كوناً لزمه ما يلزم الأكوان، ولم يتقدم الحركة ولا الأزمان، وكان فيهما محظوراً، وبها حصرهما من الحدث محصوراً.

وحدث الحركة والزمان وقرائنها من الجسم والصورة والمكان فما لا ينكره -إلا بمكابرة لعقله، أو فاحشٍ مستنكرٍ من جهله- من سلمت من الخَبَل نفسه، ونجت من نقص الآفات حواسه.

وكل نفس فذات قوى شتى مختلفة، كل صفة منها فسوى غيرها من كل صفة، واختلاف قوى كل نفس فمعروف غير منكر، منها التوهم والفكر وغيرهما من التذكر والخطر.

وقوى كل نفس فمتمة لها لا يمكن أن تزايلها؛ لأنها إن زایلتها قوة من قواها المتمة لكونها وما وصفناه من محدود كمال شؤونها كان في ذلك من زواله زوالها، وزال عن النفس بزواله عنها كمالها، وفنيت النفس بنفائه، ولم تبق النفس بعد بلائه. ألا ترى أن قوى النفس المتمة لكونها ومحدود كمال شؤونها، كحر الشمس ونورها وغيرهما مما لا قوام للشمس دونه من أمورها، وكذلك قوى النار في إحراقها وحرها، كقوى النفس في توهمها وذكرها، فإن فني حر الشمس أو نورها فنيت، وإن بلي إسخان النار أو إحراقها بليت، وكذلك النفس إن زایلها ما جعله الله من القوى لها، فزال فكرها عنها أو فني توهمها منها فنيت

بفنائهم، وبليت مع بلائهم.

وفي ذلك إذ كان كذلك دليل مبين وعلم ثابت صحيح يقين بأن النفس كثيرة عدداً، وأنها ليست شيئاً واحداً، فكل نفس فغير واحدة، ولكنها كثيرة ذات عدة، والله تبارك وتعالى فواحد فرد، وقوته فمفردة^(١) ليس لها حد، ومن لم يكن واحداً فرداً ونهاية في الدرك صمداً كان منحاداً معدوداً، وأشتاتاً متناهيّاً محدوداً. والباب الثالث من دركه سبحانه بمخايل الأوهام ففاسد لتشبيهه فيه بمتوهم مخايل الأجسام.

والباب الرابع من دركه سبحانه بالظن فقد يمكن ويكون؛ إذ كانت قد تخطئ وتصيب الظنون.

فصواب الظن في أنه قد^(٢) يصيب فيه سبحانه، وخطأ الظن فيه فممنحى عنه مقطوعة الأسباب فيما بينها وبينه.

والباب الخامس من دركه سبحانه بالدلالة فموجود لا يعنف، وصحيح ثابت في الأبواب لا يختلف.

والباب السادس من دركه سبحانه بحال واحدة مما عددنا ففاسد فيه تبارك وتعالى بما أفسدنا.

والباب السابع من دركه سبحانه بكل ما عددنا وحددنا من الخلال فأحول ما يتوهم من وجوه المحال؛ لما يجمع مما لا يجتمع في حس ولا عقل ولا وهم، وفي ذلك أن يكون كذلك أعدم العدم.

والباب الثامن من معرفته سبحانه بخلاف الأشياء كلها فلباب كل لباب، وأصح ما يدركه به سبحانه من خلقه أولو الأبواب؛ لأنه إذا صح أنه غير مدرك سبحانه بدرك هذه الأشياء وأوصافها، وكان لا بد لمن أدرك هذه الأشياء دركاً

(١) في (أ): فمفردة.

(٢) في (أ): فقد.

صحيحاً من أن يكون مدركاً بصحة لخلافها، بيقين من دركه لها مثبت، كدرك الحياة وخلافها من الموت، ودرك الصحة وخلافها من السقم، ودرك الشباب وخلافه من الهرم، وغير ذلك من اختلاف الأشياء كلها، وما يوجد لها من الاختلاف في فرعها وأصلها، وإذا كان ذلك كذلك، وصح ما ذكرنا في النفوس من ذلك، كان واجبا وجوب اضطرار، وثابتاً من النفوس في أثبت قرار دركه سبحانه ووجوده عند دركها ووجودها؛ إذ هو خلاف سبحانه لكل ما يوجد من موجودها.

فإن قال قائل: فلم لا تجعل خلاف الأشياء كلها العدم؟ فقد يحيط بخلافه للأشياء كلها الوهم؟

قلنا: إن العدم ليس بمعنى موجود، وليس مما له إتيّة^(١) ولا حدود، وإنما مطلبنا فيما قلنا للخلاف بين ما قد عقلنا من ذوات الإنية الموجودة الثابتة بالחס، أو الشهادة الباتّة من درك النفس، أو ما يدرك خلافاً لهما جميعاً، فيوجد أثر تدبيره بينا فيهما معاً.

فأما ما ليس بذى أيس، ولا يدرك درك محسوس، ولا يعرف بفرع ولا سوس^(٢)، ولا يُبيّن عن نفسه بأثر من تدبير، ولا يُستدل على وجوده بدليل منير -فليس فيه لنا مطلب، ولا لنا إليه بحمد الله مذهب، وإنما قولنا في العدم: إنه خلاف في الوهم، لا في حقيقة للعدم موجودة، ولا عين منه قائمة ولا محدودة، وإنما يطلب خلاف الأشياء كلها في حقائق الأعيان بما يدرك في العقل والعلم من الاختلاف ببث الإيقان، وكذلك وجدنا الاختلاف الصحيح اليقين يكون بين ما يحس أو يعقل من الأشياء التي لها كون، فأما العدم الذي هو ليس والذي لم يتوهم له قط أيس فليس في بعده من أن يقال: مختلف بحقيقة أو مؤتلف وهم،

(١) الإنية: إنية الشيء، وهو ثبوت كونه ووجوده. (محيط).

(٢) السّوس بالضم: الطبيعة والأصل. (قاموس).

وليس لأحد علينا - والحمد لله - في اختلاف منه ولا ائتلاف مُتَكَلِّم، هو غير ذي شك عدم الأعدام، ولا (١) يرتفع عنه إلا بعبارة المنطق نطق الكلام (٢).

والحمد لله على ما جعل لنا من السبيل بما قلنا وغيره إلى معرفته، ودلنا عليه في محكم القرآن منا وإحسانا من صفته، فقال سبحانه فيما عَرَفْنَا منه وَثَبَّتْ لنا من أنه يعرف بالأعلام القائمة الدالة، والشهادات القاطعة العادلة، التي لم تبرح في الأنفس والآفاق شاهدة مشهودة، ولم تزل في السماوات والأرض وما بينهما من سالف الأحقاب قائمة موجودة، تشير إلى معرفته بكف وبنان، وتومئ إلى العلم بالله لكل من كان له قلب وعينان، كما قال الله سبحانه: ﴿وَكَايْنِ مِنْ ءَايَةِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف]، وقال سبحانه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات]. وقال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت]. فمن شهادته سبحانه لها أنه لما كان منها مدبر مريد، ثم قرر لنا سبحانه شهادة دلائله بما أظهر في السماوات والأرض والأنفس من أثر جعائله، بتوقيف منبه لكل بصير حي، وتعريف لا يجهل بعده إلا كل ضليل عمي، فقال سبحانه في توقيفه وما نبه به من تعريفه: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ

(١) في (أ): وما.

(٢) قوله عَلَيْهِ السَّلَام: «ولا يرتفع عنه إلا بعبارة المنطق نطق الكلام»: المقصود بالعبارة أن العدم لا وجود له في الخارج، وإنما يعبر عنه بالكلام ومنطوق اللسان. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الشُّجُومَ لِيَتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ
 الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
 وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٦٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ
 حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قَنَوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ
 وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ
 لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٩﴾ [الأنعام]، ففلق الحب -يا بني- والنوى والإصباح،
 وأخرج (١) الحي من الميت والميت من الحي بأوضح الإيضاح. وما جعل من
 الليل سكنا ولباساً مُكِنًّا، ومن الشمس والقمر حسابنا معدوداً، وما جعل في
 النجوم للسايرين من الهدى، وإنشاء البشر من نفس واحدة- فما لا تنكره فرقة
 ملحدة ولا غير ملحدة. وما استودع منهم في الأرحام والأصلاّب، وما استقر
 منهم في قرار الأرض وعلى متن التراب، وما أنزل (٢) من الماء من جو السماء،
 وما أخرج به من كل نبات، وأحيا به الأرض بعد الموات، وما أخرج به من
 خَضِرِ الألوان المختلفة وأصناف الحبوب المتراكبة المتصنفة، وما أخرج به من
 النخل وطلعها، وقنوانها الدانية عند ينعها، وما أخرج به من جنات الأعناب
 ذوات الألوان، وما تشابه أو لم يتشابه من الزيتون والرمان- فمعانٍ كله بما قال
 الله فيه مشهود، بين فيه كله أثر صنع الله موجود، لا يقدر أحد له بحجة على
 إنكار، ولا يمتنع حكيم على الله فيه من إقرار.

ومن توقيفه سبحانه المكرم، وتعليمه تبارك وتعالى المحكم، قوله: ﴿قُلْ مَنْ
 يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ
 مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا

(١) في (أ): وإخراج.

(٢) في (أ): نزل.

تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ ﴿٣٢﴾ [يونس].

وكل ما ذكر الله سبحانه من هذا [كله] ^(١) فقد علمنا بيقين وأدركنا بقلب وعين أنه مرزوق غير رازق، ومخلوق ليس لنفسه بخالق، ومملوك غير مالك من نفسه لشيء، ومخرج ومحميا غير مخرج لنفسه ولا محمي، وكل أمر السماء والأرض فقد يعاين مدبراً غير مدبر، ويرى أثراً بأبين شواهد التأثير من مؤثر، فلا بد بت اليقين من رازق ما يرى من الأرزاق، ومدبر ما يعاين من أثر التدبير في السماوات والآفاق، ومالك ما يرى مملوكاً غير مالك من السمع والأبصار، ومخرج الحي من الميت والميت من الحي بمواقيت وأقدار، ولا بد من مدبر الأمر الأعم الكلي ^(٢)، ولن يوجد ذلك إلا الله الأعلى فوق كل علي.

ومن ذلك أيضاً فقله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٣٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الواقعة]. فالله سبحانه هو الخالق ونحن الممنون، ليس لنا في ذلك غير إمناء المني من صنع، ولا نقدر بعده لما قدر بيننا من الموت على منع. فتقدير صنعنا كله وتديبره وتبديل خلقنا إن شاء خالقنا وتغييره إلى من تولاه دوننا، وكان منه لا منا، كما قال سبحانه: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الواقعة]. فقرر سبحانه بمعلوم غير مجهول، وذكر بما لا ينكره سليم ^(٣) العقول من نشأة الصنع الأولى، فتبارك الله العلي الأعلى.

(١) ساقط من (أ).

(٢) قوله ﷻ: «ولا بد من مدبر الأمر الأعم الكلي»: المراد بالأمر الكلي كل إنسان وكل حيوان وكل شجر وكل حجر وكل.. إلخ. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٣) لعلها: سليمو.

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ١٣ ﴿عَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ١٤ [الواقعة]. فالله هو الزارع ونحن الحارثون، ليس لنا في الزرع سوى حرثه من حيلة موجودة ولا معدومة^(١)، ولا نقدر بعد الحرث له على إنشاء منه لسنبلة محمودة ولا مذمومة^(٢)، وقدرتنا فإنما هي على الحرث والاعتماد وعلى خلافهما من الترك والإغفال، وكذلك فله من القدرة بعد على إبطال الزرع وإبلائه مثل الذي كان له من القدرة قبل على تسميره وإنما، ولا يقدر على أمر إلا من يقدر على خلافه وعلى فعل كل ما كان من نوعه وأصنافه، فمن لم يكن كذلك وتصح صفته بذلك كان بريئاً من القدرة عليه، وكان العجز في ذلك منسوباً إليه، كما قال سبحانه في الزرع بعد إكماله: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ١٥ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ١٦ ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ ١٧ [الواقعة]. وكذلك إعذاب الماء وما يعاين من تنزيله من جو السماء، فلا يقدر على إعذاب الماء وإنزاله إلا من يقدر على إيجابه وإقلاقه، كما قال الله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ١٨ ﴿عَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ ١٩ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ٢٠ [الواقعة]، وكل فعل فرع لا يتم إلا بأصله ففاعل الأصل أولى بفعل فرع أصله^(٣)، كشجرة النار وأصول الأشجار التي هي من الأرض والماء والجو والسماء^(٤).

(١) في (أ): معدومة ولا موجودة.

(٢) في (أ): مذمومة ولا محمودة.

(٣) في نسخة: ففاعل الأصل أولى بفعله.

(٤) قوله ﷺ: «كشجرة النار وأصول الأشجار التي هي من الأرض والماء والجو والسماء»: أي أن الأشجار محتاجة لما جعله الله في الجو من الرياح والرطوبة واليوسة وغاز الأكسجين وغاز ثاني أكسيد الكربون، ومحتاجة لما جعله في السماء من الشمس وحرارتها ومنازلها. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله). [وهذا يشير أن في تعبير الإمام ﷺ بهذا المصطلح: «الجو والسماء» ما يدل على سعة علمه وسبق فهمه، إذ لم يظهر التعبير بالغلاف الجوي المحيط بالكرة الأرضية إلا في زمن التقدم العلمي حيث عرف البشر أن الغلاف الجوي يحيط بالأرض وبعده السماء وأجرامها، والله أعلم].

فصنع هذه الفروع لمن كان له صنع الأصول، لا ينكر ذلك منكر ولا يدفعه إلا بمكابرة فطر العقول، كما قال الله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة]. فكل ما نبه به (١) من هذا ودل عليه فداع من معرفته سبحانه إلى ما دعا إليه.

ومن ذلك أيضاً فقوله تبارك وتعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الحديد] فإذا كانت حياة الأرض بعد موتها موجودة، وميتها التي كانت تعلم قبل إحيائها مفقودة، فلا بد اضطرار ثابتاً وبقينا لا تدفعه النفوس باتا من إثبات ميتها ومحيتها؛ إذ بان أثر تدبيره فيها بأكثر ما (٢) يعقل من الآثار، وأكبر مما تعرفه النفوس من الأقدار، مما لم ير له في (٣) الحياة قط مؤثر، ولم يوجد له من المدبرين قط مدبر، إلا من يزعم أنه من الله لا منه، ومن يقر أنه من الله دونه، مثل المسيح بن مريم وغيره ممن أعطيه من ولد آدم.

ومن تعريفه القريب وتوقيفه العجيب قوله سبحانه: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون]، فلما كانت الأرض مملوكة ومن فيها بما تبين من أثر الملك عليها ثبت مالكاها عند معاينتها غير مدفوع، ووجد صانعها باضطرار غير مصنوع.

ومن توقيفه أيضاً وتعريفه قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٨﴾﴾ [المؤمنون]، فلما وُجِدَ ما وقف الله سبحانه عليه من ذلك مربوباً غير متمنع بما تبين فيه من شواهد كل مربوب متخشع وُجِدَ ربُّها كلها بيقين مبتوت

(١) في (أ): ما نبه له.

(٢) في (أ): مما.

(٣) في (أ): من.

عند وجودها، وشهد له بالربوبية ما شهد بالصنع عليها من شهودها.

ثم قال سبحانه لتوقيفه وتعريفه مردداً، وعليهم بما لا تدفعه النفوس من الشهود مستشهداً: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمن]. فلما كان كل شيء يُحسُّ بحس، أو يُعقل إن لم يكن محسوساً بنفس، في قبضة محيطه به من قدرة وملكوت، بما لا يدفعه^(١) عن نفسه من بلاء أو موت، كان ملك الملكوت للأشياء كلها معلوماً باضطرار، ومن يجير ولا يجار عليه؛ إذ الملكوت كلها له غير ممتنعة منه بجار.

ومما يقظ به سبحانه لمعرفته، ودل منه بأوضح دليل على ربوبيته، وما تفرد به من صنع البدائع، وتوحد بابتداعه من بدع الصنائع، قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر].

فلما أن كان خلق أبينا الذي هو أول إنشائنا وهو آدم، الأب المقدم مما ذكر الله تبارك وتعالى أنه ابتدأه منه من التراب، كنا مخلوقين مما خلق منه وإن نحن جرينا بعده نطفاً في الأصلاب.

والدليل البت اليقين الشاهد العدل المبين على أن آدم ﷺ بُدئ من التراب وخلق مصير نسله تراباً إذا بلي وفُرق، وكل مركب انتقض من الأشياء فعاد إلى شيء عند تنقضه بالفرقة والبلى فمنه رُكَّب وخلق غير شك ولا امتراء، كالثلج الجليد والبرد الشديد الذي يعود كل واحد منهما إذا انتقض وفُرق إلى ما رُكَّب منه من المياه وخلق، وكمركب الأشجار والحبوب وغيرها من ضروب الأغذية التي تعود عند بلائها إلى ما رُكِّبت منه من الأرضين والمياه والنيران والأهوية.

(١) في (أ): بما لا يدفع.

وآدم ﷺ في أنه من تراب - وإن كان كمالاً^(١) وأباً- كأولاده، يجري عليه في أنه من تراب ما يجري على أجزائه وآحاده^(٢)، وما يعاين من معاد أنساله التي هي أجزاؤه من كماله إلى الرفات الجامد والتراب الهامد يلحق به مثله؛ إذ هم جزؤه ونسله، وما لحق بالأجزاء من الموت والبلاء^(٣) فلا حَقُّ لا محالة بالكمال، والكمال والأجزاء فجارية منه على مثال، إذ كانت أشباهاً متماثلة، وأمثالاً لا يجهل تماثلها متعادلة.

وأما يقين خلقه إيانا سبحانه من نطفة، وما جعل منا أزواجاً مختلفة في الخلقة غير مؤتلفة، فمعانٍ فينا معلوم، لا يدفعه العيان ولا الحلوم؛ ألا ترى أن النطفة لو لم تكن لما كنت، ولو عِدِمَتْ إِذَا لَعِدِمَتْ، وما كان إذا عدم عدمت فممنه غير شك خلقت وقومت؛ ألا ترى أن كون المرعى والأشجار مما ينزل الله لها من المياه والأمطار، فإذا عدم الماء والمطر هلك المرعى والشجر، ألا ترى أن كل ثمرة فممن شجراتها، فإذا عدمت الشجرات عدمت ثمراتها.

وما عَجَّبَ الله به سبحانه من صنعه في تكثيره منه للقليل المفرد، ونشره تبارك وتعالى للكثير من واحد العدد فأعجب عجاب، عَجَبَ له من خلقه أولو الألباب، بينا نحن تراب ميت إذ أحيانا، ونطفة واحدة إذ كثرنا فأثرانا، فجعل سبحانه منا بنطفة تمنى ذكراً يعاين وأنثى، حكمة منه سبحانه لا عبثا، كما قال تبارك وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٣٥) أَلَمْ يَكْ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيِّ يُمْنَى^(٣٦) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى^(٣٧) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى^(٣٨) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى^(٣٩) ﴿[القيامة].

(١) في نسخة: كاملاً.

(٢) في (أ): وأوحاده.

(٣) بلي الثوب يبلى من باب تعب، بلى بالكسر والقصر، وبلاء بالفتح والمد: خَلِقَ فهو بال، وبلي الميت: أفتته الأرض. (مصباح).

فصرفنا بعد خلق خلقاً، تراباً ثم نطفة ثم تارة علقاً، تصارييف لا يدّعي على الله فيها مدح دعوى، فيعلن بدعواه فيها ولا يسر بها نجوى، تبريا إلى الله الخالق منها، وتضاؤلاً في جميع الأشياء عنها.

وكل هذه التصارييف فلا بد لها من مصرف، وما عدد من شتيت الأصناف فلا بد لها من مصنف، لا تدفع الأبواب وجوده، ولا يكذب إلا كاذب شهوده. وما ذكر سبحانه من حمل كل أنثى ووضعها بعلمه فما لا ينكره أحد وهبه الله حكمة من حكمه، وما لا يأباه منقوص بعد التقرير إلا بمكابرة منه لعقله^(١)، مع الإقرار منه لنا صاغراً راغماً بمثله، وإذا كان بمثله مقراً كان بإنكاره له مكابراً، بل يعطى فيأبى^(٢) إلا مجانة وألعا، إنما هو أصغر صغراً، وأيسر أضعافاً قدرأ من حمل الأنثى ووضعها، وتأليف أعضاء الولدان وجمعها، وما فيها من حسن التصوير، وداخل معها في لطيف التدبير، لا يقوم معتدلاً ولا يبقى متصلاً طرف عين بأيقن يقين إلا بعلم من عليم، وتدبير مُتَقَن من حكيم، لا تلم به سنة ولا نوم، ولا تنازعه الأشغال ولا الهموم^(٣).

وكذلك تعمير المعمر وما ينقص له من عمر فلا يكون أبداً إلا في كتاب، إذ كانت الأيام والليالي بحساب، ولا يكون نقص العمر وزيادته إلا لمن به قوامه ومادته من يدبر الأيام والليالي، ولن يوجد ذلك إلا عن الله الكبير المتعالي، ولا يكون كتاب ذلك الذي هو علمه - على من وسع الأشياء كلها تدبيراً إلا خفيفاً، لا يؤوده حفظه - عليه تبارك وتعالى كما قال: يسيرا.

ثم أخبر سبحانه صدقاً ونبأ في كتابه حقاً بقدرته على أن يخلق من الأشئات المختلفة واحداً غير مختلف في الصفة؛ لأنه من قدر على خلق الأشئات من

(١) في (أ): إلا بعد المكابرة منه لعقله.

(٢) في (أ): فلا يأبى.

(٣) في نخ: الوهم.

المؤتلف الذي لا يختلف قدر على خلق الواحد المشتبه من الأشتات التي لا تأتلف، كخلقه سبحانه لأُخْدَان ما خلق من الدر واللحمان من مختلف البحار وأشتاتها بأبين اختلاف من أجاجها وفراتها، فجعل سبحانه منها مع خلافه بينها لحماً واحداً مشتبهاً طرياً، ولباساً واحداً من الدر حسناً بهياً، وحمل سبحانه على ظهورها مع خلافه بينها في أمورها الفلك المشحون السائر، وردها بعد التفرغ فيه مواخر، ليعلم من عجيب تدبير أمرها واختلاف الحال في مسيرها إذ تسير شاحنة مالية كما تسير ماخراً خالية، وإذ تسير بحاليها جميعاً في أجاج البحار كما تسير بهما في فرات الأنهار - أن لها لِمُسِيرّاً لا تختلف في قوته الأشياء، ومدبراً قويا لا تساويه الأقوياء، وأن تسييرها مقبلة ومدبرة وشاحنة في البحرين وماخرة، إلى من يدبر ما سارت به من مختلف الرياح المسيّرات، ومن يملك ما جرت فيه من الماء الأجاج والفرات، ومن له ملك ما لولا هو لم تكن الرياح الجاريات، ولم يوجد الملح من المياه ولا الفرات.

ومن إيلاجه سبحانه الليل في النهار، وما قدر بهما من المواقيت والأقذار، وتسخيره سبحانه للشمس والقمر اللذين بهما دبر مسير الفلك في البحار كل مدبر، كان لتدبيره - في المسير بهما في بحر - حكمة، أو فيهما لفلك بعد الله من نجاة عصمة، لما جعل سبحانه فيهما من الضياء، وبصر بهما في المسير من القصد للأشياء، وبصر تبارك وتعالى بغيرهما إذا فقد في ظلمة الليل ما جعل من البصر بتسخيرهما من النجوم السير التي جعلها الله هدى للسايرين في الظلمات، سروا في البحار أو كان سراهم في الفلوات، كما قال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام].

وتسخير ما ذكر الله سبحانه من الشمس والقمر، وتسخيره لغيرهما من النجوم السير، فظاهر بحمد الله غير متوار ولا خفي، يبصره عيانا كل ذي عقل

حيي، لما فيها من آيات التسخير، وبين ما معها^(١) من دليل التدبير، بتفاوت نورها وغيره من أمورها، في السرعة والإبطاء والظهور والخفاء، والرجوع والتحير، والدؤوب في التدور، فهي راجعة في المسير ومتحيرة، ومقبلة بالدؤوب^(٢) ومدبرة، فهذه حال المسخر غير مرية ولا شك، جرى بها فلکها أو كانت جارية بأنفسها في الفلك. والتفاوت بينهما في الضياء فكغيره من التفاوت بين الأشياء، ولا يقع حكم التفاوت أبداً بين متفاوت إلا كان له وفيه من فاوت بينه في حاله، وكان مملوكاً اضطراراً غير مالك، وكان ملكه لمن أسلكه من التفاوت في تلك المسالك. وكذلك حال تفاوت^(٣) هذه النجوم يجري من الله فيه بحكم محكوم، والله سبحانه من ملك كل نجم وفلك ما له من ملك كل مملوك، والحمد لله إله الآلهة وملك الملوك، ومدبر كل نجم وغيره بما لا يخفى من أثر تدبيره في الهيئة والتصوير، والمقام والتحير واليسير، ذلك قوله سبحانه فيما وصفنا من قدرته على خلق الواحد المشتبه من شتيت الأصناف، وخلق له للكثير المختلف من الواحد الذي ليس بذي اختلاف، وما ولي الله سبحانه من تدبير النجوم وتسخيرها، وإجراء الفلك في مختلف البحار وتيسيرها، وإيلاجه سبحانه الليل في النهار، وتقديره لذلك كله بأحسن الأقدار: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لِيَتَبَتَّعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر]، فصدق الله تبارك وتعالى،

(١) في (أ، ج): وبين معها.

(٢) في (أ): للدؤوب.

(٣) في نسخة: حكم تفاوت.

ذو الملك والقدرة والأمثال العلاء، إنه هو الله ربنا، ومَنَّا منه كان خلقنا وتركيبنا، له الملك ومنه عجيب التدبير، ومن دعي معه أو دونه فما يملك من قطمير. والقطمير: فأصغر ما يملكه متفرد به مالك، أو يشرك مليكاً في ملكه مشارك. فكل ما ذكر الله من هذه الأمور فَنِيْرٌ بَيِّنٌ غير مستور، يشاهده ويحضره ويعاينه ويبصره من آمن بالله شكراً أو صد عن الله كفراً.

أولا تسمع قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء]، ففتق السماوات والأرض فيهن ظاهر لا يتوارى، يراه ويعاينه كل ذي عين ترى، وما يعاين فيهن ويرى فتقاً فشاهد على أنهن كن قبله رتقاً؛ إذ لا يكون فتق إلا لمرتق، كما لا يكون رتق إلا لمفتق ولا فتح إلا لمنغلق. ولا بد يقينا لكل مفتوق من فاتقه، كما لا بد لكل مفتوح من فاتح إغلاقه.

وما جعل الله من الماء من الحيوان فموجود ما ذكر الله منه بالعيان؛ لأن كل شجرة قائمة حية أو دابة ناطقة أو بهيمة فمن الماء جعلتها، وبه قامت جبلتها. ألا ترى أن الشجرة إذا فقدت من الماء غذاءها، وفارق الماء قلبها ولحاءها، يبست فماتت، وانحطمت فتهافتت، فذلك الدليل على أن من الماء جعلت؛ إذ كانت إذا عدم الماء عدمت.

أولا ترى أن لولا مياه الذكران والإناث التي هي النطف إذا^(١) لما وجد من البشر والبهائم طارف يطرف، فذلك الدليل على أنهم من الماء جعلوا؛ إذ كان

(١) «إذا» ساقطة من (أ).

الماء إذا عدم عدموا، وذلك قوله سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۗ﴾ [التارق]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

وما جعل الله سبحانه في الأرض من رواسي الجبال وغيرها مما ثقلها به من الأثقال، كيلا تميد بمن عليها من الإنسان وغيره من أنواع الحيوان، التي لا بقاء لها ولا قوام مع الميكان - فموجود بأيقن الإيقان؛ إذ توجد^(١) بالعيان الأفلاك تمر من تحت الأرض دائرة، وتخفى بممرها تحتها وتظهر عليها سائرة، ولا يمكن أن يكون مسيرها تحتها ومقبلها ومدبرها إلا في خلاء أو عراء أو هواء أو ماء، وأي ذلك ما كان مسيرها فيه احتاج من على الأرض من ساكنها إلى ما جعلهم محتاجين إليه، من تثقيل قرارهم بما ثقله الله من رواسي الجبال وغيرها مما ثقلها به سبحانه مما عليها من الأثقال، لكيما تكون كما قال الله: قرارا، ولما جعله الله خلاها أنهارا، ولو لم تكن سكناً قاراً لما احتملت من أنهارها نهرها، ولو مادت لاضطربت غير مستقرة ولا هادية، ولو لم تستقر وتهدأ لكانت أنهارها متفجرة غير جارية، لا ينفع ما جعل الله حاجزاً وبرزخاً، وحبساً ثابتاً مرسخاً، بين مُنْسَحٍ^(٢) عذب مياهها وملحه، ومُفْسَدٍ أمورها ومُصْلِحِهِ، فاختلفت فرائها بأجاجها، وبطل ما جعل فيها من سبل منهاجها، حتى لا يكون لفلک فيها سبيل مسير، ولا لطامي جم مياهها صوت خرير، ولو كان ذلك فيها كذلك لكان فيها من فساد التدبير وجفاء الفعل في حسن التقدير ما لا يجهل ولا يخفى، لكنه تبارك وتعالى ألطف في التدبير لطفاً، وأعلم بالأمر كلها علماً، من أن يدبر إلا محكماً، ألم تسمع لقوله سبحانه: ﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل].

(١) في نسخة: تجدد.

(٢) في (أ): من منسح.

[الخلاف فيما تحت الأرض]

فإن قال قائل: فما جعل من الأثقال عليها والجبال لا يزيدها إلا ثقلًا، وكل ما ازداد ثقلًا هوى وذهب سفلاً، فنحن إذاً نهوي سافلين، وقد نرانا بالعيان عالين، فهذا من القول تناقض واختلاف، لا يصح لذي لب به إقرار ولا اعتراف.

قلنا: قد قيل فيما تحت الأرض وما يحملها ويمسكها بحيث هي ويُقْلُها أقوالٌ كثيرة غير واحدة، قالتها فرق ملحدة وغير ملحدة؛ فمنهم من قال: تحت الأرض خلاء، ومنهم من قال: تحتها هواء، ومنهم من قال: تحتها لج ماء، ومنهم من قال: ليس تحتها شيء من الأشياء، وهي غاية الثقل ومتناهة، وكل ثقل فإليها انتهؤه، فليس لجرم من الأجرام ثقلها، ولا شيء من الأشياء في الثقل مثلها، فهي أثقل الأثقلين وأسفل الأسفلين، وما كان وهو أخف منها فغير شك أنه مرتفع عنها أو قار عليها أو داخل فيها، وقرارها بحيث هي زعموا قرار طبيعي، ومنهم من قال: إن قرارها بحيث هي قرار موضعي، وإنما إنما ثبتت بحيث هي من موضعها واستقرت ثابتة في موقعها لأنها -زعموا- معتدلة في الوسط غير مائلة إلى جهة من الجهات بفرط، مستوية كاستواء كفة الميزان، ممتعة لاستوائها عن الميلان يميناً أو شمالاً، أو علواً أو سفلاً.

وقال حشؤ هذه الأمة المختلف الذي لا يفقه ولا يتصرف: قرار الأرض زعموا على ظهر حوت، ونعتوا حوتها في ذلك بألوان من النعوت.

وأشبه هذه الأقوال عندنا بالحق، وأقرب ما قيل به فيها من الصدق، أن يكون ما تحت الأرض خلاء منفهقاً^(١)، أو هواء من الأهوية متحققاً، ليس فيهما لسالكهما رد يرده، ولا للمقبل والمدبر فيهما صد يصدّه، لقول الله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء].

(١) منفهق: متسع.

وليس أحد من هذه الفرق كلها التي وصفنا وإن قالوا من مختلف الأقوال بما ألفنا إلا مقر لا يناكر ومعترف لا يكابر أن الشمس والقمر يسلكان بأنفسهما أو يسلك فلكهما بهما فيما يرى من دورهما، ويعاين في كل حين من مرورهما، من تحت الأرض لا من فوقها، ظاهر ذلك بغروب الشمس في كل يوم وشروقها، لا يسلكان يمينا ولا يسارا، ولا يختلف مسلكهما تحتها ليلا ولا نهارا، والشمس والقمر فجسمان، مدركة جسميتهما بالعيان، يذرعان ذراع الأجسام، وينقسمان بأبين الانقسام، لهما أوساط وأطراف، وفيهما كل وأنصاف، والأرض فذات جسم مصمت معلوم، لا يمكن أن يسلكه جسم مثله من النجوم، ولا يمكن أن يسلك جسم^(١) إلا في هواء أو خلاء، أو فتق إن سلك في أرض أو ماء، أو في جو من الأجواء، وإن كان مسلكه من الأرض أو الماء إنما يكون في فتق ففي الخلاء يسلك أو الهواء، وإن هو احتجب عن العيون فلم ير.

وإن كان مسلكه في فتق من أرض أو ماء لا فيما قلنا به من هواء أو خلاء انتقض ما أجمعوا عياناً عليه، واجتمعت أقوالهم جميعاً فيه، من أن مسلك النجوم من وراء قاصية التخوم.

وما جعل الله في الجبال الرواسي وغيرها من القنان^(٢) الشمخ الطوال العوالي من فجاج السبل ومن الطرق الدلل فما لا يمتري في وجود صنعه وتقديره، بما يرى فيه من إحكام الصنع وتديره منصف أنصف في نظر لنفسه، قاض على الأمور فيها بحقيقة درك حسه؛ لأنه قد أدرك بحسه دركا بتاً، وأيقن بقلبه إيقانا مثبتاً، أن أصغر ما يرى من هذه الفجاج سبيلاً لم يتهياً لسالكه سلوكه ولم يمكنه حتى ذلل تذليلاً، وأن هذه الفجاج التي جعلت سبيلاً وهيئت مع صعوبتها طرقاً ذللاً لم تتأت ولم تتوطأ سبلاً وضُرْطاً في حزون الجبال الشوامخ وبطون

(١) في (أ، ب، ج): ولا يمكن جسماً أن يسلك.

(٢) في نسخة: القلل.

البيدان الرواسخ إلا بقوة أيد من قوي شديد، وتدبير رشيد من عزيز حميد، لا يؤوده حفظ شيء ولا صنعه، ولا يمتنع منه قوي وإن عز تمنعه، ذلك الله العزيز الأقوى، ومن لا يماثل في شيء ولا يساوى فيصعب عليه ما يصعب على الأمثال، من صنع فجاج رواسي الجبال، وما جعل فيها من السبل المسهلة، وما من به في ذلك من النعم المفضلة، التي لا يمن بمثلها مان، ولا يحتملها سوى إحسان الله إحسان، ولا يدعي المنة فيها مع الله أحد، ولا يقوم بها سوى مجد الله مجد.

ومن ينكر إلا بمكابرة لنفسه أو إكذاب لحقائق درك حسه أن السماء جعلت كما قال الله سبحانه: ﴿سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقد يعاين سمكها عيان عين مرفوعاً، وآياتها من نجومها دائبة غروباً وطلوعاً، ونرى السماء كما قال الله سبحانه محفوظة في مكانها ثابتة غير زائلة، ونرى الشمس والقمر وغيرهما من نجومها مقيمة على هيئة واحدة غير حائلة، ونعلم يقيناً، ونوقن تبييناً، أنه مستنكر مدفوع، ومقبح في اللب مشنوع، أن يتوهم حفظ مثل ما ذكرنا، ودوام ما قد عاينا وأبصرنا دائماً ثابتاً مقيماً، ومن البلاء والزوال سليماً، إلا بحافظ عزيز، وحرز من الحفيظ حريز، لا تحيط به الملالات، ولا تلتبس به الغفلات، ذلك الله العزيز الحكيم، المقتدر العليم، ومن يشك فيما قال الله من إعراض الناس عن آيات السماء، وهم بكل ما فيها من آياتها أجهل الجهلاء، لا يعتبرون من عبرها بظاهر مقيم، ولا بسائر دائب مديم، لا يني في مسيره ولا يفتر، يُخَفَى في مسيره مرة وَيُظْهَر، مدبر يحث حثاً^(١)، لا يحتمل غفلة ولا عبثاً في رجوع ولا مقام ولا مسير، ولا في شيء مما له من صنع ولا من تدبير.

ومن تنبيهه أيضاً قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ وَإِلَى

(١) في (ب): مدبر بما يحث.

الْأَرْضُ كَيْفَ سَطِحَتْ ﴿٢١﴾ [الغاشية]. فخلق الإبل الذي هو صنعها فيها موجود، ورفع السماء معها معاين مشهود، ونصب الجبال أوتادا وسطح الأرض مهادا متيقن معلوم، ومعاين مفهوم، وهذه كلها فقد ثبتت صنعا، وثبت كل صنع بدعا، بما بان فيها وشهد عليها من دلائل الصنع وتدبيره، ومعالم البدع وتأثيره. فأين خالق الإبل وصانعها؟! وممسك السماء ورافعها؟! وناصب الجبال وموتدها؟! وساطح الأرض وممهدها؟! إذ لا بد اضطراراً لكل مصنوع من صانع، ولكل مرفوع من الأشياء كلها من رافع، ولكل منصوب موتد من ناصبه وموتده، ولا بد لكل مسطوح ممد من ساطحه وممهده، ذلك الله رب العالمين، وصانع الصانعين، الذي جعل الأرض والإبل والجبال صنعا له مصنوعا، والسماء سقفا بحفظه له ثابتا محفوظا مرفوعا.

ومن توقيفه وتفهمه وتنبيهه وتعليمه قوله سبحانه: ﴿عَٰنَتْكُمْ أَسَدٌ خَلَقًا أَمَ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات]. فلا بد في كل حس وعقل لا عند^(١) مضرور بخبل لكل بناء غاب أو حضر من بانيه، ولا بد لكل مرفوع ومسوى من رافعه ومسويه، ولا بد لكل ليل مغطش من مغطشه، كما لا بد لكل عرش معروش من مُعرّشه، ولا بد لإخراج الضحى من مخرج وإن كان لا يرى، ولا بد لدحو الأرض من داحيها؛ لما تبين من شواهد^(٢) الدحو عليها، ولا بد لمخرج الماء والمرعى من مخرجه ومرعيه، ولا بد لما أُرسي من الجبال من مرسيه، لما فيها بيناً من علم كل مرسى وإن كان هذا كله يدرك عقلا وحسا، فلا بد من صانع السماء وبانيها ورافع سمكها ومسويها، ومغطش ليلها ومخرج ضحاها، ولا بد ممن خلق

(١) في المخططات: في حس ولا عقل ولا عند.

(٢) في (أ): من شاهد.

الأرض ودحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، ومن نصب الجبال وأرساها. ثم لا بد إذ لم يُوجد ذلك شيئاً مما وجد بالحواس الخمس، ولا شيئاً مما أدرك بالعقول من كل نفس - أن يثبت بأثبت الثبت، وأيقن اليقين البت، أن صانع ذلك كله، ومن تولى فيه إحكام فعله، خلافاً سبحانه لكل محسوس، ولكل ما يعقل من النفوس.

ومن ذلك وفيه ومن الدلائل عليه قول إبراهيم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم، فيما دار بينه وبين قومه في الله من الجدال والخصام: يا قوم، ﴿مَا هَذِهِ السَّائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ٥٢ قَالُوا وَجَدْنَا عَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴿[الأنبياء]. فشهد صلى الله عليه شهادة الحق لله رب العالمين، ونبههم بشواهد الله ودلائله بما قد يرونه رأي عين من صنعه وجعائله. أو لا يعلم من يعمى ويجهل - فضلاً عما يبصر ويعقل - أن لو كانت هذه البدائع والأصول وما تدركه منها عيانا العقول، على ما يقول به فيها الجاهلون: إنها كانت وجاءت كما أرادت وشاءت - لما فضل بعضها أبداً بعضها، ولما كانت الأرض سفلاً وأرضاً، ولما قصر أوضاع الأشياء وأدناها عن درجة أرفع الأشياء وأعلاها، ولكانت الأشياء جميعاً سواء، ولما كان بعضها من بعض أقوى، حتى يكون كلها شيئاً واحداً، وحتى لا يوجد شيء منها لشيء ضداً.

وقد يوجد باليقين من تضادها، ويبين من صلاحها وفسادها، لكل حاسة من الحواس الخمس، ومن سلمت له حواسه من جميع الإنس فقد يستدل بما يرى فيها من الاختلاف والنقائص على أن لها صانعا خصها بما بان فيها من الاختلاف والخصائص، بريء تبارك وتعالى من شبهها في النقص والاختلاف، متعال عما يوجد فيها أو في واحد منها من الأوصاف.

فدل سبحانه على صنعه للأشياء كلها بما أبان فيها من تصرف أحوالها وتنقلها.

واحتج إبراهيم عليه السلام عند حاجته لقومه فيه ومنازعتهم فيما كانوا يعبدون من النجوم معه وإنما هي صنع من الله صنعه بأفول النجوم التي كانوا يعبدون والكواكب، ووقفهم على أن كلها صنع الله مغلوب غير غالب، بما أراهم صلى الله عليه من الأفول فيها والزوال، وبما أبان عليها من أثر التبدل والانتقال، وتصرف ما لا ينكرونه فيها من الأحوال، فلما أراهم أنها من الزائلين قال لهم: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [٧٦] [الأنعام]. يقول صلى الله عليه عند أفول الكواكب: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [٧٦] [الأنعام]. ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [٧٧] [الأنعام]. وكذلك قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام]. قال الله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٧٨] [الأنعام] ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٧٩] [الأنعام].

والفاطر هو: المبتدئ الصانع، والحنيف هو: المخبت الخاشع. فاستدل الله تعالى بدلائل الله من سمواته وأرضه على أن الله صانع لذلك كله لا لبعضه، وتبرأ صلى الله عليه من شرك كل من أشرك؛ إذ رأى كل نجم منها إنما يسلك كما أسلك، بما رآه بينا في جميعها من تدبير بديعها في الحيثة والطلوع، والذلة الخشوع، وعلم أنه لا يكون ما رأى منها عياناً وأدركه فيها إيقاناً من الطلعة والأفول إلا من مصرف ناقل غير منقول، فقال صلى الله عليه: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٧٩] [الأنعام] الذين أشركوا بين المالك والمملوكين، تجاهلاً بما يعلمون، ومكابرة لما يرون من التزايل والفرق بين الخالق والخلق، والمبتدع والبدائع، والصانع الصنائع.

وفي الدلالة على الله بدلائله وبما جعله دليلاً عليه من جعائله ما يقول لهم صلى الله عليه فيما كانوا من الشرك فيه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [٨٠] أنتم

وَعَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴿[الأنعام].

فلما رأى صلى الله عليه ما رأى من عالم ومعلوم، وكل ما أدركه وهم من الوهوم، ملكا مربوباً، وصنعا مغلوباً، قال صلى الله عليه: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ الذي هو رب السماوات كلها والأرضين.

ثم ابتدأ احتجاجاً عليهم الله في معرفته بما لا يوجد سبيل إلى دفعه من صفته، وما بان الله به من خصائص الأنعام، التي لا توجد إلا فيما له من الصفات، قال صلى الله عليه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴿[الأنعام]. فهو الله الخالق الذي لا خالق سواه، والهادي الذي لا يشبه هدى هداة، والمطعم الساقى الذي لا يطعم ولا يشرب إلا من أطعمه وسقاه، والشافي من كل سقم الذي لا يشفى من سقم أبداً إلا من كشف عنه سقمه فشفاه، والمميت المحيي الذي لا يموت أبداً ولا يحيا إلا من أماته وأحياه، والغافر الذي لا يظفر بالمغفرة إلا من وهبها إياه، لا تؤخذ المغفرة منه كرها ولا قسراً، ولا ينالها إلا من كان الله له مغتفراً.

ألا تسمع كيف يقول صلى الله عليه: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿[الأنعام]، ويوم الدين ففيه يغفر الله لمن يشاء أن يغفر له من المذنبين، فاستدل ﷺ ودل بما عدد من هذا كله على رب العالمين، وليس مما دل به صلى الله عليه من دليل صغير ولا كبير يدل أبداً مُسْتَدِلّاً إلا على الله العلي الكبير، فذكر إبراهيم عليه السلام مِنَّا من الله لا يَمُنُّ بها مان، وإحساناً من الله لا يمثل به إحسان، منها خلقه لأعضاء الإنسان السليمة الظاهرة القوي، التي ليس فيها لمدح من الأولين والآخرين دعوى، والتي كلهم جميعاً في الحاجة إليها سواء،

وكيف يصح في ذلك لمدح شيء لو ادعاه وهو لا يقدر على أن يزيد مثقال ذرة في شيء من خلقه ولا قواه؟ فكيف يعطي معط شيئاً من ذلك أحداً سواه؟!

فهذا - والحجة البالغة لله - فما لا يمكن فيه الكيف، ولا يتوهمه بصحة من الدعوى قوي من الخلق ولا ضعيف، والحمد لله على ما أبان من برهانه وحجته لإبراهيم صلى الله عليه في محاجته. وفي ذلك ما يقول سبحانه فيه، لإبراهيم صلى الله عليه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام]، وما ذكر صلى الله عليه من فعله به في المطعم والمشرب والشفاء من المرض والوصب والموت والحياة والمغفرة للخطيئة والإساءة فما لا يدعيه مدع ولا يُدعى له أبداً بصدق ولا كذب، ولا يوجد ما يرى من صنعه وتدبيره أبداً إلا للرب، كما لا يرى صنع الأرض والسموات وما بينهما من الفتوق والفجوات من صانع ولا خالق سوى الله، فكذلك ما ذكر إبراهيم لا يكون إلا من الله، فلولا صنع الله سبحانه للسماء لما ارتوى أهل الأرض من الماء، ولولا ما صنع الله منها ومن الأرض والهواء لما اغتذى أحد أبداً ولا ارتوى، ولخفت كل مغتذ مواتاً، ولمات إذا لم يغتذ خفاتاً^(١)، فاحتج إبراهيم صلى الله عليه في الدعاء إلى الله من صنعه وخلقته ورزقه وغير رزقه بما لم تنزل أنبياء الله ﷺ قبله وبعده تحتج به لله على كل من أنكره وجحدته.

فممن كان قبله ممن وهبه الله رسالته، ودل على معرفة الله دلالته، نوح صلى الله عليه، إذ يقول لقومه فيما يدعوهم إليه من عبادة الله ومعرفته، ويدلهم عليه بالخلق والصنع من صفة: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ

(١) الخفت والخفات: الضعف من الجوع ونحوه. (لسان العرب). وفي أساس البلاغة: ومن المجاز: مات خفاتاً: فجأة.

فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ [نوح]، فأبان لهم صلى الله عليه فيما عدد كله أثر صنع الله برهانا واحتجاجا بخلقه لهم في أنفسهم أطوارا، يريد بالأطوار طبقات ومرارا، مرة من تراب وطين، وطورا من ماء مهين، ومرة مضغة، وطورا علقه، يصرفهم سبحانه خلقه بعد خلقه، ثم خلق الإنسان عظاما، ثم كسا العظام لحما، ثم أنشأها خلقا آخر بشرا، قد جعل له سمعا وفؤادا وبصرا، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ [الملك]. ومعنى ذرأكم: فهو كثركم وأنماكم، وكذلك فعل رب العالمين، كما قال: ﴿فَتَبَرَّكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿٢٥﴾.

ومن دلائل من كان بعده من رسل الله وأنبيائه الذين جعلهم من ذرية إبراهيم عليه السلام وأبنائه قول يوسف صلى الله عليه لصاحبي السجن اللذين كانا معه فيه، وهو يدلها على ما تفرد الله به من الربوبية، وما هو له لا لغيره سبحانه من الوجدانية: ﴿يَا صَاحِبَيَ السِّجْنِ عَارِبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿٢٦﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيئُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿٢٧﴾ [يوسف: ٤٠]، يقول صلى الله عليه: عارباب الربوبية بينهم ليست بخالصة لواحد منهم خير في الربوبية أمراً، وأعلى في الفضيلة قدراً، أم تكون الربوبية لرب واحد خاصة، ولرب لا لربين اثنين خالصة؟! فمن يمتنع من الأصحاء سمع أو لم يسمع من النصحاء أن الربوبية لرب واحد أفضل فضلا، وفي رب واحد أكمل منها في اثنين وبين ربين وأعلى؟! لأنها لو كانت لاثنتين كان كل واحد من الربين منقوصا، وكل إله من الإلهين بالنقص مخصوصا، فإن كانوا وهم أكثر عددا كان كل واحد منهم أنقص أبداً.

فكيف يكون المنقوص لها أو يثبت ربا؟! وأين الأعلى من الأشياء كلها قدرا

ممن له أصداد وأكفاء؟! وربنا فمعلوم في الأبواب غير مجهول، وثابت لا يدفع في العقول، لأن كل اثنين فيبينها تباين لا يخفى في الأحوال، يبين به أحدهما على صاحبه في الفضل والكمال، وأن أفضلهما أبداً أحوالاً وأكملهما في الفضل كما لا، أولاهما بالأثرة والتقدمة، وأحقهما بالطاعة والتكرمة. وإذا كان ذلك موجوداً في العقل كذلك لم تصح الربوبية أبداً إلا لرب واحد، وثبتت الحجة في التوحيد وإثبات الإلهية لله على كل ملحد، وانقطع بين الموحّد والملحد في ذلك كله التشاغب، وذهب - بصدق الحجة لله في ذلك كله - التكاذب، ونفي^(١) الحق من الباطل وتبرأ، فلم يعم عنه إلا من لا يبصر ولا يرى ولا يجب إلى الحقائق لله داعياً، ولا يسمع بالدعاء إلى الله منادياً، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف].

ومن مقال رسول الله بعد يوسف صلى الله عليه وعليهم، واحتجاجهم لله على عباده بدلائله فيهم، قول موسى وهارون إذ أرسلهما الله إلى فرعون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء]، فقال فرعون: وما رب العالمين، قال موسى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء]، يقول صلى الله عليه: إن كنتم ممن يوقن في غيب بيقين، أو يستدل فيما غاب عنه بدليل مبين، استدلال ذوي العقول والأبواب على ما غاب عن أبصارهم بتوار واحتجاب.

وإنما يدرك ما غاب من الأمور بالفكر واليقين، ويدرك ما حضر منها بالحواس من العين أو غير العين، وذلك فإنما هو درك البهائم الخرس، التي لا تدرك شيئاً إلا بحاسة من الحواس الخمس، ولا توقن أبداً بغائب غاب عنها، ولا تدرك إلا ما كان شاهداً قريباً منها، فأما أهل الأبواب والعقول فيستدلون موقنين على الجاعل بالمجعول، وعلى الغائب المتواري الخفي بالحاضر الظاهر الجلي.

(١) في نسخة: ونقي.

وكل ما عظم من الدلائل وازداد عظمًا ازداد به موقنوه يقينا وعلما، فلما كانت السماوات والأرضون أعظم ما يرون من الدلائل ويبصرون دلهم بهما على ربهما، وأخبرهم أنهم إن لم يوقنوه بهما لم يوقنوه بغيرهما؛ لما فيهما من دلائل اليقين بصنعه وتدبيره، فقال -فرعون- لمن حوله ألا تستمعون.

فسألوا موسى كما سأله الملعون، وارتابوا في قوله كما ارتاب فرعون، فقال موسى صلى الله عليه لهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء]، فأخبرهم أن كلهم وكل من كان قبلهم عبد لله مربوب، إذ كلهم وكل من كان مثلهم مصرف مقهور مغلوب، يسقم ويفنى ويموت، ويحل به السقم والموت، فقال لهم فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء]، فقال لهم موسى صلى الله عليه إذ عاودوا يسألون: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء]، فقررهم صلى الله عليه من ذلك بما لا ينكرون إن كانوا يوقنون بغائب أو يعقلون، ودلهم على الله سبحانه بدليل مبين، فيه لمن أيقن أدل الدلائل وأيقن اليقين.

وكذلك قال الله سبحانه للقوم الذين لا يعلمون، إذ سألوا من رؤيته ما لا يمكن ولا يكون، إذ يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة]، فأخبر سبحانه أن بيانه إنما هو للذين يعقلون، ويوقنون من الغيب بما لا يرون ولا يبصرون، فأما أشباه البهائم الذين لا يعلمون إلا ما يرون ويبصرون فإن الله سبحانه انتفى من البيان لهم وتبرا، وذلك فمما يدل على علم الله وحكمته، ولطيف خبره بأحوال بريته.

ومن ذلك قوله سبحانه لكفرة قريش والعرب، ولمن كان معهم من كل ذي لسان معرب: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ

فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٢﴾ [إبراهيم: ١٠]، الذي يستدل عليه منهما بكل شيء فيهما من كل أو بعض، فقالت رسلهم في ذلك لهم ما قالت الرسل لأممهم قبلهم، واحتجوا الله عليهم بمثل حجج نوح وإبراهيم فيهم، ودلوهم على الله بدلائله من فطرة صنعه وفعائله، وتعجبوا من شركهم مع ما يرون من الدلائل في السماء والأرض ويصرون، مما يوقن بأقله فيما غاب عنهم الموقنون.

ومن ذلك وفيه ومن الدلائل عليه قول الله سبحانه لرسوله ﷺ وعلى الطيين من آله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٠]، فنبه سبحانه في ذلك من دلائله على ما فيه لمن اعتصم به من الشك فيه أحرز الحرز الحريز، ثم قال سبحانه في هذه السورة تكريراً للحجة المنيرة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَعَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٠]، يقول سبحانه الذي خلق ذلك كله وصنعه، لا صانع فيه غيره ولا صانع له معه، فذلك كله وإن كابروا فما لن يدعوه وإن لم يأتهم فيه قصص الله ولم يسمعه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَلَقِيَ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٧﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: ١٨]، فصدق الله لا شريك له في أن من لم يعرف هذا كله، صنعا له وحقا يقينا صدقاً فهو في أبين الضلال، وأخبل صاغر

الخبال، والحمد لله كثيرا رب العالمين على ما أبان من حججه على الملحدين.
فكيف -يا ويله- يلحد ملحد؟! أو يهن أو يضعف لله موحد؟! ودرك
السموات والأرض وما بينهما من الخلق بالعيان، والعلم بالله سبحانه فمدرك
بأوضح من ذلك من العلم والإيقان، واليقين بالله فما لا يشاركه ولا يختلط به
أبدًا شك، وعلم الأبصار والعيان والحواس فعلم بين الإنسان والبهائم مشترك،
وقد تعلم البهائم وتدرّك بما جعل الله لها من حواسها من السمع والبصر كل ما
يدرك مدرك بالحواس من جميع البشر.

وكيف - ويلهم - يرتابون أو يلحدون أو يعتقدون من الشك في الله والشك
بالله ما يعتقدون والله يقول جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا
لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ
إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾
[السجدة]؟ والولي فهو النصير المانع، والشفيع فهو الطالب الشافع.

فأخبر سبحانه أن تدبيره وصنعه من العرش لما بعد عنهم كتدبيره وصنعه لما
قرب في الأرض منهم، وأن بعد ما بين العرش - وهو ذرى السموات العلى -
وبين ما تحتهن مما ترى أعينهم من الأرض الأولى مقدار ألف سنة كاملة مما
يعدون، وأن الأشياء كلها لا تبعد عنه كما يستبعدون، وكيف يبعد عنه سبحانه
من الأشياء شيء، وإنما ينشئ منها ما ينشئ إذا أراد له إبداء أو إعادة بأن يريده
سبحانه إرادة بعد إرادة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل].

وكيف يشك ملحد في صنع الله للأشياء كلها أو فيما يرى من دق الأشياء أو
جلها وقد يرى كيف أحكمت فاستحكمت، وانقادت للصنعة فتقوم، ودلت
على ما فطرت، واضطرت كما اضطرت، فكلها مصرف مضرور، وجميعها بدع

مفطور، لا يمتنع من القهر والذلة والخشوع، ولا عن ما أبان الله فيه من أثر صنعه، كل مصنوع لا ينظر منه ناظر إلى طرف ولا يلتفت إلى كنف إلا وجد أثر الصنع فيه واضحا بينا، ووجده بصنع الله له مخبراً مبيناً.

ولما ثبت اضطراراً بما لا تدفعه العقول مما لا مزية فيه، وبما جميع العقول كلها مجمعة عليه، أن لكل ما يرى أو يسمع أو يشم أو يذاق أو يلمس أو يتخيل فيتوهم مدبراً لا يخفى تدبيره، ومؤثراً بينا لكل ذي عقل تأثيره، ثبت وجود خلاف المدبر، مدبراً غير مدبر، ووجود خلاف المؤثر، مؤثراً غير مؤثر، لا يمكن غير ذلك علماً، ولا يتخيل خلاف لذلك فهما؛ لأنه لما كان ما وجد من الأشياء كلها مدبراً وصنعاً وخلقاً مفتطراً [بدعاً]^(١)، احتيج إلى علم مدبره ومفتطره، وثبت يقيناً وجود المفتطر المدبر بما وجد من تدبيره ومفتطره، فلا بد كيفما كان النظر في ذلك فارتفع أو لم يرتفع من أن يثبت مدبر صانع لم يُدبر ولم يُصنع، وذلك فما لا يوجد أبداً غير الله جل ثناؤه، وتقدس بكل بركة أسماؤه، فهو الله الصانع غير المصنوع، والأول المبتدع غير المبدوع.

ولما كان كل عزيز من ذل إنما يعز في بعض لا في كل، وكان العز كلا وبعضاً، ولم يوجد العز كله لواحد محضاً - أيقنا أن بعض العز مملوك للمليك، وأيقنا أن كل العز لمالك غير ذي شريك، لأنه لو كان له فيه شريك أو له معه مليك لكان إنما له بعضه لا كله، فرجعنا إلى الخطة الأولى، وعاد العز ذلاً، إذ كان مشاركاً فيه، لأنه إنما له أحد شطريه، وذلك يردّه إلى أن يكون عزيزاً ذليلاً، وأن يكون ما يستكثر من عزه قليلاً، لأن نصف العز أقل من ضعفه، وضعف العز أكثر من نصفه، وما ملك غيره من أحد شطري العز فليس له بملك ولا عز معز، ولكنه لمالكه دونه، ليس له شيء منه، فكلاهما ذليل وإن عز، وغير محرز من العز إلا لما

(١) غير موجود في مخطوطة برلين.

أحرز، وجميعها قليل عزه؛ إذ لم يملك العز كله فيحرزه، فليس العزيز الذي لا يذل إلا من له العز الذي لا يقل، بأن تشاركه فيه الشركاء أو أن تنقسمه بملكها له الملكاء، وذلك فهو الله العزيز الأعلى، يهب لمن يشاء عزا ويذل من يشاء إذلالاً، ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك]، كما قال سبحانه: ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج]، مع ما في القرآن من هذا ومثله مما يكثر عن أن يحيط كتابنا هذا بتفسيره أو جملة.

[الدلائل على أن الله تعالى لا يشبه الأشياء]

فأما دلائله لنا سبحانه على أنه خلاف للأشياء، ولكل ما يعقل في جميعها من العجزة والأقوياء، فقولته سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، وما ليس كمثله شيء فهو خلاف لكل شيء. وقوله سبحانه في سورة التوحيد والإفراد، بعد تنزهه فيها سبحانه عن الوالد والأولاد: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، ومن لم يكن له كفؤاً أحد فهو خلاف لكل أحد، وما كان خلافاً للآحاد كلها كان خلافاً اضطراراً لأصلها، لأن الأصل في نفسه وتحاده فهو غير شك جميع آحاده، فالله سبحانه هو خلاف الآحاد المعدودة وجميع ما يعقل من الأصول الموجودة، وهو الله الصمد الحق الذي ليس من ورائه مصمد يصمد إليه صامد، والله الملك القدوس الذي ليس من ورائه ملك ولا قدوس يجده واجد، والله الأول قبل الأوائل المتقدمة، والعظيم قبل جميع الأشياء المعظمة، فليس واحد، والله الأول قبل الأوائل المتقدمة، والعظيم قبل جميع الأشياء المعظمة، فليس قبله أول موجود، ولا بعده معظم معمود، ومن وراء كل عظيم عظيم حتى ينتهي إلى الله الذي ليس من ورائه عظيم، وفوق كل ذي علم عليم حتى ينتهي إلى الله الذي ليس فوقه عليم. والصمد: فهو النهاية القصوى في الوجود، وفيما يرغب إليه فيه في الآخرة والدنيا من كل محمود. والأحد: فما ليس له قبل ولا بعد يفترقان فيه، وما لا

تجري مدد الدهور والأزمان عليه، لأنه إن افترق فيه القبل والبعد زال من صفة الأحد والصمد؛ إذ هما فيه اضطرابا مفترقان، فهما عليه بالمقارنة لا شك متداولان، لا خلوة له من أحدهما، يجري عليه من المقارنة ما يجري عليهما من أحدهما، ويزول عنه من الوجدانية ما زال عنهما، ولا يتوهم أبداً خاليا منهما.

وكذلك ما جرت عليه مدد الأزمان والدهور غيرته تغييرها لغيره من الأمور، كما قال الله سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد]، فأوليته سبحانه آخريته، وباطنيته ظاهريته، لا يختلف من ذلك ما وصف به كما لا يختلف سبحانه في نفسه.

وكذلك أسماؤه كلها الحسنى، وأمثاله كلها العلى، فأسماءه لا تتناهى، مرسله مطلقة، مجتمعة كلها فيه سبحانه لا مفترقة، ليس لاسم منها حد محذور، ولا لمثل منها حصار محصور، فيكون الحد حيثئذ للمحدود ثانياً، وما حُظِر^(١) بالحد من المحدود متناهما، ولكنه كما قال سبحانه: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم]، ولا لن يوجد له سمي؛ إذ لا تجد الأبواب له كفياً، وكما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]، وكذلك هو سبحانه؛ إذ لا تجد له الأبواب مثلاً، وما قلنا به في هذا من دلالة التفاضل فموجود والحمد لله لا ينكره عقل عاقل، ومضطرة الأبواب إلى علمه لا يدفعه إلا متجاهل، مع ما لا نأتي عليه وإن بلغ تعديدنا، ولا نستقصيه وإن جهد تحديدنا، من لطيف شواهد معرفة الله سبحانه وجلالها، وما جعل الله من شواهد المعرفة به ودلائلها.

وكفى بما ذكرنا لمعرفة الله عز وجل علماً منيفاً شامخاً، وعلماً بالله يقينا في النفوس ثابتاً راسخاً، لا يدفعه إلا بمكابرة للعقول ملحد، ولا يصدف عن الإقرار به إلا معاند ملد^(٢)، والحمد لله الذي لا يهتدي للخير أبداً إلا من هداه،

(١) في (ب): حصر بالحد.

(٢) ملد: شديد الخصومة. (إكمال الإعلام بتبليث الكلام).

ولا يصيب الرشد إلا من آتاه إياه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء]. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام].

فقلبُ الإيمان من كل عصيان اليقينُ بالله وبعلمه، وإبراء الضمائر من توهمه، فإنه لا تجول أوهام المتوهم إلا في كل ذي صورة وتجسم، ومن توهم الله جسماً فلم يصب بالله علماً، ولم يقارب من اليقين بالله شيئاً، ولذلك كان حشو العامة من اليقين بالله براءً، ولما التبس بقلوبهم وأنفسهم من ذلك واعتقاده اقتادهم وليهم إبليس بالمعصية في قياده، فحثوا له بالعصيان لله سراً عَنَّا^(١)، وآثروا رضاه على رضا الله إذ لم يؤمنوا به فسقاً، فبدلوا معالم أموره، وعموا عن ضياء نوره، ثم لم يزدادوا في العمى عن الله إلا تمادياً، ولم يجيبوا له إلى الهدى من الهادين إلى الله داعياً، وعدوا إساءتهم فيما بينهم وبين الله إحساناً، وكفرهم بالله ورسله وكتبه إيماناً، وجعلوا لله مثل السوء ولهم المثل الأعلى، فتبارك الله عما قالوا به عليه وتعالى، ونسبوا إلى الله سبحانه جور الحكم، وبرأوا أنفسهم من الجور والظلم، وهم بما نسبوا إليه سبحانه من الجور والظلم أولى، وله سبحانه لا لهم المثل الأعلى، ومثل السوء فلهم كما قال سبحانه وهم كاذبون: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ [النحل]. وقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل].

ولعمري ما آمن بالآخرة مصداقاً، ولا وُجد لما حقق الله منها محققاً - من أكذب وعدها ووعيدها، وأنكر من جزاء المحسن والمسيء عتيدها، والله يقول سبحانه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ

(١) العنق بفتحيتين: ضرب من المسير فسيح سريع. (مصباح).

مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١﴾ [يونس].

ويقول سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٢﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٤﴾ [النجم].

ويقول سبحانه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٥﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ﴿٦﴾ [النساء].

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٨﴾ [النساء].

ويقول سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿٩﴾ [الكهف]، وعدا من الله ووعيدا، وجزاء من الله للفريقين عتيدا، لا تكون الآخرة أبدا إلا وهو معها، ومن أنكره ودفعه أنكر الآخرة اضطرارا ودفعها، وله جعلت الآخرة وثبتت، وثبتت باقيا معها أبدا ما بقيت، ولو أمكن فناؤه لأمكن فناؤها، وما بقيت الآخرة بقي معها جزاؤها، فبقاء كل بكل معقود، وكل من الله فوعد^(١) موعود، لا يدخله أبدا كذب ولا خلف، ولا يزول من أوصاف الله فيه بصدق الوعد وصف.

ولا أكفر بالآخرة وأمرها وما ذكر الله من بعث الأمم وحشرها ممن زعم أن

(١) في (أ): وعد.

الله يحكم يومئذ فيها بغير العدل، ويقضي بين أهلها فيها بغير قضاء الفصل، فيعذب من عذب فيها بأمور هو حمل المعذب عليها حتى لم يجد من ارتكابها بدا، ولا عما ارتكب منها مصدا، وإن عمل ما شاء الله فيها وارتضى، وحكم الله به منها وقضى، عذب بألوان العذاب وعوقب بأشد العقاب.

فوصفوا الله بإخلاف الميعاد، ونسبوا إليه ما تبرأ منه من ظلم العباد فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق]، وقال سبحانه فيما قالوا به عليه من إخلافه في الوعد والوعيد: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء]، وقال سبحانه: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرْفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر]، وقال تبارك وتعالى في حكمه يوم القيامة بين الخلق بعدله، وقضائه يومئذ بين العباد بعدل فصله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ يَعْلَمُ خَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَفْضُلُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر]، وقال سبحانه: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقُضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا [المزمل]، يقول تبارك وتعالى [هذا] (١) يوم القضاء بالعدل الذي كنتم به تكذبون: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ [الصافات]، فلعدله سبحانه في الحكم وتعالیه عن كل ظلم وُفِقُوا فَعَرَفُوا، وبعد

(١) ساقط من (أ).

المسألة صرفوا إلى ما استحقوا من الجحيم واستوجبوا من العذاب الأليم.

فاستقبل حشو [هذه] (١) العامة ما بين الله من هذا كله بجحده، وجأهروا الله وأولياؤه علانية برده، فكلما دعاهم المهتدون ليهتدوا استكبروا عن الهدى وصدوا، وكلما ذكروهم بالله ليذكروا أعرضوا عن تذكيرهم بالله وفروا، فكلهم مصر مستكبر، مول عن الهدى مدبر، كأنهم في ذلك بفعلهم وما أصرروا عليه من جهلهم قوم نوح إذ يقول فيهم، صلى الله عليه لا عليهم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴿٣﴾ اسْتَكْبَارًا ﴿٤﴾﴾ [نوح]، فكلهم عدو للصادقين على الله مكذب، وفؤاد كل امرئ منهم عن الإيمان بالحق منقلب، وذلك إذ لم يؤمنوا به أول مرة، وكانوا به إذ سمعوه عند الله من الكفرة، ألم تسمع إلى قوله سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَخَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام]، فقوله سبحانه ﴿يَشَاءُ﴾ إنما هو خبر عن قدرته عليهم، وقوة سلطانه تبارك وتعالى فيهم، ولو أنه شاء لمنعهم من المعصية فكانوا (٢) به مؤمنين، إذ كان الإيمان عندنا إنما هو أمان من عصيان العاصين، ومن منعه الله من المعصية جبراً فمأمون عصيانه، وإذن كان الإحسان في ذلك المنع إحساناً لله لا إحسانه، وكان فيما منع منه من المعصية غير مطيع لله، ولا مستوجب لثواب من الله؛ إذ منع من المعصية بجبر، وحمل على الإيمان منه (٣) بقسر.

(١) ساقط من (أ).

(٢) في (أ): وكانوا.

(٣) في (أ): منها. وفي نسخة: بها.

[أول ما يبتدئ به طالب فعل الصالحات]

فابتدئ - يا بني - في طلب فعل الصالحات واكتساب الخيرات إذا ابتدأت - بطلب اليقين بالله وحقيقة العلم لله، فإنك إن تفعل اهتديت لكل بركة وخير، وظفرت بالحظ الكبير، وأمنت بإذن الله من العمى، ورويت بمعرفة من الظمأ، وشاركت الملائكة المقربين في عبادتهم، وازددت مما يمكنك من فعل كل خير مثل زيادتهم، وأنسك يقينك بالله من كل وحشة مرعبة، واكتفيت بصحبة الله من كل صاحب وصاحبة، وخفَّ عليك من عبادة الله عبء الأثقال، فكنت إماماً للصالحين في صالح الأعمال، فدانت بالبر أعمالك، وصدَّق قولك في الخير فعائلُك، فكنت إلى الله حبيباً محبباً، وكان سمت الصالحين لك سمتاً، ومن وإلى الله من أوليائه لك ولياً، وما رضىه من الأشياء عندك رضىاً، ورأيت السوء حيث كان سوءاً، واتخذت عدو الله عدواً، وكنت من خاصة الله وخلصانه، وأهل العلم بالله وإيقانه، وانفتحت لك بعد اليقين بالله أبواب العلوم، وكنت في الأرض قيماً من قومة الحي القيوم، فقرت بالله عينك، وتَزَيَّدَ كلَّ يوم بالله يقينُك، وانشرح بمعرفته صدرُك، وعز بأمره سبحانه أمرُك، فلم تهب ولم تخش غيره، ولم ترج من الخير إلا خيره، وعلمت أنه سبب الخيرات الأول، وأن بيده الفضل الكبير الأطول، فأمنت بإذن الله مسكنة الفقراء، وامتلأت يدك من الغنائم الكبرى، وكنت على ملوك الدنيا ملكاً، ونجوت بإذن الله من هلكة الهلكى.

ففي طلب اليقين بالله يا بني فادأب، ومن رجوت عنده على اليقين بالله عوناً فقارن واصحب، فإنهم ألقاء كل رحمة، وقرناء كل حكمة، لا يرغب لبيب إلا فيهم، ولا تنزع^(١) نفس حكيم إلا إليهم، فمن لم يكن منهم فأعرض عنه واتركه، ومن كان منهم فاشدد به يديك^(٢) وأمسكه، فإنه بلغني أن حكيماً من

(١) نزع إلى أهله نزاعاً ونزوعاً بالكسر ونزوعاً بالضم: اشتاق. (قاموس).

(٢) في (أ): يدك.

الحكماء قال لبعض من كان له علم كثير من القدماء: يا هذا، لا ترين أنك علمت شيئا وإن علمت كل شيء ما لم تكن عالما بالله الأول الحي، الذي هو سبب كل خير كان أو يكون، والذي تعالى عن أن يلحق به حركة أو سكون. ثم قال: يا هذا، إني كنت قبل أن أعرف الله أروى وأظما بالطباع، ولما عرفت الله رويت بغير طباع.

نعم، روي فشفي بالهدى من حرّ الغلّة والصدى، ولما صار إلى اليقين بالله تبارك وتعالى الذي هو سبب الخيرات الأول الأعلى غني بالله غنى الأبد، وصار إلى الغنى الباقي المخلد، وسكن اضطراب نفسه وقلقها؛ إذ علمت يقينا أن الله هو ربها وخالقها.

وبلغني أن حكيمًا آخر من حكماء الأولين كان في أمة تعبد الأصنام من الأمم الخالين كان يقول: من أيقن بالله إيقاناً نقياً لم يزل بالله في عاجل الدنيا ما بقي غنياً، وأيقن ليقينه بالله بكل حقيقة علم معلومة، وأدرك ليقينه بالله من العلوم كل ذات سر مكتومة، فاطلع بما ينور الله من قلبه على خفي سرها، وأمن أن تتعبده الدنيا برق مسكنتها وفقرها.

وبلغني أيضاً عن بعض من تقدم وخلا من الأمم السالفة الأولى أنه كان يقول: لا يشك أحد ولا يمتري ممن خلا ولا ممن بقي في أن من جهل الصانع كان للعقوبة مستوجبا مستحقا. نعم، ولم يؤمن عندي أن لا يكون ممن يعرف من الحقوق كلها حقاً، إلا معرفة فاسدة مختلطة مقصرة من التحقيق أو مفرطة؛ لأن من جهل ما كثرت دلائله وشهوده، ووجد بمظاهر الآيات فلم يُدفع وجوده - حري حقيق وجدير خليق أن يكون بكل شيء جاهلاً، وأن لا يعتقد من علم شيء طائلاً، أما رأيت العامة لما هي فيه من الجهل بالله الأعلى - إذ جهلت ما قلنا مما كثر الله على معرفته الأدلاء كيف قلّت بحقائق الأمور علومها، وضلت بعد جهلها بمعرفته حلومها، فقالت في دينها بكل قول متناقض

مذموم، لا يصح لفحش تناقضه في الأبواب ولا الحلوم، فهي فيه دائبة تحبب كل عشواء، وصادة عن سبيل كل تقوى، ترى معتقد باطلها فيه حقا، وزور قوها فيه على الله صدقا، وقبيحها فيه حسنا جميلا، وجهلها به علما جليلا.

فمن جهل الله تبارك وتعالى فلن يدرك بحقيقة من الأشياء إلا شبهها أو خيالا، ولن يزال متحيرا في الأمور خباطا، ومقصرا في حقائق العلوم أو مفراطا، لا يقر به قرار علم فيسكن، ولا يذل لمحق في حجته^(١) فيذعن، ولا يزال مفتريا على المحقين كذابا، ومدعيا من الباطل دعوى عجبا، ليس لها من الله سبحانه تصديق، ولا يشهد لها في الأبواب من برهان تحقيق، وإن كانت في نفس مدعيها ذات حقيقة وبرهان فإنها في حقائق الأمور كسراب القيعان، كما قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٣٦﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ٣٧﴾ [النور]، انظر كيف يمثله لإغفاله فيما يراه حقا من باطله بأمثاله من ذوي الظمأ، وبمن ينظر في الظلماء فلا يرى يده ولا يكاد، فكيف يقود أو ينقاد له في الظلماء منقاد، إلا أن يكون مثله عميا لا يرى لعمى قلبه شيئا، فهو ينقاد في ظلمة وعشوى لمن لا يبصر ولا يرى، ولمن أثر الضلالة على الهدى، فهو متورط في ورطات الردى، يركب بعضه في كل هوة بعضا، رافض لكل حقيقة علم رفضا، لا يسمع لكتاب الله به نداء، ولا يقبل من الله فيه هدى، مُجَبَّةٌ به في خبوت الضلال ركائبه، عظيمة عليه في هلكة الدين والدنيا مصائبه، غير متحفظ من هلكاته بحفظ، ولا متعظ من عظات الله بوعظ، غلق بين أطباق خطيئاته،

(١) في (أ): حجة.

غرق في بحور عماياته، لما عطل من يقين علم الكتاب، ورضي بصحبته من شكوك الارتياب^(١)، فبالله - يا بني - فعذ من موالاته والرضا بما رضي به من تعطيل ما عطل من كتاب ربه وآياته.

وإذا أردت أن ترى عجائب الأنباء والأنبياء، وتعلم فضل عدل حكم الله في الأشياء، فاسمع من الكتاب ولا تسمع عليه، واكتف بحكم الله على العباد فيه، فإنك إن تسمع عنه بأذن واعية، ثم تقبل عليه منك بنفس لحكمه راعية - تسمع صوتاً منه بالهدى صيتاً، وتعرف من جعله الله حياً ممن جعله ميتاً، فلعلك حيثئذ عند معرفتك به للأشياء تهرب من الميتين وتلحق بالأحياء، فتجد طيب طعم الحياة، وتثق بالقرار في محل النجاة، فتنزل يومئذ منازل العابدين، وتأمين الموت حيثئذ أمن الخالدين، ففي مثل ذلك فارغب، وله ما بقيت فانصب، فللرغبة فيه وللحرص عليه استنزل إبليس أباك آدم فأغواه، وبالخلد في معصية الله مناه، فقال له ولزوجه معه: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف]، وفي ذلك: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف]، ﴿فَدَلَّاهُمَا - كَمَا قَالَ اللَّهُ - بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وكذبها فيما مناهما به من الأمور، فأعقبا برجائهما في المعصية لله ندماً، ونسي آدم صلى الله عليه، ولم^(٢) يجد الله له عزماً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه]، فلو لم يعص الله للبت فيها أبداً، ولو أطاع الله في الشجرة لبقى فيها مخلداً.

فكذلك يبقى فيها يوم القيامة وفي الآخرة الباقية الدائمة من أطاع الله في هذه الحياة الدنيا، وقام بما يجب له عليه فيها من التقوى، فيدوم في الجنة له النعيم والتخليد، ويبقى له ما هو فيه من نعيمها فلا يبید، فطاعة الله مفتاح الخلد في الجنة،

(١) في المطبوع: ورضي من صحبته بشكوك الارتياب.

(٢) في (أ): فلم.

واليقين بالله مفتاح كل طاعة وحسنة، فأيقن بالله تحسن، وأحسن لله تؤمن.

واعلم يا بني أنك لن توقن حتى تعرف الموقنين، ولن تؤمن حتى تؤمن للمؤمنين، ومن الموقنين أبوك إبراهيم خليل الرحمن، والمؤمنون فمن آمن من الكفر وكبائر العصيان^(١)، وأعمال الموقنين من البر فدليل على إيمانهم، وترك المؤمنين للكفر وكبائر العصيان فحقيقة إيمانهم، فاسمع يا بني لخبر الله الذي لا خبر كخبره عن يقينهم، وما كانوا يعملون به لله في دينهم من الصالحات، ويسارعون فيه من الخيرات، فإنه يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ^(٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ^(٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ^(٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ^(٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ^(٦١)﴾ [المؤمنون].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ^(٦٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ^(٦٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ^(٦٤)﴾ [الأنفال].

ويقول عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٦٥)﴾ [النور].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ^(٦٦)﴾ [الحجرات]. وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا

(١) في (أ): من كبائر الكفر والعصيان.

وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴿[السجدة].

انظر كيف وصفهم الله سبحانه في الخشوع والدين بما نسبته مما سكن قلوبهم من حقيقة اليقين، فأولئك هم الذين وصفهم الله بالإيمان وحلاًهم، وسماهم به في كتابه ودعاهم، ولهم أوجب الجنان والرحمة، ومنه استحقوا الرضوان والعصمة، فمن خرج من صفتهم ونعتهم فغير مؤمن ولا نعمى عين^(١)، ولا مستوجب من الله الرحمة ولا الرضوان في يوم الدين، وداره غير دار المؤمنين، ومثواه من النار مثوى الظالمين.

وقد زعم غيرنا أن من لم يؤمن كبير عصيانه فيكون لأحد منه أمان بإيمانه ممن ذكر الله بالإيمان وحلى - أنه ولي الله سبحانه فيمن تولى، خلافاً على الله ومشاقة، ومجانبة لكتاب الله ومفارقة.

وزعم أن الله لا يعذب من اقر به وبرسله وكتبه بلسانه وإن ارتكب كل كبيرة من كبائر عصيانه، تمنيا على الله وافتراءً، واستكباراً عن تبيانه، واجترأ.

فاسمع يا بني لقول الله في خلافهم، وما وصف فيما زعموا من خلاف أوصافهم، فإنه يقول سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿[النساء]، فلم يرض سبحانه منهم له بالتحكيم دون ما وصف من الرضا والتسليم، فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقالوا هم: بلى - خلافاً على الله - هم مؤمنون!! والإقرار بالله ورسله غير الرضا والتسليم لحكمه، فأى خلاف لقاتل أو اختلاف، أو فرط عن قول بغير حق أو إسراف - أين مما تسمع وترى مما قالوه جرأة وافتراء.

(١) نعمة عين: أي قرّة عين، ونعم عين ونعمى عين. (نهاية).

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور]، واستأذنانهم له غير إقرارهم بالله وبرسوله، فأين ما قالوا في الإيـان ووصفوا مما قال الله به إن أنصفوا؟! والله يقول سبحانه: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [النور]، استأذنتك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتأبث قلوبهم فهم في ربهم يترددون﴾ [التوبة]، فالله يقول: لا يؤمنون بالله إن استأذنوا وهم يقولون: بلى إن أقرؤا فقد آمنوا!! فأى مجاهرة لله بخلاف، أو مقالة بغير حق في إسراف، أبين على الله خلافا، أو في قول بغير حق إسرافاً من قول هذا مخرجه وسبيل أهله في القول ومنهجه؟! أو ما سمعوا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال]، يخبر سبحانه أنهم إن لم يطيعوا أمر رسوله ويقبلوه ويفعلوا ما يأمرهم به أن يفعلوه فليسوا مؤمنين به، لا ولا بالله ربه، ولا برسول الله وكتبه. أو ما سمعوا لقوله سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال]، يقول سبحانه لمن شهد من المهاجرين والأنصار بدرًا، وكان له ولرسوله من عدوهما متصرا: إن كنتم بما وصفت آمتتم فأمضوا ما به أمرتم، فإن لم تمضوه على ما نزلت من حكمه فليستم بمستحقين لثواب الإيـان ولا اسمه.

فأى حجة لمحتج أقوى أو ضياء نور أضوأ فيما اختلفنا ووصفنا وصفنا مما تلونا جملا لا تأويلا، ووحيا أنزله الله تنزيلا؟

فاسمع في ذلك يا بني عن الله تنزيل وحيه، وما نزل فيه صراحا مكشوفاً على نبيه، فإنه يقول سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور]، فالله تبارك وتعالى يقول: وما أولئك بالمؤمنين، وهم يقولون: بلى إذا كانوا بالله وبما جاء من عنده مقرين!! وإنما أخرجهم الله من الإيمان بتوليهم، وبذلك نزل وحيه فيهم، وعليه عاتبهم لا على إنكار، ألا ترى أن قولهم: آمنا قول إقرار لم يدعهم إليه ولم يعاتبهم فيه.

فاعرف الحق يا بني ومن خالفه، فإنك تعرف حيثئذ الحق ومن ألفه، واعلم أن معرفة الحق قسمان معلومان، وجزآن عند المحققين مقسومان:

أحدهما: معرفة الحق في نفسه ونعته، وما أبانه الله به من ضياء بيته.

والآخر: معرفة ما خالفه من الباطل، والبراءة إلى الله من جهل كل جاهل، فاعرفهما جميعاً تعرف الحق وتوقنه، وتعرف قبح كل أمر كان أو يكون وحسنه، ولا تغتر بهما جهلاً، ولا تكن لواحد منهما معطلاً، فتجهل بعض الحق أو تعطله، ولا يؤمن أن تركب بعض الباطل أو تفعله، ومتى لا تعرف الباطل لا تتبرأ من أهله، ومن لا يتبرأ من المبطل حل من السخط في محله، ومتى تجهل بعض الحق لا تؤمن من البراءة من المحق، ومن تبرأ من المحققين تبرأ الله منه، ومن أعرض عنه المحققون -سخطاً- أعرض الله عنه، والمحققون من خلق الله فهم المؤمنون، والمؤمنون فهم البررة الرحماء المتحابون، والمتحابون فهم المحبون في الله لمن أحبهم وتولاهم، والمعاذون لمن حاد الله ربهم ومولاهم.

فاسمع يا بني لما ذكر الله في ذلك سبحانه عنهم، وعرف أوليائه في ذلك منهم، إذ يقول لا شريك له: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة]، ويقول سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ

وَرَسُولُهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَتَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ؕ وَلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ؕ وَلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦١﴾ [المجادلة]. ومحادثة الله تبارك وتعالى في حدوده خلاف المخالفين فيما حدد من أمره وعهوده، فالله يقول سبحانه: {لَا تَجِدُ} وهم يقولون: بلى هم كثير موجودون، والله يشهد سبحانه ومن قبله وحيه على خلاف ما عليه يشهدون. وما في كتاب الله من بيان خلافهم وشهادته بغير أوصافهم فكثير بمن الله جم، يخص من بيان الله فيه ويعم.

وليس لقلة ذلك ولا عسره^(١)، ولا لملتبس لبس من أمره ضل القوم عنه ولا تاهوا، ولكن لما سن فيهم ملوك بني أمية وشبهوا، ولقهر بني أمية لهم عليه بسلطانهم قوي عليهم فيه سلطان شيطانهم، فألفوه حتى أنسوا به لطول الصحبة، وعز فراقه في أنفسهم لما كان يكون في خلافة من الأنكال المعطبة، ولكما كان من جهله يومئذ لديهم منكلاً محروماً عاد مجهوله يومئذ فيهم بعد جهله معلوماً، ثم خلفت من بعدهم أخلاف السوء، التي أتت عداوتها للإسلام من وراء عداوة كل عدو، فكانت أكلف بما سن لها أسلافها كلفاً، وأسرف في الاحتجاج للباطل سرفاً، فالله المستعان للمحققين عليهم وفيهم، وفيما خالفوهم فيه من حكم ربهم عليهم، فقد أصبحوا وأمسوا عن الحق بكما وصما وعميا، وصاروا هم وأئمتهم من بني أمية لأنفسهم في ذلك داء دويا، لا يقبل شفاء الأدوية، ولا يسوغ فيه ولا ينفع دواء الأشفية، كما لا يسوغ في البكم ولا في العمى ولا في الصمم دواء ولا شفاء أبداً، إلا أن يكون الله بشفائه متوحداً، وكذلك داؤهم من الجهل والضلالة والكفر فلن يشفى منهم إلا بإكراه من الله

(١) في (أ): عبيره. أهـ يقال: قوم عبير، أي: كثير. (منجد).

لهم على الإيمان وجبر، وذلك فما لا يكون منه بعد أن أمرهم، ولأنه لو كان منه بجبر لكان لا إيمان لمن جبرهم، وإذا كان له لا لهم، وكان فعله لا فعلهم، لأنه منه لا منهم، فالإحسان فيه له دونهم.

فهذا يا بني فاعلمه^(١) من أمرهم، ومما هم فيه من جهلهم وكفرهم.

واعلم يا بني أن جهل الناس بالله وبدينه، وما هم عليه من العمى عن الله وعن تبيينه - يُدْعَى جَهْلًا مَضْعَفًا^(٢)، وعمى مُتَبَرِّأً مُتَلَفًا، لا يرجى إلا بالله لأهلها منها سلامة، ولا يزدادان على صاحبهما طول الدهر إلا مداومة، وإنما قيل في الجهل: إنه مضعف لأن صاحبه لا يعرف ولا يعرف أنه لا يعرف، فجعله هذا جهلان، وهلكته بجهله هلكتان، بل لو قيل إن جهله هذا جهل مضعف أضعاف ثلاثة متراكبة لكانت مقالة من قال ذلك في جهله صادقة غير مكذبة، لأنه جهل فكانت تلك منه جهلاً، ثم جهل أنه جاهل فكانت تلك لجهله مثلاً، ثم رأى أن جهليه جميعاً علماً فكان ذلك منه جهلاً ثالثاً وظلماً.

وإنما قيل: إن عماء عمى متبر متلف ليس له إلا بالله عنه زوال ولا تكشف لأن صاحبه لا يألم به ولا يجده، فهو يزيده دائباً ويمده؛ إذ لا يجد له في نفسه ألماً، ولا يعد عماء فيه عمى، فلذلك ما ازداد داؤه وقل من عماء شفاؤه، ولو وجده فلمسه أو ألم بألمه فأحسه لطلب له الشفاء، ولما كان متبراً متلفاً، ولو طلب - ويله - طب ما به من دائه عند من جعل الله عنده طبه من أهل الحق وأوليائه لوجد عندهم من ذلك شفاء له شافياً، ونورا لما عدم من بصره كافياً، ولكنه أصر عن آيات الله مستكبراً، وعد عماء عن الله وعن تبيينه بصراً، فكانت مقالته على الله كاذبة، ونفسه فيما بينه وبين الله للأثم كاسبة، كما قال الله العليم بإصرار المصيرين في أمثاله من الأئمة المستكبرين: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَقَاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ

(١) في نخ: فاعرفه.

(٢) في (أ): مضاعفاً.

تُثَلِّ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴿الجاهلية﴾.

فكذلك هو فكما قال، وإلا فمن سخره؟ هل ادعى تسخير ذلك أحد قط أو ذكره؟! لا، ولو ادعاه مدع إذاً لكان كذبه مكشوفاً، ولكان بكذبه في كل قرن خلا أو بقي من القرون موصوفاً، وما ادعى ذلك فرعون في جهله وعتائه، ولقد ادعى غيره في (١) ملكه لنظرائه وما ادعى لهم خلقاً ولا صنعاً، ولو ادعاه لكان ذلك كذباً مستشنعاً، وإنما تأويل قول فرعون: (أنا ربكم الأعلى) أنا سيدكم ومليكم لا ما قال موسى، ولم يرد أنا لكم رب خلاق، ولا أنا لكم إله رزاق؛ لأن كل رب في لسان العرب فسيّد ومليك، ولا سيما إذا كان وليس له عند نفسه فيما ملك شريك.

أولا تسمع يا بني وترى أنه لم يزعم أنه رب لغيرهم من أهل القرى التي لا ملك له عليها ولا سلطان له فيها، فلما لم يوقن بغيره، ولم يستدل على الله بتدبيره، وكذب من الله بما لم تره عيناه، وكان كل من صدقه مثله لا يوقن إلا بما عاينه ورآه، وما كان لذلك مثلاً ونظيراً— قال: أنا ربكم ومليكم، ولم يدّع لهم صنعاً ولا تدبيراً، صغراً منه وتضاًؤلاً عن تلك ودعواها، فلما صغر عنها وتضاءل كان ادعاؤه لسواها مما يدخل به وفيه غلط وامترأ، وما يمكن في مثله له عندهم

(١) في (نخ): من.

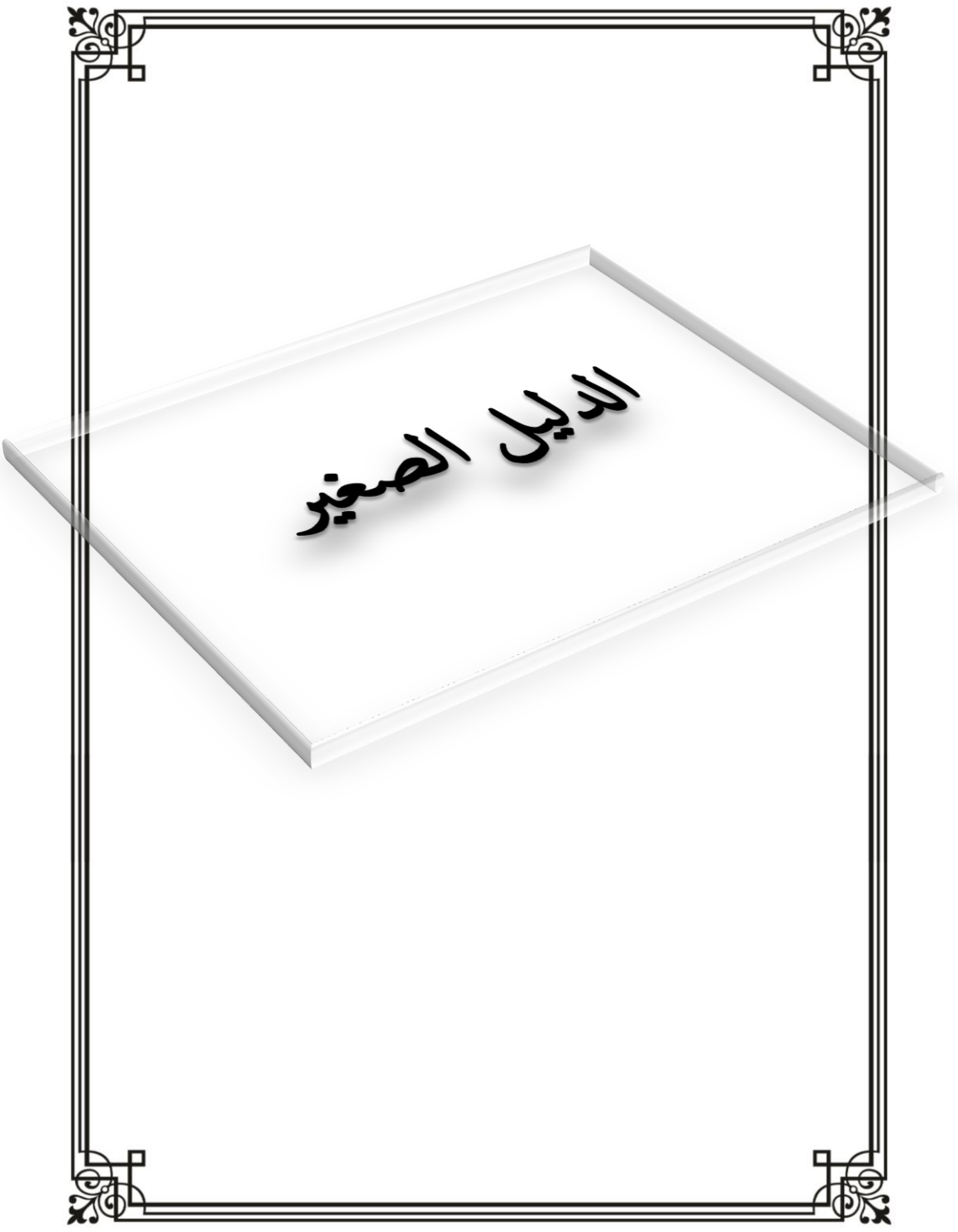
الادعاء، ولو ادعى فيهم خلقاً أو انتحل لهم رزقا لما اعترتهم في كذبه مع تلك
 مرية، ولا أعمتهم من الشبهة في أمره معمية، ولكنهم لما لم يوقنوا بالله وتديبره،
 ولم يقرؤا إلا بما رأوا مثله^(١) من فرعون وغيره وأنكروا ما لم يروا أو يكون مثلاً
 لما رأوا فدفعوه، جاز عندهم لفرعون ولهم في فرعون ما ادعوه، فنحمد الله الذي
 حسر كل من أيقن أو تحير عن أن يدعي من صنع الله وإن جهله صنعاً، فيكون
 فيه لشبهة أو تحير لمبطل مُدَّعى، وإن كان أثر التدبير فيه بأنه صنع مصنوع باديًا،
 وكان هدى الله فيه لمن لم يهتد إليه بالهدى مناديا، فنداؤه بإحداث الله له أعلى من
 كل علي، وتبديده^(٢) بأنه صنع الله وتديبره أبدى من كل جلي، فتبارك الله أحسن
 الخالقين خلقاً، وأحق جميع^(٣) الحقائق متحققاً، الذي لم يزل ولا يزال، ومن له
 الكبرياء والجلال، رب الأرباب المعظمة، وولي كل إحسان ونعمة، الأول الذي
 ليس كمثله شيء، وهو القوي العزيز القهار الغلاب، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ
 إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران]، وصل على
 جبريل أمينك، وعلى ملائكتك المصطفين، وعلى محمد رسولك، وعلى جميع
 الرسل والنبیین، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد خير خلقه
 أجمعين، وأهله الطاهرين وسلامه.

تم كتاب الدليل بمن الواحد الجليل

(١) في (أ): رأوا أو مثله.

(٢) في نخ: ونداؤه.

(٣) في (أ): وأحق في جميع.



الدليل الصغير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال أبو محمد الحسن بن القاسم رضي الله عنه:

سألت أبي رضي الله عنه عن الحجة على من ألحد في الله تمرداً، وجهل المعرفة بالله حيرة وتلذداً، فظن أنه موقن بمعرفة رب الأرباب، وهو من ظنه لذلك في مرية وحيرة وارتباب، فكثير أولئك، ومن هو كذلك، وإن هو لم يظهر ما في قلبه من الحيرة والجهل بربه، جل جلاله وسلطانه وظهر دليل الإيقان به وبرهانه. فقال: إنما يستدل يا بني على إيقان الموقنين بمعرفة رب العالمين بطاعتهم لله وتقواهم، فبهما يعرف يقينهم بالله وهداهم.

ولذلك يا بني وفيه ومن الدلائل عليه قول الله سبحانه لرسول الله صلوات الله وسلاماته عليه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، وآياته سبحانه فهي وحية وتنزيله، وشواهد الإيقان به ودليله، والإيمان فمن الإيقان، وهو الأمان من كبائر العصيان. وأكبر الكبائر عند الله وعند الصالحين من خلق الله فهو الإنكار لله والإلحاد في الله، والارتباب في معرفة الله.

وفي ارتياب المرتابين وصفة الله للمؤمنين ما يقول أرحم الراحمين: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤]، ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وفي الحيرة والمرية والشك والارتباب ما يقول سبحانه لأهل إضاعة طاعته

والغفلة والتقصير والألعاب: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿١﴾ [الدخان]، فأخبر تبارك وتعالى بلعبهم عن شكهم في ربهم، ودل بذلك على أن من اشتغل عن طاعة الله بلعبه فليس من الموقنين مع ذلك بالمعرفة بالله ربه.

وفي قلة اليقين بالغيب وما يعرض للجاهلين فيه من الريب ما يقول الله سبحانه فيما قص من نبأ قوم نوح وعاد وثمود وآدم وقوم لوط وأصحاب الأيكة، وما أحل بهم بعد ما أراهم من الآيات والدلالات البينات من التدمير والهلكة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [الشعراء]، ففي كل ما قص الله من ذلك لمن يعقل فيوقن ببيان من الله فيما ذكرنا من قلة اليقين وتعريف وتفهم، واليقين بالغيب فإنما يكون بما يدركه الفكر لا بما تدركه العيون، فمن لم يفكر بقلبه فيما غاب عنه لم يؤمن أبدا بشيء منه.

والآية في كل ما كانت من الأشياء فيه فهي الدلالة البينة المستدل بها عليه، ومن استدل بالآيات على ما غاب صح له به يقينه وإن لم يره ولم يبصره لغيبته عنه، وكان أصح عنده صحة وأوضح له ضحة من كل ما وضح من الأمور كلها فاستنار، وأيقن به كما يوقن بالليل والنهار، بل كان أصح عنده في الإيقان من كل ما أدركه برؤية أو عيان، لفضل درك اليقين على درك الرؤية والعين، ومن لم يفكر لم يؤمن ولم يبصر، وإنما يوقن من فكر، ويبصر من نظر، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الروم: ٨]، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، تنبيهاً من الله بذلك كله لهم على أن يوقنوا فلا يمتروا فيما عرفهم الله سبحانه من نفسه بآياته، ودلهم على معرفته من غيب أموره بدلالاته، فليس يوصل إلى معرفته واليقين به وما احتجب عن العباد من غيبه إلا بما جعل من الدلالات وأرى من الآيات، كما قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٦﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ
 مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٥٧﴾ [فصلت]، ولقاؤهم لربهم فهو
 مصيرهم ومرجعهم إليه، وليس بلقاء رؤية ولا عيان، ولا يمكن شيء من ذلك
 فيه؛ لبعده سبحانه في ذلك وغيره من مماثلة الناس وغير الناس، وتقديسه وتعاليه
 عن أن ينال أو يدرك بحاسة من الحواس، وإنما تدرك معرفته وتنال - له القدس
 والكبرياء والجلال - بما بين من الدلائل والآيات لقوم يعقلون، كما قال سبحانه:
 ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة]، فليس بعد تبين الله بيان تكون به
 معرفة ولا إيقان.

والحمد لله على ما بين من آياته، وأوضح من دلالاته، ونستعين بالله على اليقين
 بمعرفته، ونعوذ بالله من الإلحاد في صفته.

وفي مدحة الله سبحانه للأبرار بما آمنوا به مما غاب عن الأبصار، واستدلوا
 عليه بالنظر والأفكار من غيب المعرفة بالله وإيقانه، وما لا يدرك أبداً من الله
 برؤيته جهرًا^(١) ولا عياناً، وما لا يصاب فيه أبداً حقيقة العلم واليقين إلا بما
 جعل الله عليه من الشواهد والدليل المبين، هو أحق حقيقة وأوثق وثيقة وأثبت
 يقينا وأنور تبيناً من كل معاينة كانت أو تكون أو رؤية، أو درك حاسة ضعيفة
 أو قوية، ما يقول الله سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾
 الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، تبرئة من الله لهم فيما غاب عنهم في جميع
 أموره من كل شك وريب.

وفي الاستدلال على الله بما يرى ويبين من آيات الله ما يقول أبوك إبراهيم
 خليل الله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾
 [الأنعام: ٧٩]، احتجاجاً على قومه في غيبه بما يرون من فطرة الله في سماواته وأرضه

(١) في نخ: جهره.

وتوقيفاً، ويقول صلى الله عليه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ
وَعِبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ
يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي
يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء]، فكل ما ذكر صلى الله عليه وعدد من خلق الله له
وهده، وإطعام الله له وسقيه إياه، وإبراء الله له من مرضه وشفائه، وإماتة الله له
وإحيائه فبدائع موجودة، وأفعال بيّنة معدودة، لا ينكر موجودها ولا يجهل
معدودها، من المدركين لها من أحد ألحد فيها أو لم يلحد، وإنما ينكر من أنكر
صنعها، ويجهل من جهل بدعها، فأما العدد لها والوجود فبين فيها محدود، لا
ينكره منكر، ولا يتحير فيه متحير.

وكل ذي عدد وكل ما حد بحد فالدليل على صنعه تعديده، وعلى أنه محدث
تحديده، وإذا كان ذلك كذلك وجد الصانع المبدع عند وجوده، والمحدد له
المحدث بما بان فيه من حدوده، لأنه لا يكون أبداً حدث إلا من محدث موجود،
ولا يكون حد أبداً إلا من مفرّق محدود، كما قد رأينا في ذوات الحدود من كل
مفرّق موجود، لا يمتنع من درك ذلك ويقينه وعلمه إلا من كان مكابراً فيه
لحسه ووجهه.

وإنما أراد إبراهيم صلى الله عليه بما عدد من ذلك وذكر ما ابتدع من ذلك كله
وصنّع وافتطر مما لا صنع فيه لصانع مع الله، وما لم يوجد شيء فيه قط إلا من الله،
فأما ما يصنع العباد بعد صنع الله من أخذ وعطاء، وما يدور في ذلك بينهم من
الأشياء، فلم يرده إبراهيم صلى الله عليه، ولم يعدده ولم يذهب إليه، وكل ما كان
من العباد في ذلك من الصنائع فغير صنع الله في الابتداء والبدائع، صنع الله
سبحانه فابتداع، وصنع العباد فاحتيال واصطناع، وصنع الصانع غير صنع
الطبايع، صنع الطبايع صنعة مبتدعة مطبوعة، وصنع الصانع فصنعة معتملة
مصنوعة، والصنعة لا تكون إلا في مصنوع، والطبيعة لا تكون إلا في مبدوع،

والمبدوع فما طبع من غير شيء، وكان من غير أصل ولا بدي، وذلك كله وأمثاله فما لا يصنعه إلا الله جل جلاله، ولا يدركه أبداً ولا يناله صنع الخلق ولا احتياله. ولو كان ما صنع وابتدع تبارك وتعالى من ذلك من الأرضين والسموات العلى، وجعل من الليل والنهار، وما مزج بقدرته من البحار، وما أرسى من الجبال، صنع أكف واحتيال - إذاً لما قدر بذلك على صنع أفعله، فضلاً عن صنع جميعه وكله، في وقت من الأوقات وإن طال أبداً، بل وإن كان الوقت منه^(١) ممتداً سرمداً، ولكنه تبارك وتعالى صنعه وأنشأه فابتدعه كله وفطره فطره واحدة فبراه، كما قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة]، ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، وفي أقل ما ذكر الله من ذلك وجعل لمن فكر ونظر فاستدل دليل مبين وعلم يقين.

وأي دليل أدل على الله وعلى اليقين بالله من افتطار الله للسموات والأرض، وما جعل منا ومن الأنعام أزواجا بعضها لبعض، فجعل سبحانه ما ذكر من الأزواج أصولاً، أنسل منها بقدرته نسولاً، لا يحصيها أبداً غيره، ولا يمكن فيها إلا تدبيره، فأبي دليل أدل لمن فكر فاستدل على اليقين بالله مما يراه عياناً من صنع الله للأزواج المجعلة المحدثه، وما خولف به في ذلك بينها من الذكورة والأنوثة؟ فجعل ذكور الأزواج غير إناثها، دلالة بذلك على جعلها وإحداثها، وكان ما عوين بعدها من ذرو نسلها وتكثيره دليلاً على حكمة صانعها وتدبيره، وآية أبانها منيرة مضيئة، ودلالة بينة جلية لمن فكر ونظر فأحسن^(٢) بقلبه على الله خالقه وربّه، فأيقن لفكره فيما يراه ببصره وما يدركه بمشاعره بالله مقدره

(١) في (نخ): فيه.

(٢) في نخ: فأحسن.

ومدبره، فظفر باليقين والهدى، وسلم من الحيرة والردى، فاستراح ووثق واطمأن، واعتقد المعرفة بالله وأيقن^(١)، فخرج بيقينه^(٢) من الظلمة والمرية والشك؛ إذ أيقن بالله ملك كل ذي ملك.

وفي مثل ذلك من الخلق والإحداث لما ذكر الله من صنعه للذكور والإناث ما يقول سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠]، فملك جميعهما وما يرى من بديعها فمعين موجود لا يخفى ولا يتوارى عن كل من يعقل ويبصر فيرى، وكل ملك صح دركه رؤية وإيقاناً فلا بد من درك مالكة باليقين وإن لم ير جهرة عياناً. وكل مفترق في الخلقة والصنع والفطور مما ذكر سبحانه من الإناث والذكور، فوجد كما وجد افتراقه، وبان فطرة صنعه وفطرته واختلافه فلا بد له اضطراباً - إذ وجد كذلك جهازاً - من مميز فارق، ومفتطر خالق، لا يشك في ذلك ولا يحمله إلا من لا عقل له.

فلخلق الله تبارك وتعالى لما شاء فرق بين ما خلق من الذكور والإناث وأنشأ، فوهب لمن يشاء إناثاً ووهب لمن شاء ذكوراً، وجعل كلا على حياله خلقاً مفطوراً، غير مشبه بعضه لبعض، كما السماء غير مشبهة للأرض، ووهب لمن شاء ذكوراً وإناثاً معاً، فجمع ذلك له بموهبته فيه جميعاً، وجعل من شاء من الرجال والنساء عقيماً لا يلد ولداً، ولا يكون منه ولد أبداً، إلا بعد تبديله الإعقام وتغييره، وبحداث يحدثه في ذلك من صنعه وتدييره، كما فعل سبحانه في امرأة زكريا، وما وهب لهما^(٣) من يحيى، صلى الله عليهما وعليه، وما من به عليهما من ذلك وفيه. وما وهب لإبراهيم صلى الله عليه من الولد بعد يأسه منه، وكبره

(١) في نخ: والإيقان.

(٢) في نخ: بنفسه.

(٣) في نخ: لها.

صلى الله عليه، وفي ذلك ما يقول ﷺ ذكراً وحمداً وشكراً بما وهب له تبارك وتعالى في ذلك من الموهبة والنعماء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم].

وفي حاجة الملك بالمكابرة والإفك لإبراهيم خليل الله، إذ يقول عليه صلوات الله: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فقال الملك بالمكابرة والكذب: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وإنما قال إبراهيم ﷺ من ذلك صدقا، ونطق في محاجته للملك بما نطق حقاً، لا شك فيه ولا مرية، ولا شبهة ولا ظلمة معشية، لأنه لما وجدت الحياة يقيناً والموت وجد بوجودها اضطرارا المحيي والمميت. ولما لم يجد الملك -صاغرا لليقين بهما والاضطرار- سبيلا لنفسه بحدثهما إلا المكابرة فيهما والإنكار، كابر لدادا ومباهة وجحادا، فقال: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، وكيف يكون محيياً أو مميئاً من لا يملك لنفسه حياة ولا موتاً؟!

وفي مثل ذلك ومن كان كذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ [الفرقان: ٣]، وفيما اتخذوا من تلك الآلهة الملائكة المقربون، وعيسى بن مريم ﷺ، وما كانوا من آلهتهم يعبدون، فقال تعالى: ﴿آلِهَةٌ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢]، فلما كابر الملك إبراهيم ﷺ من قوله بما كابر به به مباهة وإفكاً وزورا قال له صلوات الله عليه ورضوانه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وتأويل بهت هو: صمت وسكت عن الإفك والمباهة والجحود؛ إذ قرره صلى الله عليه بأمر معين موجود، لا ينكره إلا بمكابرة فاحشة عقل الملك ولا عقل غيره، لما فيه من بين أثر تدبير الله وتقديره، من تذليل الملك والتسخير،

في (١) دؤوب التحرك والمسير، جيئة وذهوباً، وطلعة وغروباً، فهي طالعة وغائبة لا تقصر، وجائية وذاهبة لا تفتقر، مختلفاً بها ما جعل الله من الليل والنهار، وما قدر بمسيرها من الأوقات والأقدار، وبما بان من ذلك وأنار لكل أحد بهت الذي كفر فلم يكابر ولم يحدد.

وكذلك قال موسى ﷺ إذ قال لفرعون حين قال له ولأخيه هارون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ [طه]، فدلّه صلى الله عليه على ربهما بأدل دلائل الهدى، من عطائه سبحانه خلقه من نعمه ما أعطاهم، وما من به جل ثناؤه من هداهم لكل رشد في دينهم ودنياهم.

وفيهما ذكر موسى صلى الله عليه من عطية الله خلقه ما أعطاهم من هداه لهم ورزقه ما يقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ويقول سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجنّة: ٣٢]، وفي هدايته لهم ما يقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ولفرعون ما يقول موسى ﷺ إذ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٤٤﴾ [الشعراء: ٢٤]، فلما أن قال له ذلك: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]، يريد ما تقولون؟ فقالوا لموسى ما قال، وسألوه عما سأل، فقال ﷺ لهم: رب العالمين ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، دلالة لهم على أن الله (٢) ربهم ورب آبائهم الأولين بما بين لهم ولغيرهم من تدبيرهم وإنشائهم الذي لا يمتنعون من وجوده في أنفسهم،

(١) في نخ: من.

(٢) في نخ: على الله.

وفي كل عضو من أعضائهم، بالنشأة البينة فيهم والتقدير، والهيئة^(١) الظاهرة عليهم والتصوير، فلما قطعه وقطعهم من حجة الله بما أسمعهم وأسمعهم خرج فرعون في المسألة والمجادلة إلى غير ما كان فيه من الجدال والمقابلة، فقال العمي الملعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء]، فرد عليه موسى ﷺ قوله بتبيين الحجة القاطعة له، فقال له ولمن حوله كلهم أجمعين فيما كانوا يتقاولون ويتجاهلون أو يجهلون^(٢). ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء]، فالمشرق والمغرب وما بينهما كله فمربوب لا يشك فيه إلا الجاهلون، لما يرى فيه ويتبين عليه من أثر الصنع والتدبير، والهيئة^(٣) البينة والمقادير.

فلما وقفه وإياهم على الآيات فلم يقفوا^(٤)، وعرفهم الدليل والبيّنات فلم يعرفوا، وأمسكوا عن المسألة والمقال خاسئين محسورين، قال فرعون: ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء]، فقال موسى ﷺ توقيفا له ولهم وتعريفا، وتقريرا للحجة عليهم وتعطيفا: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنَّ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ [الشعراء].

وبمثل احتجاج إبراهيم صلى الله عليه وموسى ﷺ على من ألد وأجحد وأشرك لم تزل رسل الله تحتج على من تحير في الله أو ارتاب أو شك، وذلك فيين والحمد لله فيما نزل من كتبه كثير، وقولهم في الاحتجاج على من جحد أو ألد أو أشرك فواضح منير، لا يطفأ له سراج، ولا يشبهه احتجاج، ولا ينكره من الخلق

(١) في نخ: والتهيئة.

(٢) في نخ: ويجهلون.

(٣) في نخ: والهيئات.

(٤) في نخ: يقفوا.

كلهم رشيد، ولا يابى قبوله من الخلق إلا شيطان مرید.

وما لم يزل الله برحمته وفضله يدل به من هذا ومثله في كتبه وعلى ألسن رسله فكثير عن الذكر له والاستقصاء والتعديد له والإحصاء في كتابنا هذا وأمثاله، فنحمد الله على منه فيه وإفضاله، ونسأل الله أن يجعلنا وإياك بما بصر من المبصرين، وفيما أمر بالفكر فيه من المفكرين.

اسمع يا بني، فقد سألت أرشدك الله للهدى، وجعلك رشيداً مرشداً، عن أولى ما سأل عنه سائل أراد لنفسه أو لغيره رشداً أو هدى، أو لمبطل كان فيما سألت عنه متحيراً أو ملحداً متمرداً.

فجعلنا الله وإياك فيما سألت عنه من القائلين بما يرضى منه، ووهبنا من البصائر بدلائله وآياته ما وهب للقائلين في ذلك من محبته ومرضاته، فإنه لن يصيب في ذلك هداه إلا من أرشده وهداه، ولن يظفر فيه ببغيته وطلبته إلا من كان متحرياً لإرادة الله فيه ومحبته.

وبعد، فاعلم يا بني نفعاك الله بعلمك، فكم من علم غير نافع، ومنادى له وإن كان صحيحاً سمعه غير سامع، وناطق في عداد البكم، إذ ينطق بغير رشد في الهدى ولا علم، وكم من ناظر لا يبصر ولا يرى، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف]، وقال سبحانه: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة]، فليس كل من علم انتفع ولا اتبع، ولا كل من نودي به سمع ولا استمع، ولا كل من نطق فكر، ولا كل من نظر أبصر، ولا كل من له قلب فقه ولا عقل، إذا هو أعرض وترك وغفل.

وفي أولئك ومن هو كذلك ما يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَآذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [٧٦]

[الأعراف]، فكفى رحمك الله بما نرى من هذا ومثله في كثير من الناس بيانا وآيات لقوم يعقلون.

وكيف لا يكون عند من يعلم أو يعقل كالأنعام من لا يهتم إلا بما لها من الهم والاهتمام، في مأكّل أو منكح، أو لعب أو متمرّح، فعلمه علمها، وهمته همتها، فهو مكب عليها، لا يرغب إلا فيها، ولا تنازعه نفسه إلا إليها، فلها يجتهد ويشقى، وبها يدعو ويدعى، غافلا عما شيب بمحابه فيها من الأذى والمكاره، غير متعظ بشيء ولا معتبر ولا متنبه، وقد يوقن إيقاناً ويرى بعينه عياناً أن ما يحب من دنياه وحياتها مشوب بموتها، وما يسر به^(١) من دركها مقرون بفوتها، فكم من مدرك بعد دركه فايت، وحي بعد حياته مايت، قد تبدد شمله، وأعرض عنه أهله، الذين كان يعدهم له أحباباً، ويكد لهم في حياته بجهدته اكتساباً، بما حل من المكاسب أو حرم، أو حمد من المطالب أو ذم، وكم قبل موته عنهم كان من مسخط له منهم، قليل له شكره، سيء له ذكره، ورثه ما جمع غير شاكر ولا حامد، يقول: لقد كان فلان غير مهتد ولا راشد، كما يقول أعدى الأعداء، وأبعد البعداء، يُعجّب بعض من يجالس بعد موت شخصه بما كان يرى من كده قبل موته وحرصه، وكم كان له قبل موته من خليل حبيب مقارن أسلمه عند وفاته لموته إسلام البعيد المبين، ولهى بعده بخليل جدّده، فكان لم يكن لمن مات إذ مات خدينا، ولم يعده بعد موته قرينا، بل كم من أب والد أو ولد حبيب واجد تعزى فسلا عمن مات وتولى، واشتغل بعده بأشغاله، وأقبل على ما يعنيه من حاله، وقال: هلك أبي ومات، أو ذهب ابني وفات، فما عسيت أن أصنع؟! وهل لي في الجزع منتفع؟! تسهيلاً في مصابه لما دهاه، وتفرغاً بمقاله لدنياه، فهذا في الوالد والولد وهما سلالة النفس والجسد كما تعلم وترى، فكيف

(١) في نخ: وما يشوبه. وهو تصحيف.

بغيره من الأمور الأخرى من المال والأثاث والفكاهات والأعباث؟! وفي الولد رحمك الله وفي المال ما يقول ذو الكبرياء والجلال لمحمد عبده ورسوله ﷺ: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة]، فجعل سبحانه المال والولد لهم عذابا في حياتهم وهما عندهم أثر ما يؤثرون، وما قال سبحانه من ذلك فقد رأيناه يقينا، وأدركناه فيهم ظاهرا مبينا، لا يشك فيما ذكر الله منه سبحانه ولا يمتري، ولا يجهله منا إلا من لا يعقل ولا يدري، أو ليس قد علمنا أن العذاب ألم ونصب وأتعاب، وقد رأينا من نصب أهل الأموال والأولاد فيها^(١) وشفقتهم ومحافظتهم عليهما ما يكثر به السهر والسهاد، ويقل معه الخفض والرقاد، فأبي ألم أوجع لفؤاد أو جسم، أو ادعى لمرض أو سقم من السهر والنصب والاهتمام؟! وقد يترك له كثير من الشراب والطعام.

والمال والولد فإنما هما كما قال الله سبحانه فتنة، والفتنة قد يعلم كل ذي لب أنها ابتلاء وتمحيص ومحنة، وفي الأزواج رحمك الله والأولاد - وهما أحب الأشياء إلى جهلة العباد - ما يقول رب العالمين لمن قال له من المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن]، فكل ما تسمع آيات بينات، ودلائل على الله متيقنات. فليس لمن يعقل الحياة الدنيا وحال أهلها وسكانها مع ما وصفنا من حال أحبائها وقرنائها وخلانها أنس ولا ثقة، ولا توكل ولا حقيقة إلا بالله وحده، وبالرغبة فيما عنده، وليس يأنس أبداً بالله إلا من صح يقينه ومعرفته لله، ولا يعرف الله جل ثناؤه فيوقنه إلا من يجد أنسه بالله وأمنه، فيكون عليه جل

(١) في نخ: من نصب أهل الأموال والأولاد فيها بشفقتهم ومحافظتهم عليها.

جلاله معتمده واتكاله، فتقر عينه، ويسلم دينه، ويعز فلا يرى خزيًا^(١) ولا ذلا ما كان على الله سبحانه متوكلا.

ولما جعل الله من ذلك في التوكل عليه أمر رسوله ﷺ به ودعاه إليه، فقال سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة]، والعرش العظيم فهو السلطان والملك، الذي ليس لأحد مع الله فيه نصيب ولا شرك. والتوكل فهو الاعتماد عليه والثقة به، وأصل توكل كل متوكل فهو اليقين والمعرفة بربه.

وفي التوكل على الله وذكره، وما عظم الله من التوكل عليه وقدره، ما يقول تبارك وتعالى لقوم يؤمنون: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن]، وفي التوكل على الله ما يقول رسل الله ﷺ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم]، فمن توكل على الله كفي بالله واستغنى، وعاش في دنياه مسرورا آمنا، غير مشوبة كفايته ولا غناه بحاجة ولا فقر في آخرته ولا دنياه، ولا مشوب سروره بحزن، ولا أمنه بخوف ولا وهن، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [١٣] لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس].

وكيف يخاف أو يحزن ولا يأنس فيأمن من كان الله معه؟ ومن حاطه ومنعه وإن مكر به الماكرون، وخذله من قرابته الناصرون؟

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [١٧] إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ

(١) في نخ: حزنا.

اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٧٨﴾ [النحل]، وأول التقوى والإيمان والبر والنهي والإحسان فهو حقيقة المعرفة بالله والإيقان، فمن أيقن بالله وعرفه أنس واستراح، وجمع بمعرفته لله السرور والأفراح، وقلت وحشته وأحزانه، وعظمت راحته وأمانه.

ومعرفة الله لمن أبصر سبيلها واستدل دليلها فأقرب قريب يرى علانية جهارا، أو يستدل عليه بدليل من دلائله اعتبارا، فالحمد لله الذي قرب إلى معرفته واليقين به السبيل، وأقام فيها وعليها برحمته الآيات والدليل، فسبيلها من الله سهل يسير، ودليلها (١) والحمد لله فظاهر منير، ينطق بهما (٢) البكم الخرس، في كل ما تدركه فكرة أو حس من كبائر الخلق وصغائره، وعوالن الصنع وسرائره، فلا ينبعث في أوصاف ذلك واصف ولا تمتعت (٣)، ولا يلتفت إلى شيء منه كله ملتفت، إلا رأى منه عيانا بعينه، أو سمع منه سماعا بإذنه، أو ذاق منه ذوقا بفمه، أو لمس منه لمسا بجسمه، أو شم منه شما بأنفه - ما يدُلُّ على تغيره وتصرفه، وعلى أنه مصنوع في نفسه، لدرك المدرك له بحسه؛ إذ كل محسوس يحس من الجن كان أو من الإنس فمركب لا بد مجموع، وكل مركب فهو لا محالة مصنوع، وصانعه ومدبره ومركبه غيره؛ إذ وضع صنعه وتركيبه وتدبيره. وما سوى الإنس والجان من كل موات أو حيوان فقد يدرك أيضا بحاسة من الحواس الخمس، وما يدرك بمباشرة الفكر من كل نفس فمركب لا يخفى على من فكر فيه تَرَكُّيبُهُ، وسواء في الفكر عنده بعيدة وقريبة.

والنفس فالدليل على تركيبها أنها ذات قوى شتى مختلفة وتبدل وتنقل وتصرف لا تخفى، فمن قواها - وإن كنا لا نراها هيئة تبين ولا صورة - أنها ذات

(١) ودليلها. (نخ).

(٢) بها. (نخ).

(٣) في نسخة: فلا يتعنّت في أوصاف ذلك متعنّت.

ذكر وفكرة، ومفكرها فغير ذاكرها، وإذا ثبت ما ذكرنا من تغيرها صح بذلك أن لها قوى [وكانت غير مصورة]^(١)، وكانت لذلك أقساماً وأجزاء، وكل ذي قسم وأجزاء متغيرة مصورة كانت أو غير مصورة فهو مركب غير شك، ومدبر في قدرة وملك، ولتركيبها تصرف وتنقلت، فعلمت مرة وجهلت، فتغيرت من جهل وطلاع إلى علم وصلاح، ومن حزن وترح إلى سرور وفرح.

وقوى النفس فكثيرة أقسام، ليس للنفس غيرها تتمه ولا قوام، ولا يزول قسم من أقسام النفس عنها إلا كان في زواله فناء ما كان موجوداً منها، فقوة النفس الأولى فهي القوة الغذائية، وقوة النفس الحاسة فهي قوتها الثانية، وقوتها الثالثة فهي الناهضة المتقابضة، وقوة النفس الرابعة فهي المالكة من الشهوة والغضب بالفكر لما ملكت، وأي هذه القوى كلها فني من النفس وهلك فنيت النفس بفنائه وهلكت، وكل قوة من هذه القوى فمقسمة أقساماً أجزاء.

ومن الدلالة على أن قوى النفس غير واحدة، وأنها قوى كثيرة ذوات عدة، ما ذكرنا من اختلاف أحوالها وتغيرها وانتقالها، وكل متغير فتركيبه نير، والتركيب فحدث بين، ولا بد لكل حدث من صانع محدث، لا ينكر ذلك إلا كل مكابر متعبد، ولا يكون حدث مصنوع مثل محدثه وصانعه أبداً، ولا مشبهاً له في شيء من الأشياء ولا ندأ؛ لأنه أبداً إن أشبه المصنوع الصانع في معنى واحد من معانيه جرى في ذلك المعنى^(٢) على الصانع من الحدث ما يجري عليه، صغر ذلك المعنى أو كبر، وقل فيما يدرك منه أو كثر، ولذلك جل الله سبحانه وتبرأ من أن يكون مشبهاً من خلقه لشيء مما يرى أو لا يرى، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام]، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، ويقول جل جلاله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ

(١) ما بين المعقوفين من (نخ).

(٢) في نخ: من المعنى.

إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴿البقرة: ٢٥٥﴾، فنفى سبحانه من قليل مشابهة خلقه في السنة ما نفى من كثيرها، تقدساً وتعالى عن صغير المماثلة لخلقه وكبيرها، فتعالى من ليس له مثل يكافيه، ولا ند من الأشياء كلها يساويه، ولا يشك فيه ولا يمتري إلا من جهل نفسه، فهي أقرب الأشياء إليه، وما يرى من السماوات والأرض خلفه وبين يديه.

وفي أولئك ومن كان كذلك ما يقول رسل الله صلى الله عليهم لمن أرسله جل ثناؤه إليهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، تعجباً وإكباراً وتفحيشاً وإنكاراً لشك الشاكين مع ما يرون من فطرة الله في السماوات والأرضين، التي لا تخفى ولا تتوارى عن كل من يبصر بعين أو يرى، ويحس^(١) بحاسة حساً، أو يتوجس وإن لم يحس توجساً؛ لأن كل أحد من الناس لا يخلو من حس أو إيجاس، والإحساس ما يحس المحس بحواسه، والتوجس فما يكون في النفس بالتوهم من إيجاسه، فكل ذي نفس أو درك يُحس بحس أو توجس بالأرض والسماء وبما له من الأعضاء، ففي إحساسه أو إيجاسه بأقل ذلك بغير ما مرية ولا شك ما دله على الصنع والتركيب، وعلى ما لله في ذلك من التدبير العجيب، الذي لا يكون أبداً أصغره إلا وهو دليل مبين على من دبره، لا ينكر ذلك أو يجحده من يحسه ويجده إلا بمكابرة ليقين نفسه، ومكابرة لدرك حسه، ومن صار إلى تلك من الحال خرج من حدود المنازعة والجدال، ولم ينازعه بعد ذلك ويجادله إلا من هو في الجهل مثله. ولذلك ما يقول الله جل ثناؤه لرسوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ۚ﴾ [النجم]، فأخبر سبحانه أن مبلغ من أعرض عن ذكره وتولى، ولم يرد -كما قال الله

(١) في نخ: أو يحس.

جل ثناؤه - إلا الحياة الدنيا في فهمه وعلمه بدنياه، وما يريده منها ويرضاه، مبلغ البهائم في علمها بدنياها، وما تريد البهائم فيها من متعتها ومرعاها، ومن أجل ذلك ولذلك، وإذا كانوا سواء كذلك، مثلهم الله من البهائم بأمثالهم، وجعلهم أضل من البهائم في ضلالهم، فقال سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ أَلَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥﴾ [الفرقان]، ثم جعل سبحانه الاستدلال عليه بذلك بينا منيراً، فقال تعالى ذكره في قبضه للظل: ﴿ثُمَّ قَبْضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦﴾ [الفرقان]، يعني سبحانه بـ {يسيراً} هيناً ظاهراً لا يخفى بينا. وقبض الظل فهو فناؤه وذهابه وانطواؤه، ولا ينقبض ويفنى ويذهب ويطوى شيء مما كان أبداً جميعاً كان أو فرداً إلا كان قابضه ومفنيه ومذهبه وطاويه موجوداً يقيناً بلا شك ولا مرية فيه، وشاهداً بصنعه لصانعه، ودليلاً عليه مكفياً في (١) علم غيب صانعه وإن لم ير بدرك اليقين من درك مشاهدة كل حاسة من عين أو غير عين. وزيادة الظل ومده فلا يكون إلا بمن يزيده ويمده، وإذا كان زائده وماده ومدبره لا تدركه العيون ولا تبصره، وإنما تقع العيون على صنعه وفطرته - كان ذلك أدل على جلاله وقدرته.

ثم أتبع ما صنع من مده سبحانه للظل وقبضه وتديره بما ذكر وفطر وخلق وجعل من غيره، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ ذُشُورًا ۝٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝٤٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ۝٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا

(١) في نخ: من علم.

كُفُورًا ﴿٥١﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥٢﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٤﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٥﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٧﴾ ﴿الفرقان﴾، فقرر سبحانه بذكر آيات الظل ودلائله ما تسمع من ذكر آيات خلقه وفطره وجعائله، رحمة منه ورأفة بعباده، وزيادة منه برحمته لهم من إرشاده^(١) للمعرفة به والإيقان، إذ لا يدرك بحاسة ولا عيان، ولا يعرف ماله من الكبرياء والجلال إلا بالشواهد والآيات والاستدلال، وكان دركه سبحانه بذلك أوضح^(٢) الدرك، وأنفاه لكل مرية وشك، لأن درك الاستدلال واليقين لا يدخل عليه ولا فيه ما يدخل من الشك في درك العين، لأن العين ربما رأت الشيء شيئين، كاهلال تراه هلالين، كالشيء الصغير إذا بعد تراه كبيراً، والكبير إذا كان كذلك تراه صغيراً، ودرك اليقين والاستدلال والأفكار فدرك بريء من كل شبهة وشك واحتيار، لا يزداد بالنظر والفكر إلا استيقاناً^(٣)، ولا يتيقنه فيما أيقن به من الأمور كلها إلا استحقاقاً، فدركه الدرك البت اليقين، وعلمه العلم المثبت المبين.

فمن تفهم يا بني - أرشدك الله - يسيراً قليلاً مما ذكرنا الله من آياته عليه دليلاً اكتفى بقليل ذلك ويسيره، كفاية كافية بإذن الله من كثيره، وكان في اقتصاره على اليسير القليل كفاية له في^(٤) التبيين والدليل، ومن ازداد في ذلك من الآيات

(١) في نخ: في إرشاده.

(٢) في نخ: أصح.

(٣) في نخ: استيقاناً.

(٤) في نخ: من التبيين والدليل.

والدلائل كان له في ذلك من المزيد أكثر -والحمد لله- مما يزيد في ذلك من كل مزيد، ولم يتقدم في الاستدلال فتراً^(١) إلا وجد منه شبراً، ولا في حسن النظر ذراعاً إلا وجد بعدها باعاً، بل يجد أبداً سرمداً زيادة في الدلالة ومدداً، يمد به استمده، ويدله على الله وحده، لما وسع الله في ذلك للمقربين برحمته، ووهب فيه للمستدلين من نعمته، ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، ولباس الشيء فهو ما غشيه وواراه، ونوم النائم فهو ما أسبته وأهداه، وكل فقد نعلمه ونراه.

والدليل على أن الله صنعه وأنشأه أنه لا يعلم له صانع ولا منشئ سواه، وأن نشأته بينة، وصنعتة نيرة، بما تبين فيه، ويشهد بتا عليه، بالنشأة والتدبير، والصنع والتقدير، من جيئته تارة وذهابه، ومفارقته وإيابه، وكل ما جاء وذهب وفارق وتأوب دل ذلك من حاله على تصريفه واجتماعه، وثبت مصرفه بما ثبت من تصريفه، وبما يرى بينا من اختلافه وتأليفه، ولم يكن مصرف أبداً إلا من مصرف، ولا تأليف ما كان إلا من مؤلف، وكذلك اللباس فلا يكون أبداً إلا من ملبس للباس، ولا النوم والسبات إلا من مسبت منيم بغير ما شبهة ولا التباس، لأن ذلك كله وآخر ما يدرك في ذلك وأوله صنع وجعائل لا تكون إلا من صانع جاعل، وفطرة وفعائل لا تكون إلا من مفتطر فاعل، وكذلك ما جعل الله سبحانه من النهار نشورا فلا يكون إلا صنعاً مفطوراً، لما يرى فيه من أثر الفطرة والصنع، وذلك فدلالة لا تخفى على الصانع المبتدع. وما أرسل تبارك وتعالى من الرياح بشرا بين يدي رحمته فلا بد من وجود مرسله وولي فطرته، وما أنزل سبحانه من الماء من أجواء السماء فلا بد من منزله، ومعرف رحمته فيه وفضله، لأن التفضيل لا يكون أبداً والرحمة إلا ممن له من ونعمة.

(١) الفتر بالكسر: ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة بالتفريج المعتاد.

وفي الماء وإنزاله وحدره من المزن وإهطاله ما يقول سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ١٨ ﴿عَأَنْتُمْ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ ١٩ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ٢٠ [الواقعة].

وما أحيا بمنزل الماء من موات البلاد، وما أسقاه من الأنعام وكثير العباد، فلا يمتنع فكر عند وجوده كله من وجود محييه وساقيه ومنزله، وما مرج فجلي من البحرين، فروي ممزوجاً رأي عين، كل بحر منهما مخلا يمعج^(١)، ولا ينقطع بعضه عن بعض ولا يعرج، متصلاً جميعاً كله، غير منقطع متصله، يسير في قرار موضعه وبين أطباقه^(٢)، وفيما بين حدوده التي جعلت له وأطرافه، قدر مسير مسافة شهر وربما كان أشهراً عدة، يعلم ذلك من سمع بخبره أو رآه فأبصره عياناً مشاهدة، فإذا انتهى إلى ما جعل الله له من الحد وقف عند حده وحاجزه، وما جعل بينه وبين البحر العذب الفرات من برزخه^(٣)، فلم يعد من حدوده كلها حداً، ولم يجد له معه مطلعاً ولا مصعداً، وفيما جعله الله له موضعاً ومقراً رحباً واسعاً، يرى طامياً فيه مشرفاً، يركب بعضه بعضاً ركوباً متعسفاً.

فأي عجب أعجب أو دليل أقرب لمن استدل بحقيقة من الحقائق على ما نرى من الصنع في الخلائق من رؤية هذا وعيانه، أو العلم به وإيقانه؟

وفي ذلك بعينه وفي دلالة تبيينه^(٤) ما يقول الله سبحانه: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١]، تذكيراً للمقرين بما يقرون، واحتجاجاً على المنكرين بما لا ينكرون إلا

(١) قال في لسان العرب: معج: المغج: شُرْعَةُ الْمَرْ. وَرِيحٌ مَعُوجٌ: سَرِيعَةُ الْمَرْ... وَمَعَجٌ فِي الْجُرْيِ يَمْعَجُ مَعَجًا: تَقَنَّ... وَمَعَجٌ فِي سَبْرِهِ إِذَا سَارَ فِي كُلِّ وَجْهِ، وَذَلِكَ مِنَ النَّشَاطِ. (منه باختصار).

(٢) في نخ: أكنافه.

(٣) في نخ: من برزخه وحواجزه.

(٤) في نخ: تبيينه.

بمكابرة وجحد لما يعرفون، من صنع الحاجز بين البحرين، وما بين لهم منه بأوضح التبيين.

ولصنع ذلك وبيان جعله، وما ذكر الله معه من صنع مثله، ما يقول سبحانه: أم من جعل ما لا تنكرون جعله وإن كنتم لا تعرفون الجاعل له، وإذ لا بد عندكم لكل مجعول من جاعله، وكما تعرفون ذلك ولا تنكرونه في كل مجعول وأمثاله، فلا تشكون ولا تتمرون في أن لكل ما ترون من ذلك وتبصرون جاعلا بتاً^(١) إيقانا وإن لم تروه عيانا- فمن جاعل الحاجز بين البحرين وفاطره، ومدبر ما يرى من ذلك ومقدره إلا من ليس له مثل ولا نظير، ومن لا يلغبه تدبير ولا تقدير؟ كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق]، وهل يدبر أو يفتطر أقل ما يرى من بدائع الله وصنعه سوى الله واهب أو موهوب؟ كلا لن يفتطره ويصنعه أبداً ويدبره سوى الله صانع معط ولا مانع، وإنما صنع من سوى الله إذا صنع أن يعطي أو يمنع أو يفرق أو يجمع أو يرفع أو يضع بعض ما ولي الله ابتداعه صنعا، أو كان من الله خلقا وبدعا.

وفي امتناع ذلك على المخلوقين ما يقول رب العالمين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج]، فأقل بدائع صنع الله تبارك وتعالى فما لا يخلقه ولا يصنعه أبداً غالب من الخلق ولا مغلوب، ثم زاد سبحانه بما ذكر من الآيات في سورة الفرقان من الدلالة والتبيين دلالة وبياناً وتبصيراً بقوله جل جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان]. والبشر الذين

(١) في نخ: بيت.

خلقه جل ثناؤه من الماء فهو ما لهم من الذرية والأبناء، ومنهم ولهم وفيهم وبينهم جعل سبحانه النسب والصهر لانتساب بعضهم إلى بعض، ومصاهرة بعضهم لبعض؛ لأن كلهم يتنسب إلى أم أو إلى أب، وليس آدم عليه السلام بمنسوب إلى نسب، لأنه لم يخرج صلى الله عليه من رحم ولا صلب، ولم يصاهر بصهر أحداً؛ إذ كان كل البشر له ولداً، والماء الذي خلق الله منه ولده ونسله فهي النطف التي لم تكن قبله، وفي ذلك كله وتصريفه وعجيب صنعه وتأليفه أدل الدلائل على مصرفه وصانعه ومؤلفه، وكل ما ذكر الله تعالى من ذلك ومعجبه فدليل على الله والحمد لله لا خفاء به.

ومن الدليل على معرفة الله والدواعي لليقين بالله فما لا يحمله بعد الإحساس له إلا جاهل عمي، ولا يحصيه من الخلق كلهم ولو جهد كل جهد محصي، من خلق السماء والأرض وغيرهما من الصنع والخلق، الذي في كل شيء منه على ناحيته وحياله آية ودلالة نيرة على فطرته واجتعاله. والفطرة والاجتعال هما الوصلة والانفصال، وليس من السماء والأرض وما فيهما ولا من كل ما يضاف من الخلق إليهما ما يخلو من تفصيل أو توصيل، وفي ذلك على صنعه أدل الدليل. وآيات الله فهن الدلائل على الله، والدلائل فهن العلامات المنيرات، والعلامات فهن الشواهد الظواهر البيّنات، وكل آية من آيات الله فهي علم بين للمعرفة بالله. والدلائل على الله المنيرة الزاهرة، والآيات في معرفة الله البيّنة الظاهرة - ففي كل ما تدركه حاسة من الحواس الخمس، من عيان أو سمع أو شم أو ذوق أو لمس، ومن تنزيل الله لذلك وفيه ومن الشواهد لله عليه، قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة].

وفي ذلك ما يقول جل جلاله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس]، فكان كما قال جل ثناؤه، وصدق وعده ونبؤه، خلق ما خلق في ذلك من الخلق، مما ذكر في خلقه من الحقيقة والحق، وفصل فيه تبارك وتعالى كما قال: لقوم يعلمون آياته تفصيلا، فجعل كل شيء منه له آية وعليه دليلا، فما ينكر شيئا من ذلك بمكابرة ولا يحجده، ولا يكابر الدليل فيه بمناكرة فيرده - إلا من لا يعقل ولا يعلم ولا يتقي، ولقلة تقواه لله شقي بحيرته فيه من شقي، وإنما يبصر ذلك ويتفكر فيه ويتنفع به المتقون كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس].

ألا ترى أنه ليس من المتحيرين في ذلك ولا من المنكرين ولا من الجاحدين له المكابرين من يرى أصغر صنع الصانعين بأكفهم - لو هنتهم عن الابتداء وضعفهم - فيمتنع^(١) من الإقرار بصنعه وصانعه، وإن كان صانعه برياً عندهم من ابتداعه، ومن أنكر ذلك عنده وكابر فيه فجحده خرج بإنكاره لأقله من العقل وصفة أهله، وقيل: ماله - ويله - ما أعماه وأجهله بما لا يجهله أحد صح عقله بما يرى ويعاين من صنع المصنوع وقد تبصره ورآه، ما هذا بصحيح العقل فيما ظنه ورآه؟ فكيف من أنكر أو تحير وأبى مكابرة عن أن يقر بما يرى من الصنع والتدبير في أكثر ما يراه أحد من الصنع الكبير، الذي لا خفاء فيه من القدرة والتدبير، والصنعة البينة والتأثير المنير، مما تقصر عنه الأفكار، وتنحسر فيه الأبصار، من الأرض والسماء وما بينهما من الأشياء، التي يدل اضطرها دركها على من يدبرها ويملكها، وعلى أن من صنعها وأنشأها إنما فطرها

(١) في نخ: فليمتنع.

وابتدأها، فابتدعها صنعا، وخلقها بدعا، يدل على ذلك فيبينه، ويوضح ذلك فينبيره ما يرى من كثرة ذلك وسعة أقداره، وما يعاين من بُعد ما بين أطرافه وأقطاره، مع ما فيه من لطيف التقدير والإحكام، وما له من طول البقاء والإقامة والدوام. فكل صنعه ولطيف تدبيره وتقديره وإحكامه، وما ذكرنا من بقاءه وإمساكه وإقامته ودوامه - دليل بين على صانعه ومحكمه، وممسكه بحيث هو ومديمه، وذلك فهو الله العزيز الحكيم، والمتقن للأشياء^(١) والممسك المديم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر]، فكل ذلك فقد جعله الله بحلمه ومغفرته قدرا مقدورا، ولا يكون القدر وهو القدر المقدور إلا وهو لا بد لربنا صنع وخلق مفطور، ولا يحدد ذلك أبدا ولا ينكره إلا من عمي قلبه وفكره.

فاسمع يا بني - هداك الله - لما بين في ذلك برحمته لخلقه^(٢) من الآيات الجليلات والدلائل المضيات، ففي أقل استماعه وفهمه عن الله واتباعه ما أغنى من فهمه وكفاه، وأبراه من كل داء حيرة وشفاه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس]، فإنك يا بني إن تفهم أقل آياته وما دل به على نفسه في ذلك من دلالاته حق فهمه تكن من الموقنين.

فمن ذلك - فافقه^(٣) مقاله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله -: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك].

(١) في نخ: لما يشاء.

(٢) في نخ: لما خلقه الله.

(٣) في نخ: فافهم.

فأخبرهم سبحانه من إنشائه لهم بما يرون عيانا ويبصرون، ومالا يقدرُونَ على إنكاره إلا بالمكابرة لما يرون، إذ الجعل والإنشاء إنما هو الزيادة والنماء، ولا خفاء عندهم ولو جهدوا جهدهم بما يرونه والحمد لله عيانا من زيادتهم في أنفسهم وسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم، كما قال سبحانه لهم في ذلك، فإنهم إنما كانوا على ما وصفهم كذلك، يزدون وينمون، ويشبون ويتمون، حتى عادوا رجالا بعد أن كانوا أطفالا، وصاروا كثيرا مذكورا بعد أن كانوا قليلا محقورا، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان]، وقد أتى عليه أن كان ترابا ثم نطفة ثم علقه، ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة، وفي ذلك ما يقول الله تعالى ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِّن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبِتَتْ مِّنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج] ذلك بأنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ [الحج] كما أحيا الأرض بعد همودها، وكذلك الله لا شريك له فموجود بها ذكر من الخلائق ووجودها، لا ينكر ذلك إلا بمكابرة، ولا يحجده ولا يدفعه من دله على صانع من الصانعين ما كان وإن غاب صنعُه.

ألا ترى يا بني أن من رأى كتابا علم أن له كاتباً وإن كان من كتبه عنه غائبا، وكذلك من رأى أثراً علم أن له مؤثراً، أو صورة ما كانت أيقن أن لها مصورا، أو سمع منطقاً علم أن له ناطقا، وكذلك ما يرى من هذا الخلق العجيب فقد يوقن من نظر وفكر أن له خالقا ليس له مثل ولا شبيهه، كما ليس بين صنعه وصنع غيره تمثيل ولا تشبيه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴿[الحج ٧٣]﴾، يخبر تبارك وتعالى أنه لن يفعل أحد فعله، وكيف يفعل ذلك من ليس له مثله^(١)، وإنما يكون تشابه الأفعال بين النظراء والأمثال.

وفيا وقف الله تبارك وتعالى عليه الإنسان بيانا من رؤيته لصنع الله فيه وخلق له عيانا قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس]، والنطفة فهي: الماء المهيّن، فإذا هو بعد أن كان نطفة وماء مهينا {خصيم مبين}، والمهيّن فهو المهان الذي لا قدر له ولا شان، وكذلك النطفة في صغرها ومهانتها وقدرها. وخلق الله لها فهو تهيّتها وتصريفه جل ثناؤه إياها الذي قد رآه من الناس كلهم من رآها، من نطفة وماء مهين إلى علقة، ومن علقة إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، وتخليق المضغة فهو تهيّتها وتقدير الصورة الآدمية لها وتسويتها، التي لا يكون أصغر صغير رؤي^(٢) منها إلا لخالق مهيء، ومقدر حكيم مسوي، لا يشك فيه ولا يمتري، وإن خفي عن العيون فلا يرى، وذلك فهو الله الذي ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام]، وكيف تدرك الأبصار من ليس له مثل ولا ند ولا كفؤ ولا نظير؟! لا كيف إلا عند جاهل عمي! شاك في جلال الله ممتري، لا يعرف ما بينه وبين الخلق من المباينة والفرق.

فكل ما تسمع يا بني فتعريف وتبصير وتوقيف وتصريف من الله الحكيم الخبير العليم الرحمن الرحيم لدرك معرفته واليقين به، من^(٣) حجج الفكر والاعتبار، وحجج الرؤية والمعينة بالأبصار.

وفي ذلك ما يقول تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ

(١) في نخ: بمثال.

(٢) في نخ: درك.

(٣) في مخطوطتين: بين حجج.

يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٦﴾ [العنكبوت]، فابتدأوه جل ثناؤه له فهو ابتداعه وزيادته وإنماؤه، وإعادته فهو إلى ما كان عليه، وهو محقه وتقليله وإفناؤه، وذلك كله فقد يراه ويعاينه ويبصره ويوقته من كان حياً مبصراً سوياً، كما قال لا شريك له، لا يجهله إلا من تجاهله، ولا يخفى إلا على من أغفله ممن لعنه الله وخذله، أو لم تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت]، وتأويل بدأ فهو كان ونشأ ونما فصار نامياً زائداً، ثم رجع إلى الفناء عائداً، فقل بعد زيادته، وبلي بعد جدته. فمن يعمى بعد عيان هذا عن اليقين بربه إلا من خذله الله فأسلمه إلى عمى قلبه، فكابر عيانه، وأنكر إيقانه، وهو يرى النور لائئحاً^(١)، والبيان ظاهراً واضحاً^(٢).

ومن البيان فيما قلنا^(٣) من ذلك، ومن الدليل على أنه كذلك قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم]، والضعف والشيب فهو الإفناء والتدمير.

تم كتاب الدليل الصغير، وصلواته وسلامه على رسوله سيدنا محمد النبي البشير النذير، وعلى أهله المخصوصين بالمودة والتطهير.



(١) في نخ: لائئحاً لا يخفى.

(٢) في نخ: واضحاً لا يطفأ.

(٣) في نخ: ومن بيان ما قلنا.

الدليل الصغير

(١) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، بالله أستعين وعليه أتوكل

الحمد لله القديم القائم، الحي الصمد الواحد، الذي لم يزل أولاً بلا توهم غاية ولا انقطاع نهاية، ولا حد يحد ولا أزمنة تعد، حمداً كما هو أهله، أما بعد: فإن سأل سائل عن العالم وما فيه من سمواته وأرضه وإنسه وجنه وما فيه من جميع أنواعه محدث هو أو قديم؟ خالق أو مخلوق؟

فالجواب في ذلك: أنه مخلوق ومحدث ليس بقديم، كان بعد إذ لم يكن، وله محدث قديم واحد ليس كمثله شيء، حي لم يزل ولا مكان ولا زمان ولا حيث ولا أين ولا سماء ولا أرض ولا شيء سواه تعالى عن شبه المخلوقين، المكوّن لكل تكوين، ثم خلق الأشياء وكونها بعد إذ لم تكن بلا تعب ولا نصب ولا حركة ولا سكون ولا مثال احتذى عليه، ولكنه ابتدعها ابتداءً، لا من شيء صنع، ولا من حاجة دبر، ولا من وحشة نزلت به قدر، فهو لا تعتريه الأحوال، ولا تختلف عليه الأزمان، ولا يناله ملالة فيسأم، ولا يخاف فوت شيء فيعجل، ولا يبعد عليه المدى، ولا يحل بذاته الفناء، هو عليم لا يرتاب، حليم لا يجهل، قائم لا يزول، لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو السميع البصير.

فإن قال قائل: ما دليلك أن العالم محدث ليس بقديم؟

قيل له: ما رأينا من تصرف أحواله واختلاف أنواعه وزيادته ونقصانه واختلاف ليله ونهاره دليل على أنه محدث ليس بقديم، وأن له محدثاً أحدثه وما فيه (٢)، ومصرّفاً صرفه؛ لما رأينا من حمل قواه وتلطفه (٣) واحتماله (٤) وهي الأشياء تصرف

(١) هذا في النسخة (أ) هو المسمى بالدليل الصغير والكتاب الذي قبله لا يوجد فيها، وكذلك هو موجود في نسختين أيضاً من نسخ مكتبة الجامع الكبير مسجلتين تحت الرقم (٧٠٩ - ٧٧١)، وفي بقية النسخ يوجد الأول. وقد رمزنا لهما أثناء التحقيق هنا برقم (١) للنسخة رقم (٧٠٩) ورقم (٢) للثانية التي برقم (٧٧١).

(٢) «وما فيه» ساقط من نخ (١، ٢).

(٣) في (أ): ولطفه.

(٤) في نخ: واحتماله وهي.

بكيفية^(١) اختلافها وتصريفها^(٢) وزيادتها ونقصانها؛ فبذلك علمنا أنها محدثة وأن لها محدثاً أحدثها ومصرفاً صرفها غيرها.

ووجه آخر: أنا وجدنا العالم وما فيه على كثرة أجزائه واختلاف أنواعه مقسماً قسمين ولم نجد إلى ثالث سبيلاً: إما جسماً وإما غير جسم، ووجدنا الجسم غير منفك من صورة من الصور مع التأليف والتركيب، فوجب بذلك أن مصوراً صورها، ومركباً ركبها، ومؤلفاً ألفها؛ قياساً على ما شاهدنا؛ إذ لم نجد صورة إلا ولها مصور ولا كتاباً إلا وله كاتب، ولا بناء إلا وله باني، فعند^(٣) ذلك علمنا أنها محدثة؛ إذ كانت لا تنفك من أن تكون مصورة مؤلفة.

ولما كان ما في العالم من الأجسام محدثاً لما وصفنا، وكان^(٤) ما لا جسم لا يقوم إلا بالجسم^(٥) - كان ما لا جسم أحرى أن يكون محدثاً [إذ كان لا يقوم إلا بالجسم، ولا يقوم الجسم إلا بمحدث، وهو الله رب العالمين]^(٦).

ووجه آخر: أنا وجدنا العالم جسماً ولا جسم، والجسم منه غير منفك من الحركة والسكون، والحركة والسكون محدثان، فوجب أن الجسم محدث؛ لأن ما لم يسبق الشيء فليس أقدم منه، وإذ لم يكن الجسم أقدم من الحركة والسكون فالحركة والسكون [محلها الجسم؛ إذ لم ينفك منهما ولا هما منه، فبذلك أوجب أنه محدث]^(٧).

(١) في (١، ٢): بكيفيته.

(٢) في (أ): وتصريفها.

(٣) في (أ): فبعد.

(٤) في (أ): فكان.

(٥) في (١): بجسم.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من (١، ٢) وفيها محله في (١): إذ لا يقوم إلا بمحدث وهو الجسم. وفي

(٢): إذ كان لا يقوم المحدث وهو الجسم.

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من (١، ٢) وفيها محله: محدثان، فقد وجب أن الجسم محدث.

ولعل السائل عند ذلك يقول: وما دليلك على أن الحركة والسكون محدثان^(١)؟

فيقال^(٢) له: الدليل على ذلك أن الحركة لو كانت قديمة كان الجسم الدهر متحركاً لا يسكن، فلما وجدناه ساكناً مرة ومتحركاً مرة علمنا أن حركته وسكونه محدثان؛ فلما كانت الحركة والسكون محدثين والجسم غير منفك منهما ثبت أن الجسم محدث؛ إذ كان لا ينفك من المحدث، وما لا جسم لا يقوم إلا بالجسم^(٣)، فهو أحرى أن يكون محدثاً؛ إذ كان لا يقوم ولا يوجد إلا في المحدث. فإن قال عند ذلك: فإن كان العالم محدثاً فما دليلك أن له محدثاً؟ ولعله أحدث نفسه دون أن يكون له محدث أحدثه؟

قيل له: إنا لم نر صورة من الصور إلا من مصوّر، ولا كتاباً إلا من كاتب، ولا بناء إلا من بان، ولم نجد الكتاب يكتب نفسه، ولا الصورة صورت نفسها^(٤)، ولا البناء بنى نفسه، فعلمنا أن العالم إذ كان محدثاً أنه لم يحدث نفسه، وأن له محدثاً أحدثه، قياساً^(٥) على ما شاهدناه؛ لأننا إننا نستدل بالشاهد على الغائب^(٦)، فلما أن كان في^(٧) الشاهد أن البناء لا يبني نفسه ولا الكتاب يكتب نفسه وأن^(٨) لهما كاتباً وبانياً علمنا أن المحدث لا يحدث نفسه، وأن له محدثاً أحدثه.

(١) في (١): وما دليلك على أن الحركة والسكون أنها محدثان. وفي (أ): وما دليلك أن الحركة والسكون محدثان.

(٢) في (أ): قيل له.

(٣) في (١): بجسم.

(٤) في (١، ٢): ولا الصور صورت نفسها.

(٥) في (أ): فقسنا.

(٦) كذا في المخطوطات، ولعلها: لأننا إننا نستدل على الغائب بالشاهد.

(٧) «في» ساقطة من (١، ٢).

(٨) في (أ): ولهما كاتب.

ووجه آخر: أنا وجدنا العالم وما فيه نوعين اثنين^(١): حياً وميتاً، ووجدنا ما كان منه حياً فأقواه على التدبير والطفه وأحيله الإنسان، ووجدنا الإنسان في حال قوته وتماحه وكماله عاجزاً عن الزيادة في نفسه والنقصان منها؛ فعلمنا بذلك أنه في حال القلة والنقصان عن إحداث نفسه أعجز وأضعف، وإذا هو من القوة على إحداث نفسه أبعد، مع ما وجدنا من ضعف الإنسان في حال بلوغه وكماله وقوته، وذلك أنه يسلب منه ما يجب غير ممتنع من ذلك، ويحدث به^(٢) ما يكره مضطراً إلى ذلك؛ فلا يزول عنه بكرهه ما يكره، ولا يبقى عليه ما يجب بإرادته، وكان في^(٣) ذلك أعظم الدلالة على أن له إلهاً محدثاً أحدثه [ومصوراً صورته]^(٤) ومصرفاً صرفه على ما أحب وكره.

وإذا كان أقوى الحيوان على التدبير وأحيله والطفه هذه صفته فما دونه أولى بالعجز عن إحداث نفسه، والموات أعجز أن يحدث نفسه إذا عجز الحيوان عن إحداث نفسه.

ووجه آخر يوضح فساد إحداث الإنسان نفسه: وذلك أن كل فاعل فعل شيئاً فمهوم منه ترك ما فعل، فلو كان الإنسان هو الفاعل لنفسه جاز أن يترك فعل نفسه، ولو توهمناه تاركاً لفعل نفسه توهمناه معدوماً؛ لأن كل متروك معدوم في حال تركه، وإذا أثبتناه تاركاً أثبتناه فاعلاً للترك، وإذا أثبتناه فاعلاً أثبتناه موجوداً؛ لأن الفاعل لا بد أن يكون موجوداً في حال فعله، وإذا كنا نقول: «إنه تارك لفعل نفسه» نفينا أن يكون موجوداً؛ لأن المتروك معدوم في حال تركه، وبقولنا: «إنه تارك» أنه موجود؛ لأن التارك فاعل للترك، والفاعل

(١) «اثنين» ساقط من (أ).

(٢) في (٢): فيه.

(٣) «في» ساقطة من (أ).

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

موجود في حال تركه^(١) وبقولنا: «إنه تارك» أنه موجود معدوم في حال واحد، وهذا ما لا يتوهم^(٢)؛ فلما لم يكن لترك فعل الإنسان لنفسه معنى وكان محالاً لما وصفنا استحالة أن يفعل نفسه؛ لأن كل شيء يتوهم تركه غير موهوم فعله، وبذلك علمنا أن الأشياء لم^(٣) تحدث أنفسها وأن محدثاً أحدثها غيرها. فإن قال: فإذا زعمت أنها محدثة وأن غيرها أحدثها فما أنكرت أن يكون أحدثها اثنان؟

قيل له: أنكرنا ذلك لأنهما لو كانا اثنين لكانا^(٤) لا يعدوان منازل: إما أن يكون كل واحد منهما قادراً على فعل شيء^(٥) يخفيه عن صاحبه، أو يكون كل واحد منهما غير قادر على إخفاء شيء من صاحبه، أو يكون أحدهما قادراً على فعل شيء يخفيه عن صاحبه والآخر غير قادر على ذلك منه؛ فالآخر عاجز، وإن كان كل واحد منهما قادراً على تجهيل صاحبه فذلك يدخلهما في صفة النقص وعلم الحدث وآثار الصنع؛ لأن الضعيف عاجز، والعاجز لا بد له من معجز يعجزه، وفي ذلك أيضاً إبطال قدمهما وإدخالهما في الحدث.

وإن كان كل واحد منهما غير قادر على أن يخفي من صاحبه شيئاً فهما عاجزان جميعاً^(٦)، والعجز يدل على حدثهما جميعاً؛ لأن العاجز لا بد له من معجز أعجزه أو محدث^(٧) أحدثه، وفي ذلك إفساد إحداثهما للعالم؛ لأنها محدثان^(٨)، ولا بد

(١) بدل «تركه» في نسخ: فعله، فهذا يوجب أنه موجود معدوم تركه.

(٢) في (٢): وهذا محال لا يتوهم.

(٣) في (أ): لا تحدث.

(٤) «لكانا» ساقط من (٢).

(٥) في نسخ (٢): كل شيء.

(٦) «جميعاً» ساقط من (أ).

(٧) في (٢): ومحدث.

(٨) في (٢): فلا.

للعالم من محدث واحد أحدثه.

وإن كان أحدهما قادراً على فعل شيء يخفيه من صاحبه والآخر غير قادر على ذلك منه فالقادر على ذلك هو الخالق العالم والمدير له، والذي لا يقدر على ذلك عاجز ضعيف مخلوق، وبعبارة وقدره صاحبه على تجهيله ثبت الصنع لواحد، فقد آل الأمر في ذلك لواحد ليس له نظير ولا عدل، وأن الذي أحدث الأشياء وخلقها واحد لا شبيه له تعالى علواً كبيراً.

فإن قال: فأخبرني عن الذي تعبدُ شيء أم غير شيء؟

قيل له: هو شيء لا كالأشياء.

فإن قال: قد شبهته بالأشياء بقولك: هو شيء.

قيل له: لم أشبهه بالأشياء؛ لأنه شيء لا كالأشياء، مخالف لها.

فإن قال: أو ليس قد أشبه الأشياء في معنى قولك: شيء؟

قيل: لا؛ لأن الأشياء لا تشبهه في الشيئية؛ لأن في قولي: شيء إثبات معنى

أخرجته من العدم، وليس في إخراجي لمشيئ الأشياء^(١) من العدم اشتباه ولا اختلاف.

فإن قال: فإذا^(٢) قلت: إنه شيء لا كالأشياء فكأنك قلت: هو شيء لا شيء.

قيل له: ليس في قولي: إنه شيء مخالف للأشياء دليل على أنه لا شيء؛ لأن

قولي: شيء إنما هو إثبات له وإخراجه من العدم، وقولي: لا يشبه الأشياء أن ذاته

مخالف لشيء آخر خارج من العدم، فقولي: شيء اسم يلحقه بخروجه من العدم،

وقولي: «لا كالأشياء» لأنه لا يشبه غيره من الأشياء.

فإن قال: زعمت أنه شيء لا كالأشياء فما أنكرت أن يكون جسماً لا

كالأجسام؟

(١) في (٢): في إخراجي للأشياء من العدم.

(٢) في (أ): فلم.

قيل له: أنكرنا ذلك لأن كل جسم فطويل عريض ذو أجزاء وكيف، والطول والعرض يدل على الحدث؛ لأن كل طويل قد يتوهم أطول منه، وما توهم أطول منه فله غاية، وما كان له غاية فهو ينقص عما هو أكبر منه من تلك الغاية، وكل مقصر فعاجز، والعجز عن الخالق تعالى منفي. مع أنه لو كان جسماً كان مشابهاً للأجسام؛ لأن الأجسام مخصوصة بضرب من الصفات كائناً ما كان منها، وهو الصورة والتأليف والطول والعرض، لا تنفك منه.

فإن قال: وكذلك قولك: إنه شيء يوجب أنه مشابه للأشياء.

قيل له: لا؛ لأن ذلك من قبل أن الشيء اسم يقع على كل موجود يختلف أو اتفق، وليس من معنى إلا وشيء يلزمه. وجسم أيضاً يخص^(١) به كل ذي هيئة وصورة، وذوو الهيئات والصور فمشتبهون.

فإن قال: فلم زعمت أن جسماً وجسماً يشتبهان وشيء وشيء لا يشتبهان؟

قيل له: لأن جسماً^(٢) ولا جسم يختلفان؛ فلما كان جسم ولا جسم يختلفان وجب أن جسماً وجسماً يتفقان. وشيء و[لا] شيء يختلفان؛ فلذلك لم يكن شيء وشيء يتفقان، وكل شيء إذا عكسته فلم يختلف فهو غير متفق إذا كان غير معكوس، وكل شيء اختلف بالعكس فهو غير متفق بغير العكس، كقولك: محدث ومحدث فهذان يشتبهان؛ لأن محدثاً وقديماً يختلفان، وكذلك قولك: جسم ولا جسم يختلفان، وشيء ولا شيء يختلفان، ولذلك لم يكن شيء وشيء يتفقان، وهذه العلة نفينا عنه شبه الأشياء وإن كان شيئاً؛ لأنه شيء لا كالأشياء تبارك وتعالى.

فإن قال: فهل نصفه بطول أو عرض أو لون أو طعم أو شيء من صفات الجسم التي لا نعقل شيئاً^(٣) إلا بها؟

(١) في (أ): فيحيط.

(٢) في (٢): قيل له: من قبل أن جسماً.. إلخ.

(٣) «شيئاً» ساقط من نخ (١، ٢).

قيل له: لا، من قبل أن هذه صفات الخلق وشواهد الحدث وعلم الجسم، وربنا تبارك وتعالى خلق الجسم وليس بجسم.

فإن قال: وما أنكرت أن يكون جسماً؟

قيل له^(١): لأننا أنكرونا ذلك لأن كل جسم مصور محدود مركب، ولم نجد صورة إلا ولها مصور، ولا مركباً إلا وله مركب، فلما كان تبارك وتعالى هو المصور المركب لم يجوز أن يكون مصوراً مركباً، ومن قبل أني لما كنت جسماً وكانت الأجسام لا يمكنني فعلها وإن قلت ولطفت كان غيري من الأجسام لا يقدر على خلقي وإن قل أو كثر.

فإن قال: هل يعقل شيء ليس بجسم؟

قيل له: إن أردت بقولك هل يعرف^(٢) شيء ليس بجسم فنعم، من ذلك الحركة والسكون والعلم والجهل والحب والبغض وما أشبه ذلك، فقد يعرف ذلك بالدلالة وليست بأجسام، وكذلك الخالق للعالم يعرف بما ظهر من تدبيره وليس بجسم.

وإن أردت بقولك: «هل يعقل شيء ليس بجسم» هل هو مصور في الأجسام شيء ليس بجسم؟ فلا، وربنا تبارك وتعالى لا جسم ولا مصور في الأوهام؛ لأنه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولا تحيط به الفكر ولا يقدره العقل.

فإن قال قائل^(٣): كيف أقررت بشيء هذه صفته؟

قيل له: ما^(٤) رأيت من الشواهد الظاهرة والدلائل الواضحة والأعلام

(١) في (أ): قيل لا.

(٢) في (أ): يعقل.

(٣) «قائل» ساقط من (أ).

(٤) في (أ): بما.

القائمة دعاني إلى الإقرار^(١) بذلك.

فإن قال: فأين كان ربك قبل أن^(٢) يخلق الخلق؟

قيل له: إن «أين» مكان، ولم يزل ربنا ولا مكان، ولا معنى لمسألتك؛ لأن في^(٣) قولك: «أين كان» إثبات للأماكن، وفي قولك: «قبل أن يخلق الخلق» نفي للأماكن؛ لأن الأماكن خلق، وفي ذلك من قولك^(٤) إيجاب لوجود الأماكن وعدمها، وهذا محال.

فإن قال: فكيف يعقل شيء لا في مكان؟

قيل له: أما ما كان من الأشياء المحتاجة إلى الأماكن القائمة بها فلا يعقل إلا في مكان، وأما ما كان لا يحتاج إلى مكان وهو مدبر الأماكن ومقيم الزمان فقد يعقل ولا مكان من طريق العلم لا من طريق التوهم؛ لأننا إنما أقررنا بالله ربنا تبارك وتعالى بآثار صنعه وعجائب برهانه؛ لا من تصور^(٥) في الأوهام منا، وأدركته العقول بالدلالة الواضحة والبراهين القائمة اضطراباً إلى الإقرار بما وصفنا.

ووجه آخر: أن الله تبارك وتعالى بخلاف ما يعقل ويتوهم من الأشياء، والأشياء لا تعقل ولا تتوهم إلا في مكان، فلما كان بخلاف كل ما لا يعقل إلا في مكان كان لا يحتاج إلى مكان.

فإن قال: فهل تزعم لربك علماً؟

قيل له: كلامك يحتمل وجهين: فإن أردت أن له علماً سواء به علم الأشياء فهذا منفي عن ربنا تبارك وتعالى؛ لأنه لو كان إنما علم بعلم غيره كان إلى غيره

(١) في نخ (١، ٢): بالإقرار.

(٢) «أن» ساقط من (أ).

(٣) «في» ساقط من (أ).

(٤) «من قولك» ساقط من (١، ٢).

(٥) في (أ): لأن ما تصور.

محتاجاً، مع أنه لو كان العلم غيره لم يَعدْ منزلتين: إما أن يكون قديماً لم يزل مع الله أو محدثاً كان بعد إذ لم يكن؛ فإن كان قديماً لم يزل مع الله فهذا قول أصحاب الاثنين أن اثنين^(١) لم يزالا، وما جعل أحدهما أولى بالربوبية وهما قديمان.

أو يكون العلم محدثاً بعد إذ لم يكن فهو قبل كونه وحدوثه غير عالم، تعالى ربنا عن ذلك، فلما استحال الوجهان اللذان ذكرنا لما وصفنا من ذلك وجب أن يكون علمه تعالى ليس غيره.

وإن أردت بقولك: الله علم تريد أنه عالم فنعم، وكذلك الجواب في قوله: لله قدرة معناه: قادر فنعم.

وإن أردت بقولك: الله قدرة مضافة إليه غيره بها يقدر على الأشياء فلا، وربنا متعال عن ذلك؛ لأنه لو كان يقدر بغيره كان إلى غيره محتاجاً، وكان إذ كان ولا غيره معه ولا شيء سواه غير قادر، فلما لم يزل ولا شيء سواه ثبت أنه القادر بنفسه؛ فالجواب في قوله: «الله قدرة» كالجواب في قوله: «الله علم» على ما فسرنا لك قبل.

وكذلك إن قال: الله سمع وبصر، فإن أراد بذلك أن له جوارح بها يسمع ويبصر غيره فلا، بل هو السميع البصير بنفسه. وكذلك هو حي بنفسه تعالى. فإن قال: أتزعم أنه حي؟ قيل له: نعم.

فإن قال: وما عנית بقولك: إنه حي؟

قيل له: عנית أنه موجود منفي عنه الموت الذي يحل في العباد^(٢)، وأن التدبير والتقدير يمكنه. وكذلك معنى قولي: إنه عالم إنما أثبتته خلاف الجهل، وكذلك قولي: إنه سميع بصير أنفي عنه العمى والصمم، وقولي: مريد أنفي عنه

(١) في نخ (١، ٢): شيتين.

(٢) في نخ (١، ٢): بالعباد.

الغلبة والغفلة، والمنفيات غير الله تعالى من اللغات والآفات المختلفة والمنفي عنه الصفات المحدثه واحد ليس له نظير، وهو الله رب العالمين.

فإن قال: فأخبرني ما أنكرت أن يكون علم الله غيره؟ أو قال: قدرته غيره، أو شيء من هذه الصفات؟

قيل له: من قبل أن علمه لو كان غيره كان لا يعدو منزلتين: إما أن يكون قديماً لم يزل أو محدثاً حدث بعد إذ لم يكن؛ فإن كان قديماً لم يزل مع الله فما جعل [أن يكون] (١) أحدهما أولى أن يكون إلهاً قبل الآخر، فكذلك قول أصحاب الاثنين، وإن كان علمه محدثاً كان قبل أن يحدثه غير عالم، وذلك يدخله في صفة الجاهل، فعلمنا عند ذلك (٢) أن علمه ليس غيره، وأنه عالم قادر بنفسه.

[إن قال: علم الله هو الله أو غيره؟ أو قال: قدرة الله غير الله، أو قال: هي الله؟ فالجواب في ذلك: أنه لا يقال: علم الله هو الله ولا غيره، ولا قدرة الله هي الله ولا غيره للعلة التي ذكرنا من قبل أن الذي يصح من قبل ذلك أن الله قادر عالم حي مدبر سميع بصير ولا يجوز غير ذلك] (٣).

فإن قال: علم الله غير قدرته أو علمه هو قدرته، أو قال: سمعه غير بصره، أو قال: سمعه هو بصره، أو نحو هذا من الكلام؟

فالجواب في ذلك: أن كل ما سأل عنه محال لا معنى له؛ لأننا لا نضيف إلى الله علماً غيره به علم الأشياء ولا قدرة غيره بها قدر على الأشياء فنستجيز أن نقول: قدرته غير علمه أو قدرته هي علمه، إنما معنى قولنا: إن لله قدرة أنه قادر، ومعنى قولنا: إن لله علماً أنه عالم لا غير ذلك.

فإن قال: فتقولون: لم يزل عالماً وقادراً وسميعاً وبصيراً وحيّاً ومالكاً وربّاً؟

(١) ما بين المعقوفين غير موجود في نخ.

(٢) في نخ: بذلك.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

قيل له في ذلك: نعم، وكذلك إن قال: لم يزل الله يقدر ويعلم ويسمع ويبصر؟ قيل له في ذلك [كله] (١): نعم.

فإن قال: أفقتولون: إنه لم يزل فاعلاً ومدبراً وخالقاً ومثيباً ومعاقباً؟

قيل له في ذلك كله: لا؛ لأن هذه صفات الله في فعله، وقد كان الله تعالى ولا فعل، فإذا قلت: لم يزل فاعلاً أثبت فعلاً لم يزل، وكذلك إذا قلت: لم يزل خالقاً أو همت أن الخلق لم يزل، ولذلك فسد القول [بذلك] (٢).

فإن قال: أفقتولون: إنه لم يزل الخالق؟ قيل له: نعم، وكذلك لم يزل الفاعل، ولم يزل الرازق، ولم يزل المثيب والمعاقب ومعنى ذلك: أن الله لم يزل؛ لأن الله هو المثيب والمعاقب، وإذا حذفت الألف واللام قلت: لم يزل الله فاعلاً ومدبراً ومثيباً ومعاقباً أوجبت أن الفعل لم يزل والثواب والعقاب لم يزالا وفي صفات الذات جائز ذلك كله فيما يقال، ولكن تقول: لم يزل الله العالم عالماً ويعلم، ولم يزل القادر قادراً ويقدر، ولا يقال: لم يزل الفاعل فاعلاً، وكذلك لا يقال: لم يزل المثيب مثيباً، ولا يقال: لم يزل المعاقب معاقباً، ولا الرازق رازقاً، ويقال: لم يزل المثيب والمعاقب والفاعل والخالق؛ [لأن ذلك رجوع إلى المسألة أنه لم يزل (٣)] وإذا قلت: لم يزل الفاعل فاعلاً كنت مثبتاً للفعل والفاعل [لم يزالا] (٤)؛ فلذلك لم يحجز القول على ما ذكرنا.

فإن قال: فإذا قلت: لم يزل قادراً أو عالماً فهل شيء لم يزل شيء يقدر عليه ويعلمه؟

قيل له: إن الأشياء وإن لم تكن تتعامل فربنا تعالى قادر على تكوينها ومالك

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

(٣) بدل ما بين المعقوفين في (أ): لا ذلك رجوع إلى المسألة لأنه لم يزل.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من نخ (١، ٢).

لذلك، فهو قادر على الشيء وإن لم يكن، ومالك له وإن كان معدوماً، ألا ترى إلى (١) قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ويوم الدين لم يكن، وكذلك هو عالم بما يكون وإن لم يكن، وعالم بما لا يكون أنه لا يكون.

فإن قال: فإذا لم يكن فهناك شيء يعلمه؟

قيل له: إذا لم يكن فهو شيء لم يكن يعلم أنه يكون أو لا يكون.

فإن قال: وما لا يكون شيء فيعلمه؟

قيل له: ما لا يكون لا يكون (٢) شيئاً موجوداً إلا أن يكون، وليس شيئاً موجوداً بل شيء معدوم (٣).

فإن قال: فمتى قدر الله أن يخلق الخلق؟

قيل له: هذا كلام فاسد لا معنى له؛ لأن «متى» وقت، وذلك يوجب أنه كان قادراً في وقت كذا، ووقت لم يكن قبله قادراً، وهذا محال؛ لأنه يقال: لم يزل قادراً قبل الوقت وقبل كل شيء.

فإن قال: فمتى علم الله أنه يخلق الخلق؟

قيل له: إن أردت بقولك: «متى يعلم» إرادته (٤) فهذا محال كإحالة ما تقدم؛ لأنه قد كان عالماً قبل الوقت، ولم يزل كذلك، وإن أردت بقولك: متى أراد أن يخلق الخلق ومتى علم أنه يخلق تريد أن تجعل متى وهو الوقت المعلوم الذي علم أو المراد - صح الكلام وجاز القول بأنه أراد في وقت كذا وكذا، وعلمه في زمان كذا وكذا، ونظير هذا ما أجاز الناس بينهم، فيقول الرجل للرجل: متى تريد أن آتيك؟ فيقول: نصف النهار، ويريد وقت الفعل دون وقت الإرادة؛ لأن الإرادة

(١) في (أ): ألا ترى أن قوله.

(٢) «لا يكون» ساقط من (أ).

(٣) في (أ): وليس شيء موجود شيء معدوم.

(٤) في (أ): وإرادة.

قد تقدمت وقت الفعل^(١).

فإن قال: فإذا قلت: إنه قادر عالم سميع بصير، فمعنى سميع هو معنى بصير؟ فالجواب في ذلك: أن معنى سميع أن الأصوات لا تخفى عليه، وكذلك معنى قولنا: بصير أن الأشياء لا تخفى عليه، والموصوف بأنه سميع بصير واحد. فإن أردت بقولك: معنى يسمع هو معنى يبصر أن له سمعاً وبصراً غيره به يسمع ويبصر فلا، وإن أردت أن المعنى بأنه سميع بصير هو المعنى بأنه بصير فنعم.

وكذلك إن قال: إن معنى يقدر يعلم أو غيره فالجواب في ذلك: أنه يحتمل معاني، فإن أراد بقوله: إن العلم والقدرة معنى غير الله فهذا كلام محال فاسد، وإن أراد بقوله: إن معنى يعلم هو معنى يقدر يريد أن الله الذي^(٢) يعلم هو الذي يقدر فنعم.

فأما قوله: معنى يقدر هو غير معنى يعلم فلا معنى له؛ لأن الذي يقدر ويعلم واحد فلا يقول: إنه غير نفسه؛ لأننا إذا قلنا: معنى يسمع غير معنى يبصر^(٣) فكأننا قلنا: إن الذي يسمع غير نفسه، وإن قلنا^(٤): إن العلم والقدرة غير العالم القادر لزمنا^(٥) أن معنى قادر غير معنى عالم.

فإن قال: فالعلم هو القدرة؟

قيل له: ليس لله علم غيره إلا أن يريد أن العلم هو الله، فإن أردت ذلك قلنا لك: قد أصبت في معنك وأخطأت في لفظك وأتى منك خلاف ما قصدت إليه.

(١) في نخ (٢، ١): لأن وقت الإرادة قد تقدم وقت الفعل.

(٢) «الذي» ساقطة من (أ، ٢).

(٣) في نخ (٢، ١): معنى سميع غير معنى بصير.

(٤) في نخ (٢، ١): ولم نقل.

(٥) في نخ (٢، ١): والقادر فلزمنا.

فإن قال: فتزعم أن ربك عالم بأنه موجود حي قادر مرید سمیع بصیر؟
 قيل له: نعم.

فإن قال: فكما زعمت بأنه عالم قادر سمیع بصیر وكذلك تزعم أنه قادر على
 أن يعلم ويسمع ويبصر.

قيل له: هذا كلام فاسد لا معنى له؛ لأن العلم والسمع والبصر ليس بفعل
 فيقال يقدر عليه، وذلك أن القدرة لا تكون إلا على أفعال.

فإن قال: فكيف زعمت أنه يعلم أنه قادر ولا تقول: يقدر أن يعلم؟
 قيل له: لأن العلم يقع بالفعل وبغير الفعل، والقدرة لا تقع^(١) إلا على
 الفعل، ألا ترى أنني أقول: إني عالم بالله وبفعله، ولا يقال: إني قادر عليه، تعالى
 عن ذلك.

فإن قال: أفقولون: إنه مرید يعلم أو يقدر أو يسمع أو يبصر؟
 قيل له: إن كل ما سألت عنه محال لا معنى له؛ لأن الإرادة لا تقع إلا على
 فعل^(٢)، والعلم والقدرة ليسا بفعل يريد هما.

فإن سألك بعض الملحدين أو المستخفين أو الشكاك في دين الله رب العالمين
 فقال: هل يقدر ربك أن يخلق مثله؟

فالجواب في ذلك: أن هذا كلام محال لا معنى له؛ لأن قولك: يقدر أن يخلق -
 أن الذي يخلق خلق، وفي قولك: « مثله » أنه ليس بخلق؛ لأنه قديم، فكأنك
 قلت: يقدر أن يجعل شيئاً خالقاً مخلوقاً، ومحدثاً قديماً؛ لأن في قولك: مثله أنه
 قديم، وقولك: يخلق أنه محدث، فهذا محال، مع أنه إذا فعل بجعله محدثاً قديماً
 فقد جعله مخالفاً له وليس هو له بمثل؛ لأنه قديم ليس بمحدث.

وكذلك إن قال: يقدر أن يخلق نفسه كان ذلك محالاً؛ من قبل أنه موجود،

(١) في (أ): توقع.

(٢) في نخ (١، ٢): إلا على أي فعال.

والذي يخلق عدم أوجده بعد العدم، وفي قولك: يخلق نفسه أن النفس مخلوقة، [وفي قولك: لله قدرة^(١)، فقد أوجب هذا الكلام أنه محدث قديم، فهذا محال]^(٢)، مع أن كل محدث لشيء فجائز أن يترك ما أحدث، فلو توهمناه^(٣) تاركاً لما أحدث كان معدوماً موجوداً في حال واحد، وهذا محال؛ لأنه إذا ترك فعل نفسه فهو متروك معدوم، ولا يكون تاركاً إلا وهو موجود؛ لأن التارك فاعل للترك، فهو يوجب عدم نفسه بتركه لفعل نفسه، ويوجب وجوده شيئاً لا شبه له ولا مثل من جهة من الجهات بقوله: إنه تارك؛ لأن كل تارك فاعل للترك، وهو موجود في حال فعله.

فإن قال: أخبرني عن الذي تعبد له شبه أو مثل^(٤)؟

قيل له: لا شبه له ولا مثل من جهة من الجهات.

فإن قال: أخبرني عن ربك هل يعقل شيئاً^(٥) لا شبه له ولا مثل من جهة من

الجهات؟

قيل له: إن أردت بقولك: يعقل بأنه يتصور في الأوهام وتقدره العقول فلا، وإن أردت بقولك: يعقل شيء لا شبيه له فنعم قد يعقل شيء لا شبيه له وهو الله رب العالمين، بما أظهر من تدبيره وعجيب صنعه.

فإن قال: فما دليلك على ذلك؟ وكان ممن يثبت التوحيد ويقرأ القرآن.

فقل له: قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ

الْبَصِيرُ﴾ [الشورى] دلني على ذلك.

(١) كذا في النسختين، ولعلها: قديمة.

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

(٣) في (أ): توسمناه.

(٤) في (أ): شبيه أو مثل.

(٥) في (أ): هل يعقل بشيء فإن قال: يعقل بشيء لا شبه له.. إلخ.

فإن قال: وما أنكرت من أن يكون معنى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ من جهة من الجهات في القدرة، وله شبه ومثل من غير هذا الوجه؟
 قيل له: الدليل على ذلك أن كل شيء سواه محدث من جميع الجهات، فلو كان مشبهاً لشيء من جهة من الجهات كان محدثاً من تلك الجهة؛ لأنه لا يشبه المحدث^(١) ما ليس بمحدث، ولو كان مشابهاً لشيء من جهة من الجهات وغير مشبه من جهة فإن كان محدثاً من جهة ما أشبه المحدث وقديماً من جهة ما لم يشبه المحدث من جهة من الجهات كان قديماً من جهة ما أشبه من المحدث ومحال أن يكون شيء قديماً من وجه محدثاً من وجه.

وإن كان السائل ملحداً لا يقر بالتوحيد [ولا بمعرفة الواحد الحميد]^(٢) ولا يقر بالقرآن أجبته بهذا الجواب الآخر وقلت له: لو كان يشبه شيئاً من وجه وذلك الشيء محدث من جميع الجهات كان محدثاً من جهة ما أشبه المحدث، ومحال أن يكون القديم محدثاً من جهة من الجهات.

فإن قال: فأخبرني عن الذي تعبد مما سـ للأشياء أو مبين لها؟
 قيل له: تعالى ربنا أن يياس الأشياء؛ لأن المماس من الأجسام والأبدان، وربنا تبارك وتعالى ليس بجسم فيجوز عليه ما ذكرت من المماسية.
 وأما قولك: هل تزعم أنه مبين للأشياء - فإن أردت بقولك إنه بان منها بينونية مسافة بينه وبينها كما أن الكوفة باينة من البصرة تريد أن بينهما مسافة فليس على هذا المعنى نقول: إنه باين منها؛ لأنه لا يخلو منه مكان؛ لأنه لا نهاية له ولا غاية فيجوز شيء من ذلك عليه.

وكذلك إن قال: فهل تزعم أنه مخالف للأشياء؟
 فإن أراد بقوله أنه مفارق لها على بعد التشبيه منها وليس مثلها فنعم، كقولك

(١) في (أ): ولأشبه المحدث.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من نخ (٢).

للرجل: فارقتك لي قولك، أي: خالفتك في قولك.
 وإن أردت بقولك أنه مفارق لها مفارقة وأن بينه وبينها مسافة فلا.
 فإن قال: أفقتولون إنه مخالف للخلق؟
 قيل له: نعم، من جميع الجهات.
 فإن قال: أفقتولون: إنه مخالف للمؤمنين؟
 قيل له: هذه لفظة لا تطلق؛ لأنها توهم أنه بريء منهم وأنهم ليسوا على دينه، إلا
 أن يقال: إنه مخالف في الذات فإنه لا يشبههم؛ فإن أراد هذا المعنى جاز معناه.
 وكذلك الجواب في قوله: الله مفارق للمؤمنين ومباين لهم؛ فإن أراد من طريق
 المسافة فلا يجوز، وإن أراد بعد التشبيه منهم جاز، ولا يطلق أنه مخالف للمؤمنين ولا
 مباين ولا مفارق حتى تفسر وتخبر بمعناه، فأما الكفار فجائز أن يقال: ربنا مخالف لهم
 من جميع الجهات، ولا يقال: مباين لهم ولا مفارق لهم في المسافة.
 فإن قال: أفقتولون: إنه موجود بكل مكان وفي كل مكان؟
 قيل له: نعم، على التدبير والإحاطة بها، وليس هو فيها مستجن ولا مماس
 ولا هي له وعاء، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.
 فإن قال: هل يعقل شيء في شيء وليس بوعاء ولا مماس؟
 قيل له: نعم، من ذلك: الإنسان في صلاته وصومه، والصلاة والصوم ليسا له
 بوعاء في شأنه ذلك.
 فإن قال: أتزعم^(١) أنه في السماء إله [وفي الأرض إله]^(٢)؟
 قيل له: نعم، كما قال، وفي الأرض إله، وهو في كل مكان^(٣).
 فإن قال: ولم قلت: إنه في كل مكان؟

(١) في نخ (١، ٢): فهل تزعم.

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

(٣) في نخ (١، ٢): كما قال الله إنه في الأرض إله وفي كل مكان.

قيل له: لأنه لم يكن في كل مكان محدوداً؛ لأن معنى الشيء المحدود أنه في موضع دون آخر، ألا ترى أنك تقول: دار فلان يحدها كذا وكذا لأنها ليست شاملة لما بينها، فلو كان تعالى في مكان دون مكان كان (١) محدوداً والمحدود يدل على الحدث والصنعة، فعلمنا بذلك أنه ليس في مكان دون مكان.

فإن قال: فإذا زعمت أنه في كل مكان فتقول (٢): إنه في هذا البيت، أو تقول (٣): إنه في كل (٤) مكان؟ أيجوز هذا الكلام؟

قيل له: لا يقال (٥) ذلك؛ لأنه يوهم أنه في هذا البيت دون ما سواه، ولكن يقال: إنه في كل مكان ولا يقال: إنه في كذا وكذا مما لا يجوز ذكر ذلك؛ لأنك تقلب المعنى وتزيله عن جهته.

وإن قال: إن أثبت (٦) أنه في كذا وكذا وقد زعمت أنه في كل مكان؟

قيل له: لأن (٧) من الأشياء ما يحسن إطلاقها في الجملة ولا يحسن (٨) إطلاقها في التفسير، من ذلك ما نقول: ما دون الله الله، ولا يجوز أن يقال (٩): «الولد لله» وإن كان دون الله، [ولا الصاحبة لله ولا اللعنة لله ولا الخزي لله وإن كان كل ذلك دون الله] (١٠) فيقبح بهذا الوجه ويحسن إطلاق ذلك في الجملة، فيقال: ما

(١) «كان» ساقطة من (أ، ٢).

(٢) في (أ): أفتقولون.

(٣) في (أ): تقولون.

(٤) «كل» ساقط من (أ)، والعبارة فيها هكذا: إنه في مكان أو يجوز.. إلخ.

(٥) في (١، ٢): نقول.

(٦) كذا في المخطوطات، ولعلها: لم نفيت أنه في كذا وكذا.. إلخ.

(٧) في (أ): إن.

(٨) في نخ (١، ٢) بدل «ولا يحسن»: ويقبح.

(٩) في (١): نقول.

(١٠) غير موجود في نخ (٢)، وفي (١): ولا الصاحبة لله وإن كان دون الله.

دون الله لله، وكذلك يقال في الجملة: إن الله قوي وما سواه ضعيف، والقرآن سوى الله، وحجج الله سوى الله، ورسول الله ﷺ سوى الله، ولا يقال: إن القرآن ضعيف [ولا أن حجج الله ضعيفة ولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ضعيف، فقد قيل في الجملة: ما سوى الله ضعيف] (١).

وكذلك يقال: إن الله في كل مكان ولا يقال إنه في كم ولا في موضع مما لا يحسن ذكره؛ لأن الإطلاق في (٢) ذلك في التفسير يوهم خلاف ما لم (٣) يوهم إطلاقه في الجملة، ولذلك إن شاء الله نظائر كثيرة تطلق في الجملة وتمتنع في التفسير.

فإن سأل سائل عن العالم: أله غاية أو لا غاية له؟

قيل له: بل له غاية ينتهي إليها ونهاية لا يجوزها.

فإن قال: فأخبرني عن (٤) الذي تعبد أليس هو في العالم موجود مدبر؟

قيل له: نعم.

فإن قال: فإذا كان الذي تعبد موجوداً في العالم وللعالم غاية أوجبت للمعبود

غاية.

قيل له: إن الذي أعبد تعالى موجود بكل مكان، وموجود ولا مكان (٥) على

ما لم يزل ولا مكان [ولما كان موجوداً في الأماكن موجوداً على ما لم يزل ولا

مكان] (٦) كان الأمر على ما وصفت لك من إثبات الغاية، وليس هو كذلك

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

(٢) «الإطلاق في» ساقط من نخ (١)، وفي نخ (٢): لأن إطلاق ذلك في التفسير.

(٣) «لم» ساقط من (أ).

(٤) «عن» ساقط من (أ).

(٥) في (أ): ولا في مكان.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من (أ) وفيها: وكان الأمر.

تعالى؛ لأنه موجود بكل مكان مدبر وموجود على ما لم يزل ولا مكان، ألا ترى أنه لو أحدث مثل العالم أو أمثاله (١) كان فيه موجوداً مدبراً، فلذلك قلنا: إنه موجود في الأماكن وموجود على ما لم يزل، ولو كان في الأماكن كان لو أحدث مثل هذا العالم ومثل هذه الأماكن كان عنها غائباً، فلما قلنا: إنه تعالى لو (٢) أحدث مثل هذه الأماكن كان عنها غير غائب وكان بها موجوداً علمنا أنه لا غاية له ولا نهاية له (٣).

فإن قال: فأخبرني عن هذه الأشياء التي أحدثها الله أحدثها في نفسه أم في غيره؟

قيل له: إن الله تعالى لا تحل فيه الأفعال ولا يشغله شأن عن شأن (٤)، وذلك على ما زعمت (٥) صفة الإنسان وما أشبهه من الحيوان، وربنا إذا أراد شيئاً كان بلا معاناة ولا اشتغال، وليس بجسم فتحل فيه (٦) الأفعال؛ لأن الحلول إنما يكون في الأجسام.

فإن قال: فخلق الأشياء (٧) من شيء أو من لا شيء؟
قيل له: أما أول الأشياء فخلقت من لا شيء، وأما ما أحدث (٨) بعد حدوث أوائل الأشياء فم منها ما أحدث لا من شيء ومنها ما أحدث من شيء [كالإفراز

(١) في (أ): وأمثاله.

(٢) في (أ، ٢): فلما قلنا تعالى إنه لو.

(٣) «له» ساقط من (١، ٢).

(٤) في نخ (١): حال عن حال.

(٥) «على ما زعمت» ساقط من النسختين (١، ٢).

(٦) في (٢): به.

(٧) في نخ (٢): الإنسان.

(٨) في نخ (١، ٢): حدث.

من الثمار والتبريد من الثلج وما أشبهه^(١).

فإن قال: فهل تكون بيضة لا^(٢) من دجاجة أو دجاجة لا من بيضة، أو إنسان لا من نطفة أو نطفة لا من إنسان؟

قيل له: نعم، قد يكون ذلك، وذلك أن للأشياء أولاً، إما دجاجة لم يكن قبلها بيضة أو بيضة لم يكن قبلها دجاجة، وإلا فالأشياء قديمة، وكذلك الإنسان لا من نطفة كآدم صلى الله عليه، وكذلك قد تكون النطفة لا من إنسان، يبتدىء خلقها تبارك وتعالى.

فإن قال: فكيف خلق الله الخلق؟

قيل له: لا علم لنا بكيفية خلقه تعالى، وليس يعلم ذلك إلا الخالق جل وعلا وحده، لا بل^(٣) لو علمنا كيفية فعل الأشياء أمكننا فعلها، ولجاز أن نقدر^(٤) على خلق الأشياء؛ فلما استحال ذلك في صفتنا زال عنا العلم بكيفية ذلك.

فإن قال: فكيف نعلم أن الله خلقها، ولا نعلم^(٥) كيف خلقها؟

قيل له: الدلالة^(٦) الظاهرة والشواهد القائمة دلتنا^(٧) على أنه خلقها ولا^(٨) ندري كيف خلقها، مع أن عامة هذه الأشياء التي قد^(٩) اضطررنا إلى العلم بوجودها لا نعلم كيف هي في ذاتها، وكيف تصرفها، وإن كنا نعلم أنها موجودة،

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (١)، وفي (٢): كالثلج وما أشبه ذلك.

(٢) في (أ): «إلا» في الأربعة المواضع.

(٣) كذا في المخطوطات، ولعلها: لأننا.

(٤) في (١، ٢): نقدم.

(٥) في (١، ٢): ولا ندري.

(٦) في (أ): بالدلالة.

(٧) في (أ): دللتنا. وفي النسختين (١، ٢): دلنا. ولعل المثبت هو الصواب.

(٨) في (أ): فلا.

(٩) «قد» ساقط من (أ).

فكذلك نعلم أنها مخلوقة بما ظهر لنا من الدلائل وصح لنا^(١) من الشواهد.

فإن قال: فلم خلق الله الخلق؟

قيل له: كلامك يحتمل وجهين: فإن أردت لم خلق الله الخلق كله تبتغي علة للخلق غير الخلق لما كان الخلق فهذا كلام محال لا معنى له من وجهين: أحدهما: أنك جمعت الخلق فلم تبق منه شيئاً ثم أخرجت منه العلة، وهي خلق؛ لأن العلة لا تكون قديمة.

والوجه الثاني: الله تبارك وتعالى ليس خلق ما خلق أولاً به من ترك خلق^(٢) ذلك الخلق؛ لأنه حكيم بترك الخلق حكيم بخلق الخلق، داخل في صفة الحكمة خلق أو لم يخلق، فلذلك لم يكن لقول السائل: لم خلق الله الخلق كله معنى، وإنما يجوز ذلك على من كان حكيماً بالفعل خارجاً من الحكمة بالترك ممن كان^(٣) شيء أولاً به من شيء، وربنا يتعالى عن ذلك؛ لأنه لو كان خلق ما خلق أولاً به من تركه أن لو لم يخلق تارك^(٤) لما هو أولاً به، ومن ترك ما هو أولاً به كان خارجاً من صفة الحكمة، فلذلك لم نقل: إن خلق ما خلق أولاً به من ترك خلق ما خلق؛ لأن^(٥) قول القائل: لم خلق الله الخلق دون ألا يخلقهم لا معنى له^(٦)، وقد سقطت المسألة في ذلك لو كان أولاً به أن يخلق الخلق اليوم كان تركه لأن يخلق الخلق اليوم ترك لما هو أولاً به؛ لأن خلقه الخلق اليوم وبعد اليوم وقبل اليوم معنى واحد.

(١) «لنا» ساقط من (أ).

(٢) في (أ): ما خلق.

(٣) في (١، ٢): من مكان.

(٤) كذا في المخطوطات، ولعلها: لكان لو لم يخلق تاركاً لما هو أولاً به.

(٥) في نخ (١، ٢): لقول القائل.

(٦) في (أ): لذلك.

وإن أراد بقوله: لم خلق الله الخلق يريد أن يجعل بعضه علة لبعض دون ابتغاء العلة غير الخلق لما خلق الخلق جاز القول لأنه خلق الأشياء ليعتبر بعضها ببعض ويتنفع بعضها ببعض ويضر بعضها ببعض، فتكون الأشياء بعضها سبباً لبعض وعلة لبعض.

فإن رجع فقال: ولم خلق بعضها علة لبعض ومنفعة لبعض ومضرة لبعض؟ رجع إلى المسألة الأولى، وابتغى العلة^(١) لم خلق الله هذه الأشياء هكذا، وقد أجبنا في ذلك وأخبرنا أن خلق ما خلق ليس أولى به من تركه، وأن المسألة في ذلك ساقطة؛ لأنه حكيم في جميع ذلك خلق أو لم يخلق، حكيم لو نفع من ضر أو ضر من نفع أو أحيا من أمات أو أمات من أحيا، ولما كان هذا هكذا كانت المسألة: لم خلق الله الخلق على هذا المعنى ساقطة.

فإن قال: فإذا لم يكن الفعل أولى به من الترك ولا الترك أولى به من الفعل فلم فعل دون أن يترك، ولم ترك دون أن يفعل؟

قيل له: إن قولك: لم فعل دون أن يترك أو لم ترك دون أن يفعل مثبت^(٢) أن شيئاً أولى به من شيء، ثم قلت: وليس شيء أولى به من شيء؛ فكأنك قلت: فإذا لم يكن شيء أولى به من شيء فلم كان شيء أولى به من شيء؟ وهذا محال لا معنى له؛ لأن الذي لا^(٣) يكون شيء أولى به من شيء لا يقال: لم فعل دون أن يترك أو ترك دون أن يفعل.

فإن سأل سائل فقال: ما دليلك على الله؟ وما الدواعي التي دعتك إلى إثباته؟ قيل له: ما أراني تبارك وتعالى من آثار صنعه في نفسي وفي الآفاق، كما قال سبحانه: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِيِ الْاَفَاقِ وَفِيِ اَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ اَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٢].

(١) في نخ (١): علة.

(٢) في نخ (١): مبني.

(٣) «لا» ساقط من (أ).

فإن قال: فما أثر (١) الصنع؟

قيل له: العمد والتأليف والخروج من البخت.

فإن قال: وما العمد والتأليف؟ وما البخت؟

قيل له: أما العمد فمثل هذه الخطوط التي ترى في هذا المصحف فتعلم أن لها كاتباً اعتمده على ما هو عليه من التأليف والتقطيع والهيئة، ولو أن مداداً سكب على صحيفة سكباً لم يأت منه حروف مؤلفة على ما تراه من هذه الخطوط المعتمدة المؤلفة، ومثل الثوب المنسوج لو ترك عطباً ووكل إلى نفسه لم يأت منه ثوب أبداً دون أن يقصد إليه قاصد فيؤلفه ويبرمه وينسجه، فهذا وما أشبهه مما تقف عليه عقول الناس ويتعلمونه (٢)، لو جحد هذا جاحد لم يراجع الكلام معرفة من الناس بفساد عقله، ولم يميزوا معاملته في شيء، فهذا العمد.

وأما البخت فمثل المداد يسكب على الصحيفة بغير قلم ولا خط فلن يأتي من ذلك حروف مؤلفة أبداً، فهذا وما أشبهه البخت، فالعمد معروفة أسباب كونه، والبخت معروفة أسباب كونه، فافهم.

فلما رأينا هذا العالم وصفاته وما فيه من آثار الصنع والتقدير والهيئة والتأليف والاجتماع والافتراق دلنا ذلك على أن له صانعاً صنعه ومؤلفاً ألفه ومعتمداً اعتمده ودبره على ما هو عليه؛ ليدل الخلق بذلك على نفسه.

فإن قال قائل: فأين أثر الصنع في نفسي؟

قيل له: انظر إلى هيئتك التي أنت عليها والتركيب والبنية من قرنك إلى قدمك، وما في بدنك من المصالح بعضه لبعض، منه حاسة تدرك بها الأشياء، لو عدمتها قطعت بك عن (٣) مرافق كثيرة، ومنه جارحة تجلب بها إلى بدنك هذا

(١) في (١): أثبت.

(٢) في نخ (١): ويتعلمون به.

(٣) في نخ (١): من.

المرافق، لو عدمتها قطعت بك من مرافق أخرى تغذي بها بدنك وتقييمه، ومن ذلك مداخل للغذاء ومخارج، لولا تلك لم يقم بدنك، وفي كل هذه النعم والآيات التي فيك زين لك وجمال لو أن غير ذلك شأنك.

فكيف تدل على أن للكتاب كاتباً بما رأيت فيه من التأليف والهيئة ولا تلتفت إلى جحد الجاحد لو جحدته، وهذا بدنك [يستدل على نفسك لنفسك ويعرف بصنعك صانعك] فيه من الآيات والتقدير والتدبير والهيئة والتأليف والدليل على صانعه عز وتعالى علواً كبيراً أكثر^(١) مما في كتاب الكاتب من الدلالة على كاتبه.

فإن قال: قد عرفت يقيناً أن صانعاً لهذا العالم بما بان لنا فيه من آثار^(٢) الصنع والتدبير وهو الله رب العالمين. فإن قال: أخبرني ما هو؟

قيل له: مسألتك تحتل ثلاثة وجوه من الجواب: إن كنت تسأل عن اسمه فهو الله الرحمن الرحيم، وإن كنت تسأل عن صفته فهو الله العليم القدير، وإن كنت تسأل عن ذاته فهو الذي ليس كمثله شيء.

فإن قال: الذي ليس كمثله شيء ما هو؟

قيل له: لا معنى لمسألتك بعد ما رددنا عليك من الجواب؛ لأن المتسائلين إنما يتساءلون عما يدركان، فإنا وأنت لا ندرك الأشياء المدركة المحدودة المخلوقة إلا بالحواس^(٣)، وليس الله عز وجل واحداً من الأشياء ولا كواحد من الأشياء، ألا ترى أن السائل إذا سأل المسؤول عن شيء ما هو فإنما يصف له ما قدر رأى وأدرك من الأشياء، يقول له: هو كذا وكذا مما يدركان جميعاً، والله خلاف ما يدركان، تعالى عن ذلك، فلا وجه لمسألة السائل بعد هذا الجواب.

ألا ترى لو أن أعمى لم ينظر الدنيا قط لو أنه سأل إنساناً عن بعض

(١) في نخ (١): أكبر.

(٢) في (١): أثر.

(٣) في نخ (١): لا ندرك إلا الأشياء المدركة المحدودة المخلوقة، وليس الله.. إلخ.

الألوان^(١)، فقال: أخبرني عن الأحمر والأخضر والأصفر ما هو - أنه لا يكون لمسألته وجه ولا جواب عند المسؤول؛ إذ^(٢) كان السائل لا يدرك ما سأل عنه ولا حاسة معه لدرك ذلك اللون، فالله تبارك وتعالى لا يدرك بالحواس كما تدرك الأشياء بعضها بعضاً، والحواس فهي: النظر والسمع والشم والذوق واللمس بالبدن كله الذي يدرك به الحار والبارد واللين والخشن، وإنما الحواس تجلب إلى القلب، والقلب يميز ويضبط، والحواس من بين المدركات، فلا تقع حاسة إلا على محدود، ولأن الحواس تجلب إلى القلب، وكل ما تجلب باين معتزل^(٣) في حيز، وكل ما في حيز فمحدود، وكل محدود فقد يمكن في الوهم أكبر منه، وكل ما يمكن في الوهم أكبر منه فليس بأكبر الأشياء، والله عز وجل هو العظيم الكبير لا حد له ولا نهاية؛ لأن ذا النهاية صغير؛ ألا ترى لو أن سائلاً سألك فقال: هو أكبر أم السموات والأرض؟

قلت: بل هو أكبر، فإن قال: بمقدار كم؟ قلت: بضعف أو ضعفين أو ألف أو ألفين لم يكن بد أن يكون لذلك حد ينتهي إليه، فإن انتهت من ذلك إلى تسمية كائنة ما كانت قليلة أو كثيرة فقال لك السائل: هل تقدر أن تزيد في حده ذلك على ما نهيتك إليه^(٤)؟ فإن قلت: نعم، قال: فهلا زدت في صفته؛ إذ كان العظيم عندك أوجب أن يوصف به. فإن قلت: لا نقدر أن نزيد فيه على ما وصفت - نسبته إلى العجز، فهذا يضطر إليه من وصفه بدرك الحواس؛ لأن الحواس لا تقع إلا على محدود، تبارك وتعالى من لا حد له ولا نظير ولا ند له ولا غاية له ولا أمد له ولا مدى، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه].

(١) في (أ): عن بعض ما يكون.

(٢) في (أ): إذا.

(٣) في نخ (١): بمعتزل.

(٤) في نخ (١): ما قد ناهيته إليه.

في العدل والرد على المجبرة^(١)

وما سأل عنه المجبرة يقال لهم: أخبرني عرفت فيما عرفت من صفة الله جل وتعالى أنه حكيم قادر؟

فإن قال: نعم، قيل له: افهم ما قلت. ثم يسأل عن معنى الحكيم ما هو ومعنى القادر ما هو؟ فإن قال: هما من أسمائه الحسنی، قيل له: قد يعلم أن الأسماء الحسنی له ولكن أأست تعلم أن الحكيم الحسن الفعل في كل شيء العدل في حكمه؟ فإذا قال: بلى قيل له: والقادر ما معناه؟ فإن هو عرف المعنى وإلا قيل له: القادر الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه شيء أراد. فلا يجد بداً من معرفة الحكيم القادر، ثم يقال له: أخبرني عن هذا الحكيم القادر كلف العباد شيئاً أو تركهم سدى؟

فإن قال: كلف العباد العمل بطاعته وترك معصيته^(٢). قيل له: أفليس يقدر على أن يعطيهم الآلة والطاقة لما كلفهم؛ إذ كان لا يعجزه شيء؟
فإن قال: نعم، هو يقدر؛ قيل له: أفأولى به أن يعطيهم الآلة والطاقة لما فرض عليهم وكلفهم إذ كان بإقرارك الحكيم هو حسن الفعل عدل الحكم؟ أو لا يعطيهم الطاقة وهو يقدر عليها؟

فإن قال: أولى به أن [لا] يعطيهم الطاقة على ما كلفهم وليس هذا من فعل الحكيم الحسن الفعل إذا كان يقدر على أن يعطي من كلف طاقة وآلة يعمل بها ما كلفه ثم لم يفعل، فهذا صفة الجور، تعالى الله عن جور الجائرين.
وإن قال: بلى أولى به أن يعطيهم الطاقة على ما كلفهم، قيل له: أفقد فعل أو لم يفعل؟

فإن قال: قد فعل فذلك هو الحق والحمد لله.

(١) هذا العنوان ساقط من (أ).

(٢) في (١): والترك لمعصيته.

قيل له: فكل فاعل ركب معصية أو ترك طاعة الآن فقد ترك الطاعة وهو يقدر بالنعمة التي أعطاه الله وجعل فيه على فعل طاعته واجتناب معصيته، فلا نجد نحن ولا أنت الآن المعصية إلا من العبد، لم يؤت فيها من الله من جهة من الجهات.

ويقال لأهل الجبر: أخبرونا عن الله عز وتعالى أهو أرحم بالعباد أم نفوسهم، أو أرفق بهم أو نفوسهم، أو أنظر لهم أو نفوسهم؟
فإن قالوا: بل نفوسهم، كفروا، وإن قالوا: بل الله عز وجل أنظر لهم من نفوسهم قيل لهم: أفمن حسن نظره للعبد جبره على المعصية التي يدخل بها النار، وليس في النار حسن نظر، وإنما حسن النظر من الله عز وجل للعبد في البلوى التي يثيبه بها الجنة.

**تم كتاب الدليل الصغير بعون الله ومنه والحمد لله وحده
وصلواته على رسوله محمد وآله وسلم تسليماً**

کتاب المسترشد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرد على من زعم أن الله في السماء دون ما سواها

الحمد لله الذي لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأقطار، الذي لم تهجم عليه العقول بفكرها، ولا الفكر بمحالتها، ولا الأبواب بتدبيرها، الذي لم ينفصل من المخلوقين فيكون منهم بعيداً، ولم يتصل بهم فيكون لهم مخالطاً.

إن سأل سائل ذو حيرة^(١) عن قول الله عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وتوهم أن الله تبارك وتعالى ارتفع في مكان دون الأماكن وعاب من قال: إن الله بكل مكان، وقال: يصعد من الله إلى الله إذ قلنا: إنه في السماء وفي الأرض.

فجوابنا في ذلك: أن الله تبارك وتعالى في الأماكن كلها، مدبر لها حافظ قائم عليها، لم تحوه ولم تحط به، ولا نقول: يصعد منه إليه، فنصفه بالغاية والتحديد، وأنه سبحانه في مكان دون مكان، ولكننا نقول: إن الله تبارك وتعالى خلق ملائكته وتعبدهم بما شاء، فكلف بعضهم نقلة الأخبار من السماء إلى الأرض ونقطة الأخبار من الأرض إلى السماء، وإنه خلق السماء فأسكنها ملائكته لعبادته، بعضهم ينسخ أعمال آدميين، ووكّل بعضهم رقيباً وحافظاً على الملائكة التي وكلت بنسخ أعمال آدميين، وكذلك قالت الملائكة ﷺ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات]، أي: ما وكلوا به من صنوف التعبد، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، معناه في الآية الأخرى، مثل قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات]، ولم يبرح الأرض في حال ذهابه إلى ربه، وقد كان الله معه.

وقد قال لكليمه موسى وأخيه هارون صلى الله عليهما: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ

(١) في (ب): خبرة.

وَأَرَى ﴿٦٦﴾ [طه]، وذهاب إبراهيم صلى الله عليه إلى ربه في الحالة التي ربه معه فيها، وإنما معناه في ذهابه إلى ربه توجهه إليه بعبادته، وتشاغله عمن سواه.

وكذلك توجيه الملائكة بصعود أعمال العباد إلى الموضع من السماء الذي (١) تعبدت به، ولتصعد بأعمال العباد إليه، وإنما توجهت بتلك العبادة إلى الله، كما ذهب إبراهيم إلى ربه، بمعنى توجهه بعبادته إليه.

ووجه آخر في الصعود، هو القبول لذلك؛ لأنك تقول: لا يصعد إلى الله هذا الكفر، ويقال: قد نسخت الملائكة أعمال الكافرين وصعدت بها إلى الله، وهو لا يقبلها، ولا تصعد إليه أعمالهم، بمعنى لا يقبلها، وكذلك قال الله عز وجل: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، بمعنى إنما يقبل الله الكلام الطيب بالعمل الصالح.

فإن لج السائل بالشغب فقال: أيصعد من الله إلى الله؟ قيل له: لا، ولكن يصعد الكلم الطيب من المكان الذي لا يخلو منه الله إلى السماء التي فيها الله.

والله على العرش استوى، وهو عنه غير غائب، وهو في السماوات العلى وفي الأرض، ولم تغب عنه نجوى، كذلك قال في كتابه: ﴿عَآمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك]، فأخبر أنه في السماء، وكذلك قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وكذلك قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣].

و(في): لها معان تختلف في اللغة، ليس شيء في شيء إلا وهو لا يخلو من أحد هذه المعاني التي نحن ذاكروها إن شاء الله:

إما أن يكون فيه بمعنى قول القائل: الناس في عامهم هذا مخصبون.

(١) في (أ، ب، ج): التي.

أو يكون الشيء في الشيء محوياً كاللبن في وعائه.
 ويكون الشيء في الشيء كالحي في حياته.
 ويكون الشيء في الشيء كالأبيض في بياضه.
 ويكون الشيء في الشيء كالعبد في سلطان مولاه.
 ويكون الشيء في الشيء كالمرباط في رباطه، والغازي في غزاته، والبابي في بناءه.

فاعرف هذه اللغات كيف تتصرف في معانيها، وتتوجه في تصاريدها.
 وقد يكون أيضاً معنى (في): إنما هو مع، وفي القرآن مثل ذلك قول الله سبحانه: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، فمعنى قوله: {ادخلوا في أمم} أي مع أمم. وكذلك قال: ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ﴾ [الأحقاف: ١٨]، يعني: مع أمم. ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ٢٦]، أي: مع عبادك الصالحين. وقال سبحانه: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ [النمل: ١٢]، أي: مع تسع آيات. وقال: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، بمعنى: معهن.

ومعنى آخر من تأويل (في): يكون تفسيره على، [وذلك] ما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا ضَلِيلَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، يعني: على جذوع النخل. وقال: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]، يعني: عليها. وقال: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ [طه: ١٢٨]، يعني: يمشون على قراهم.

ومعنى آخر من معاني (في): يكون تفسيره إلى، وذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، يعني: إليها.

وقد يتجه تفسير (في) إلى معنى آخر، قال الله سبحانه في كتابه: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]، أي: عن هذه النعمة وعن ذكر آياتي فهو في الآخرة أعمى.

وقد يتجه على معنى آخر في قول الله فيما أخبر عن فرعون وقوله لموسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، أي: عندنا، وقال: إنا لنراك فينا ضعيفاً، بمعنى: عندنا.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، فالمعنى في ذلك كله على المشاهدة والتدبير لا على أنه في شيء يحويه، ولا على أنه مع شيء ملازق له، ولا أنه على شيء، كما الإنسان على السرير وعلى السطح وقد خلا منه ما هو أسفل من ذلك.

ومن ذلك قول الشاعر:
وصرنا خالين وليس معنا سوى رب البينة والمقام
فمن أنكر ذلك وزعم أن ربه في مكان دون مكان سئل في أي مكان هو؟
فإن قال: على العرش.

قيل له: أو ليس العرش غير السماوات والأرض؟ فقله: نعم.
فيقال له: كيف قلت: هو في السماء وقد زعمت أنه على العرش، والعرش غير السماوات والأرض؟ وفي هذا رد لقول الله سبحانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣].

وإن قالوا: إن العرش ليس في السماوات ولكنه فوقها عطلوا السماوات من العرش، وفي تعطيلهم السماوات من العرش تعطيل ما قالوا هو العرش دون ما سواها.

الرد على من قال إن لله نفساً كنفس الإنسان

إن سأل سائل ذو حيرة عن قول الله عز وجل: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وعن قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وتوهم أن لله عز وجل نفساً كنفس الإنسان، وأنها جزء الجسم، وأنها جوهر يقيم الأعراض، قيل له: إن معنى قول الله سبحانه في كتابه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي

نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴿[المائدة: ١١٦]، تعلم (١) ما أعلم ولا أعلم الذي تعلم، وكذلك قال عز وجل: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، فالكاتب (٢) هو المكتوب عليه، وهو الله عز وجل الكاتب والمكتوب عليه.

وإن زعم أن النفس معنى غير ذاته وزعم أنه شخص. سئل عما في النفس، أهي النفس أم غير النفس؟

فإن زعم أنها غير النفس زعم أن في ربه غير ربه، وإن زعم أن الذي في النفس هي النفس زعم أنه لا معنى لقوله: ﴿فِي نَفْسِي﴾.

ويسألون هل كانت النفس وفيها ذلك الذي هو غيرها؟

فإن زعموا أنه لم يزل جحدوا قول الله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ [الحديد: ٣]، وإن زعموا أنها كانت وليس فيها ذلك الذي في النفس، وأن ذلك محدث - جحدوا أن يكون: كان عالماً لم يزل.

واعلم أن للنفس في لغة العرب معاني، فمنها ما يجوز على الله تبارك وتعالى ومنها ما لا يجوز عليه.

فمعنى النفس التي هي الروح، وما ذكر الله تعالى من قوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير]، فهذه النفوس هي أجزاء الناس التي هي أرواحهم. وقد قيل في اللغة [في] ذكر هذه النفس: فاضت نفس فلان، يعنون: خروج روحه، وهذا المعنى عن الله عز وجل منفي.

وقال الله عز وجل في كتابه يذكر النفس بغير هذا المعنى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]، يعني: من آدم عَلَيْهِ السَّلَام، فسماه نفساً، ولم يرد به روحه، وقال: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر]، يعني: يا أيها الإنسان، ولم يرد النفس التي هي الروح فقط، وإنما أراد الحي الذي هو الإنسان، وكذلك قوله:

(١) في (ب): أي تعلم.

(٢) في (ب): فالكاتب.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المذثر: ٣٨] أي: كل إنسان بما كسب رهين، وقال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، يعني: أن يقول الإنسان وقال: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، يريد: الإنسان، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ١٨٥]، يعني: أن كل إنسان ميت.

والعرب قد تقول للشيء الذي لا روح له بنفسه، وكذلك يقولون للشيء الذي لا روح له ولا شخص: هذا نفس كلامك، وهذا النور بنفسه. وقال الشاعر:

قالت له النفس إني لا أرى طمعاً وإن مولاك لم يسلم ولم يصد
وقال آخر:

وهل نحن إلا أنفس مستعارة تمر بها الروحات والغدوات
يعني: هل نحن إلا أناسي مستعارون، ولو أراد بذكر النفس معنى الروح لما أجاز أن يسمى كله نفساً، لأنه بدن ونفس، وقال آخر:
وقد وفدت إليك بذات نفسي قصائد يعترفن بما نشاء

يعني بقوله: بذات نفسي، أي: بي كما أنا. كما قيل في اللغة: جئتكم بنفسي، ولم يريدوا بقولهم معنى ثانياً هو غير جئتكم، لأنه إذا قال: جئتكم دل على الجائي تاماً، ولما قال: بنفسي لم يرد معنى ثانياً هو غير المعنى الذي هو جئتكم، وقال آخر:
وما لام نفسي مثلها لي لائم

وقال الله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]، يعني: نحن وأنتم، وقال الله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فالمحذر: هو المحذر منه، يعني يحذركم الله أي: يعذبكم، كما قال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وليس الكاتب غير المكتوب عليه.

الرد على من زعم أن الله نور كالأنوار المخلوقة

إن بعض الملحدين توهم أن الله عز وجل نور كالأنوار المنبسطة، وتوهم آخرون منهم أنه نور كالأنوار الكثيفة الساترة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقد رأينا مثل المعنيين اللذين توهموا من النور المنبسط والنور الكثيف الساتر، فأما النور الكثيف الساتر فالبدر إذا هو قهر وكشف ستر من السماء عن أبصارنا بقدر استدارته، ورأينا قرص الشمس كثيفاً ساتراً يستر الأبصار من السماء بقدر استدارته، فأما النور المنبسط الذي تنفذه الأبصار فقد رأيناه، من ذلك ضوء النهار، ونور القمر، وشعاع الشمس يدخل من الكوة، فلا تستر أبصارنا لانبساطها، ولا يكون ذلك ساتراً لأبصارنا عما خلفه.

وأعلام العبودية في هذه الأنوار التي ذكرنا كلها بيته، وذلك لأن النور الكثيف الساتر ضعيف لا يقدر على الزيادة في نفسه ولا الانتقاض لها، ولا تقدر على الامتناع من العيون أن تدركها، فالضعف لكل ما ذكرنا لازم. وكذلك الضعف بين في الأنوار المنبسطة؛ إذ لم تحجب الأبصار عن نفذها ومجاوزتها إلى ما خلفها، فالضعف لكل ما ذكرنا لازم، والله فتعالى عن هذه المعاني أن يكون بشيء منها موصوفاً؛ لأنها مخلوقة، وكل ما أشبه المخلوق فهو مخلوق، وليس الخالق للشيء كالمخلوق في جميع المعاني كلها.

واعلم أن النور له في الكتاب وفي اللغة معان، يجري على الله عز وجل بعضها ولا يجري عليه بعضها، فالذي يجري عليه منها هو ما قال الله في كتابه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

يعني: الله ينير لعباده دلائله التي يهتدون إليه بها، لأن يعرفوه بها أبان، ويعلموا أنه الحق بآياته المنيرة، وأن يميزوا بها بين الخالق وخلقه، والله نُورٌ

الأنوار، وهو منير لما^(١) نور من دلالة، فهو نورها؛ لأنه أضاء لنا الأشياء وأبانها، وجلا عنها ظلمة الشبهة، فأزال عنها الشكوك والريب بتجليتها للعقول أنه الحق المبين، وأنه نور كل شيء، وليس كمثله شيء. كذلك أمرنا أن نصفه، وبذلك دلنا على نفسه، من غير أن نجاهر الله فتدركه الأبصار، فاستنار لنا بتدبيره من غير مشاهدة منا له، ولا إحاطة به، ولا إدراك من حواسنا له، فهو نور السماوات والأرض ونور من فيهما، لمعنى: الذي ذكرنا أن الحق من عنده، وأن العباد به استناروا، وبه استضاءوا، وبه أبصروا، إذ استضاء لهم سبحانه بنوره الذي عاينوا من خلق أنفسهم، وتدبيره في ملكوت السماوات والأرض، ومن لطائف الآيات التي لا يكون معها ريب، ولا تدانيها الشكوك، ولا تعثرها الفترات، ولا تكون معها الغفلات، فرأوا ربهم بتدبيره ونوره وعلاماته، لا بمجاهرة منهم له، ولا بالمشاهدة والملاقاة، تقدر الله عن ذلك وجل جلالاً عظيماً. وكذلك الله نور السماوات والأرض ومن فيها، لأن عباده الذين هم سكان أرضه استناروا وعلموه بما عاينوه من نوره، إذ دبر الأرض، وخلق فيها ما به أنار لهم أنه الله سبحانه، فاستنار نوره بغير تحديد، وعرفوه من غير تخيل، ووجدوه معروفاً بغير تشبيه، بل عرفوا الله بعجيب آياته وبأثر دلالاته.

ومعنى آخر في تأويل قوله: «نور» قد علم العالمون أن الأشياء تدرك بحقائقها، وتعلم بالاستيقان وإن كانت غائبة، فالله يعلم ويعرف ويميز بين ما يدرك بالمجاهرة وبين ما لا يدرك بها، كالخشونة واللين، والحمرة والبياض، وما لا يدرك بالمجاهرة، بالسمع والبصر والعقل والرِّي والظمأ، والشبع والسغب، وما أشبه ذلك مما غيب عن حواسنا، وإن كنا قد أدركناه بعلمنا بما صرفنا منه ربنا فيما أخبرنا عما غاب عنا من ملكوته.

(١) في (أ): بها.

واعلموا أن الله سبحانه وصف الآية التي هي نور مخبراً لعباده أن الله سبحانه لم يرد نفسه بقوله: ﴿كَمْشَكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، ولم يمثل بالقنديل نفسه ولا بالمصباح، تعالى عن ذلك، وأي فضل في القنديل ليس في النجم الذي هو الزهرة؟ فكيف يمثل نفسه بالقنديل ويترك ما هو أنور من القنديل وأحسن؟ بل أي فضل في القنديل ليس في در الجنان؟ كيف يمثل نفسه بالقنديل وهو يتعالى عن الزهرة ودر الجنان؟!

بل كيف يضرب الله لنفسه أمثالاً مفضولة دون الفاضلة؟ تعالى عن المثل (١) والأشباه وتقديس عن ذلك. لكن الله سبحانه نور السماوات والأرض بما أنار لهم عن نفسه بخلقه لهم، وبما له فيهم من التدبير الدال عليه، فاستضاء عباده به؛ إذ أضاء لهم نفسه بخلقه لهم، فلم يضل في مضلات الشبهة من استضاء بربه واستنار به، فبانت الأعلام الهادية لمن استنار بها عن ربها، فبان الله بها لمن استنار بها، وكان الله نوره إذا اهتدى به، وأحيا لنا القلوب بعد موتها بنوره إذ أنار لها فاهتدينا به إليه. ومعنى آخر من معاني النور، وهو مما لا يجوز على الله، وهو ما ذكرنا من معنى الشمس الساترة، وشعاعها المنبسط الذي ليس بساتر.

ومعنى من معاني النور، وهي النيران الكثيفة، وهي في معاني قرص الشمس والقمر. ومعنى من معاني النور هو الإيمان؛ لأن الإيمان نور، وكذلك القرآن نور، وقد سمى الله القمر نوراً والشمس سراجاً والإيمان نوراً، وقال: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فهذه المعاني من الأنوار التي ذكرنا مميزة للعقول إذا ما نظروا إليها بها فأجروا على الله منها ما يجوز عليه، وما جرى على العباد منها فعنه نزهو الله ولا نسبوه إليه. وأما تأويل: ﴿مِثْلُ نُورِهِ كَمْشَكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]، فقد يجوز أن يكون عنى بذلك القرآن في غياهب الوسوس نيراً مضيئاً، وبه يبطل كيد إبليس اللعين وتوهمه

(١) في (أ): التمثيل.

وخدعه، فالقرآن في هذه الأماكن الموحشة كالمشكاة التي هي الكوة والمصباح فيها، والمصباح في القنديل ينير لما حوله ويضيء لمن دنا منه.

وقد يجوز أن يكون الله عنى بقوله مثل نور النبي ﷺ كهذا، كالمعنى الذي وصفنا به القرآن، والمعنى: أن النبي ﷺ أضاء لنفسه بنبوته ورسالة ربه، وأضاء لمن دنا منه أو سمع به في الأخبار.

وقد يتجه أن يكون الله أراد به قلب المؤمن أيضاً والإيمان الذي فيه، فمثل قلب المؤمن وكون الإيمان فيه مثل القنديل في المشكاة، فالإيمان يضيء للمؤمن عن كل ظلمة، كما أن القنديل يضيء في الكوة، وتضمحل به الغياهب المدهمات من الريب، والإيمان يتوقد ويضيء بالحكمة توقداً يظهر شعاع الحكمة ونورها في كلامه وفعاله وعلى جوارحه، وهو بعلمه بربه علمه له نور على نور.

واعلم أنه قد يجوز أن يكون معنى قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، نور مع نور؛ لأن كلامه نور مع عمله، وعلمه مع عمله، فهذا نور على نور، أي: مع نور. ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]، لا من يشاء غيره يهدي، ولو كانت البرية كلها لمن لا يريد هدايته ظهيراً لما اهتدى المرء أدنى الهداية إلا أن يشاء الله. وقد يتجه أن يكون الله سبحانه شبه نبيه ﷺ كما شبه القرآن والإيمان بالمعنى الذي وصفناه.

ومعنى قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ [النور: ٣٥]، فهذه شجرة منبتها في مكان مطلع الشمس عليه ولا تزول عنها حتى تغيب، وهي الشمس الضاحية، وهو أنضج لثمرها، تكاد أن ترى في الزيتون التي هي ثمرها وجهك من ودكها من نقائه وصفائه، فإذا أوقد القنديل من زيت هذه الزيتون كان أنور للمصباح، وهذه أمثال ضربها الله للناس لعلمهم يتفكرون.

وقال بعضهم: إن معنى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أنه: محمد ﷺ يصلي لا للمشرق ولا للمغرب، ولكن لكعبة الله الحرام.

الرد على من أنكر من الجهمية أن يكون الله سبحانه شيئاً

الحمد لله الذي علا على الخلائق فلم تغب عنه خفيات الأمور، وكل شيء عنده بمقدار، المنشئ ما شاء أنشأه فشيأه شيئاً كما شاء وجعله متناهيّاً محدوداً، آثار الصنعة له لازمة، وأعلام العبودية فيه بينة، فأنشأ ما أنشأ نحوين: أحدهما: مبتدأ لا من شيء.

والثاني: منقول من شيء إلى شيء، ومحول من حال إلى حال، ومن طبيعة إلى طبيعة، كالمضغة تقلب من نطفة إلى علقة، والعلقة حولت مضغة، ثم جسدها لحماً وأنشأها إنساناً، فصيره بشراً مخالفاً للبهائم في الشكل والهيئة، احتجاجاً من الله على خلقه بما أراهم من آياته فيهم.

وإن الله تبارك وتعالى وسم المعاني بأن قال: هي شيء، لإخراجه لها من العدم، لا أنه (١) وصفها بهذه الصفة بمعنى، ولا فرق بينها وبين شيء إذ قال لها: إنها أشياء، لأنه أخبرنا أنه خالق كل شيء، فكل شيء سواه هو خلق شيء، وكل خلق شيء، فقد خلق النار والثلج، فالثلج شيء والنار شيء، وليس أحدهما بالآخر شبيهاً في لون ولا طبيعة ولا فعل، وإنما تماثلاً في الشئئية، وقد اختلفا في الصفات، وإنما سميت الأشياء بأن قيل لهذا: شيء وهذا شيء لإثبات الأشياء بأنها موجودة، وأنها ليست بعدم، وقد قال الله في كتابه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصر: ٨٨]، وذلك دليل على أن الله شيء لا كالأشياء، إذ الأشياء تهلك، وهو المهلك لما يشاء منها، وقد قال الله في كتابه: ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، فأخبر أنه شيء أكبر الأشياء، ولو قال قائل: أي الملائكة أفضل؟ لم يجز أن يقال: بعض المؤمنين من آدميين هو أفضل؛ لأن آدميين ليسوا ممن ذكر في المسألة.

(١) في (ب): لأنه.

كذلك لما قال: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، علمنا أنه أجرى على نفسه الذكر أنه شيء ليس كالأشياء.

فإن سأل من الجهمية سائل فقال: هل الله شيء؟
 قيل له: نعم، الله شيء لا يشبه بالأشياء، الأشياء مشيئة، وهو سبحانه شيء لا مشيئة.

فإن قال: أنت شيء؟
 قيل له: نعم، أنا شيء مشيئة، لا أني غير مشيئة، والله شيء لا مشيئة، بل الله مشيئة الأشياء لا يشبهه^(١) ما شياؤه وليس في قولي: أنا شيء والله شيء تشبيه؛ لما فصلناه من معنى المشيئة والمشياء، ولأن قولي أيضاً شيء اسم لازم للجميع، وجار على كل معنى، وثابت على كل موجود مشيئة كان أو يكون، ولا يقضى بإيقاعه على المسمين - مفرداً - ائتلاف ولا اختلاف، وذلك لأنك تقول: الفيل شيء والذرة شيء، وهما غير مشتبهين في قولك: هذا شيء وهذا شيء، وكذلك تقول: الإنسان شيء والشيطان شيء، وهما لا يتماثلان، وقد أوقعت على كل واحد منهما أنه شيء، وكذلك تقول آدم صلى الله عليه شيء وربنا تبارك وتعالى شيء، وهما غير متماثلين.

فإن قال: أليس آدم مخلوقاً والذرة مخلوقة؟

قيل له: بلى.

فإن قال: هل يتماثلان في أنها خلق لله؟

قيل له: نعم.

فإن قال ما فرق ما بين شيء وشيء وخلق وخلق؟

قيل له: إن الخلق اسم له خلاف، وخلافه خالق، ولو قال القائل: الخالق

(١) في (أ): لا يشبهه.

مخلوق كذب، ولو قال القائل: الخالق شيء لم يكذب، والخالق هو خلاف المخلوق، ولا يوجد لشيء خلاف إلا شيء مثله موجود، ولا شيء^(١) إلا موجود، ولا موجود لا يكون لا خلاف ولا يكون خلافاً.

فإن قال قائل: إن لا شيء خلاف شيء.

قيل له: قد أنبأناك أن الشيء خلاف شيء، ولا يكون شيء خلاف لا شيء، ولا يكون لا شيء له خلاف، ولا يجوز أن يقال: للا شيء اتفاق ولا اختلاف؛ لأن هذا عدم لا يتوهم.

فإن قالوا: لم أجزت أن تقول: شيء وشيء وهما لا يشتبهان؟

قيل: من قبل أني ثبتهما ونفيت عنهما العدم، وأخرجتهما من التعطيل.

فإن قال: لم قلت: لا شيء.

قلت: لنفبي لإثباته، وقلت: لا شيء لإخراجه من الوجود، وليس قولي: هذا شيء ولا شيء تشبيه ولا غير تشبيه، وقول القائل: هذا شيء وهذا شيء لا يجب به تشبيه؛ لأن التشبيه لا يجوز إلا على ضد أو مثل.

واعلم أن الضد هو غير الخلاف، وبيان ذلك أن كلَّ ضدٍ خلاف، وليس كلُّ خلافٍ ضداً، والضد هو المضاد، والخلاف هو الغير الذي ليس بمضاد، وذلك لأنك تقول: هذا خلاف الله، ولا تقول: هذا ضد الله.

فإن قال قائل: ما بالك إذا قلت: لا شيء لا يقع اتفاق ولا اختلاف؟

قيل له: من قبل أن لا شيء عدم العدم^(٢) ليس بموجود، ولا هو موهوم ما هو فيكون له شبيه، والشيء إثبات ووجود وموهوم إذا قلت: شيء ما هو وأي الأشياء هو؟ إلا رب العالمين، فإنه شيء خالق الأشياء وليس كالأشياء. وإنما قلت: إنه هو شيء لأثبته موجوداً، وقولي: شيء ليس فيه تشبيه، لأنني إنما أثبتته

(١) في (أ): فلا.

(٢) في المطبوع: والعدم.

بقولي: شيء، وقد يشتبه قول شيء وشيء ولا يشتبه المسمى، إلا إن أوقع عليه من أي الأشياء هو وما هو ومم هو؟ فحينئذ يشتبه المسميان، فأما شيء وشيء فليس فيه اشتباه المعاني وإن استوى قول شيء وشيء.

وقد يقال: الخنزير شيء، والكلب شيء، والإنسان شيء، وليس هذا الاسم الذي هو إثبات لشيء مبهم مدحاً ولا تهجيناً إذا كانت التسمية مبهمة مفردة في الذكر؛ ولذلك لم يقع به تشبيه إذا قلنا: إن الله شيء والإنسان شيء.

فإن قال: فإذا سميت الله شيئاً فقد سميته بها لا مدحة له فيه.

قلت: إني إذا سميته شيئاً ذكرته سبحانه بكلام آخر أصله به فيكون مديحاً، كقولنا: الله شيء واحد كريم، والله شيء واحد عزيز، والله شيء ليس كالأشياء، فيكون ذلك مدحة، ولا يذكر العبد التقى ربه إلا وهو فيما ذكر من أسمائه مادح، فإذا سمى الله العبد بأنه شيء لم يفرد حتى يقول: الله شيء لا كالأشياء، فيكون الكلام كله مقروناً بكلام آخر على ما ذكرنا كان كله مديحاً، وقول القائل للشيء: هذا شيء كلام مرسل غير مقرون بما يتجلى به المعنى، فليس بدم ولا مدح، كقولك: عرفت شيئاً، ولا يكون المعروف عندك مذموماً ولا ممدوحاً حتى تقرنه بكلام آخر، فتقول: عرفت شيئاً هو صالح، أو عرفت شيئاً هو فاسد، فيكون هنالك الذم والمدح، فلا يدرك بقولك: هذا شيء وهذا شيء ائتلاف ولا اختلاف، فلا ترسل القول على الله بأنه شيء إلا مقروناً بكلام آخر، فتقول: هو شيء ليس كالأشياء، فيكون قولك: هو شيء بالصلة المقرونة مديحاً، وكذلك يقول القائل: هذا الثوب شيء فلا يكون مادحاً حتى يقول: هذا الثوب شيء حسن أفضل من غيره، فيكون بما أجرى به الثوب مديحاً، وإذا كان مرسلًا لم يكن له مدحاً ولا ذماً.

الرد على من أنكر أن يكون الله واحداً ليس بذي أبعاد

الحمد لله الذي عن شبه كل شيء تعالى، وشاهد كل ملاء وهو في السماوات العللى، وعلى العرش استوى، ولا يخفى عليه النجوى، وهو يرى ولا يرى، سبحانه فليس عليه شيء يخفى، وليس كمثله شيء، وهو الواحد الصمد البارى المصور، وليس بصورة، بل هو مصور الصورة، وهو السميع العللى، قال الله عز وجل فى كتابه: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، يخبر بوحدانيته فى آى كثير. والواحد فى اللغة له معان:

أحدها: البائن بالفضل والسؤدد.

ومعنى آخر يقول الناس: هذا شيء واحد، ليس له نظير فى الشبه.

ويقال: هذا وهذا واحد، يراد أنهما متماثلان، وقد يقول المرء: قولى وقولك واحد، أى: مثله، ويقال لأقل قليل القلة: هذا شيء واحد، يراد ثباته وتعطيل الثانى، بمعنى ليس له نظير ولا شبيه^(١)، بمعنى أنه ليس فيه اختلاف، وهذا معنى قولنا: الله واحد، وليس من عدد، ولا هو عدد، كما الإنسان واحد وعدد، كما أن الإنسان أعضاء، وكل عضو يقال: إنه واحد، فإذا اجتمعت الأعضاء قيل: هذا واحد، فهو واحد عدد أوحاد، وهو من عدد أوحاد مثله، لأنك تقول: هذا إنسان واحد، وتقول الآخر واحد^(٢) فصاعداً، فكل واحد منهما واحد من عدد، وليس الله سبحانه واحداً من عدد، على معنى ما ذكرنا من معانى الواحد من غيره.

وقد قالت العرب: إن فلاناً واحد قومه، أى: سيدهم، وهو واحد القوم، وإن كان له الأتباع والعييد والأموال.

ويقال: إن فلاناً واحد الناس، أى: ليس له نظير، يعنون فى السؤدد والكرم.

(١) فى (أ): ولا شبه.

(٢) فى نسخة: ويكون الآخر واحداً.

واعلم أن الله واحد في الربوبية والعز والكبرياء، واحد بنفسه لا بغيره، وهو واحد لا ثاني معه، ولا مثل له في صفة ولا في ذات، ولا في قول ولا في فعل، ولا في معنى من المعاني كلها، ولا له مثل في صفة ولا^(١) في معنى شرف وفضل، ولا يزول عنه هذا المعنى الذي هو شرف في كل معنى، إذ لا شيء يشبهه، ولا هو يشبه شيئاً، ولو جاز أن يكون له مثل في معنى وكان ذلك يكون شرفاً لجاز أن يكون مثل غيره بكل معنى، ويكون ذلك له شرفاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومعنى من معاني الواحد هو الأول الفرد، ذلك في الحساب والعدد بين؛ إذ لا يكون العدد إلا به؛ لأنك تقول: واحد واثنان، فالثاني بالواحد كان، ولولا الواحد الذي هو أول الثاني ما كان الثاني قبل الأول، كان واحد أكثر من العدد الذي لا يحصى، وهو المكثّر لكل معدود، والعدد بالواحد يستزيد، وبه يزداد، ولولا هو ما كانت الزيادة، وكل ما زاد الحساب فبالواحد زاد، والواحد هو المفرد لما سواه، وهو أقدم من كل ما به ازداد، وكثرة العدد تزداد به، وتنقص به، والواحد الذي به يزداد العدد، وهو مقيم لكثرتّه، وبه يكون النقصان، وبه استوى الحساب، وبه يقل الكثير، ويكثر القليل، ويفرق بين الكثير والقليل.

فكذلك يقال: الله واحد بمعنى أول الأشياء، وبه كان كل شيء، وهو مشيئها ومدبرها بنفسه لا بغيره، ولا يتغير لتكثيرها ولا لتقليلها، ولا عند بطلانها، ولا يختلف سبحانه عند شيء من اختلافها، وهو سبحانه القائم بإنشائها، لا يتغير ولا يدخل في التغير، بل التغير داخل على ما أنشأ، ولم يزل الله قبل أن يكون الشيء شيئاً، ثم إنه أراد إنشاء ما أنشأ، فأنشأ ما أراد إنشاء على ما شاء، واضطر المنشأ إلى التغير والزوال، والخطوط والنقص والنماء.

والله سبحانه واحد في معناه، لا في معاني ما أنشأه. وهو الواحد لا من عدد،

(١) في (أ، ب): ولا له مثل في صفة لا في معنى.

ولا فيه عدد به تجزأ، وليس شيء يقال: إنه واحد في الحقيقة غير الله، وكل واحد سوى الله فهو ذو عدد مجزأ ومن عدد، وذلك لأنك تقول للواحد من الخلق: إنه له فوق وتحت وأمام وخلف وشمال ويمين، وكل واحد مما ذكرنا غير الآخر، فهذا غير واحد يضمه^(١) اسم الواحد، وهذا الواحد هو العدد، ومن عدد كثير من اللون وغير ذلك، وهو من عدد له أشباه، والله واحد ليس لشيء من هذه المعاني المنقوصة شبيهاً؛ لأنه ليس له نظير.

فإن قال قائل: لم لا يكون قولك: واحد تشبيهاً وقد قلت لغير الله: واحد؟! قيل له: إنا لم نقل لغير الله واحد بمعنى ما قلت: إن الله واحد، وليس واحد كالله في ربوبيته ووحدانيته، وليس من هو واحد في الحقيقة ليس بجزء ولا باثنين سوى الله، وكل ما سوى الله فقد يقال: واحد وهو أكثر من اثنين إذا حدد على وجه ما فسرنا من الحدود التي تلزم الخلائق؛ وذلك لأن كل واحد مما سوى الله فمستدس، وهو أكثر من اثنين وإن قيل: إنه واحد على ذكرنا. فليس الله بواحد كمعنى الآحاد المعدودة، وإنما هو إله واحد، ليس له ند ولا له شبيه، تعالى عما يقول المشبهون علواً كبيراً.

ومعنى من معاني الواحد إذا أرادوا به دفع الاختلاف وحذف الجميع، كما قال الكميت بن زيد الأسدي:

فضم قواصي الأحياء منهم فقد رجعوا كحي واحدنا

فإن قال قائل: رأيت إذا قلت: إن الواحد من الحساب في جميع العدد، فكذلك تقول: الله في كل شيء.

قيل له: إن الله تبارك وتعالى في كل شيء مدبره لا محوي، وهو مع كل شيء رقيب لا يحاط به، وليس هو في شيء من الأشياء بمعنى كون الشيء في الشيء

(١) في (ب): مما يضمه.

ولا الشيء مع الشيء، كما الله في الأشياء ومع الأشياء على غير الإحاطة، ولا يعزب الله فيها ولا هي تعزب عن الله؛ وذلك لأن كل ما كان في فعله لم يقطعه فالعرب تقول: إنه في فعله، كذلك الأشياء فعل الله ولم يقطع تدبيره منها، فلذلك قلنا: إن الله بكل مكان، فهو في كل شيء، ليس بغائب عن شيء، وقد حقق الله مقالتنا في كتابه بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه]، وكذلك: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ﴾ الآية [المجادلة: ٧].

ألم تر إلى المرء يصبح صائماً ثم يقوم مصلياً وهو في ثغر، فيقال: إن فلاناً في صلاته وصيامه ورباطه، ويقال له ذلك في حال أقل قليل كونه في أفعاله. وأفعاله أفعال مختلفات بعضها غير بعض، ليس فعل يشغله عن الفعل الآخر، وهو في الوقت الذي هو في هذا الفعل فاعل للفعل الآخر، وليس فعله له بحاو، ولا فعله أيضاً فيه محوي، فالله أقرب من الأشياء من الشيء إلى نفسه، وهو بكل شيء أنظر وأطف.

فإن مجن السائل من أهل التشبيه وذكر الأكبال والقيود وقال: هل الله فيها؟ قيل له: تقدس الله وجل أن نذكره بكلام فيه تهجين، ولا يجوز أن نذكر أن الله في شيء ذكره تصغير بالمذكور؛ من أجل أن الله أخذ علينا في ميثاق الكتاب أن لا نذكره إلا بالأسماء الحسنی، ومن الأسماء الحسنی كل اسم لا يكون معناه عند السامع يحتمل التهجين، وقول القائل: ربه في السلاسل والقبول تصغير بذكر الله وتهجين، تعالى الله عز وجل وارتفع عن ذلك وعن أن نذكره به؛ لأن المذكور بهذا مذكور بالإحاطة والقلة، والله عن ذلك يتعالى. وإذا ذكر الرب بالاسم العام كان له تعظيماً، وإذا ذكر بالاسم الخاص كان له تهجيناً، ولا يعرف الرب من ذكره بهجنة، وقد دللنا على معنى صحيح، إذ قلنا: الله في الأشياء مبثوثة، وإن خص السائل ذكر شيء هو بالمذكور تصغير وتهجين، ويذكر ما يكون حواء

ولإحاطة - لم يجز الجواب فيه بنعم.

فإن سأل السائل: ما الله تبارك وتعالى إذا قلت: هو الواحد؟!

قلنا: معناها أن الله واحد أي: لا واحد سواه إلا وله شبيهه، والله واحد ليس له شبيهه، وهو يقيم الأشياء، وهو القائم بها، لا بغيره قامت الأشياء، وليس الله بذئ أبعاض بعضها لبعض مؤيد ولا ممسك، بل الله واحد ليس سواه واحد في معناه، وليس واحد سوى الله إلا وقيامه بغيره؛ وذلك أن الحركة لا تقوم في وقتها إلا بمتحرك، كذلك اللون لا يقوم إلا بِمُلَوَّن، والطول لا يقوم إلا بمطوَّل؛ لأن ما ذكرنا كلها أجزاء، وإنما يقوِّم بعضها بعضاً، ولا يكون الجميع إلا باتصال الأبعاض، ولما كان على الجميع الأجزاء جاز أن يكون مع الجميع ثان، وجاز أن يقال: هذا كان غير هذا. كذلك لا يقوم شيء مما ذكرنا من الخلق إلا في زمان ومكان، والله القائم بنفسه، لا تجري عليه الأزمنة، ولا تحويه الأمكنة^(١).

واعلم أن العدد من الحساب أصله وجوب الغير، ولا يقع الغير إلا على اثنين فصاعداً، فإن كان الاثنان جنسين مختلفين جاز أن يقال: هذا غير هذا، فإن كانا مؤتلفين قيل: هذا وهذا واحد، وهذا واحد وهذا واحد، وكان كل واحد منهما غير الآخر.

وقد يقال للمؤتلفين الذين هما واحد: إن أحدهما غير الآخر، كعملي غير عملك، وإذا كان عملهما دينا قيل: هذا وهذا واحد، وكل ما ذكرنا يحتمل التضعيف والزيادة ويحتمل التضعيف أضعافاً، وكل ما احتمل الزيادة لم يكمل أبداً، وقد يحتمل النقصان، وكل ما احتمل النقصان أمكن أن يبيد، وهو أبداً منقوص من صفة الكامل، والله واحد لا بهذا المعنى، ولكنه واحد في معناه

(١) في (ب): الأمكن.

الذي لا يشبه معاني البشر ولا الحساب، وهو إسقاط الثاني، وليس ثان مع الله، ولا واحد غيره في معناه كهو، وإثباته واحداً تعطيل الثاني، وفي تعطيل الثاني توحيد الأول، والواحد الباقي الذي ما سواه فان.

الرد على من زعم أن لله وجهاً كوجه الإنسان

الحمد لله الذي ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، الذي به قامت سماواته وأرضه، واستوى على عرشه، فلا شيء في استوائه يماثله؛ لأنه عن شبه كل شيء تعالى، وهو لكلنا شاهد ولنا باري، وكلنا عليه لا يخفى، سامع النجوى، والعالم بما في الضمير وما مضى في الضمير وأخفى.

اعلموا -رحمكم الله- أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وآله كلامه، لساناً عربياً مبيناً، أوجز البلاغات وأبلغه إيجازاً، وليس للأُميين في اللغة أن يتأولوا في الكتاب ما لا يدركه المتأولون من رباني اللغة والكتاب، وقد علم ربانيو اللغة أن لها تصارييف المذاهب وفنون الجهات، وأنها ذات قيم وأمواج وأطناب ولطائف ودقائق في بيان.

وإن فرقة من البدعية استعجمت في كتاب الله، وسارعت في تأويله من غير فصاحة بالتأويل، ولا فهم في التنزيل، ولا آلة في العلم باللغات، فتأولت بالعجمة إذ تأولته، ولما سمعوا كلام الله وما فيه من قول المطعمين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩٠]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، قالوا: [إن الله -تعالى عن ذلك- وجهاً كوجه الإنسان.

ونحن سائلوهم وبالله نستعين: ماذا أراد الله بقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] شيء منه دون شيء أم هو الله تبارك وتعالى يبقى؟ لأنه ليس بذي جوارح متفاوتة، فإن رجعوا إلى النظر وتصفية الجواب علموا أن الله أراد بقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ يعني: يبقى ربك، وأن كل شيء غيره فان،

لأن الله ليس مبعوضاً يبقى وجهه دون أبعاضه، تعالى الله عن التبعض.
 فإن تقحم ذو حيرة غمرات الكفر وزعم أن له أبعاضاً أحدها وجه قيل له:
 أخبرنا عن تلك الأبعاض التي أحدها وجه أتفنى دون الوجه؟
 فإن زعم أنها تفنى دون الوجه صرح بشركه، وإن زعم أن الأبعاض التي هي
 غير الوجه تبقى مع الوجه قيل له: من أين قلت: إن كلها تبقى وقد قال الله عز
 وجل في كتابه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصل: ٨٨]، والأبعاض التي هي
 غير الوجه هي شيء، وقد قال الله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصل: ٨٨]؟
 ولن تجدوا حجة تدفعون بها الفناء عن الأبعاض التي هي سوى الوجه إلا أن
 ترجعوا إلى قولنا. وقد قال الله في كتابه: ﴿وَمَا عَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
 فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ [الروم: ٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾
 [الإنسان: ٩]، فليس على الأوهام الطالبة إليه للحق في تأويل هذا مؤنة، إذا نظرت
 بصافي عقلها استبان أن معنى قوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩]، أي:
 تريدون الله وثوابه، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾، أي: الله، وقوله:
 ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصل: ٨٨].

وللوجه في القرآن معان وفي اللغة، قال بعض العرب:
 أعوذ بوجه من تعنو الوجوه له بالله ليس له شبيهه
 ومعنى تعنو الوجوه أي: تستأسر النفوس، وكل امرئ أسير، يريد أنه لله
 مستأسر، وإنما أراد بوجهه ذاته، فلما قال: أعوذ بوجه من تعنو الوجوه له ثم قال:
 بالله علمنا أنه إنما استعاذ بالله في قوله: أعوذ بوجه من تعنو الوجوه له. وقال آخر:
 إني بوجه الله من شر البشر أعوذ من لم يعذ الله دمر^(١)

(١) لفظ البيت في نسخة:

أعوذ بوجه الله من شر البشر من لم يعذ الله من ذل دمر

وفيه دليل على أنه استعاذ بالله سبحانه، وقال آخر:

إلهي لا رب لنا غير وجهه وليس له من صاحب لا ولا ند

وفيه دليل على أنه أراد بذكره وجه الله أي: الله، ولم يرد بذكره وجهه أنه بعض دون أبعاض، لأن الله سبحانه ليس بذئ أبعاض. وقال ذو الرمة:

أقمت لها وجه المطي فما درى أجائرة أعناقها أم قواصد

فجعل للمطي وجهها، وليس ذلك الوجه على ما يعقل من وجه الإنسان.

وقال آخر:

أعوذ بوجه الله من شر معقلٍ إذا معقلٌ راح البقيع وهجراً^(١)

وهذا دليل على أنه استعاذ بالله. وقال آخر:

وتطلّب المعروف في كل وجهة تخطى إلى المعروف نحو ابن عامر

ويقال في اللغة: أخبرنا بالخبر على وجهه، ولا يتوهم للخبر وجه على ما يعقل من وجوه البشر، وقال الله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]، أي: لكل قبلة.

وقال آخر في تأويلها: ولكل ملة.

ويتأول بعض أهل العلم: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧]، أي: ملة نمسخهم، يعني أهل الملل، وإنما صارت الملة وجهاً لأن صاحبها يتوجه إلى الرب بها. وقال الشاعر:

درست وجوههم فكل آخذ غير الطريق وكلهم متحير

فهذا دليل على أن الله أراد بقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أي: مللاً.

وقال آخر:

أضحت وجوههم شتى فكلهم يرى لوجهته فضلاً على الملل

(١) رواية البيت في الإصابة لابن حجر وغريب الحديث لابن قتيبة والأعلام للزركلي هكذا:
أعوذ برب الناس من شر معقل إذا معقل راح البقيع مـرجلا

وقال عباس بن مرداس السلمي:
أكليب مالك كل يوم ظالماً والظلم أنكد وجهه ملعون
وقال الله عز وجل: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، أي: من أخلص دينه لله، فجعل للدين وجهاً.

وقال الشاعر:
وأسلمت وجهي لمن أسلمت لأرض تحمل صخراً ثقالاً
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذاباً زلالاً^(١)
وفي ذلك دليل على أنه أراد بالوجه الدين.

وقال الله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ [الروم: ٣٠]، ولم يرد الوجه دون القلب وسائر الأبعاد، وإنما تأويل أقم وجهك أي: أقم نفسك للدين، وتأويل أقم نفسك للدين إنما هو: قم بالدين.

وقال الله سبحانه: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ﴾ [آل عمران: ٧٢]، يعني: صدر النهار. وقال بعض أهل العلم: أول النهار. فذكر الله للنهار وجهاً، ولم يرد به وجهاً من الوجوه التي أمر بغسلها عند الوضوء. وقد يجوز في اللغة القول بأن هذا وجه المتاع، وهذا وجه القوم وفاضلهم، وهذا وجه الدار، وهذا وجه الكلام، وهذا وجه العمل، معنى قولهم: هذا وجه الكلام، أي: صدقه وبيانه^(٢)، ووجه العمل أي: العمل به صواب. وقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ [المائدة: ١٠٨]، أي: يأتوا بها على صدقها.

وتأويل قول الله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [التقصص: ٨٨]، له معان:

(١) البيتان لزيد بن عمرو بن نفيل كما في سيرة ابن إسحاق والأغاني وغيرهما.

(٢) في (أ): وثباته.

منها: ما أريد به وجه الله من العمل الطيب والقول الحسن.
ومعنى آخر في: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [التقصص: ٨٨] إلا هو، ومن أراد
هذا المعنى قرأ وجهه مرفوعاً، وله سوى هذا^(١) أيضاً من أراده قرأه مفتوحاً،
والمعنى فيه: ثواب الله عز وجل.

وقال الله عز وجل في كتابه: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، فمعنى هذا
الوجه معنى واحد، وهو الوجه الذي في الناس، وذلك عن الله عز وجل منفي.
وقوله: ﴿فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، دليل على أنه الله، لأن الشرقي والغربي
والذي بين المشرق والمغرب لا تكون جهتهم جميعاً تلقاء وجه الله، لأن وجهه:
الذي هم مقابلون دون ما سواه، فيبطل قولهم في تأويلهم: ﴿فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾،
وزعموا أن وجههم جميعاً تلقاء وجه الله، وبطل قولهم: (خلق آدم على
صورة^(٢) وجه الله)، لأن الصورة وجهه، وهي لا تواجه إلا ما كان تلقاءها.

ومما يبطل به قولهم في زعمهم: إن الله على العرش دون ما سواه، وأن
الملائكة يسبحون من حول العرش، فقد أحاط المسبحون بالمسيح؛ إذ هم حوله،
ولا يكون توجيههم تسبيحهم تلقاء وجه الله. وإن قالوا: إن جهتهم جميعاً وإن
الله هو أينما تولوا رجعوا إلى التوحيد الأول.

الرد على من زعم أن الله تدركه الأبصار وتحيط به الأعين تعالى عن ذلك

الحمد لله الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، وهو الواحد المتكبر
العزیز القهار، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، زعم
قوم من أهل الجهل أن العباد غداً يعاينون ربهم جهرة، ينظرون إليه كما ينظر
بعضهم بعضاً، محاطاً به محدوداً، وتأولوا قول الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
نَاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة]، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ

(١) في (أ، ب): وله شواهد أيضاً.

(٢) في المخطوطات: على تودة وجه الله.

وَزِيَادَةٌ ﴿يونس: ٢٦﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [المطففين]، وقوله يخبر عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ونحن مقرون بالنظر من أولياء الله في جنته على غير تحديد ولا إحاطة، جل الله وعز وتعالى علواً كبيراً.

والنظر له في لغة العرب معانٍ:

أحدها: أن يلاقي الشيء جهرة ويحيط به بالعيان بإدراك وتحديد، فيقال: نُظِرَ إليه وَعُوِّنَ وأُذِرِكَ وأُبْصِرَ وجُوهِرَ.

ومعنى آخر من معاني النظر: لا بالعيان من بصر البصير، ولكن ينظر إليه بأفعاله، ومن ذلك قول العرب: انظر إلى شرائع الدين ما أحسنها، انظر إلى كلام عبدالله ما أفصحه وأبينه، انظر إلى ما صنع الله بعباده، وانظر إلى الذين جابوا الصخر بالواد ماذا صاروا إليه، فتجيب العقول له: قد نظرت إلى ذلك كله ورأيت لا بعيان البصر.

ويقال: إنه قد نظر في لغة العرب، وما ينظر فلان إلا إلى الله ثم إلى محمد، وتقول: ما ينظر إلا إلى عبدالله، وعبدالله غائب. ومن ذلك النظر إلى الشيء بأفعاله وآياته لا بروحه وشخصه، وتقول: رأيت نفس زيد حين خرجت، لا تريد بذلك نظر العين للروح. ويقال: رأيت عقل زيد صحيحاً، ونظرت إلى عقله فرأيت عقلاً حسناً. والعقل روحاني لا يرى بالعيون؛ لأنه ليس بشبح ولا لون ولا جسم. ويقال: أحسنت النظر وأسأت النظر، ومن ذلك قول الشاعر:

لا يزال وإن كانت له سعة إلى الذي رآه لم يظفر به نظر

وكذلك تقول: رأيت حلم زيد وعقل عبدالله، وإنما رأيت الحلم والعقل بأفعالها، مع أشياء كثيرة مما يجوز في اللغة، كقولك: انظر إلى شدة غضبه، وانظر إلى شدة فرحه، وانظر إلى همه وعداوته، وهذه كلها روحانيات خفيات لا تدرك بأنفسها، وقد تدرك بأفعالها، ويقال: رأينا غضبه ورضاه وما أشبه ذلك.

وقال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر]، والذي قيل له: ألم تر هو النبي ﷺ، وإنما النبي بعد قرون قبلها عاد، فرأى كيف فعل ربه سبحانه بعاد، ولم ير ذلك بعيان جهرة. وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، وقال إبراهيم الخليل صلى الله عليه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقد رأى كيف أحياه الله من نطفة، ولكنه أراد أن يريه الله كيف يحيي الموتى من وجه من الوجوه الذي عاين من إحياء الله سبحانه الأجسام الميتة من النطف وغير النطف.

وكذلك سأل موسى صلى الله عليه ربه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ومعناه ومعنى الخليل صلى الله عليهما في نفس النظر سواء؛ لأنها أرادا أن يعاينا بأبصارهما من معالم الله وآياته ما لم يزل الله يملك من المعالم والآيات، إلا أن موسى صلى الله عليه عاصي فيما سأل من قبل أنه سأل الله آية ليست من آيات الدنيا، ولم يكن له أن يسأل تلك الآية، وسأل النبي إبراهيم ربه آية من آيات الدنيا، فلذلك لم يكن في سؤال الله عاصياً. وإبراهيم وموسى في سؤالهما وقولهما لم يسألا ربهما أن يرياه جهرة لمعنى ما يرى البشر البشر، لأن ذلك شرك، ولم يكن إبراهيم وموسى صلى الله عليهما بمشركين، والله لا تدركه الأبصار، وقد علما ذلك، وكان موسى أعلم بالله من أن يسأل ربه أن يعاينه جهرة، بل أراد أن ينظر إليه بآية يحدثها له فيراه ليست من آيات الدنيا، ثم يكون له آية مرتجحة لا يحتملها الناس لو شاهدوها في الدنيا إلا أن يزداد في قوى حواسهم.

فقل لموسى: إن بنيتك لا تحتل ما سألت، واعرف ذلك بهذا الجبل فإنه أعظم منك خلقاً، وأشد منك قوة، وأشمخ منك طولاً وعرضاً، انظر إليه كيف يعجز على إدراك ما سألت مثله، ولم يكن الجبل بذى عقل، والله تبارك وتعالى لا

يتجلى^(١) إلا بالتجلي الذي به يدرك، ولن يدرك من ربنا إلا جلالته وآياته وتدبيره وصرفه، فبذلك يتجلي الله، وذلك أنه سبحانه ليس بشخص أحدث في الجبل عقلاً يدرك به ما يتجلي له، فإن الله تبارك وتعالى أحدث آية فتجلي الله للجبل، وجعلها آية سماوية ولم تكن أرضية. وقال بعض العلماء: أبرز بعض العرش للجبل، رواه يوسف بن الأسباط عن الثوري، وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فعرف الجبل ربه بتجلي الرب له بما أظهر له، فعظم الجبل الله، فبلغ من تعظيم الجبل لله أن تقطع وساخ وذهب. وإن الله جعل ذلك موعظة للقلوب القاسية لتلين، والقلوب الراكدة لتسترشد، ولأن ترجع القلوب إلى ربها بشدة الفكر والتعظيم الله العظيم.

فقال لموسى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، من وجه ما سألت، لأن التجلي إنما يكون من وجه يدرك من المتجلي. فتجلي الأشخاص للأبصار، ولا تجلي لغير الأدوات من الأسماع والأذان والملامس، وقد تجلي الأصوات للأسماع، وإنما يتجلي المتجلي من وجه ما يدرك به، فقد يقول السامع للكلام: قد تجلي لي هذا الكلام، ولا يراد به عيان البصر.

والله تبارك وتعالى ليس بشخص فتجاهره الأبصار، ولا هو صوت فتوعيه الأسماع، ولا رائحة فتشمه المشام، ولا حار ولا بارد، ولا خشن ولا لين، فتذوقه اللهوات، ولا تلمسه الأيدي، لأنه سبحانه خلق الأسماع وما أدركت، والأبصار وما جاهرت، والمشام وما شمت، واللهوات وما ذاق، والأيدي وما لمست، فهذه الخمس المدركات، والخمس المدركات كلها محدثات مخلوقات، والله سبحانه لا يشبه شيئاً منها ولا فيها شيء يشبه الله، وكذلك لا يتجلي الله من وجه ما تتجلي هي؛ لأنها مخلوقات، وإنما يتجلي من وجه ما يجوز من صفته،

(١) في (أ، ب): لا يجلي. وظنن فيهما بيتجلي.

يتجلى بآياته وتدبيره على خلاف تجلي ما سواه، وقد تجلى الله سبحانه في كتابه بكلامه لنا في وحيه وآياته، فهذا معنى من معاني تجليه عز وجل.

وقد يقول القائل: أرى عقلك صحيحاً، ويقول: إني أحب أن أرى عقلك وأمتحنه بتدبيرك، فإن أحسن التدبير قال له صاحبه: قد رأيت عقلك حسناً.

وأما قول الله عز وجل: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٣٣﴾ [القيامة]، فقد روى الناس عن سلفنا أنهم قالوا: هو النظر إلى ما يأتيهم من أمر الله. وقال بعضهم: هو الانتظار لثواب الله. ولا يرى الله أحداً، وكلا القولين جائز.

ولسنا ننكر أن يكون أولياء الله في الجنة يرون ربهم لا بتحديد ولا إدراك إحاطة، وكذلك كان معنى قول مجاهد في أن لا يرى الله أحد، أي: لا يراه أحد بتحديد ولا بإحاطة، ولكن يراه أولياؤه وينظرون إليه نظر مخلوقين إلى خالق، ينتظرون ثوابه ويرون تدبيره، لا كنظر مخلوقين إلى مخلوق؛ لأنه ليس كالمخلوقين. ولا يجوز أن يقال: نظر إلى من ليس كالمخلوق كما ينظر إلى المخلوق. وفي الخلق ما لا يرى، وهو الروح والعقل وما أشبههما، فلا يقال: إن شيئاً من ذلك يرى كما ترى الأشخاص، فكيف يقال: إنه يرى الله كما يرى الشخص؟

وإذا ابتعث الله أولياءه من الأجداث أرسل إليهم ملائكته ليبشرهم بالجنة وينادونهم: ﴿أَن تَلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٣﴾ [الأعراف]، وذلك قبل أن يدخلوها وهم ينظرون إلى أن ينيلهم ما وعدهم وما به بشرهم، فوجوههم يومئذ ناضرة بهجة مشرقة حسنة ناعمة، تنظر إلى ربها بالحب له والرضا عنه والرغبة إليه، ينظرون ما يأتيهم منه ما بشرتهم الملائكة، وإن الله عز وجل ينظر إليهم نظر الخالق إلى المخلوق المطيع الحبيب، وينظرون إليه بالرغبة فيما لديه نظر مخلوقين محبين إلى خالقهم المحبوب عندهم المنعم عليهم، نظر معرفة لا نظر تحديد وإحاطة، والله ينظر إليهم وقد كان يراهم في الدنيا، إلا أن

نظره هذا نظر ثواب ورحمة ووفاء بما وعدهم والمزيد لهم من كل كرامة^(١) إذا أدخلهم الجنة، فلا يزالون ينظرون إليه في جنته بالرضا عنه، والاستزادة مما عنده من فوائد النعم وتحف الكرامات، مع ما قال لهم عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق]، أي: مزيد من ربهم، لا تنقطع التحف والخيرات الحسان من ربهم أبداً عنهم، وينظرون إلى ربهم في الجنة بمقعدهم وما هم فيه من الازدياد من نعيمهم والإحسان إليهم.

وإنما يوصف الله سبحانه بنظر أوليائه إليه بهذه المعاني التي ذكرنا. ولا ينظر إلى الله أحد من أعدائه يوم القيامة بمعنى ما ينظر أولياؤه. ويقال في اللغة: إنما ينظر العبد إلى سيده، وإنما أنظر إلى الله ثم إليك، يريدون بذلك ما يأتي من المنظور، وعلى هذا المعنى قول الناس.

وقال الله تبارك وتعالى يخبر عن أعدائه: ﴿وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧]، وفي الحالة التي لا ينظر إليهم الله يراهم، وقوله: {لا يكلمهم} فيها^(٢) أي: لا يسألهم، وقد كلمهم بما فيه خزيهم. وإن العالمين بالرب علم اليقين عاينوا بيقينهم القيامة، وأبصروا وجوهاً مسودة وقد علاها القتر والعبوس، جزاء بما كانوا يصنعون، فراعهم ما أبصروا بيقينهم من تلك المفضعات، فحذروا أن يكونوا من الذين قال الله: ﴿وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، و﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس]، فلم يكذبوا على ربهم إذ سمعوه عز وجل يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وهذه مدحة لله وحسن ثناء عليه وتعظيم له، فاستيقنوا أن الثناء والمدح عن الله عز وجل غير زائل في الدنيا ولا في الآخرة، وأبصروا بيقينهم في القيامة إلى وجوه ابيضت فهي ناضرة مستبشرة ضاحكة مسفرة، إلى ربها ناظرة، في روح وجنان عالية، يخبرون

(١) في نسخة: من كراماته.

(٢) أي: في الآية. (من هامش أ).

فيها بصدقهم عن الله في القول والعمل له والموافقة له في الأيام الخالية، فلذلك وضع القوم كلامهم من ربهم حيث وضع الرب، ولم يقولوا بغير ما قال الله لهم، وقالوا كما قال لهم ربهم: إلى ثواب ربها ناظرة، ولم يقولوا: لربها مجاهرة.

وإنما الشيء إذا جوهر نظر إليه بالعيان لا بالوجه؛ لأن الوجه غير العين، ولو كان ما قالوا على ما ادعوا لقال الله في كتابه: أعين إلى ربها ناظرة؛ لأن الوجه لا يرى ولا يبصر، وإنما النظر للرؤية والعينين^(١) اللتين في الوجه، فهذه معان لطيفة مفصلات في النظر.

وقد قال إبراهيم الخليل لابنه إسماعيل صلى الله عليهما: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٨]، وليس ذلك رؤية حس، ثم قال: ﴿فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ ولم يرد إدراك العين ولا إحاطة البصر في قوله: «ماذا ترى» في الذبح^(٢) أن يسلم لربه نفسه ويحود له بها، فرأى موافقة أبيه في طاعة ربه بما أمره، فأمكنه من ذبحه واستسلم لربه، وليس ذلك بنظر العين ورؤيتها.

وكان مما احتج به القوم أن قالوا: إن موسى صلى الله عليه سأل ربه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقد بينا ما أراد موسى بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولم يكن ذلك سؤالاً للنظر الذي هو رأي العين بالإحاطة والتحديد جهرة، وقد رأينا الله عز وجل ذكر في كتابه حدث موسى في قتله القبطي، وما أخبرنا سبحانه عن آدم صلى الله عليه في معصيته بأكل الشجرة، وسمعناه عز وجل يذكر في كتابه أحداث أنبيائه مُعَيَّناً لأحداثهم، ولم يكن ما عاب من أحداثهم عند الله موبقاً ولا كبيراً، بل كانت أحداث أنبيائه صغائر ولم تكن بكبائر، وكان الله عز وجل يؤاخذهم في عاجل الدنيا من أجل أحداثهم التي لم تكن بكبائر، حبس بعضهم في الظلمات وفي جوف الحوت،

(١) في نسخة: بالعينين.

(٢) في نسخة: الذبيح.

وبمعان^(١) ذكر الله عز وجل في كتابه، وكيف صنع الله بني إسرائيل والنبين، ولم ينجمهم من الله إلا النقلة عن صغائرهم والاستغفار بالإنيابة والندم، وقد سأل قوم موسى فقالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [النساء: ١٥٣]، ليكون في ذلك مزدجر للآخرين، وليحذروا مصارع الذين سألوا رؤية الله جهرة فأخذتهم الصاعقة، فزجر الله العباد عن السؤال عما يضاهي ما سأل القوم نبينهم صلى الله عليه من رؤية الله جهرة.

فكيف يتوهم أن يكون موسى صلى الله عليه وسلم سأل ربه مسألة القوم الذين أخذوا بالنقم من أجل تلك المسألة التي سألوا موسى أن يريهم الله جهرة؟ وقد علم موسى أن سؤالهم عن ذلك شرك، وقد نهى موسى قومه عن معاني الشرك كلها، ولم يكن صلى الله عليه ليخالفهم إلى ما نهاهم عنه؛ لأن مسألة القوم له كفر، ولا يجوز أن يتوهم على موسى أن يسأل الله مسألة هي كفر، ولو كانت مسألة موسى على ما يتوهم المشبهون لنزلت به من الله العقوبة مثل ما نزل بغيره، ولغلظ الله ذلك تغليظاً يعلم العباد أنه أكبر من الصغائر، وفي تكفير الله عز وجل الذين قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، إخراج مسألة موسى عن^(٢) معنى رؤية الجهرة، وإخراجه من جهل القوم بالله.

ويقال لهم: هل يدرك البصر إلا شخصاً أو لونا؟

فإن قالوا: لا.

قيل لهم: أخبرونا عن ربكم، أتقولون: إنه لون؟

فإن قالوا: نعم.

قيل لهم: فمن أين قلتم ذلك وما بيتكم عليه؟ ولن تجدوا سبيلاً إلى إثبات اللون إلا من وجه الرواية، فيعارضون بأضداد رواياتهم، فإن جعلوا الرواية

(١) في مخطوطتين: وبمعاني ما ذكر الله.

(٢) في (ب): من.

حجة لم يصح لهم دعوى ولا لنا؛ لأنهم رَووا خلاف ما رَوينا وروينا خلاف ما رَووا، ولا بد أن يكون أحدنا محققاً والآخر مبطلاً، وفي إبطال قول أحدنا إبطال أحد الأثرين، وفي إبطال أحد الأثرين إخراج الأثر الشاذ من الحجة؛ لأن الشاذ من الأثر لا يكون مثل كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ، مع ما يدخل عليهم من التناقض في إثبات اللون لمعبودهم، من وجه ما ذكرنا إيجاداً^(١) العجز عليه وإلزام النصب؛ لأن لون الحدقة غير لون اللسان، ولون اللسان غير لون الوجه، وفي الغير وجوب الاثنین فصاعداً، لأن اللسان غير العين، والعين مخالفة للسان، وكذلك كل جزء غير ما يليه، وهو مقصر عن صفة غيره. فإن قالوا: ليس لوناً.

قيل لهم: فكيف ترى العيون ما ليس يكون لوناً، والعيون لا ترى في العقول إلا ملوناً؟!

وإن لجأوا إلى أن يقولوا: إن الله يعطيهم حاسة سادسة في القيامة بها يدركون ربهم إدراك الجهر، يسألون عن الذي يدركون ربهم به: أليس قد نال ثواباً لم ينل الجزء الذي كان في الدنيا لربه ناصباً عاملاً؟! فيكون الثواب لمن لم يطع، ولا ثواب لمن أطاع^(٢).

ويقال لهم: كيف يسمى المطيع مدركاً وليس هو المعين، وإنما المعين هو السادس المحدث لهم في الآخرة؟

ويسألون هل يجوز أن يعطوا سابعاً يدركون به لمسه أو ذوقه أو شمه كما جوزتم السادسة التي بها تكون الرؤية؟ ليكون ذلك أتم لنعيمهم إذا لمسوا ما عاينوا وصافحوه وذاقوه وشموه؟! فإن جوزوا ذلك جعلوه منفصلاً بئناً بعيداً مبعضاً، وفي الانفصال والبينونة والبعد والبعض وجود العجز والنقص،

(١) في المطبوع: من إيجاد. وفي مخطوطتين: إيجاب.

(٢) في نخ: إلا لمن أطاع.

والعاجز الناقص ليس بالكامل التام القوي القادر، وليس العاجز الناقص بآله، فتعالى الله عن العجز والنقص.

وقد أجمع المصلون معنا أن إلهنا عز وجل لا تدركه الأبصار، إلا فرقة من الروافض ووافقتهم الحشوية فقالوا: إن النبي ﷺ رأى ربه أبيض محمم (١) الشعر.

وروا من وجه آخر أنه رؤي في صورة الشاب المراهق مقصصاً.

فزعم بعضهم أن هذه الرؤية كانت بالقلب، وزعم آخرون أنها كانت بعيان النظر. وقد رويوا بخلاف ذلك: أن ثلاثاً من قال واحدة منهم فقد أعظم الفرية على الله: ومن زعم أن محمداً رأى ربه، وفي هذا انتقاض الخبر، وإذا تناقض الشيء لم يكن بحجة، وأولاهما بحجة الحق (٢) أشبههما بكتاب الله.

ويقال لهم جميعاً: أخبرونا إذ زعمت أن النبي ﷺ حين رأى ربه هل كان يقدر عقل النبي على صفة ما رأى؟!

فإن قالوا: لا. قيل: فكان يقدر أن يتخيل ما عاين؟ فإن قالوا: نعم، جَوَّزُوا القدرة على صفة الله وإحاطته والتفكير فيه، والله عز وجل يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه].

وإن قالوا: لا يقدر على تخيله بقلبه. قيل لهم: فكيف يدرك ما لا يتخيل ولا يحيط به العقل؟ وهذا محال؛ لأن الإدراك أكثر من التخيل، وإذا بطل التخيل لم يصح الإدراك.

ويقال لهم: أخبرونا إذ جوزتم أن يكون النبي ﷺ رآه (٣)، فما يشعركم لعله قد أسرَّ إلى بعض أصحابه صفة تحديد، فَوَرَّثَ ذلك صاحب علم التحديد مَنْ بعده إلى يوم القيامة، فيكونوا لم يدركوه كما أدركه؟
فإن قالوا: فقد يمكن أن يكون ذلك فقد عبدتم ما لا تعرفون.

(١) في المطبوع: محمم.

(٢) في المطبوع: بحجة العقل.

(٣) في (ب): رأى ربه.

ويقال لهم: أليس قد يمكن^(١) أن يكون وارث ذلك يصفه بصفة تحديد ويحيّله بقلبه على غير ما تخيله ذلك العالم بصفته؟ فقد عبدتم خلاف ما عبد النبي ﷺ. فإن احتج القوم بقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] كان جوابنا أن ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي: يوقنون أنهم مبعوثون بعد الموت للثواب والعقاب.

وكذلك تأويل قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، أي: من كان يؤمن بالبعث فإن وعد الله ووعيده للذين هما الجنة والنار لآت، وليس ذلك اللقاء رؤية، ولو كان لقاء رؤية لقال: من كان يرجو لقاء ربه فإن الله يُلاقى.

ويسألون عن الذين كفروا.....^(٢) من لقاء ربهم، فإن قالوا: نعم لم يفرقوا بين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم في الآخرة وبين الذين كفروا بلقاء ربهم؛ لأن هؤلاء لاقوه وهؤلاء لاقوه.

وإذا زعموا أن اللقاء عندهم الرؤية فما الفرق بين الولي والعدو إذا كانا يلقيان ربهما واللقاء رؤية، والرؤية عندهم أفضل الثواب؟

وإن زعموا أنهم لا مؤمنون ولا مصدقون بتكذيب الكافرين من لقاء ربهم جحدوا قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق]، وقوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: ٧٧]، فقد أخبر أنهم منافقون وأنهم يلقونه، وإذا زعموا أن اللقاء رؤية فالمنافق والنبي صلى الله عليه يريانه بزعمهم، إذ^(٣) كان اللقاء عندهم رؤية، فما فضل ثواب النبي صلى الله عليه على عقاب المنافق؟

(١) في (أ): أليس يمكن.

(٢) هنا بياض في (أ، ب).

(٣) في (ب): إذا.

بل لا فضل بينهما إذا اشتركا في أفضل الثواب، وهو الرؤية، وفساد هذا المعنى يبين؛ وذلك لأنهم تأولوا لقاء الله تحديداً بالإحاطة، وزعموا أيضاً أن النبيين ﷺ وغيرهم يشتهون في لقاء الله الذي هو رؤيته، إلا أن يزعموا أن اللقاء غير الرؤية فيصيروا إلى قولنا.

وإن هم سألوا عن التأويل للقاء الله قلنا لهم: إن الأعداء والأولياء كلهم ملاقوا ربهم، ولقاؤهم انبعاثهم من أجدانهم ومصيرهم إلى معادهم يوم محشرهم، ويوم إلى الله مرجعهم.

وتأويل ما سألوا عنه من قول الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ [المطففين]، وذلك أن الله عز وجل لا ينالهم برحمته وهم عن ربهم محجوبون، وترجمت هذه الآية آية أخرى قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]، أي: نظره إلى أوليائه برحمته، ولا يسمعهم كلاماً لهم فيه سرور ولا فرح^(١)، ولا ينظر إليهم أي: لا ينيلهم رحمة ولا يأتيهم بفرج.

وقد أجمع أهل الصلاة أن الله لا ينظر إلى أعدائه، وهو يراهم في الحالة التي لا ينظر إليهم فيها، وفي ذلك دليل أن أوليائه ينظر إليهم، أي: يرحمهم، وهو يراهم وينظر إليهم برحمته، ونظره إلى أوليائه رحمته، وذلك نظره الذي كان لأوليائه ولم يكن لأعدائه. وكذلك ينظر أوليائه إليه لا بمعنى جهرة وإحاطة منهم به، ولكن ينظرون إليه على خلاف التحديد والإحاطة، وقد قالت العرب: ما ننظر إلا إلى سيدنا.

وأجمع المسلمون على الدعاء إلى الله أن قالوا: اللهم انظر إلينا، والدعاء على عدوهم أن قالوا: لا نظر الله إليهم، وليس ذلك سؤالاً منهم له أن لا يراهم؛ وذلك لأنهم يعلمون أن الله عز وجل يراهم، ولم يعلموا أن الله ينظر إليهم نظر رحمة ورضا، وقد علموا أن الله عز وجل يراهم ويرى كل شيء، وأن الأشياء كلها له جهرة، وإنما أراد المسلمون بدعائهم الله أن ينظر إليهم: أن يكرمهم ويجود برحمته عليهم.

(١) في (أ، ب): ولا فرج.

واعلم أن الله عز وجل إذا مدح نفسه بمدحة لم يزلها عن نفسه في آخرة ولا دنيا، كذلك قال الله سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فالله لا يزيل مدائح.

وزعم العمة أن محمداً ﷺ رأى ربه في الدنيا حين أسري به؛ تكذيباً للقرآن، ورداً على الرحمن، واحتجوا بقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم]، فظنوا أنه رأى ربه، وإنما ذلك جبريل صلى الله عليه، رآه نبي الله على خلقته التي عليها جُبل، ولم يره النبي صلى الله عليه على تلك الخلقة قط إلا مرتين، جعل الله ذلك آية بينة وكرامة شريفة عالية، وذلك قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم]، فأين الله عز وجل من آياته؟! وكيف يتوهم أن النبي ﷺ رأى الله والله يقول: ﴿رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم]، وآيات ربه غير ربه، وإنما وقعت الرؤية من النبي ﷺ على الذي هو من آيات ربه الكبرى، وليس الله سبحانه بالحواس مدركاً.

وتوهموا أن تجلي الرب سبحانه للجبل هو أن بدئ للجبل وبرز له بذاته، من غير أن يكون للجبل من المقام في طاعته والمنزلة الرفيعة ما لموسى صلى الله عليه، مع ما اختص الله به موسى بكلامه إياه تكليماً، واستخلاصه إياه بالرسالة، ثم سأل موسى ومسألته الله أن يراه بزعمهم ذلك، وكان ذلك منه دليلاً، ثم خص الجبل الذي لم يكن الله كلمه تكليماً ولا اصطفاه برسالته فبدئ له بذاته وبرز له متجلياً، وخصه بكرامة لم يجعلها لجبريل ولا لميكائيل ولا للملائكة المقربين ولا للمرسلين، وقد قال الله عز وجل: إن أوليائه غداً ينظرون إليه في جواره، ليس ذلك النظر إحاطة ولا تحديداً، بل ينظرون إليه من غير تحديد، وذلك النظر هو أفضل من دركهم.

والدرك دركان: فدرك هو المشاهدة والملاقاة جهرة.

والدرك الثاني: ما يرد على القلب، وقد أدرك المؤمنون في الدنيا ربهم وعرفوه بقلوبهم؛ فلذلك أطاعوه، وذلك لما أحبوه. ولهم في هذا الدرك سرور لا يغيب عليهم في السرور الذي نالوه من معرفة الدرك لله، والمؤمنون يتفاضلون في الدرك

لله، وذلك يَبَيِّنُ فيما يرى منهم في اتصال السرور بالمعرفة على حسب اتصال المعرفة بالقلب، وكلما ترقى العارف في معارج المعرفة ترقى في معارج السرور.

وقد ترى جمهور أمتنا يعلمون أن الله عالم بعلمهم أن الله عالم، دركاً به عرفوا الله، فهذا الدرك هو درك العلماء بالله، فإذا نزل بهم تفصيل معاني دقائق مسائل تدخل في الكلام في العلم كان ذلك دركاً هو عند العالمين بالله، الذين هم في معاني درجات العارفين^(١) بالله، فإذا أخذوا في ذلك^(٢) العلم وجدوا في ذلك سروراً.

فالناس لا يستوون في درك الله في الدنيا في تفاضلهم، وكذلك يتفاضلون غداً في إدراك الله للمعنى الذي ليس هو تحديداً لله، فيكون الله يعطيهم من درك العلم ما لا يخطر على قلب بشر في الدنيا، مما فيه السرور والتنعم كما أعطى السرور والنعم العالمين بالله في الدنيا ما لا يعطى كثيراً ممن سواهم من العلماء الذي هم دونهم، وقد عرفنا درك المؤمنين في الدنيا كيف هو، وأما درك المؤمنين في المعاد فإننا لا نعلم كيف هو؛ لأننا لم نره، وهو في الآخرة ثواب، والثواب مؤجل، وكلما كان من ثواب الله في الجنة فلا يعلم كيف هو إلا الله، إلا أننا نعلم أن معنى الدرك لله في الجنة ليس تحديداً ولا إحاطة، فاعرف معاني الدرك، واعرف فضل الدرك الذي يكون في الآخرة على فضل الدرك الذي يكون في الدنيا.

ولو أمدَّ الله عز وجل الأبصار بالمعونة حتى تدرك أقل قليل نقطة من القطر في مُدَّهم ليل عايم تحت الأرض السفلى من أبعد غايات السماوات العلى ما أدركت الأبصار الله، وكذلك لو أمدَّت الحواس كلها بالمعونات حتى تدرك كل محسوس ما هجم منها شيء على الله سبحانه تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

تم كتاب المسترشد والحمد لله كثيراً وصلى الله على

سيدنا محمد النبي وأهل الطاهرين وسلم تسليماً

(١) في نسخة: في المعاني درجات والعارفين بالله.

(٢) في (أ): فإذا أخذوا ذلك العلم.

مكتاب العدل والتوحيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على ما أسبغ علينا من نعمه، ومنَّ به علينا من إحسانه وكرمه، ويُنِّ لنا من الهدى، وأنقذنا من الضلالة والردى، بإقامة حججه وتواتر رسله، ﷺ ومحكم آياته، وتفصيل بيناته؛ رحمةً لعباده، ودعاءً لهم إلى ثوابه، وإخراجاً لهم من عقابه: ﴿لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ [النساء: ١٦٥]، و﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٦].

أما بعد، فإن الذي يجب على العبد أن يكون عاملاً بطاعة الله التي لا يقبل الله عز وجل غيرها من طاعته إلا بأدائها، ولا يكون مؤمناً حتى يفعلها - أن يؤمن بالله وحده لا شريك له، ولا يتخذ معه إلهاً، ولا من دونه رباً ولا ولياً، وأن يؤمن بملائكة الله وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، وبالحساب وبالجنة وبالنار، وبالجزاء بالأعمال، وأن الآخرة هي دار القرار، لا ينقطع ثوابها، ولا يبيد عقابها، ولا يموت فيها أهلها، وهم في جزائهم خالدون. ويؤمن بوعد الله جل ثناؤه ووعيده وإخباره، وبكل ما جاء به محمد ﷺ، مما أمر به ونهى عنه ﷺ من العمل بالمفروض بطاعة الله، والاجتناب لجميع معاصي الله، والولاية لأوليائه، والعداوة لأعدائه، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله، فإذا فعل ذلك كان مؤمناً مسلماً محسناً، من المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

[التوحيد الخالص]

ولا يكون العبد مؤمناً حتى يعلم أنه مخلوق مرزوق، وأنه ذليل مقهور، وأن له خالقاً قديماً عزيزاً حكيمًا، ليس كمثله شيء في وجه من الوجوه ولا معنى من المعاني، وأن ما سواه من الأشياء كلها من عرشه وملائكته ورسله، وسمواته وأرضه، وما فيهن وما بينهن وما فوقهن وما تحتهن، مما أخرجه الله جل ثناؤه من تمكين العباد وأفعالهم - لم يجعل لأحد عليه قدرة ولا استطاعة، ولا جعل عند

أحدٍ منهم معرفة في شيء من بدو ذلك وإنشائه، ومن أعمل منهم فكره ليلبغ معرفة شيء من ذلك بقي حسيراً منقطعاً مبهوراً، ولا جعل إلى أحدٍ في شيء منه سبيلاً، ولا جعل لأحد فيه محمداً ولا ذماً؛ لأنه جل ثناؤه لم يستعن على إنشاء ما أنشأ بأحد، ولم يشاركه في ملكه أحد، ولم يؤامر في تدبيره أحدًا، فهو الواحد الأحد، الذي لا من شيء كان، ولا من شيء خلق ما كان، فهو الدائم بلا أمد، الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد].

وجميع ما أدركته ببصرك ووهمك، ووقع عليه شيء من حواسك، أو كيّفته بتقديرك، أو حددته بتمثيلك، أو شبهته بتشبيهك، أو وقّت له وقتاً، أو حددت له حداً، أو عرفت له أولاً، أو وصفت له آخراً— فهو محدث مخلوق، والله تبارك وتعالى خالق الأشياء، لا من شيء خلقها، ولا على مثال صورها، بل أنشأها إنشاءً وابتدأها ابتداءً، فدبرها بأحكم تدبير، وقدرها بأحسن تقدير.

فهو جل ثناؤه لا يشبه الخلق ولا يشبهه الخلق؛ لأنه الخلاق الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، لم يخص بذلك شيئاً دون شيء، بل عم الأشياء كلها، ما كان منها وما يكون، فلا شبيه له ولا عدیل، لا الضياء ولا الأنوار، ولا الظلمات ولا النار؛ وذلك أن النور والظلمة مخلوقان محدثان، يوجدان ويعدمان، ويقبلان ويدبران، ويذهبان ويحيثان، ويوصفان ويحدان، والخالق جل ثناؤه ليس كذلك؛ لأن الخالق جل وعز قديم لم يزل والمخلوق لم يكن، فآثار الصنعة في المخلوق بينة، وأعلام التدبير قائمة، والعجز فيه ظاهر، والحاجة له لازمة، والآفات به نازلة، فأنت تراه مرة ماثلاً ومرة أقلّاً زائلاً.

فلما كانت هذه صفة كل مخلوق لم يجوز أن تضاف صفة المخلوق إلى الخالق عز وجهه؛ لأن الخالق لا يكون في صفة المخلوق، تبارك وتعالى الخالق أن يكون له شبه البشر، هو الحامد نفسه قبل أن يحمده أحد من خلقه، فقال تبارك وتعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام]، يقول جل ثناؤه: إن الكفار عبدوا إلهاً غير الله، فقالوا: هو ضياء ونور، ومن جنسه النار والنور، وجعلوا معه إلهاً آخر، وقالوا: هو ظلمة، ومن جنسه كل ظلمة، فعدلوا بالله جل ثناؤه حين شبهوه بالأنوار، وجعلوا معه آلهة من الظلمات، فأكذبهم الله جل ثناؤه إذ قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، تكذيباً لهم إذ شبهوه وعدلوا به، وأكذب جل ثناؤه الذين شبهوه بالإنس من اليهود وغيرهم من المشركين جهلاً به وجرأة عليه، فقال جل ثناؤه مع ما بين لهم في عقولهم من وحدانيته، ونفى شبه الخلق عندما يرون من أدلته وأعلامه التي تدعوهم إلى معرفته وتوحيده، من خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، ومن أنفسهم لو أحسنوا النظر، وأعملوا في ذلك الفكر، فقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

كذلك الله عز وجل شاهد كل نجوى، عالم السر وأخفى، قريب لا بمجاورة، بعيد لا بمفارقة، شاهد كل غائب، آخذ بناصية كل دابة، وعليه رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، أقرب إلينا من حبل الوريد، وحائل بيننا وبين قلوبنا لا بتحديد، وهو مع قربه منا مدبر السماوات العلوى، وشاهد الأرضين السفلى، وعليم بما فيهن وما بينهن وما تحت الثرى، وهو على العرش استوى، وهو مع كل نجوى، وهو في ذلك لا كشيء من الأشياء.

[ما اعتل به المشبهة والجواب عليهم]

ولقد ضل قوم ممن يتحلل الإسلام من المشبهة الملحدين الذين شبهوا الله عز ذكره بخلقه، وزعموا أنه على صورة الإنسان، وأنه جسم محدود، وشبح مشهود، واعتلوا بآيات من الكتاب متشابهات حرفوها بالتأويل، ونقضوا بها التنزيل، كما حرف من كان قبلهم من اليهود والنصارى كلام الله عن مواضعه، وبأحاديث افتعلها الضلال، من بغاة الإسلام، فحملها عنهم الجهال، فيها الإلحاد والكفر بالله، وأحاديث لم يعرفوا حسن تأويلها، ولم يعنوا بتصحيحها، فضلوا وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل.

فكان مما تأولوا قول الله عز وجل: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٣٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٣٣﴾﴾ [القيامة]، فقالوا: إن الله عز وجل يرى بالأبصار في الآخرة، وينظر إليه جهرة، خلافاً لقول الله جل ثناؤه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، جهلاً بمعاني الآية وتأويلها.

فأما أهل العلم والإيمان ففسروها على غير ما قال أهل التشبيه المنافقون، فقالوا: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ يقول: مشرقة حسنة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾، يقول: منتظرة ثوابه وكرامته ورحمته، وما يأتيهم من خيره وفوائده. وهكذا ذلك في لغات العرب، وبلغاتها ولسانها نزل القرآن، يقولون إذا جاء الخصب بعد الجذب: قد نظر الله جل ثناؤه إلى خلقه، ونظر لعباده، يريدون أنه أتاهم بالفرج والرخاء، ليس يعنون أنه كان لا يراهم ثم صار يراهم.

وقال الله جل ذكره وهو يذكر أهل النار: ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]، تأويل ذلك: أنهم لا يرجون من الله جل ثناؤه ثواباً، ولا يفعل لهم خيراً، وأهل الجنة ينظر الله إليهم وينظرون إلى الله جل ثناؤه، ومعنى ذلك أنهم يرجون من الله خيراً، ويأتيهم منه خير ويفعله بهم، ليس معنى ذلك أنهم ينظرون إليه جهرة بالأبصار، عز ذو

الجلال والإكرام، وكيف يرويه بالأبصار وهو لا محدود ولا ذو أقطار؟ كذلك جل ثناؤه لا تدركه الأبصار، ومن أدركته الأبصار فقد أحاطت به الأقطار، ومن أحاطت به الأقطار كان محتاجاً إلى الأماكن وكانت محيطة به، والمحيط أكبر من المحاط به، وأقهر بالإحاطة، فكل من قال: إنه ينظر إليه جل ثناؤه على غير ما وصفنا من انتظار ثوابه وكرامته فقد زعم أنه يدرك الخالق، ومحال أن يدرك المخلوق الخالق جل ثناؤه بشيء من الحواس؛ لأنه خارج من معنى كل محسوس وحاس، فلذلك نفى الموحدون عن الله جل ثناؤه درك الأبصار وإحاطة الأقطار وحُجِبَ الأستار، فتعالى الله عن صفة المخلوقين علواً كبيراً، لا إله إلا هو رب العالمين.

وتأولت أيضاً المشبهة قول الله تبارك وتعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر]، وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء]، وقوله: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج]، وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: ٨٨]، ففسروا ذلك على ما توهموا من أنفسهم، وبأن الله عز وجل عندهم في ذلك كله على معاني المخلوقين وصفاتهم في هيئاتهم وأفعالهم، فكفروا بالله العظيم، وعبدوا غير الله الكريم.

وتأويل ذلك كله عند أهل الإيمان والتوحيد: أن الله عز وجل ليس كمثله شيء، فأما قوله تبارك وتعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، يعني: بقدرتي وعلمي، يريد أني على ذلك قادر وبه عالم، توليت ذلك بنفسي لا شريك لي في تدويري وصنعي، لا أن قدرتي وعلمي ونفسي غيري، بل أنا الواحد الذي لا شيء مثلي. وقد بين معنى هذه الآية في آية أخرى فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران]، وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل]، يريد إذا كَوَّنَا شيئاً

كان، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس:١٧]، يقول: مما عملت أنا بنفسي.

وقال جل ثناؤه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤]، وتأويل ذلك عند أهل العلم: بل نعمته ميسورتان على خلقه، نعمة الدنيا ونعمة الآخرة.

وقيل أيضاً في تأويله: بل رزقه ميسور على خلقه، رزق موسع، ورزق مضيق، ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، أي: يفعل من ذلك ما هو أصلح لعباده. كذلك قال جل ثناؤه: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، يعني: له الملك، وكذلك تقول العرب: الملك بيد فلان، وقد قبض فلان الملك والأرض، وذلك في قبضته ويمينه، يعنون: في قدرته وملكه، كذلك السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما في قبضة الله ويمينه، يعني: في قدرته وملكوته وسلطانه اليوم ويوم القيامة وفي كل وقت، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار:١]، والأمر يومئذ واليوم لله. وقال الله تبارك وتعالى لمن عصاه وهو يساق إلى النار: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ [الحج:١٠]، و﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (١) [الروم:٤١]، يريد: بما كسبت أنت بقولك وفعلك، ليس يعني: يده دون بدنه وجوارحه.

وقال جل ثناؤه لنبية صلوات الله عليه وعلى أهله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب:٥٢]، يعني ما ملكت أنت، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٢٤]، يعني: ما ملكتم أنتم، وتقول العرب: أسلم فلان على يد فلان، يريدون: بقوله وأمره، ويقولون: بيد الله أمرنا والفناء، يريدون: بالله عمرنا والفناء، ويقولون: نواصينا بيد الله، ونحن في قبضة الله، يريدون بهذا كله: أنا في قدرته وملكه، ليس يذهبون إلى يد كيد الإنسان أو غيره من الخلق.

(١) في المخطوط: وبها كسبت يداك. ولا يوجد آية بهذا اللفظ.

ومعنى قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، يقولون: جاء الله جل ثناؤه بآياته العظام في مشاهد القيامة، وجاء بتلك الزلازل والأهوال، وجاء بالملائكة الكرام، فتجلت الظلم، وانكشفت عن المرتابين البهيم، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وليس قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أنه جاء من مكان، ولا أنه زائل أو حائل أو منتقل من مكان إلى مكان، أو جاء من مكان إلى مكان، تبارك الله وتعالى عن ذلك، بل هو شاهد كل مكان، ولا يحويه مكان، وهو عالم كل نجوى، وحاضر كل ملاء.

كذلك قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] كما قال جل ثناؤه: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس]، وكذلك قال جل ثناؤه: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، وقال: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢]، يعني بذلك كله: أنه أتاهم بعذابه وأمره، ليس أنه أتاهم بنفسه زائلاً، وكان في مكان فكان عنه منتقلاً. وكذلك يقول القائل للرجل إذا جاء بأمر عجيب: لقد أتيت بأمر عظيم، ولقد أتى فلان أمراً عجبياً، يريدون: أنه فعل شيئاً أعجبه، فذلك تأويل المجيء من الله جل ثناؤه، لا هو بالانتقال ولا بالزوال؛ لأن الزائل مدبر محتاج، لولا حاجته إلى الزوال لم يزل، فلذلك نفى الموحدون عن الله جل ثناؤه الزوال والانتقال.

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء] فذهبت المشبهة إلى أن الله تعالى عما قالوا علواً كبيراً: تكلم بلسان وشفيتين، وخرج الكلام منه كما خرج الكلام من المخلوقين، فكفروا بالله العظيم حين ذهبوا إلى هذه الصفة.

ومعنى كلامه جل ثناؤه لموسى عليه السلام عند أهل الإيمان والعلم: أنه أنشأ كلاماً خلقه كما شاء، فسمعه موسى صلى الله عليه وفهمه، وكل مسموع من الله جل ثناؤه فهو مخلوق؛ لأنه غير الخالق له، وإنما ناداه الله جل ثناؤه فقال: ﴿إِنِّي

أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ [التقصص]، والنداء غير المنادي، والمنادي بذلك هو الله جل ثناؤه، والنداء غير الله، وما كان غير الله مما يعجز عنه الخلائق فمخلوق؛ لأنه لم يكن ثم كان بالله وحده لا شريك له.

وكذلك عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه، وهو مخلوق كما قال الله في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٦﴾ [آل عمران].

وكذلك قرآن الله وكتب الله كلها، قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، يريد: خلقناه، كما قال: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦]، يقول: خلق منها زوجها، وقال جل ثناؤه: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿١﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴿[الأنبياء]، وقال تبارك وتعالى: ﴿قَدْ زُرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿٣٣﴾ [طه]، فكل محدث من الله جل ثناؤه فمخلوق؛ لأنه لم يكن فكان بالله وحده لا شريك له، فالله أول لم يزل ولا يزول. وأما قوله: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ فمعنى ذلك: أنه لا تخفى عليه الأصوات ولا اللهوات، ولا غيرها من الأعيان أين ما (١) كانت وحيث كانت، في ظلمات الأرض والبر والبحر، ليس يعني: أنه سميع بصير بجوارح أو شيء سواه فيكون محدوداً، أو يكون معه غيره موجوداً، تعالى الله عن ذلك.

وأما قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [التقصص: ٨٨] وقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] فإنما يعني: إياه لا غير يقول: كل شيء هالك إلا هو. وقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ليس يعني بذلك: وجهاً في جسد، ولا جسداً ذا وجه، تعالى الله عن هذه الصفات التي هي في المخلوقين موجودات.

(١) «ما» ساقطة من (أ).

وأما قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠] يريد: يحذركم الله إياه لا غيره. وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] يريد: تعلم أنت ما أعلم، ولا أعلم أنا ما تعلم إلا ما علمتني، ليس يعني: أن له نفساً غيره بها يقوم، تعالى عن ذلك. وقد يقول القائل: هذا نفس الحق، ونفس الطريق، وكذلك: هذا وجه الكلام، ووجه الحق، يريدون بذلك كله: هو الحق، وهذا هو الكلام، وهذا هو الطريق، ليس يذهبون إلى شيء غير ذلك، تعالى الله عن صفات المخلوقين علواً كبيراً، هو الذي لا كفؤ له ولا نظير له، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ١١.

فكل من وصف الله جل ثناؤه بهيئات خلقه، أو شبهه بشيء من صناعه، أو توهمه صورة أو جسماً أو شبحاً^(١)، أو أنه في مكان دون مكان، أو أن الأقطار تحويه، أو أن الحجب تستره، أو أن الأبصار تدركه، أو أنه لم يخلق كلامه وكتبه، والقرآن وغيره من كلامه وأحكامه، أو أنه كشيء مما خلق، أو أن شيئاً من خلقه يدركه مما كان أو يكون بجارحة أو حاسة فقد نفاه وكفر به وأشرك به، فافهموا ذلك، وفقنا الله وإياكم لإصابة الحق، وبلوغ الصدق.

[العدل وما يتعلق به]

وعلى العبد إذا وحّد الله جل ثناؤه وعرف أنه ليس كمثله شيء أن يتّقيه في سره وعلا نيته، ويرجوه ويخافه، ويعلم أنه عدل كريم، رحيم حكيم، لا يكلف عباده إلا ما يطيقون، ولا يسألهم إلا ما يجدون، ولا يجازيهم إلا بما يكسبون ويعملون، وهكذا جل ثناؤه قال، يدل بذلك على رحمته لنا وإحسانه إلينا: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، و﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال جل ثناؤه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ

(١) في (أ): أو شخصاً.

عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴿٩٧﴾ [آل عمران: ٩٧]، فلم يكلف
 الرحيم الكريم أحداً من عباده ما لا يستطيع، بل كلفهم دون ما يطيقون، ولم
 يكلفهم كل ما يطيقون، وعذرهم عند ما فعل بهم من الآفات التي أصابهم بها،
 ووضع عنهم الفرض فيها، فقال لا شريك له: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا
 عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [الفرقان: ٦١]؛ لأنهم لا يقدرُونَ أن
 يؤديوا ما افترض الله عليهم، ولم يقل جل ثناؤه: ليس على الكافر حرج ولا على
 الزاني حرج ولا على السارق حرج؛ وذلك أنه لم يفعل ذلك بهم ولم يدخلهم فيه،
 ولم يقض ذلك ولم يقدره؛ لأنه جور وباطل، والله جل ثناؤه لا يقضي جوراً ولا
 باطلاً ولا فجوراً؛ لأن المعاصي كلها باطل وفجور وجور، والله يتعالى أن يكون
 لها قاضياً ومقدراً، بل هو كما وصف نفسه جل ثناؤه إذ يقول: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا
 لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، بل قضاؤه فيها كلها النهي
 عنها، والحكم على أهلها بالعقوبة والنكال في الدنيا والآخرة، إلا أن يتوبوا فإنه
 يقبل التوبة ويعفو عن السيئات.

أليس قال جل ثناؤه في الصيام: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ
 أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فوضع
 عن المرضى الصيام؛ لأنهم لا يقدرُونَ عليه، ووضعه عن المسافر وإن كان يقدر
 عليه، يخبرهم أنه إنما يفعل ذلك لأنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، ووضع
 عنه الصلاة قائماً إذا لم يقدر على القيام، وأباح له أن يصلي جالساً، وإن لم يقدر
 على الصلاة جالساً صلى مضطجعاً أو مستلقياً، فإن لم يقدر على شيء من ذلك
 بشيء من جوارحه فلا شيء عليه، فعل ذلك رحمة ونعمة ونظراً لعباده.

ومن لم يكن له مال فلا زكاة عليه، وإن كان ذا مال فحال عليه الحول وهو
 مائتا درهم فعليه خمسة دراهم، فإن نقص من مائتي درهم شيئاً قلَّ أو كثر فلا
 شيء عليه فيها. وكل أمر لا يستطيعه العبد فهو عنه موضوع، وكُلَّفَ مما يستطيع

اليسير، يريد الله جل ثناؤه بذلك التخفيف عن عباده تصديقاً لقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء]، وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المؤمنون: ٧٨]، يقول: من ضيق.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فلم يُؤْتِ أَحَدٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تبارك وتعالى في دينه، وإنما يؤتى العبد من نفسه بسوء نظره، وإيثار هواه وشهوته، ومن قَبْلِ الشيطان عدوه الذي يوسوس في صدره ويزين له سوء علمه، ويتبعه فيضله ويرديه، ويهديه إلى عذاب السعير.

وقال الله جل ثناؤه يحذر عباده الشيطان: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر]، أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

وعلى العبد أن يعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الكريم
الحليم، وأن الله جل ثناؤه عالم بما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون، وأنه أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وأنه لم يُجِبْ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ، ولم يُجَلِّ بين أحد وبين الطاعة، فالعباد عاملون والله جل ثناؤه العالم بأعمالهم، والحافظ لأفعالهم، والمحصي لأسرارهم وآثارهم، وهو بما يعملون خبير.

وعلى العبد أن يعلم أن الله جل ثناؤه يضل من يشاء ويهدي من يشاء
وأنه لا يضل أحداً حتى يبين لهم ما يتقون، فإذا بين لهم ما يتقون، وما يأتون وما يذرون، فأعرضوا عن الهدى، وصاروا إلى الضلالة والردى - أضلهم بأعمالهم الخبيثة حتى ضلوا، كذلك قال جل ثناؤه: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ] [البقرة: ٢٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾

[الصف: ٥]، وقال جل ثناؤه: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقد يجوز أيضاً أن يكون معنى يضل: أن سَمَّاهم ضلالاً، وشهد عليهم بالضلال ووصفهم به، من غير أن يدخلهم في الضلالة ويقصرهم عليها، فإن رجعوا عن الضلالة وتابوا وصاروا إلى الهدى سَمَّاهم مهتدين، وأزال عنهم اسم الضلال والفسق، ولم يبتدئ ربنا جل ثناؤه أحداً بالضلالة من عباده، ولا وصف بها أحداً من قبل أن يستحقها، وكيف يبتدئ أحداً من عباده بالضلالة كما قال القديرون الكافرون الكاذبون على الله والله جل ثناؤه ينهى عباده عنها، ويحذرهم إياها، ويقول: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، يعني: لئلا تضلوا، وقال جل ثناؤه: ﴿الرَّكِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ولو ابتدأهم بالضلالة كان قد غيّر ما بهم من النعمة قبل أن يغيروا، سبحانه هو أرحم الراحمين، وخير الناصرين، يريد بذلك وصف نفسه.

وَأَمَّنَ الْخَلْقُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ ظَالِمًا، أَوْ بَغِيرَ مَا عَمِلُوا مجازياً، فقال جل ثناؤه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء]، وقال تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة]، وقال عز ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الطور]، فللعباداة خلقهم، وبطاعته أمرهم، ومن ظلمهم أمّنهم، وبنعمته ابتدأهم بما جعل لهم من العقول والأسماع والأبصار، وسائر الجوارح والقوى، التي بها يصلون إلى أخذ ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، ثم ابتدأهم جل ثناؤه بالنعمة في دينهم؛ بأن بيّن لهم ما يأتون وما يذرون، ثم أمرهم بما يطيقون، أراد بذلك إكرامهم، ومن المهالك إخراجهم، بيّن

ذلك بقوله في الإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد]، هما طريقا الخير والشر فيما سمعنا يقول سبحانه: بَيَّنَّا لَهُ الطَّرِيقَيْنِ يَسْلُكُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَيَجْتَنِبُ طَرِيقَ الشَّرِّ، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ۝١٢﴾ [النجم]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝١٣﴾ [الليل]، وقال جل ثناؤه: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝١٤﴾ [الأعلى]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ ۝١٥﴾ [النحل: ٩]، وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ۝١٦﴾ [فصلت: ١٧]، وقال لنبية صلوات الله عليه وعلى آله: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝١٧﴾ [سبأ]، فأمر نبيه ﷺ أن ينسب ضلاله إن كان منه إلى نفسه، والهدى إلى ربه تبارك وتعالى، وقد علم الله جل ثناؤه أن لا يكون من نبيه ضلالة أبداً، وأن لا يكون منه إلا الهدى، وإنما أمر بذلك تأديباً لخلقهم، وأن ينسبوا ضلالتهم إلى أنفسهم، وينزهوا منها ربهم، وأن ينسبوا هداهم إلى ربهم الذي بهم اهتدوا، وبعونته وتوفيقه رشدوا.

[الرد على افتراءات القدرية]

والقدريون المفترون يكرهون أن ينسبوا الضلالة إلى أنفسهم والفواحش، ولا يقرون أن الله جل ثناؤه ابتدأ عباده بالهدى ولا بالتقوى^(١) قبل أن يصيروا إلى هدى وتقوى، خلافاً لقوله، ورداً لتنزيله، وإبطالاً لنعمه، وهو يقول جل ثناؤه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ۝١٨﴾ [التغابن: ١٦]، يأمرهم بالتقوى إذ كانوا لها

(١) قوله ﷺ: «ولا يقرون أن الله جل ثناؤه ابتدأ عباده بالهدى ولا بالتقوى»: أي: لا يقرون أن الله تعالى أراد لعباده الهدى والتقوى، وأنه خلقهم للهدى والتقوى، ولكن من صار إلى الهدى والتقوى قالوا حينئذ أراد الله له الهدى والتقوى. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

مستطيعين، فلو لم يكن لهم عليها استطاعة لما أمرهم بها^(١)، ولو كانت استطاعة لغير التقوى^(٢) لم يجز أن يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾؛ إذ كانت الاستطاعة لغير التقوى، وقال جل ثناؤه: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٧١]، وقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا كِتَابَ الْبَقَرَةِ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فقد أمرهم أن يأخذوا كتبه بقوة، وأمرهم أن يأخذوا كتبه ومواعظه بالقوة التي آتاهم قبل أن يأخذوا؛ لأن الأخذ فعلهم، والأمر والقوة فعل ربهم، فلم يأمرهم جل ثناؤه أن يأخذوا حتى قوّاهم على ذلك قبل أن يأخذوا.

وكذلك قال في الصيام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾ [البقرة: ١٨٤]، يعني: على الذين يطيقون الصيام ولا يصومون فديةً، ونحو ذلك مما في القرآن. وذلك كله دليل على أن القوة قبل الفعل؛ إذ كان الفعل لا يكون إلا بالقوة، وكل ما كان بشيء يكون أو به يقوم فالذي يكون الشيء أو يقوم به فهو قبله، كذلك الأشياء كلها بالله جل ثناؤه كانت وبه قامت، وهو قبلها، وكذلك القوة فينا قبل فعلنا؛ إذ كان فعلنا لا يكون ولا يقوم ولا يتم إلا بها، وكذلك يقول الناس: بقوة الله فعلنا، لا كما تقول القدرية المشركون: إن الله جل ثناؤه لم يبتدئ العباد بالقوة فأنعم عليهم بها قبل فعلهم، ولكنها كانت منه مع فعلهم.

ففيما وضعناه دليل وبرهان أن القوة من الله جل ثناؤه في عباده قبل فعلهم؛ إذ كان بطاعته لهم أمراً، وعن معصيته لهم ناهياً، نعمة أنعم بها عليهم، وأحسن بها إليهم، والقوة عندنا على الأعمال هي الصحة والسلامة من الآفات في النفس والجوارح وكل ما يوصل به إلى الأفاعيل؛ إذ كانت الصحة والسلامة تثبت الفرض، وإذا زالت زال الفرض، ذلك موجود في العقول، وفي أحكام الله جل ثناؤه، وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى أهله وفي إجماع الأمة، لا يعرفون غير

(١) «بها» ساقطة من (أ).

(٢) في (أ): لغيرها.

ذلك، ولا يدينون إلا بذلك.

فليتق الله عبده^(١)، وليعلم أن الله جل ذكره يبتدئ العباد بالنعم والبيان، ولا يبتدئهم بالضلال والطغيان، صدق ذلك قوله لا شريك له: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

فمن أحسن فليحمد الله جل ثناؤه؛ إذ أمره بالخير وأعانه عليه، ومن أساء فليذم نفسه فهي أولى بالذم، وليضف المعصية إذ كانت منه إلى نفسه الأمانة بالسوء، وإلى الشيطان إذ كان بها أمراً ولها مزيئاً، كما^(٢) أضافها الله جل ثناؤه إليه، وأضافها الأنبياء ﷺ، والصالحون حين عصوا الله إلى أنفسهم، قال آدم وحواء ﷺ حين عصيا في أكل الشجرة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فأخبر سبحانه أن الشيطان دلاًهما بغرور، ثم حذر أولادهما من بعدهما إعداراً إليهم، وتفضلاً عليهم، فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾.

وقال موسى ﷺ حين قتل النفس: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال يونس ﷺ وهو في بطن الحوت تائباً من ظلمه لنفسه، ومقرراً بذنبه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقال غيرهم من الأنبياء ﷺ نحو ذلك، وقال الصالحون نحو ذلك عند زلتهم.

فنقول كما قال أنبياءه ورسله ﷺ، وكما قال الصالحون من عبادته، فنضيف المعاصي إلى أنفسنا وإلى الشيطان عدونا كما أمرنا ربنا، ولا نقول كما قال

(١) في (أ): عبداً.

(٢) في (أ): وكما.

القديريون المفترون: إن الله جل ثناؤه قدّر المعاصي على عباده ليعملوا بها وأدخلهم فيها، وأرادها منهم وقلّبهم فيها كما تقلّب الحجارة، وشاءها لهم وقضاها عليهم حتماً، لا يقدرّون على تركها، وإنه في قولهم يغضب مما قضى، ويسخط مما أراد، ويعيب ما قدّر، ويعذب طفلاً بجرم والده، وأنه يحمّد العباد ويذمهم بما لم يفعلوا، ويمزيهم بما صنع بهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

[هذا مع زعمهم أن أفعال العباد كلها طاعتها ومعصيتها صنعه وخلقه، هو تولى خلقها وإحداثها، خلافاً لقول الله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [محمد،] ﴿وَتِلْكَ الْحِجَةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ [الزخرف،] وقوله لأهل المعاصي: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ [المائدة،] و﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الحشر،] و﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [الطور،] فكفروا بالله كفراً لم يكفر به أحد من العالمين؛ لعظيم فريتهم على ربهم جل ثناؤه، ورميهم إياه بجميع جرمهم، تعالى الله عن إفكهم علواً كبيراً، وتقدس وجل ثناؤه، أليس في كتابه وفي حجة عقول خلقه عدله عليهم وإحسانه وبرأته من ظلمهم؟ إذ قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [النحل،].

فوالله لو لم ينزل على عباده إلا هذه الآية في عدله لكان فيها البيان والنور، وهي آية محكمة مجملة تأتي على جميع الأمر بالطاعة والنهي عن المعصية.

وفي أمر الله جل ثناؤه عباده بالطاعة دليل لمن كان له عقل أن الله جل ثناؤه أرادها وشاءها وأحبها؛ إذ كان بها أمراً وعليها حامداً، ولأهلها موالياً، ولهم مثيباً، وفي نهيه عن المعصية دليل أنه لم يردّها ولم يشأها ولم يحبها؛ إذ كان عنها ناهياً، وعليها ذاماً، ومن أهلها بريئاً، ولهم معاقباً.

فلا هو أرادها جل ثناؤه، ولا هو عز وجل عَصِيَ مغلوباً، ولكنه الحلیم تأنّى بخلقها وأمهلهم وحلم عنهم، ولم يعجل عليهم بالانتقام منهم، ليرجعوا فيتوبوا،

فاغتروا بحلمه عنهم حتى افتروا عليه، فزعموا أنه أمر بما لا يريد ونهى عما يريد، وأن رسله ﷺ خالفوه فيما أراد، وأن إبليس عليه غضب الله وافقه فيما أراد، وذلك أنهم زعموا أنه أراد الكفر من كثير من عبادته، وأرسل إليهم رسله يدعوهم إلى الإيمان، وهو خلاف ما أراد من الكفر، وأن إبليس دعاهم إلى الكفر وهو ما أراد منهم، فكان إبليس -في قولهم- لله جل ثناؤه فيما أراد موافقاً، وكان رسول الله ﷺ فيما أراد من ذلك مخالفاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(١).

[الدليل على أن أفعال العباد منهم]

والدليل على أن ما فعلوا من طاعة الله ومعصيته فعلهم، وأن الله جل ثناؤه لم يخلق ذلك - إقبال الله تبارك وتعالى عليهم بالموعظة والمدح والذم والمخاطبة والوعد والوعيد، وهو قوله جل ثناؤه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق]، وقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٣٩]، ولو كان هو الفاعل لأفعالهم الخالق لها لم يخاطبهم ولم يعظهم، ولم يُلهمهم على ما كان منهم من تقصير، ولم يمدحهم على ما كان منهم من جميل وحسن، كما لم يخاطب المرضى فيقول: لم مرضتم؟ ولم يخاطب العميان فيقول: لم عميتم؟ ولم يخاطب الموتى فيقول: لم متم؟ ولم يخاطبهم على خلقهم فيقول: لم طُلتُم ولم قُصُرتُم؟ وكما لم يمدح ويحمد الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب في مجراهن^(٢) ومسيرهن. وإنما لم يمدحهن ويحمدهن لأنه جل ثناؤه هو الفاعل ذلك بهن، وهو مصرفهن ومجريهن، وهو منشئهن، فكان في ذلك دليل أنه لم يخاطب هؤلاء وخاطب هؤلاء الآخرين، فعلمنا أنه خاطب من يعقل ويفهم ويكسب، وإنما خاطبهم إذ هم مخيرون، وترك مخاطبة الآخرين إذ هم غير مخيرين ولا مختارين، فهذه الحجة وهذا الدليل على فعله من فعل خلقه.

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

(٢) في نسخة: مجاريهن.

والدليل على أن المعاصي ليست بقضائه ولا بقدره ما أنزل في كتابه من ذكر قضائه بالحق وأمره بالعدل، وتعبّده عباده بالرضا بقضائه وقدره، وإجماع الأمة كلها على أن جميع المعاصي والفواحش جورٌ وباطل وظلم، وأن الله جل ثناؤه لم يقض الجور والباطل، ولم يكن منه الظلم، وأنهم مُسَلَّمون لقضاء الله منقادون لأمر الله، فإذا نزلت بهم الحوادث من الأسقام والموت والجذب والمصائب من الله جل ثناؤه قالوا: هذا بقضاء الله، رضينا وسلمنا، ولا يسخطه منهم أحد، ولا ينكره منكر، وإن سخطه منهم ساخط كان عندهم من الكافرين، وإذا ظهرت فيهم الفواحش وانتهكت فيهم المحارم كانوا لها كارهين، وعلى أهلها ساخطين، ولهم معاقبين، يتبرأون منهم ويلعنونهم، ويذمونهم وأعمالهم، ففي ذلك دليل أن ذلك ليس من قضاء الله ولا من قدره؛ وذلك لأنه فعل مذموم قبيح فاحش هو ومن فعله، وقضاء الله لا يكون جوراً ولا فاحشاً ولا قبيحاً ولا باطلاً ولا ظلماً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد وصفنا حجج الله في عدله وما يبين من ذلك لخلقه.

[بعض ما يعتل به القدرية من الآيات المتشابهات في أن الله قدّر المعاصي،

والرد عليهم]

فإن اعتلت القدرية السفهاء ببعض الآيات المتشابهات نحو قوله جل ثناؤه: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، ونحو ذلك من متشابه الآيات، وتأولوها على غير تأويلها - فإن كسر مقاتلهم يسير، والحجة عليهم بينة، وذلك أن الله عز وجل أخبر أن الشيطان وجنوده من الجن والإنس يضلون، وإنما إضلالهم للعبد إنما هو من طريق الصد عن الطاعة بالغرور والكذب والخداع والتزيين للقبيح الذي قبحه الله، والتقبيح لما زين الله وحسنه، فذلك معنى إضلال الشيطان وأوليائه، والله جل ثناؤه يضل لا من طريق

أولئك؛ لأنه تعالى عن الكذب والصد عن سبيله والتقبيح لما حسن من طاعته والتزيين لما قبح من معصيته، وإنما معنى إضلاله جل ثناؤه للعباد الذين يضلون عن سبيله - عند كثير من أهل العلم - التسمية لهم بالضلالة، والشهادة عليهم بها، كما يقال: فلان كفر^(١) فلاناً، وفلان عدل فلاناً، وفلان جور فلاناً، يريدون^(٢): أنه سماه بذلك لما هو عليه من ذلك، فكذلك^(٣) يقال: أضل الله الفاسقين، وطبع على قلوب الكافرين، معنى ذلك عند كثير من أهل العلم: أنه شهد عليهم بسوء أفعالهم، ونسبهم إلى أفعالهم، مسمى لهم بذلك، وحاكماً عليهم به كذلك، لما كان منهم، فذلك تأويل الآيات المتشابهات في هذا المعنى عند من وصفنا من أهل العلم.

فعلى العبد أن يتقي الله، وينظر لنفسه، ولا يقبل ما تأولته القدرية والمجبرة مما لا يجوز على الله جل ثناؤه في الثناء، وأدنى ما عليه أن يحسن الظن بربه، ويأمنه على نفسه ودمه، ويعلم أنه أنظر له من جميع خلقه، وليرجع إلى المحكمات من الآيات التي وصف الله جل ثناؤه فيها نفسه - جل وجهه - بالعدل والإحسان، والرحمة بخلق^(٤)ه، والغنى عنهم، والأمر بالطاعة والنهي عن المعصية، فيعمل بتلك الآيات ويكون عليها، ويؤمن بالمتشابهات، ولا يظن أنها وإن جهل تأويلها وحُرِّفت عن تفسيرها أنها تنقض المحكمات، فإن^(٥) كتاب الله لا ينقض بعضه بعضاً، ولا يخالف بعضه بعضاً، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء]، فنفى أن يكون في كتابه اختلاف.

(١) في (أ): كما يقال: فلان أكفر فلاناً، وكفر فلان فلاناً.

(٢) في (أ): يريد أنه.

(٣) في (أ): وكذلك.

(٤) في (أ): لخلق.

(٥) في (أ): وأن.

فليتق الله عبداً ولينظر لنفسه، وليحذر هذه الطائفة من القدرية والمجبرة، فإنهم كفار بالله، لا كفر أعظم من كفرهم، لما وصفنا من فريتهم على الله جل ثناؤه في كتابنا هذا؛ لأنهم شهدوا لجميع الكفار أن الله أدخلهم في الكفر شاءوا أو أبوا، فشهدوا للفساق وجميع العصاة أنهم إنما أثوا في ذلك كله من ربهم، ولذلك هم محوس هذه الأمة.

[بيان من القدرية والمرجئة والتحذير منهما]

وليحذر العبد أيضاً هذه الطائفة من المرجئة، فإن قولهم من شر قول وأخبثه، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((صنفان من أمتي لعنوا على لسان سبعين نبياً: القدرية والمرجئة، قيل: من؟))^(١) القدرية والمرجئة يا رسول الله؟ فقال: أما القدرية فالذين يعملون المعاصي ويقولون: هي من الله وهو قدرها علينا، وأما المرجئة فهم الذين يقولون: الإيمان قولٌ بلا عمل)).

فهذان قولان فيهما ذهاب الإسلام كله، ووقوع كل معصية؛ وذلك أن القدرية زعمت أن الله جل ثناؤه أدخل العباد في المعاصي وحملهم عليها وقدرها عليهم وخلقها فيهم، فهم لا يمتنعون منها ولا يستطيعون تركها.

وأما المرجئة فرخصوا في المعاصي، وأطمعوا أهلها في الجنة بلا رجوع ولا توبة، وشككوا الخلق في وعيد الله، وزعموا أن كل من ركب كبيرة من معاصي الله فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله، بعد أن يكون مقراً بالتوحيد، وأن جميع أعمال المؤمنين^(٢) من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك ليس من الإيمان ولا من دين الله، مع أشياء كثيرة تقبح من قولهم، فكان في قولهم ذلك انتهاك حرمت الله سبحانه، وتعدي حدوده، وقتل أوليائه، وخفر ذمته، واستخفاف بحقه، والفساد في أرضه، والعمل بالظلم في عباده وبلاده، فهذان

(١) في (أ): وما القدرية.

(٢) في (أ): المؤمن.

قولان مما أهلك العباد والبلاد بهما، فنعوذ بالله منهما، ونبرأ إلى الله من أهلها، ونسأله فرجاً عاجلاً، إنه قريب مجيب.

[ما يلزم العبد بعد إقراره بتوحيد الله وعدله]

فإذا أقرَّ العبد بما وصفنا من توحيد الله وعدله وعرفه فعليه بعد ذلك أن يؤدي ما افترض الله عليه من الصلاة والزكاة والصوم والحج إذا كان لذلك مطيقاً، والجهاد في سبيله لجميع أعدائه من الكافرين والفاستقين إذا أمكنه ذلك واحتيج فيه إليه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إذا لزمه ذلك بنفسه، ومع غيره إذا أمكنه ذلك، ويؤدي جميع ما افترض الله جل ثناؤه عليه من شرائع دينه.

وعليه أن يتجنب ما نهى الله عنه من معاصيه كلها، من الكفر كله، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، وأخذ أموال الناس مسلميهم ومعاهديهم بغير حقها، والظلم لهم، والعدوان عليهم، وأكل أموال اليتامى ظلماً، وأكل الربا، والسرقة، والزنا، وقذف المحصنات والمحصنين، وشرب الخمر، وإتيان الذكران من العالمين، والفرار من الزحف في المواطن التي لا ينبغي له الفرار فيها إذا كان في ذلك اصطلام المسلمين وهلاكهم، وعقوق الوالدين المسلمين، وإن كانا عاصيين صاحبهما معروفًا، وكل معصية يعلمها الله معصية، وكل ما عليه أن يعلم أنه لله معصية فلا يعملها^(١) ولا يقربه، فإن الله تبارك وتعالى قد نهى عن الذنوب كلها كبيرها وصغيرها، كبيرها فيه الوعيد والحدود، وصغيرها هو موهوب لمن اجتنب الكبير، وذلك قول الله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء].

فليتق الله عبداً ولا يقدم على معصية ربه وهو يعلمها، ولا يعتقد أنها متأولاً ولا متديناً بها، وقد جعل الله له السبيل إلى معرفتها وتركها، وليكن أبداً متحرزاً

(١) في (أ): فليعلمه.

متحفظاً، وبأمر ربه متيقظاً، فإن الله عز وجل وصف المتقين من عباده المؤمنين فقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، ولم يقل فإذا هم مصرون، ثم أخبر تبارك وتعالى عن إخوان الشيطان فقال جل ثناؤه: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [٣٩].

فالمؤمن أبداً متيقظ متحفظ، راجٍ خائف، يرجو الله لما هو عليه من الإحسان ولما يكون منه من ذلك رجاء لا قنوط فيه، ويخافه على الإساءة الموبقة إن فعلها خوفاً لا طمع فيه إلا بتوبة منها، فالخوف والرجاء لا يفارقانه، بذلك وصف الله جل ثناؤه المؤمنين من عباده، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وهكذا صفة المؤمنين، وليس أحد يقدر أن يؤدي كل ما استحق الله جل ثناؤه من عباده من شكر نعمه^(١) وإحسانه بالكمال والتمام حتى لا يُبقي مما يحق له جل ثناؤه عليه شيئاً إلا أداه، هيهات، فكيف وهو يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فكيف يؤدي شكر ما لا يحصى؟! ولم يفرض جل ثناؤه على خلقه ذلك، ولا سأل كل ما له عليهم مما يستحق لديهم؛ لعلمه بضعفهم، وأن في بعض^(٢) ذلك استفراغ جهدهم وما تعجز عنه أنفسهم، وأنهم لا يقدرُونَ على ذلك، ويقصرون عن بلوغ ذلك، فتبارك الله جل ثناؤه عن الاستقصاء عليهم، ولم يسألهم كل ما له عليهم، وغفر لهم صغير ذنوبهم كله إذا اجتنبوا كبيره؛ رحمةً بهم ونظراً لهم.

فأما من رجا الرحمة وهو مقيم على الكبيرة فقد وضع الرجاء في غير موضعه، واغتربر به، واستهزأ بنفسه، وخدعه وغرّه من لا دين له، إلا أن يتوب فيُغفر له بالتوبة.

(١) في (أ): نعمته.

(٢) في (أ): وأن بعض.

فأما بالإقامة على الكبائر فلا، بل قد وصف الله جل ثناؤه الراجين لرحمته وكيف وضعوا الرجاء موضعه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة]. فهكذا يكون الرجاء؛ وذلك أن الجنة والنار طريقان، فطريق الجنة طاعة الله المجردة من الكبائر من معاصي الله، وطريق النار معصية الله وإن لم تكن مجردة من بعض طاعات الله؛ لأننا قد نجد العبد يؤمن بكتاب الله كله ويكفر ببعضه، فلا يكون مؤمناً، ولا بما آمن به منه من النار ناجياً، يصدق ذلك قول الله عز وجل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة]، فلم يُسمَّوا بما آمنوا به مؤمنين، بل سُمُّوا بما كفروا به منه كله (١) كافرين.

وعلى هذه الطريق فيمن لم يكفر به (٢) من الفاسقين أهل الكبائر العاصين، فمن كان على المعصية الكبيرة مقيماً فهو على طريق النار، فكيف يرجو البلوغ إلى الجنة وهو يسلك ذلك الطريق، كرجل توجه إلى طريق خراسان فسلكه وهو يقول: أنا أرجو أن أبلغ الشام، وهو على طريق خراسان، وذلك ما لا يكون إلا بتحول إلى طريق الشام، فهذا مثل من وضع الرجاء في غير موضعه.

فإن اعتل معتل بقول الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فأطمع من فعل فعلاً دون الشرك من الكبائر في المغفرة بهذه الآية - قيل له: إن الله عز وجل قد قال في موضع آخر من كتابه لتبني صلوات الله عليه وعلى أهله: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

(١) في (أ): لكه.

(٢) «به» ساقط من (أ).

الرَّحِيمُ ﴿٥٧﴾ [الزمر]، ففي هذه الآية إطماع لجميع المؤمنين والمشركون وغيرهم، وليست تلك الآية بأوضح في الغفران من هذه الآية، فيطمع للمشركون فيها. فإن قال: لا أطمع لهم فيها بآية أخرى قيل له: كذلك لا أطمع لأهل الكبائر كما لا تطمع للذين أشركوا في آية أخرى.

فإن قال: لا أطمع للمشركون لإجماع المسلمين - بطل الاعتلال بالآية، وقيل له: إن الأمة لم تجمع إلا من قِبل خبر الله، وكذلك أثبتنا نحن وعيد الله على الفاسقين من قِبل خبر الله بقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء]، ونحو ذلك من الآيات، وكل من مات على معاصي الله مصراً غير تائب إلى الله فهو من أهل وعيد الله وعقابه.

ومعنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أنه يغفر للمجتنبين الكبير الصغير، وهو أيضاً دون الشرك وإن كان صغيراً، فوق الاستثناء على ذلك الصغير؛ إذ أخرج الكبير من أن يكون مغفوراً بقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر] وبغير ذلك من الوعيد، ويبيّن أنه يعد بالمغفرة الصغير قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء]، وقد يغفر الكبير لمن تاب منه، فيكون قوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾، أي: لمن تاب من الكبائر.

[مواصلة أولياء الله]

وعلى العبد أن يوالي أولياء الله حيث كانوا وأين كانوا، أحياءهم وأمواتهم، وذكرهم وإناتهم، ويكون أحبهم إليه وأكرمهم عليه أفضلهم عنده وأتقاهم لربه وأكثرهم طاعة له.

والمؤمنون هم الذين وصفهم الله جل ثناؤه في كتابه، ويبيّن أحكامهم في سنة رسوله ﷺ، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال]، وقال جل

ثناؤه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥﴾ [المؤمنون]، فوصفهم بأعمالهم الصالحة حتى قال جل ثناؤه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ٦ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٧﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ٨﴾ [الحجرات]، فقد دخل في هذه الصفة كل طاعة؛ لأن الجهاد في سبيل الله يأتي على كل طاعة، فمن (١) أطاع الله في أداء فرائضه واجتناب محارمه فهو مجاهد بنفسه لربه في اتباع أمره وترك هوى نفسه، فلا جهاد أفضل من جهاد هذه النفس لردّها عن هواها فيما يردّها، ومن مجاهدة الشيطان عدو الرحمن، فمن عمل ذلك فهو مؤمن؛ لأن الإيمان طاعة لله.

وللمؤمنين يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ٩﴾ [الأحزاب]، وقال جل ثناؤه: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ١٠﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ١١﴾، فهذا ما وصفهم الله به في كتابه، وحكم لهم فيه، وفي سنة رسوله ﷺ، وبالولاية لهم وثبوت عدالتهم وشهادتهم، وحسن الظن بهم، والنصيحة لهم، والإحسان إليهم، وحسن الثناء عليهم.

[معاداة الكافرين]

وعلى العبد أن يعادي أعداء الله الكافرين أين كانوا وحيث كانوا، أحياءهم وأمواتهم، وذكرورهم وإنائهم، وقد وصفهم الله جل ثناؤه وبين أحكامهم كلهم، أهل الكتابين والمجوس والصابئين، وغيرهم من المشركين والملحدين، والمصرين والمرتدين والمنافقين، فأمر بقتل بعضهم، وترك قتل بعضهم وأخذ

(١) في (أ): ومن.

الجزية، وترك نكاح نسائهم، وترك أكل ذبائحهم.

وأما غيرهم من أهل الأديان من العرب والعجم، والمرتدين عن الإسلام إلى هذه الأديان المنصوصات من الكفر، أو إلى الإلحاد، أو إلى صفة الله بالتشبيه له بخلقه، والافتراء عليه بالتظلم له في عبادته، بأن كلفهم ما لا يطيقون، وعذب أطفالهم بما لا يكسبون؛ إذ خرجوا مما عليه الأمة مجتمعون من سنة نبيهم صلوات الله عليه وعلى أهله؛ إذ أجمعوا أن الخارج منها كافر - فهؤلاء كلهم يستتابون من كفرهم، فإن تابوا وإلا قتلوا، لا يقبل منهم غير ذلك، ولا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نسائهم إن كن كفاراً، ويفرق بينهم وبين نسائهم إذا أسلمن، من حرائرهن وإمائهن، ولا يرثون، ويرث المؤمنون أموالهم.

فهذا حكم المرتدين منهم، وبهذا حكم الله جل ثناؤه في جميع الكافرين، ما خلا من كان منهم له عهد من رسلهم، أو دخل بأمان إلى المسلمين في دارهم، أو كان بينه وبينهم صلح وعقد، فهؤلاء يوفى لهم بعهدهم، ولا ينقض شيء من عهدهم.

[معاداة الفاسقين]

وعلى العبد أن يعادي أعداء الله الفاسقين، الذين أقروا ثم فسقوا، من كانوا وحيث كانوا، أحياءهم وأمواتهم، وذكورهم وإناثهم، الذين يسعون في الأرض فساداً، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويركبون كبائر الإثم والفواحش، أولئك هم اللعنة وهم سوء الدار، ونعلنهم كما لعنهم الله، ونتبرأ منهم، من كانوا وحيث كانوا، من قريب أو بعيد، وهكذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٣﴾﴾

[المجادلة]، فكل من أتى كبيرة من الكبائر أو ترك شيئاً من الفرائض المنصوصة على

الاستحلال لذلك فهو كافر مرتد، حكمه حكم المرتدين.

ومن فعل شيئاً من ذلك اتباعاً لهواه وإيثاراً لشهوته كان فاسقاً فاجراً ما أقام على خطيئته، فإن مات عليها غير تائب منها كان من أهل النار، خالداً فيها وبئس المصير، يبيّن ذلك قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝﴾ [الأنفطار]، ومن لم يَغِبْ من النار فليس منها بخارج، ومن لزمه الفسق والفجور من كان فهو من أهل النار إلا أن يتوب؛ لقول الله جل ثناؤه: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ۝﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝﴾.

ومن أتى كبيرة فهو فاجر فاسق، يبيّن ذلك قولُ الله جل ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝﴾ [النور]، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾، فإذا كان قاذف المحصنة (١) فاسقاً ملعوناً فالزاني بالمحصنة أعظم جرماً، والسارق، وقاتل النفس بغير الحق، وآكل أموال اليتامى ظلماً، وغير ذلك من كبائر الذنوب. وكذلك من فعل ذنباً من الكبائر فهو فاسق في إجماع الأمة.

والفاسق لله جل ثناؤه عدوّ، حكم الله فيه ما أنزل من حدوده، من قتله إذا قتل ظلماً أو أفسد في الأرض بغياً، وقطع يده إذا كان سارقاً، وجلده إذا زنا، وإن زنا وهو محصن قتل بالحجارة رجماً، وإذا قذف المؤمنين والمؤمنات جلد الحد، وغير ذلك من النكال لما يكون منه من الفعال، ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [المائدة]، مع ما نهى الله عز وجل عنه من ولايته،

(١) في (أ): بالمحصنات.

وأمر به من جرح عدالته وإبطال شهادته، وسوء الظن به، والحجر عليه في ماله إذا أنفق في معاصي ربه، حتى يؤنس رشده، وغير ذلك من الأحكام عليه، من سوء الثناء، وإلزامه القبيحة من الأسماء، فليس هو من المؤمنين في أسمائهم ولا رضي أفعالهم؛ لمجانبة المؤمنين في أعمالهم وطيبهم، ولا من الكافرين ولا يسمى بأسمائهم؛ لمخالفته الكافرين في حجدهم، وفريتهم على ربهم، واستحلالهم ما حرم عليهم، ولا هو من المنافقين؛ لاستمرار المنافقين الكفر في قلوبهم، ولكنه فاسق، ذلك اسمه، وعليه حكمه.

وقد بين الله جل ثناؤه أن الفاسق اسم من أسماء الذنوب، لقوله: ﴿يُنْسِ الْأِسْمُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات]، ومن لم يتب من فسقه وظلمه فهو من أهل النار ليس بخارج منها، ولكنه وإن كان في النار فليس عذابه كعذاب الكفار، بل الكفار أشد عذاباً.

فلا يغتر مغتر ولا يتكلم متكلم على قول من يقول من الكاذبين على الله وعلى رسوله صلوات الله عليه وعلى أهله: إن قوماً يخرجون من النار بعد ما يدخلونها يعذبون بقدر ذنوبهم، هيهات، أبى الله جل ثناؤه ذلك، وذلك أن الآخرة دار جزاء، والدنيا دار عمل وبلوى، فمن خرج من دار البلوى إلى دار الجزاء على طاعة أو معصية فهو صائر إلى ما أعد الله له خالداً فيها أبداً.

فألله الله في أنفسكم بادروا وجدوا وتوبوا قبل أن تحجبوا عن التوبة.

ومع ذلك فإن الأمة مجمعة على أن أهل الوعيد من أهل النار.

فقال بعض الناس: إنما عني بالوعيد المستحلين، وتواعد به المذنبين؛

ليزجرهم عن أعمال الفاسقين.

فقل لهم: أفيجوز على أحكم الحاكمين أن يوعد بعقوبة الكافرين من ليس

منهم من المذنبين وهو يعلم أنه لا يوقع بهم ذلك يوم الدين؟!

فهل يكون من الكذب والهزل من القول إلا ما وصفتم به أرحم الراحمين؟

إذ كان يوعد قوماً بعقوبة قوم آخرين لم يكونوا لمثل أعمالهم التي أوجب الله لهم العقوبة عليها عاملين.

وقال بعضهم: إن قوماً يخرجون من النار بعد ما يدخلونها.

فقيل لهم: إذا اجتمعتم أنتم وأهل الحق على الدخول ثم خالفتموهم في الخروج فالحق ما اجتمعتم عليه من الدخول، والباطل ما ادعيتموه بلا إجماع ولا حجة من الخروج، والأمة مجمعة على أن من أتى كبيرة، أو ترك طاعة فريضة كالصلاة والزكاة والصيام من أهل الملة فهو فاسق، وهي مختلفة في غير ذلك من أسماؤه.

فقال بعضهم: هو مشرك فاسق. وقال بعضهم: هو فاسق كافر.

وقال بعضهم: فاسق منافق. فكلهم قد أقر بأنه فاسق، واختلفوا في غير ذلك من أسماؤه، فالحق ما أجمعوا عليه من تسميتهم إياه بالفاسق، والباطل ما اختلفوا فيه، ففي إجماعهم الحجة والبرهان، نسأل الله التسديد والتوفيق لما يحب ويرضى.

والأسماء في الدين والأحكام من عند ذي الجلال والإكرام، ليس لأحد من المخلوقين أن يضع اسماً وحكماً على أحد من العالمين فيما هم به مأمورون وعنه منهيون، فمن استحل شيئاً من ذلك برأيه عن غير كتاب الله جل ثناؤه وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى أهله فهو من الضالين؛ إذ كان عند الله كبيراً؛ لأن الحكم في ذلك كله لرب العالمين، لقوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام].

وعلى العبد أن يتجنب الفاسقين، والمعونة لهم على فسقهم، والمجالسة لهم على لهُوهم ومعاصيهم، وعليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ لأن على كل مؤمن إذا رأى منكراً مما يجوز أن يغيره هو أن يغيره بكل ما يقدر عليه ويحل له، وإن كان مما لا يجوز له أن يغيره إلا بإجماع المؤمنين بالتعاون فعليهم وعليه أن يغيره بكل ما أمكنهم بالسيف إن لم يجد إلا بالسيف، وبما دون السيف إذا اكتفى به، وأدنى ذلك النهي باللسان. فإن لم يمكنه ذلك لتعبه لتخوفه الهلاك أو

تقية فإنكار ذلك بالقلب، والعزم على التغيير إذا أمكن الأمر ولا يترك صاحب المنكر حتى يتوب منه أو يقام فيه حكم رب العالمين. ويُدْرَأُ أهل المنكر ويوعظون بأرفق الوجوه، فإن أبوا إلا المقام على المنكر فقدّر على إزالتهم عنه فلا يؤخر ذلك، وإن لم يقدر على إزالتهم جوبوا بمجانبة جميلة، وقُطعت الولاية عنهم، ولا يُدعى لهم بخير حتى يتوبوا إلى ربهم، لأنه ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى].

[التوبة]

وعلى العبد أن يتقي الله في سر أمره وعلا نيته، ويستغفر الله ويتوب إلى الله من ذنوبه، فإنه يقبل التوبة عن عباده، بذلك وصف نفسه جل ثناؤه، فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه]، ثم دعا عباده إلى التوبة، ثم أخبرهم أنه يقبلها، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود]، وقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور].

فمن تاب إلى الله قبل توبته وإن كانت ذنوبه عدد الرمل (١) وأكثر من ذلك؛ لأنه كريم، وهو بعباده رؤوف رحيم، يقبل التوبة، ويقل العثرة، ويقبل المعذرة، ويغفر الخطيئة إذا صحت من العبد التوبة. وقال جل ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان]، فمن تاب من ذنبه قبل الله توبته وأحبه، كذلك قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [٣٣].

(١) في (أ): الرمال.

[البقرة]، يعني: المتطهرين من الذنوب، فمن أحبه الله لم يعذبه، وكان من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وكان من أهل الجنة لا شك فيه. وكذلك أخبر تبارك وتعالى عن ملائكته: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [غافر]، والله جل ثناؤه لا يخلف الميعاد.

[وجوه التوبة وتفسيرها]

فالتوبة لها وجوه وتفسير، فكل ذنب بين الله وبين عباده وإيمانه نحو الزنا، وشرب الخمر، وإتيان الذكران بعضهم بعضاً، وإتيان النساء بعضهن بعضاً، واستماع محارم اللغو واللهو والعكوف عليها، وقول الزور، وقذف أهل الإحصان من الرجال والنساء بالرفث والخناء والفجور، والكذب، والمرح، والخيلاء، والكبرياء، والرياء، والعجب، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، والنظر إلى ما لا يحل من العورات وغيرها، والفرار من الزحف لا بتحرُّفٍ إلى قتال ولا بتحيزٍ إلى فئة، والكذب والغيبة والنميمة، وما أشبه ذلك من الذنوب، ومعاداة أولياء الله، وموالاتة أعداء الله - فالتوبة من ذلك كله بالندم^(١) على ما مضى، والاستغفار بالقلب واللسان بلا إصرار، والعزم أن لا يعود إلى شيء من ذلك أبداً، قليلاً ذلك أو كثيراً.

وأحب إلينا أن ينظر إلى ما كان أذىً لمسلم أو معاهد فيستحله ويعتذر إليه منه ويرضيه، وكل ذنب كان بين العبد وبين الناس مسلمهم ومعاهدهم، من سرقة، أو ربا في أموالهم، أو أخذ^(٢) مالٍ بغير حق في جناية^(١)، أو غصب، أو إدخال

(١) في (أ): الندم.

(٢) في (أ): وأخذ.

ضرر عليهم في الأبدان كالقتل والجراحات والضرب الشديد، كان إذا قدر على ذلك وكان له مال، فإن لم يكن له مال جعله ديناً عليه، وعزم على أن يرده إلى أهله إذا قدر عليه، أو على ذريتهم إن كان أهله ماتوا، ويندم على أخذه وحبسه، ويستغفر الله، ويعطي من نفسه أن لا يعود إلى مثل ذلك أبداً. ولا تجزيه التوبة من الأخذ حتى يرد إذا كان حابساً، وإن استوهبه منهم ووهبه له بطيبة أنفس منهم كان ذلك له حلالاً، بعد الإقرار لهم به على أجل الوجوه، وإن صالحوه وأخذوا بعضاً وتركوا بعضاً على غير اقتسار لهم كان ذلك جائزاً.

وإن لم يعرف أصحاب المال الذين أخذ منهم المال وأيس أن يعرفهم أو يعرف ورثتهم تصدق بمقدار ما أخذ منهم على المساكين، فإن جاءوا بعد ذلك إليه أخبرهم أنه قد تصدق بذلك عنهم، فإن رضوا لم يكن عليه شيء، وإن أرادوا حقهم رده عليهم إذا قدر عليه، وكانت صدقته له، وإن كان محتاجاً إليه فأنفقه على نفسه وجعله ديناً عليه لأهله، فإن تاب قبل القدرة على أدائه إليهم من غصبه المال وإنفاقه إياه على نفسه - كانت توبته مقبولة عند الله جل ثناؤه، وكان المال له لازماً حتى يعينه الله على قضائه.

وإن كان الذي أخذ أموالهم غائباً في بعض البلدان فلم يقدر على الخروج إليهم به لعله مرض أو آفة حائلة بينه وبين ذلك أوصى أن يبعث به إليهم؛ لأن عليه أن يوصل إليهم حقوقهم حيث كانوا، ويستحلهم من أخذه وإنفاقه وغصبه، ثم لا شيء لهم عليه بعد ذلك، وتوبته مقبولة فيما بينه وبين الله جل ثناؤه.

وإن لم يدر كم المال الذي أخذ من أموال الناس متفرقهم ومجتمعهم ونسي وكثر ذلك عليه فليتحرر ما لكل واحد على قدر مبلغ علمه ورأيه، ويحتط ويزد على نفسه حتى يكون الغالب عليه في علمه ورأيه أن قد استغرق جميع حقوقهم،

وأدى إليهم أموالهم وزاد، فإن النفقة له في ذلك، فإن زاد كان له أجره، وإن نقص قليلاً لم يضره بعد أن يتعمد الوفاء، وذلك كله توبته إلى الله جل ثناؤه مما كان منه في ذلك من أخذٍ وحبس عن أهله، وهو عنده بنديمٍ واستغفارٍ وعزم على أن لا يعود إلى مثل ذلك أبداً.

فإن كان صار إليه مال من ناحية ظالمٍ غاصب، وهو به عالم، بسبب معونة له في ظلمه، ودخول معه في غضبه، وأخذ ذلك هبة منه، وهو يعلم أن ذلك ظلم وغصب لغيره - فالتوبة مما أخذ من ذلك أن يخرج من عنده، فيرده على أهله المغصوبين إياه، ولا يحل له أن يرد شيئاً من ذلك إلى الغاصب؛ لأنه ليس له. وإن كان أنفق له وليس عنده شيء منه كان ضامناً لرده إذا أمكنه على أهله، ويتوب إلى الله جل ثناؤه من إنفاقه.

وأما ما كان من الربا فالتوبة منه ما وصفنا من الندم والاستغفار^(١)، ويخرج كل فضلٍ فوق رأس ماله فيرده على ما وصفنا من رده على أهله إن عرفهم، وإلا فعلى ما وصفنا من رده لكل ما لزمه رده.

[التوبة من القتل والجراحات]

وأما ما كان من قتل فلا توبة لقاتل المؤمن حتى يندم على القتل، ويستغفر الله منه، ويعزم على أن لا يعود إلى قتل أحد أبداً ظلماً، ويُمكن أولياء المقتول المؤمن من نفسه صابراً محتسباً، يقول لهم: إنه قتل صاحبهم ظلماً وعمداً وعدوياً، فإذا فعل ذلك فهو تائب لا شيء عليه من إثم القتل، فإن قتلوه تائباً بحق هو لهم فلا تبعة لهم عليه، ولا للمقتول لديه حق، وإن عفوا عنه فلهم أن يعفوا عنه؛ لأن الحق بعد المقتول لأولياء المقتول. ويعوض الله جل ثناؤه المقتول إذا كان مؤمناً صابراً، ألم تسمع إلى الله جل ذكره كيف يقول: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا

(١) في (أ): والاستغفار منه.

لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا ﴿[الإسراء: ٣٣]﴾، فقد سلط الله جل ثناؤه أولياء المقتول على القاتل، إن شاءوا قتلوا وإن شاءوا عفوا وأخذوا الدية.

وإن تاب فيما بينه وبين الله ولم يمكن أولياء المقتول من نفسه لم يسعه ذلك ولم تقبل توبته، فإن لم يعرف أولياء المقتول عزم القاتل على أن يُمَكَّن من نفسه أولياء المقتول متى عرفهم، يصنعون^(١) به ما لهم عليه من القتل أو الدية والعفو، ولا يدفع نفسه إلى سلطان ولا إلى غيره، ولا يدفع نفسه إلا إلى أولياء المقتول. وإن لم يتب إلى ربه جل ثناؤه ويُمَكَّن أولياء المقتول من نفسه كان كما قال الله جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿[النساء: ٣٣]﴾.

وأما ما كان من جراحات سوى القتل مما يجب فيه القصاص فإنه يتوب إلى الله جل ثناؤه منها بالندم عليها والعزم على أن لا يعود، ويمكن من نفسه بعد التوبة إلى الله جل ثناؤه مَنْ فَعَلَهُ بِهِ، فإن اقتَصَّ منه فلا شيء عليه، وإن عفا عنه فذلك إليه. وإن كانت جراحات قد برأ منها أصحابها، ولم يكن أمكنهم القصاص من نفسه، فلم يعلم مقدارها لبرء فلا قصاص عليه فيها؛ لأنه لا يعلم قدر ذلك، وعليه أرش الجراحات يقيمه عدل، يتوخى في ذلك الصواب، فيدفع ذلك إلى أصحاب الجراحات، فإن لم يعرف أصحابها دفع ذلك إلى ورثتهم الذين يقومون بذلك. وإن كان لا يعرف أصحاب الحقوق دفع ذلك القدر إلى المساكين إذا قدر على ذلك. وما كان من الجراحات مما لا قصاص فيه مما يكون فيه حكومة عدل دفع إلى من صنع به ذلك إن كانوا أحياء، وإن كانوا أمواتاً دفع ذلك إلى ورثتهم، فإن لم يعرفهم ولا ورثتهم دفع ذلك إلى المساكين إذا قدر على ذلك.

(١) في (أ): فيصنعون.

ويفعل في كفارة الخطأ كما أمره الله جل ثناؤه في كتابه، وكذلك في كفارة الظهار، فمن لم يقدر على شيء من ذلك فالتوبة منه على ما أمر الله جل ثناؤه. وأما ما كان من ضربٍ أو ظلم مما لا يكون القصاص فيه فالتوبة فيه والاستغفار والندم، وأن لا يعود إلى مثله أبداً، ويُرضي أصحابها إن عرفهم ويتحللهم.

وأما ما كان من ظلم الناس نحو اغتياب وتجسس، أو سوء ظن بمؤمن، أو سعاية إلى ظالم، أو كذب عليه - فالتوبة إلى الله جل ثناؤه من ذلك، ويتحلل ذلك من أصحابه الذين فعل بهم، فإنه أحسن وأفضل، ويكون ذلك على أجمل الوجوه.

فإن لم يمكنه التحلل ولم يفعله بعد أن يتوب إلى الله جل ثناؤه رجونا أن لا يضره ذلك.

وكذلك إن أساء إلى ممالكه في تقصير في مطعم أو ملبس مما لا يحل له أن يفعله بهم، أو عاقبهم عقوبة أسرف فيها، أو شتمهم بما لا يحل له - فليتب إلى الله جل ثناؤه من ذلك كله، وليتحلل من ممالكه.

وإن استدان رجل مالا ينفقه على نفسه وعلى عياله بالقصد كما أمره الله جل ثناؤه، وكان عزمه أن يرده إذا أيسر وأمكنه فمات قبل أن يؤديه، وليس له مال، ولم يترك وفاء - فلا شيء عليه فيما بينه وبين الله جل ثناؤه وبين صاحب الدين؛ لأن الله العدل الذي ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة]، و﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق].

فإن أخذ ديناً ونسي [وظن] أن ليس عليه لأحد شيء فلا شيء عليه عندنا، إذا لم يكن نسيانه ذلك من تشاغله بمعصية ربه.

فإن أخذ ديناً فلم يرده إلى أصحابه حتى ماتوا فليؤده إلى ورثتهم، فإن لم

يعرف لهم ورثة وانقطعت آثارهم وانقطع ذكرهم فليتصدق به على المساكين، وقد سلم من الإثم إذ تاب من حبسه، وقد كان يقدر على أدائه.

وإن استقرض مالا فأنفقه فيما يحل له أو يحرم عليه وكان من عزمه أن لا يؤديه إلى أهله فهو فاسق، وتوبته في ذلك الاستغفار والندم ورده إلى أهله إن كان يقدر عليه، وإن كان معسراً عزم على أدائه إليهم إذا قدر عليه، وأشهد لهم بذلك على نفسه إن أرادوا ذلك منه، فإن ماتوا ولم يكن لهم ورثة تصدق به عنهم، وإن كان محتاجاً أنفقه على نفسه وعياله كما يتصدق به على غيره هذا إذا كان ضامناً له.

وإن كان أخذ أموال الناس من طريق الدين، وكان شأنه أن لا يقضي ولا يؤدي، وجحد ذلك، ثم مات على ذلك، فأقام أصحاب الدين من بعد موته على ورثته البينة، أو عرف ذلك الورثة - فعليهم أن يؤديوه إلى أهله، والميت من أهل النار، لا ينجيه من ذلك أداء ورثته عنه؛ لأنه اعتزم على أنه لا يؤديه، ومات غير تائب، مصراً على أخذ أموال الناس ظلماً وعدواناً، ومن اعتزم على أخذ أموال الناس ظلماً وعدواناً فهو من الفاسقين.

وإن لم يكن لهم بينة وعرف الورثة أن المال الذي خلف الميت إنما هو أموال الناس، وعرفوا ما عليه من الدين - لم يحل لهم ما أخذوا؛ لأنهم أخذوا ما ليس لهم من حقوق الناس، والسنة الماضية أنه لا شيء لوارث حتى يقضى الدين، فإن لم يقضوه ولم يمكنهم^(١) وهم يعرفونه كانوا من أهل النار إذا ماتوا على ذلك مصرين ظالمين.

(١) هكذا في المخطوطات.

[التوبة من الأيمان]

فإن كان رجل حلف بأيمان بالله وهو كاذب متعمد للكذب من غير إكراه أو تخوُّف فقد فسق إذا بلغت يمينه كبيرة، وتوبته من ذلك أن يستغفر الله من ذلك ويندم على ما كان منه ولا يعود إلى مثل ذلك أبداً، وليس عليه كفارة.

وإن كان حلف بما فيه كفارة ثم حث فعله كفارة لكل يمين.
والأيمان أربع: فيمينان يُكفران، وهو قول القائل: والله لأفعلن كذا وكذا فلا يفعل، وقوله: والله لا أفعل كذا وكذا فيفعل.

واليمينان اللتان لا يُكفران فهو قول القائل: والله ما فعلت كذا وكذا وقد فعل، وقوله: والله لقد فعلت كذا وكذا، وما فعل.

وكفارة اليمين إذا حث إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يأكل هو وأهله، أو كسوتهم ثوباً ثوباً، أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فمن لم يقدر على إطعامهم وغير ذلك من الكفارة فليصم عن كل يمين ثلاثة أيام، ويستغفر الله من تضييعه، ولا يعد.

فإن أدركه الموت ولم يُكفر عن يمينه من إطعام أو كسوة ولم يقدر على ذلك فليوص أن يُطعم عنه المساكين من ماله لكفارة أيمانه إن كان له مال، فإن لم يكن له مال فلا شيء عليه؛ لأن الله جل ثناؤه قد عذر من لم يجد.

وإن كان يعرف الأيمان التي عليه كم هي فليُكفر عددها، وإن كان عددها لا يقف عليه فليتوخَّ قدرأ من ذلك يكون الغالب عنده أنه قد استغرقها وزاد، ثم نرجو أن لا يضره زاد أو نقص إذا لم يتعمد ذلك. وكذلك يوصي بمثل ذلك إذا لم يمكنه قضاء ذلك^(١).

(١) «قضاء ذلك» ساقطة من (أ).

[التوبة من ترك الصلاة وسائر العبادات]

وإن كان^(١) ضيع صلاةً أو صياماً أو حجاً أو زكاة بعد ما وجب ذلك عليه، بالتواني والاستخفاف، متعمداً لذلك - فعليه أن يتوب إلى الله جل ثناؤه من ذلك، ويقضي ما فاته من الصلوات^(٢) إن كان يعرف عددها، ومن الصيام أيضاً كذلك، وإن كان لا يعرف كم هو فليتحر الصواب^(٣) جهده ويزيد حتى يستغرق ذلك، ويقضي ما فاته من الصيام إن كان يعرف ذلك ويزيد حتى يستغرق ذلك، ثم نرجوا أن لا يضره نَقْصٌ أو زاد إذا لم يتعمد ذلك، ويقضي تلك الصلوات في أي أوقات النهار أو الليل شاء، فإذا حلت له أوقات صلوات يومه الذي هو فيه صلاحها في أوقاتها، ثم عاد فقضى ما عليه حتى يفرغ منها، لا يتشاغل بغيرها.

وإن كان ترك صلاة متعمداً فلم يقضها نسياناً جاء ذلك منه ثم ذكرها فليقضها وحدها أيضاً، وإن كان لها ذكراً فتركها متعمداً حتى مضت لها^(٤) أشهر أو سنون فليقضها وليتب مما صنع.

وقد قال بعض العلماء: يجزيه قضاؤها وحدها ويتوب من تأخيرها، وقال بعضهم: أسلم له قضاء ما بعدها من الصلوات؛ وذلك أنه لا صلاة لمن ضيع صلاة حتى يقضي ما ضيع.

وإن كان ترك صياماً من شهر رمضان كله حتى حضر رمضان آخر فعليه أن يصوم هذا الذي حضر، ويعتزم على صيام ما فاته، فيصوم بعد ذلك ويتوب مما ضيع.

(١) «كان» ساقطة من (أ).

(٢) في (أ): الصلاة.

(٣) في (أ): فليتحر الصلوات جهده.

(٤) كأنها في (أ): له.

وإن كان ضيع زكاة حتى أدركه الموت فليتب مما ضيَّع وليخرج ما عليه منها، فيؤديه إلى المساكين إن كان له مال، أو يوصي بذلك إن لم يمكنه الأداء؛ لأنها دين عليه لأهلها الذي ساهم الله جل ثناؤه، في أيِّ صنف منهم وضعت أجرت عنه، وإن لم يكن له مال ومات فلا شيء عليه بعد أن يتوب.

وإن كان ترك الحج وهو يقدر عليه حتى أدركه الموت فليتب إلى الله جل ثناؤه من تفريطه وليعزم على الحج، وليحج إن قدر عليه، وإن أوصى^(١) أن يحج عنه فقد قال بعض العلماء ذلك، وقال بعضهم: لا يحج أحد عن أحد كما لا يُصلى عن أحد ولا يصام عن أحد؛ لأن تلك حقوق الله جل ثناؤه أمر عباده أن يتولوها بأنفسهم، فإن لم يقدرُوا عليها عذرهم ولم يكلفهم غيرها.

وأما ما كان من حقوق الناس فيما بينهم في أبدانهم وأموالهم فعليهم أن يخرج بعضهم إلى بعض منها، ويعطى عنه إذا قدرُوا عليها.

وإن أوصى أن يحج عنه فحسن عندنا، وهو أحوط.

وعلى المرتدين عن الإسلام إذا أتوا^(٢) ما ذكرنا من الظلم للناس في أبدانهم وأموالهم ومن الذنوب^(٣) قبل ارتدادهم وفي ارتدادهم ثم أسلموا - أن يتوبوا إلى الله جل ثناؤه من ذلك كله ويؤدوا الحقوق إلى أهلها كما يفعل المقرون؛ لأن حكمهم في ذلك غير أحكام أهل الحرب؛ لأنه لا قصاص بين أهل الإسلام وأهل الحرب.

وعلى العبد مما وصفنا من هذه الذنوب التوبة النصوح، وقد جعل الله جل ثناؤه لهم إليها السبيل.

(١) في المطبوع: وإن لم أوصى.

(٢) في المخطوطات: تابوا. ولعل ما أثبتناه الصواب.

(٣) في المطبوع: الديون.

والتوبة النصوح هي الندم على ما كان من الذنوب وتركها، والاستغفار منها، وترك الإصرار عليها، والعزم على أن لا يعود أبداً إليها، فتلك التوبة المقبولة، يقبلها التواب الرحيم.

فرحم الله عبداً اتقى الله في نفسه، وتطهر بالتوبة قبل الموت والفوت، ولم تغره الحياة الدنيا، ولم يغره بالله الغرور.

وليبادر بالتوبة قبل أن يسألها فلا يجاب إليها، قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾ [النساء].

والتوبة قائمة مبذولة مقبولة من حيث يواقع العبد الذنب إلى قبل حضور أجله بطريقة عين أو أقل عندنا.

وحضور الموت هو معاينة ملك الموت والملائكة عليهم السلام، أو لسبب من أعلام..... (١) الذي شاهده العبد في تلك الحالات، ولا يعلمه أحد من البشر غيره، أو ذهاب عقله، فحينئذ لا تقبل توبته، ولا عند نزول العذاب إذا نزل بأهل المعاصي، ولا عند الحواجب من آيات الله المانعة من الرجوع إلى أحكام الدنيا، والله جل ثناؤه بهذا كله وأوقاته أعلم وأحكم، تبارك وتعالى. وعلى العبد أن يكون أبداً مستعداً تائباً.

نسأل الله أن يبارك لنا ولكم في الموت إذا نزل بنا، وفي العرض على ربنا جل ثناؤه، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ

(١) بياض في المخطوطات.

بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ [آل عمران].

تم الكتاب والحمد لله رب الأرباب، وصلواته على
المصطفى من خير نصاب، محمد النبي وآله الطاهرين
الأطياب، وحسبنا الله ونعم الوكيل (١)

(١) في (أ): وحسبنا الله وحده وكفى ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير.

أصول العدل والتوحيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اعلم يا أخي - علمك الله الخير والهدى، وجنبك جميع المكاره والردى - أن الله خلق جميع عباده العقلاء المكلفين لعبادته، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ① مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ②﴾ [الذاريات].

والعبادة تنقسم على ثلاثة أوجه ①: أولها: معرفة الله، والثاني: معرفة ما يرضيه وما يسخطه. والثالث ②: اتباع ما يرضيه واجتناب ما يسخطه. وهذه الوجوه الثلاثة فهي كمال العبادة، وجميع العبادات غير خارجة منها، فمعرفة الله عز وجل عبادة كاملة لمن ضاق عليه الوقت، وهي منفصلة ③ من العبادة الثانية لمن تراخت به الأيام إلى وصول التعب، وهو الأمر والنهي الذي فيه رضا المعبود وسخطه، ثم العمل بما يرضيه واجتناب ما يسخطه عبادة ثالثة منفصلة ④ من الوجهين الأولين لمن تراخى به الوقت إلى استماع كيفية العبادة على لسان الرسول الذي جاءت الشريعة على يديه. فهذه ثلاث عبادات من ثلاث حجج احتج بها المعبود على العباد، وهي: العقل، والكتاب، والرسول، فجاءت حجة العقل بمعرفة المعبود، وجاءت حجة الكتاب بمعرفة التعب، وجاء الرسول بمعرفة العبادة.

والعقل أصل الحجتين الآخريتين؛ لأنها عرفا به ولم يعرف بهما، فافهم ذلك. ثم الإجماع من بعد ذلك حجة رابعة مشتملة على جميع الحجج الثلاث

① في نخ: وجوه.

② في نخ: والوجه الثالث.

③ متصلة (نخ).

④ متصلة (نخ).

وعائدة إليها.

ثم اعلم أن لكل حجة من هذه الحجج أصلاً وفرعاً، والفرع مردود إلى أصله؛ لأن الأصول محكّمة على الفروع، فأصل المعقول ما أجمع عليه العقلاء ولم يختلفوا فيه، والفرع ما اختلفوا فيه ولم يجمعوا عليه.

وإنما وقع الاختلاف في ذلك لاختلاف النظر والتمييز فيما يوجب النظر والاستدلال بالدليل الحاضر المعلوم على المدلول عليه الغائب المجهول، فعلى قدر نظر الناظر واستدلّاله يكون دركه لحقيقة المنظور فيه والمستدل عليه، فكان الإجماع من العقلاء على ما أجمعوا عليه أصلاً وحجةً محكّمةً على الفرع الذي وقع الاختلاف فيه.

وأصل الكتاب فهو المحكم الذي لا اختلاف فيه، الذي لا يخرج تأويله مخالفاً لتنزيله، وفرعه المتشابه من ذلك فمردود إلى أصله الذي لا اختلاف فيه بين أهل التأويل.

وأصل السنة التي جاءت على لسان الرسول ﷺ ما وقع عليه الإجماع بين أهل القبلة، والفرع ما اختلفوا فيه عن الرسول، فكل ما وقع فيه الاختلاف من أخبار رسول الله ﷺ فهو مردود إلى أصل^(١) الكتاب والعقل والإجماع. وقد أنكرت الحشوية من أهل القبلة رد المتشابه إلى المحكم، وزعموا أن الكتاب لا يحكم بعضه على بعض، وأن كل آية منه ثابتة واجب حكمها بوجوب تنزيلها وتأويلها، ولذلك ما وقعوا في التشبيه وجادلوا عليه؛ لِمَا سمعوا من متشابه الكتاب، فلم يحكموا عليه الآيات التي جاءت بنفي التشبيه.

فاعلم ذلك، فإن هذه جملة في معرفة المعبود والتعبد والعبادة، ومعرفة الحجج

(١) «أصل» ساقطة من نخ.

التي بها وجب التعبد على جميع المكلفين.

ثم نعود إلى تفسير هذه الجملة وشرحها وتبيين عللها وما تكمل به المعارف من تقسيمها، فأول ما نذكره من ذلك معرفة الله عز وجل، وهي عقلية منقسمة على وجهين: هما إثبات ونفي، فالإثبات: هو اليقين بالله والإقرار به، والنفي: هو نفي التشبيه عنه تعالى، وهو التوحيد.

وهو ينقسم على ثلاثة أوجه:

أولها: الفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق، حتى تنفي عنه ما يليق بالمخلوقين في كل معنى من المعاني، صغيرها وكبيرها، وجليلها ودقيقها، حتى لا يخطر في قلبك في التشبيه خاطر شك ولا توهم ولا ارتياب، حتى توحده الله سبحانه باعتقادك وقولك وفعلك، فإن خطرت على قلبك في التشبيه خاطرة شك فلم تنف عن قلبك بالتوحيد خاطرها، وتُحِطُ باليقين البتّ والعلم المثبت حاضرها - فقد خرجت من التوحيد إلى الشرك، ومن اليقين إلى الشك؛ لأنه ليس بين التوحيد والشرك وبين اليقين والشك منزلة ثالثة. فمن خرج من التوحيد إلى الشرك مخرجه، ومن فارق اليقين ففي الشك موقعه.

والوجه الثاني: فهو الفرق بين الصفتين، حتى لا تصف القديم بصفة من صفات المحدثين.

والوجه الثالث: فهو الفرق بين الفعلين، حتى لا تشبّه فعل القديم بفعل المخلوقين، فمن شبّه بين الصفتين ومثّل بين الفعلين فقد جمع بين الذاتين، وخرج إلى الشك والشرك بالله، وبرئ من التوحيد والإيمان، وصار حكمه في ذلك حكم من أشرك، اعتقد ذلك أو امترى^(١) فشك، فهذه جملة التوحيد

(١) وامترى (نخ).

المضيقة التي لا يُعذر عن اعتقادها والنظر في معرفتها عند كمال الحجة أحد من العبيد، فمن مُكِّن بعد بلوغه وكمال عقله وقتاً يكمل فيه معرفة العدل ويمكنه فتعدى إلى الوقت الثاني وهو جاهل بهذه الجملة فقد خرج من حد النجاة، ووقع في بحور الهلكات، حتى يستأنف التوبة ويقلع عن الجهل والغفلة بالنظر في معرفة هذه الجملة التي لمعرفتها خلق الله الخلق، وهي [فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي الدين القيم التي تعبد الله كل مفطور بها، كما قال الله تبارك وتعالى] (١): ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم].

والدين القيم: فهو المستقيم الواصب الثابت الدائم المتصل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢]، يريد منصباً مُتَعَبِّاً، وهو التوحيد والخلصانية التي لا تزول عن قلوب المتعبددين العارفين بالله المخلصين بزوال سائر الشريعات (٢) التي تزول بزوال الاستطاعات، والعلل المانعات عن القيام بالفروض الشرعيات.

ثم اعلم أن هذه الجملة هي أصل التوحيد، فكل ما ورد من الشرح والكلام فهو مردود إلى هذا الأصل الذي أجمع عليه أهل القبلية، فما ورد عليك من فروع الكلام والشرح يؤيد لك أصول دينك اعتقدته، ودنت الله به، وما ورد عليك مما ينقض الأصل تركته واعتزلته، فإن بذلك صحَّت المقالة لأهل الفرقة الناجية.

فالواجب على الطالب لنجاته حراسة الأصول من النقض لها بالتفسير، حتى لا ينقضها بالتفسير طول عمره مضطرباً في عمارة التوحيد، برد الفرع إلى أصله،

(١) ما بين المعقوفين من نسخة.

(٢) الشرعيات (نخ).

حتى لا يضيف إلى معبوده شيئاً من صفات خلقه وعبيده في كل فعل منه وذات،
وفي كل صفة من الصفات، حتى تنزه القلوب والضمائر، وخواطر الأوهام
والسرائر، فإن دقيق ذلك كله كجليله، والكثير من ذلك كقليله، فافهمه وتدبره
تجده كذلك إن شاء الله.

تم بعون الله تعالى، وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى
آله وسلم تسليماً كثيراً

مسائل في التوحيد

ومن كلامه عليه السلام: [الأصول الخمسة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

روى علي بن عامر قال: قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

من لم يعلم من دين الإسلام خمسة من الأصول فهو ضالٌّ جهولٌّ: أولهن: أن الله سبحانه إله واحدٌ ليس كمثله شيء، بل هو خالق كل شيء، يدرك الأبصارَ ولا تدركه الأبصارُ وهو اللطيف الخبير.

والثاني من الأصول: أن الله سبحانه عدلٌ غير جائر، لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يعذبها إلا بذنبها، لم يمنع أحداً من طاعته، بل أمره بها، ولم يدخل أحداً في معصيته، بل نهاه عنها.

والثالث من الأصول: أن الله سبحانه صادق الوعد والوعد، يجزي بمثقال ذرة خيراً، ويجزي بمثقال ذرة شراً، من صيَّره إلى الثواب فهو فيه أبداً خالدٌ مخلدٌ، كخلود من صيَّره إلى العذاب الذي لا ينفد.

والرابع من الأصول: أن القرآن المجيد فصل محكم، وصراط مستقيم، لا خلاف فيه ولا اختلاف، وأن سنة رسول الله ﷺ ما كان لها ذكر في القرآن ومعنى.

والخامس من الأصول: أن القلب بالأموال في التجارات والمكاسب في وقت ما تعطل فيه الأحكام، وينتهب ما جعل الله للأرامل والأيتام والمكافيف والزَّمنى وسائر الضعفاء - ليس من الحل والإطلاق كمثله في وقت ولادة العدل والإحسان، والقائمين بحدود الرحمن.

فجميع هذه الأصول الخمسة لا يسع أحداً من المكلفين جهلها، بل تجب عليهم معرفتها والعمل بها.

تم كتاب الخمسة الأصول، والحمد لله كثيراً

ومن كلامه ﷺ [في ذكر أمهات فروض الله]

قال القاسم بن إبراهيم ﷺ:

سألتم يا ولدي - وفقكم الله للرشاد - عن أمهات فروض الله على من كُلفهن من العباد، وأحببتم أن تعلموا من جملهن أصولاً كافيةً من تفسير^(١) كلهن، بقول جزم مختصر، قريب المأخذ والمذكر، ليس فيه حيرة ولا تحاول، ولا تكثر منه الأقوال.

فأول - يا بني - فرض الله على خلقه ومقدمات أمهات فرضه: الإيقان لله بوحديته، والإقرار له بربوبيته؛ لأن من أقر الله بالربوبية عرف أنه الله عبدٌ، ومن أيقن له بوحديته علم أنه ليس له والد ولا ولد، وبرئ عنده من مكافأة الأنداد، وعز وجل ثناؤه عن مناوأة الأضداد، لا يكون من معه نذٌّ أو ضدٌّ ومن له في الأوهام والد أو ولد أحداً أبداً، ولا صمداً فرداً.

وكيف يكون عند من توهم ذلك فيه سبحانه واحداً وقد توهم معه أباً وابناً، أو نداً أو ضدّاً؟ ومن شبه الله بشيء من خلقه فقد خرج من المعرفة بالله وحقه، وجعل لله نداً مماثلاً، وكفياً ونظيراً معادلاً في كل ما يشبهه به فيه من أوصاف الخلق في معنى واحد أو في كل معنى؛ لأن في تشبيهه له سبحانه بمعنى واحد من الخلق إبطال الوحدانية ومفارقة الأزلية، ومن جورَّ الله في حكمه فقد أشرك به؛ إذ شبهه بالجائرين، وخرج بتجويره له في حكمه من توحيد الله رب العالمين، وكان بفريته على الله في ذلك عند الله من المشركين، حكمه حكمهم، واسمه اسمهم؛ لأنه أشرك بين الله وبين الجائرين في الجور، ومثله سبحانه بهم فيما مثل فيه بينه وبينهم من الأمور.

وكذلك كل تمثيل أو تشبيه قيل به فيما بين الله وبين خلقه فهو شرك بالله

(١) في (ب): في تفسير.

صريح، ومعنى شرك صاحبه به فمعنى شرك في اللسان صحيح؛ لأنه أشرك بين الله وغيره، قال به في ذات الله أو تجويره.

فكل من وصف الله بهيئات خلقه، أو شبهه بشيء من صفاتهم، أو توهمه صورة ما كان من الأصوار، أو جسمًا ما كان من الأجسام، أو شبحًا، أو أنه في مكان دون مكان، أو أن الأقطار تحويه، أو أن الحجب تستره، أو أن الأبصار تدركه من جميع خلائقه أو شيء منها، أو أن شيئاً من خلائقه يدرك شيئاً مما خلق وذراً وبراً أو مما كان أبد الأبد - فقد نفاه وكفر به وأشرك، وعبد غيره.

فافهموا وفقنا الله وكل مؤمن لإصابة الحق، وبلوغ الصدق، إنه قريب مجيب.

ومن كلامه عليه السلام:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من عجز إدراك الحواس بارتها ثبت له التوحيد، وباستحقاق التوحيد ثبت العدل؛ لأن المتفرد بالوحدانية لا يجوز؛ لوجود الجور فيمن ليس بواحد، ولما ثبت العدل وجب الوعد للمطيع والوعيد على العاصي^(١)، ولما صح الوعد والوعيد وجب التحايز بين المتظالمين، وهو بالرسول الأمر الناهي بما آتاه الله بعد استحقاقه للرسالة منه بالطاعة والاتصال به، فأظهر عليه علامة الاتصال بالمعجزات والدلالات؛ فرقاً بين المتصل والمنقطع عن الله؛ ليصح صدق خبر رسوله عنه، ولما لم يجز في العقل مشافهة الباري وخطابه^(٢) خلقه خاطبهم منهم بهم بجنسهم ومثلهم^(٣)؛ إذ ليس في فطرهم غير ذلك.

تم والحمد لله كثيراً

(١) في (ب): للعاصي. وكتب فوقها: على.

(٢) في (ب): في خطابه.

(٣) في (أ): خاطبهم منهم بمثلهم وجنسهم.

[ومن كلامه عليه السلام في تعداد أصول الدين]

قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام: أصول الدين ثمانية عشر أصلاً: أولها: التوحيد والعدل، وتصديق الوعد والوعد، والنبوة، والإمامة، والولاء والبراء، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة القرابة، وأن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، فجملة ذلك ثمانية عشر أصلاً.

ثم اعلم أن لكل أصل من ذلك حقيقة، فحقيقة التوحيد: نفي جميع صفات التشبيه عنه. وحقيقة العدل: نفي الفاقة. وحقيقة تصديق الوعد والوعد: الخلود. وحقيقة النبوة: المعجزات. وحقيقة الإمامة: الأربع الخصال: القرابة من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم، والعلم البار، والزهد، والشجاعة. وحقيقة الولاء والبراء: الحب في الله والبغض في الله.

وحقيقة الصلاة: المحافظة على أوقاتها، والمواظبة لها، والخمس من الطهارة وهي: طهارة القلب، وطهارة البدن، وطهارة اللباس، وطهارة الماء، وطهارة المصلى، والست الخصال أولها: الأذان، والافتتاح، والتكبير، والقراءة، والتسبيح، والتسليم.

وحقيقة الزكاة: أخذها من حقها وصرفها في أهلها. وحقيقة الصيام: اجتناب الرفث ومجالسة أهل البغي. وحقيقة الجهاد: بذل المال والمهجة، وأن لا يولي دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة. وحقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قول النبي صلّى الله عليه وآله وسلم: ((من غابت عليه شمس نهاره ولم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر فقد تبوأ مقعده من النار)).

وحقيقة بر الوالدين: قول الله عز وجل: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء]. وحقيقة صلة القرابة: التفقد لهم والاطلاع لأحوالهم، فمن كان منهم مؤمناً كان عليك أن تؤدي ما في رقبتك من حقه؛ لأن

حقه فرض عند الله، وذلك قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد]، ومن كان منهم عاصياً وَعَظَّتْهُ؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء].
وتحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لها، وهذا بحر عميق، غرق فيه بشر كثير.

تفسير العرش والكروي

صفة العرش والكرسي وتفسيرهما

سماع علي بن محمد بن عبد الله عن الحسن بن القاسم رضي الله عنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال علي بن محمد: حدثني الحسن بن القاسم، عن الحسين بن القاسم رضوان الله عليهم قال: سألت أبي رحمه الله وأرضاه عن تأويل ما ذكر الله سبحانه من كرسيه وعرشه، فقال: سألت يا بني فَهَمَّكَ الله فاعلم وافهم، وليكن أول ما تعلم فيما سألت عنه وتتفهم أن تخرج في ذلك كله من علمك وفهمك كل خاطرة خَطَرَتْ بقلبك أو وقعت في وهمك الله فيها بمعنى من معاني خلقه كلها تشبيه أو تمثيل، أو لشيء مما خلق الله وصنع كله بالله تسوية أو تعديل، كبير ذلك كصغيره، وقليله كله ككثيره.

فهذا يا بني هو الأصل في توحيد الله المقدم الأول، والقول الصادق على الله وفي الله الصحيح المتقبل، الذي لا يقول بغيره في الله ولا على الله إلا كل مفترٍ أَفَّاكَ، يلزمه في قوله بذلك على الله اسم الجهل بالله والإشراك، وفي توهم كل مُتَوَهَّمٍ لذلك على الله الخروج مما نزل الله في توحيده من كل تنزيل، نزله الله سبحانه في القرآن أو في التوراة أو في الزبور أو في الإنجيل.

وتأويل ما سألت يا بني عنه ومعناه فأبين بيان بحمد الله لمن فَهَمَهُ الله إياه، وإنما تلبس ذلك وأظلم على من لبس فيه على نفسه، فأسلمه الله تبارك وتعالى فيه صاغراً إلى حيرته ولُبْسِهِ، وسبيل فهمه وعلمه منير مضي، لا يجهله بمن الله من خلق الله زَكِيٍّ ولا رضي.

فمن ذلك وفيه ومن الدلائل عليه قول الله جل جلاله عن أن يحويه قولٌ أو يناله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، وقوله سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾

[البقرة: ٢٥٥]، نفى سبحانه عن نفسه قليل النوم من السنة نفيه للكثير؛ تبرئاً منه وتعالى عن مشابهة الأشياء كلها في معنى من معانيها كبير أو صغير. والحي: فهو الذي لا يغيره أبد ولا دهر، والقيوم: فهو الدائم الذي لا يلم به تبدل ولا تغير. وكذلك قال لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ [الإخلاص]، ثم قال في آخر السورة: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾، والصمد: فهو الذي ليس من ورائه مصمود ولا معمد^(١)، وليس بعده في جلال ولا كبرياء بعد، والأحد: فهو الواحد الذي ليس بشيئين اثنين، جزأين كانا أو غير جزأين، ولا يتوهم أبداً سبحانه بمعنيين متغايرين أحدهما في الجزئية غير الآخر، فيوصفان بالتباين والتغاير.

فلا يخلو كل واحد من الجزأين من أن يكون قادراً على حياله أو عاجزاً عن مبلغ قوة الجزء الآخر في قدرته ومثاله، فإن كان الجزء عاجزاً لم يكن رباً ولا قوياً، وإن كان قادراً قدرته كان له في الربوبية مساوياً، فكانا جميعاً ربين اثنين، وإلهين متساويين، وكان في ذلك الخروج من وصف الله بالوحدانية، ومما وصف به نفسه جل جلاله من التفرد بالربوبية، فلم يكن في قولهم^(٢) إلهاً واحداً، وعاد في وصفهم كثيراً عدداً.

ومن دلائل الهدى والحق في بُعد ربنا من مشابهة الخلق ما يقول الله سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [الحديد]، وكيف يكون لمن كان أولاً وآخرأ وظاهراً وباطناً من الأشياء شبيه أو نظير؟ أو يعتقد ذلك في من كان كذلك أبداً عقل صحيح أو ضمير؟!

وأول الأشياء أبداً غير آخرها، وباطن الأشياء أبداً فغير ظاهرها، فكفى بما

(١) في (أ): معتمد.

(٢) قوله ﷺ: «فلم يكن في قولهم»: أي أن الله تعالى بناء على مذهبهم ليس إلهاً واحداً. (من خط السيد العلامة المجهت محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

قال سبحانه في ذلك بياناً ودليلاً على أن لا يكون شيء من الأشياء كلها له شبهاً ولا مثيلاً.

وفيا من ذلك أبانه ما يقول سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ٢٢ ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٢٣ ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٢٤ [الحشر]، فدل سبحانه على نفسه بأنه هو، وأنه لا نظير له ولا كفو.

وكذلك قال من رسله كل من قد عرفه عندما سئل عنه فوصفه، أو دلَّ مَنْ جَهِلَهُ عليه ليعرفه، فقال إبراهيم عليه السلام خليله لمن كان من قومه يجهله، ولمن كان يلحد فيه ويمجده: يا قوم ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وقال صلى الله عليه وسلم عندما منَّ الله عليه به من معرفته وعلمه: ﴿قَالَ (١) أَقْرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ٢٥ ﴿أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ ٢٦ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٧ ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ٢٨ ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ٢٩ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ٣٠ ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ ٣١ ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ٣٢ [الشعراء].

وكذلك قال نوح من قبله صلى الله عليه وسلم على جميع رسله: يا قوم ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ٣٣ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ ٣٤ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ ٣٥ ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ ٣٦ ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ ٣٧ ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ ٣٨ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ ٣٩ ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ٤٠ [نوح]. ومثل

(١) «قال» لا توجد في (أ).

هذا قوله صلى الله عليه في تعريفه لله مَنْ جَهِلَهُ فكَثِيرٌ، في أقله والحمد لله لمن أيقن بالله هداية جليلة وتبصير.

وفي مثل (١) ذلك ما يقول موسى لفرعون إذ طغى وتعالى، إذ قال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ [طه]، فقال صلى الله عليه: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾. وكذلك قال ﷺ عندما دار بينه وبين فرعون في الله الكلام، إذ يقول فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ﴾ [الشعراء]، فقال لهم إذ قالوا مقالته وسألوه ﷺ مسألته: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، فقال فرعون لهم عند جواب موسى إياهم: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، فقال موسى لهم جميعاً: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فدلهم في ذلك كله على الله بصنعه وفعله ليس منهم من يدل على الله سبحانه بنعت ولا بحلية، ولا يصفه جل ثناؤه بصورة ولا هيئة، ولو كان كما قال الضالون العمون الذين لا يعقلون ولا يعلمون على ما ذكروا من صورة آدم لكانت الصورة من لحم ودم، ولو صفة العارفون به وسموه بالصورة والهيئة وحلَّوه.

وفي مثل ذلك من وصفه بصنعه وخلقه وصدق القول عليه فيه وحقه ما تقول رسل الله صلى الله عليها للأمم التي أرسلها الله إليها إذ شكُّوا في الله وتحيروا، ولم يبصروا من الله ما بُصِّروا: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فما دل الله جل ثناؤه على نفسه ولا دل عليه العارفون به بحلية ولا صورة، ولا بهيئة منعوتة ولا مذكورة، ولكن دل على نفسه ودلت رسله عليه بخلقه وفطرته، وبما يُرى في ذلك من أثر جلاله وكبريائه وقدرته.

(١) في (أ): ومثل ذلك.

فَمَنْ لَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ فِي الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ فَلَا كُفْيَ، وَمَنْ لَمْ يَشْتَفِ بَبَيَانِ اللَّهِ فِيهِ فَلَا سُفْيَ، فَفِيمَا بَيْنَ اللَّهِ مِنْ آيَاتِهِ فِي ذَلِكَ مَا يَقُولُ سُبْحَانَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِذْ قَالُوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة].
فنسأل الله أن ينفعنا ببيانه، وبما نزل من فرقانه.

ومن البيان في ذلك والنور قولُ داود عليه السلام في الزبور: (سبحان الله القدوس الأعلى، ورتلوا أسماء الحسنى العلى، مُصطفى إسرائيل، الفعال لما يريد من الأشياء في البحار والأرض والسماء، الذي أنشأ برحمته السحاب، وجعل البرق والرياح الهواب، وغرق فرعون وجنوده في البحر، وأظهر ما أظهر من عجيب آياته بأرض مصر، وقتل ملوك الجبابرة ملك الموراسر وملك نيسان، وكل من كان من عتاة ملوك بني كنعان، وأعطى إسرائيل أرضهم عطية، ووهبها لهم هبة هنية).

وما في نفي التشبيه عن الله بخلقه في الإنجيل فكثير بحمد الله غير قليل، ولولا كراهتنا^(١) للتكثير في الكتاب والتطويل لذكرنا - إن شاء الله - بعض ما فُسِّر في ذلك من الأقاويل.

ثم قوله سُبْحَانَهُ فيما فسر المفسرون من التوراة الذي لا كقول، والذي هو أصدق الصدق وأفضل الفصول، إذ قال لموسى صلى الله عليه إذ ناجاه في مصيره إليه: (ياموسى إني أنا الله)، مرتين اثنتين، زيادة من الله له في التعريف والتبيين، (إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب)؛ تعريفاً له من وحدانيته وإلهيته بما ليس في شيء منه شركٌ لمربوب.

فهل تسمع لله سُبْحَانَهُ أو لأحد من رسله من قول في وصف لله تعالى بَعَرَضَ

(١) في (أ): كراهيتنا.

أو طُول؟ بل وصف نفسه جل ثناؤه ووصفه رسله وأنبيأؤه بالوحدانية والقدرة والجلال، لا بحسن في صورة ولا هيئة ولا حلية ولا جمال.

والصورة يا بني فلا تكون أبداً إلا من صانع مُصوّر، وما في الصورة من أثر التقدير والتدبير فلا يكون إلا من مُدبّر مقدّر، فسبحان البارئ المصور الذي ليس بِمَبْرُؤٍ ولا مصوّر، والمقدّر المدبّر الذي ليس بمقدّر ولا مدبّر، وتعالى الله رب العالمين وأكرم الأكرمين عن أن يوصف بصور الآدميين أو بمشابهة شيء من المخلوقين، وكيف يكون الخالق في شيء كخلقه، والمخلوق في شيء ما كان كخالقه؟ فهذا يا بني ما لا يصح في الألباب على إله الآلهة ورب الأرباب.

فهل تعرّف الله قط تبارك وتعالى إلى أحد من خلقه بحلية من الخلق، كلا لن يوجد ذلك من الله أبداً، ولن يعرف الله من عرفه إلا أحداً واحداً، غير ذي نواحٍ وأطراف، ولا مختلف في الأوصاف، بل تدل أوصافه كلها على واحد أحد، غير معروف بصورة ولا حلية ولا عدد، ليس له ندّ يساويه، ولا ضدّ يناويه، يُستدلّ عليه تبارك وتعالى وعلى جلاله بدلائل لا يحصيها غيره من صنعه وفعاله، فهل يعمى ويصم عما يُرى^(١) إلا من لا يسمع بقلب ولا يرى، فنحمد الله على ما منّ به في ذلك من الهدى، وعلى ما بَصَّرَ برحمته في ذلك من ضلال أهل الهلكة والردى.

وبعدُ فافهم -نفعني الله ونفعك بما أسمعني من البيان وأسمعك- مسألتك عن تأويل ما ذكر الله من كرسيه وعرشه، فما تأويل ذلك عند من يؤمن بالله إلا كتأويل قبضته وبطشه، وما ذلك كله وفرع ذلك وأصله إلا ملكه واقتهاره، وسلطانه واقتداره، الذي لا شرك لأحد معه فيه، ولا ملك ولا سلطان لسواه عليه.

(١) في (أ): ترى.

ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وتأويل يؤده فهو يثقله، فهو لا يثقله حفظ ما هو من السماوات والأرض مالك له.

وكذلك تأويل: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [١٦] إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ [البروج]، و﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ [الدخان: ١٦]، وليس يتوهم في كبرها طول ولا عرض في ذرعها ولا قدرها، ولا يتوهم أن القبضة والبطش من الله على ما يعرف من الآدميين ببنان ولا كف، وكذلك لا يتوهم أن الكرسي والعرش ذو قوائم ووسط وطرف، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]، تأويل ذلك: وكان ملكه على الماء، كما كان عرشه الذي هو ملكه بعد خلقه للسماء على السماء.

وكذلك ذكر أن كرسيه قد وسع السماوات والأرض كلها، ولم يذكر أنه جعل الكرسي موضعاً لها، بل ذكر أنها كلها فيه، ولم يذكر أنه هو (١) فيها، فكان ذلك من الدلالة على أن الحفظ والملك هو الكرسي بعينه، لا ما يتوهم من عمي عن تنزيل الله في ذلك وتبيينه، وإنما ذكر الله الكرسي والعرش دلالة للعباد بذكرهما على ما ذكرنا إن شاء الله من أمرهما.

وإنما فهم الله جل ثناؤه عباده، وأبان لهم في كثير مما نزل الله من آياته رشاده، بما ضرب لهم في ذلك من الأمثال، وذكر برحمته من شبيه ومثال، وأمثال الأشياء ومثلها وفروع الأشياء وأصولها فليست بالأشياء أنفسها، ولا بأعيان ما مثل بها، ولكنها أشباه ونظائر يستدل عليها من فكر بعون الله فيها.

وفيا ذكر الله سبحانه من ضربه للأمثال، وما فيها للمؤمنين من الهدى والاستدلال ما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً

(١) «هو» ساقطة من (أ).

فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٣٨﴾ [البقرة]، ولا يهتدي لذلك إلا من اتقاه كما قال تبارك وتعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة].

فليس يرتاب والحمد لله في الكتاب أحدٌ من أهل التقى والألباب، فالحمد لله رب العالمين كثيراً على ما نور لأهل التقى بكتابه من الهدى تنويراً. وفيما ضرب سبحانه للناس من الأمثال فيما نزل سبحانه من القرآن ما يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزمر]، ويقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [العنكبوت]. وكذلك فقد يجوز الفكر في الكرسي والعرش، وما ذكره الله له من القبضة والبطش، فينفى عنه جل جلاله في قليل ذلك وكثيره مشابهة كبير خلقه وصغيره، كما ينفى عنه فيما ذكر من صفاته لنفسه مشابهة جن الخلق وإنسه، كما قال سبحانه: ﴿خَيْرٌ بِصِيرٍ ﴿٧٧﴾﴾ [الشورى]، ولا يمثل في ذلك من خلقه بالمختبرين المبصرين، وقيل: كبير وقدير، ولا يشبهه بكبير الأشياء في الطول والعرض ولا بالمقتدرين، وكما قال سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة]، وقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ولا يشبهه في العِظَمِ بِعِظَمِ جثته ولا جسم، ولا يمثل في الرحمة أرحم الراحمين بمن كان رحيماً من الآدميين، ومتى توهم ذلك متوهم أو اعتقده في الله فهو صاغراً^(١) من المنكرين لله.

وكذلك صفات الله^(٢) وأسماءه كلها الحسنى، فتعالى فيها كلها عن شبه الخلق في كل معنى.

(١) في (أ): صاغر.

(٢) في (أ): وكذلك صفاته وأسماءه.

وكذلك قبضته وبطشه وكرسيه وعرشه، فلا يتوهم عرشه وكرسيه ذا قوائم وأركان، ولا يتوهم قبضته وبطشه بكف ذات بنان، ومتى ما توهم ذلك متوهم أو اعتقده في الله فهو مشرك لا شك بالله، وبريء من توحيد الله ومعرفته؛ إذ أشرك غيره في صفته.

وتأويل الكرسي والعرش لرب العالمين فغير تأويليهما^(١) في الآدميين؛ لأن تأويلهما في بني آدم، وفيما يحاط به لهم فيهما من العلم - إنما هو مقعد الملك، وآلة من آلات الملك، تحمل للملك أو يوضع له دعائم ثماني أو أربع^(٢)، والكرسي والعرش لله فإنما هما ملك الله وسلطانه، وتمكّن الله من الأشياء واستمكانه، وقدرة الله سبحانه وملكه منها لما لم يكن كقدرته وملكه لما قد كان، وذلك فما لا يصف به من قال صدقاً إلا الله الرحمن. وكل من اعتقد التشبيه لله بشيء في وهمه فقد برئ من الإيمان بالله وحكمه، وزال عنه اسم التوحيد، وكان منه أبعد بعيد، لا تحل له ذبيحة ولا موالاة ولا مناكحة.

وفي العرش وما ذكرنا من أمره، وما قلنا به فيه من التأويل عند ذكره، وأنه هو القدرة لله والملك الذي ليس فيه لغير الله شرك - ما يقول الله لا شريك له: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون]، ويقول سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة]، وتأويل - إن شاء الله - ذلك الصحيح المستقيم؛ إذ هو العرش العظيم الكريم، فإنما هو كرم ملك الله وعظمته، لا طول العرش ولا عرضه ولا ضخّمه، وما في عظمه - لو كان كما قالوا - وطوله^(٣) وعرضه ما يكون به وإن عظم واتسع أعظم ولا أوسع من

(١) في (أ): تأويلهما.

(٢) في (أ): وأربع.

(٣) في (أ): أو طوله.

سما الله وأرضه، ولو كان ذلك كما قالوا كذلك لكان عظمه في الإكبار والإجلال دون عظم السماء والأرض والجبال.

وإني لأحسب -والله أعلم- أن الهدهد حين أنبأ بعظم عرش ملكة سبأ ما أراد بالعرش وذكره إلا عظم ملكها وكبر قدره، ألا تسمع قوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا يَاقِينٍ﴾ (٣٣) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (سبأ)، فذكر ملكها لهم وما أوتيت، وهو ما أعطيت من كل شيء، ثم قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا إن كان إياه أراد كما قلنا فهو الإكبار لها والتعظيم، وإلا فما في عظم عرشها أو سريرها من التعظيم لها أو لأمرها ومن (١) الكبر لقدرها.

وقوله سبحانه: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر] فتأويله: ذو الملك، لا يتوهم أن ذلك كرسي منصوب، لقوائمه في جوانبه ثقبوب. ومثل ما ذكرنا في العرش من التمثيل للعباد بما يعرفون، لا على ما يعلمون من خواص أحوالهم ويوقنون مما جل تبارك وتعالى عن مماثلتهم فيه، أو أن يقع شيء من حقائق صفاتهم به عليه ما يقول سبحانه: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِّقِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، وذلك فمقام الحكم في يوم القيامة والبعث وموقف الجزاء من الله والقضاء بدائم السخطة منه والارتضاء.

وفي ذلك أيضاً ومثله من موقف حكمه وفصله ما يقول سبحانه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (المعارج)، وذلك فيوم العرض للعباد على المليك العلي، الذي علا وتقديس عن مشاركة كل شريك، يمثل ذلك سبحانه لهم بما قد رأوا وعرفوا وأبصروا من ملوك الدنيا إذا عرضوا فحكموا وقضوا كيف تنصب لهم يوم

(١) في (أ): أو من الكبر.

ذلك عروشهم وكراسيهم للقضاء في أهل مملكتهم ومن تحت أيديهم.
وكل ما أمكن في العرش والكرسي من التمثيل فقد يمكن -والحمد لله- في
حملة العرش مثله من التأويل^(١)، وكذلك فقد يكون ذكر الله العرش^(٢) وحملة
من التمثيل في موقف الحكم والقضاء والتفصيل على ما قد رأوا من ملوك الدنيا
في الدنيا وعرفوا، لا على ما قال الجاهلون بالله ووصفوا. وكما جاز ذكر العرش
للقضاء والفصل فقد يجوز مثله فيما ذكر للعرش من الحمل، ولا تقبل العقول أن
الله محمول كما يُعرف من حمل شيء على سرير أو عرش أو كرسي! ومن قال
بذلك أو اعتقده فهو بالله من الجاهلين، وعن المعرفة لله من الضالين.

وكيف يُتوهم من رفع -تبارك وتعالى- السماوات بغير عمد، وأمسكها
وأقامها في الأهوية بغير علق ولا سند، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾
[فاطر]، وقال تبارك وتعالى: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرعد]، ثم قال جل
ثناؤه: ﴿تَرَوْنَهَا﴾، يعني سبحانه: تعينونها وتبصرونها غير معمودة من تحتها
بعمد، ولو كانت كذلك لرأى ذلك من أهل الأرض كل أحد، فكيف يكون من
حملها سبحانه محمولاً، أو يكون ذلك عليه في القول مقبولاً؟

وما^(٣) ذكر سبحانه من العرش والكرسي وبُعده في ذكرهما من مشابهة كل
شيء إلا كما ذكر سبحانه من إمساكه وإقامته لما ذكر من أرضه وسماواته، لا
يتوهم إمساكه لذلك بينان ولا كف قابضة، تقدس في ذلك عن كل صفة محدثة
عارضة. ولئن لم يتأولوا العرش لرب العالمين إلا على ما رأوا من عروش
الآدميين ما لهم أن يتأولوا رفع السماوات والأرض إلا على مثال ما يعرفون من

(١) في (أ): في التأويل.

(٢) في (أ): العرش.

(٣) هكذا في (أ)، وفي (ب): وما ذكر.

الآدميين ويتوهمون.

وكذلك يلزمهم أن يتوهموا صنع الله جل ثناؤه لِمَا صنع كصنع مَنْ خَلَقَ الله من الآدميين وابتدع، فيشبهون الله تعالى بالخلق، ويقولون عليه بغير الصدق، فَيَبِينُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَمْرَهُمْ، ويظهر بالله كفرهم، ولا يخفى شركهم ولا يستتر، ولا يتوارى عند من عرف الله ولا يستسر، فنستجير بالله من العمى والضلالة، ومن الحيرة عن الله والجهالة.

وما الذي ذكر الله سبحانه في التمثيل من عرشه وحمله إلا كما ذكر الله من حبله، إذ يقول تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، و﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ الْتَّائِسِ﴾، فهل يُتوهم ذلك حبل مسد، أو حبلًا من سواه يحصد^(١).

ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فهل يتوهم أو يرى أن ذلك عروة من العرى التي تكون من شعر أو ليف أو لحاء من شجر، قد أُمِرَ^(٢) ذلك وعقد بها يعرف له من المِرَّة والعقد؟ فلا يتوهم ذلك -والحمد لله- ولا يراه أحدٌ من خلق الله رأيناه ولا علمناه.

وما ما ذكر الله من العرش والكرسي وحَمَّالَه إلا مثلُ ضربه الله من أمثاله، فرحم الله عبداً فَهَمَّ عن الله وَحَقَّه، فنفى عنه شِبْهَ جميع خلقه. ولئن لزم الكرسي والعرش أن يكونا كالكراسي والأسرة المنصوبة ليلزمَنَّ مثل ذلك في تأويل رفيع الدرجات، فتكون الدرجات عتبة بعد عتبة، وذلك فما لا يتوهمه صحيح سوي، ولا ضعيف في العلم ولا قوي، وما ما يسمع من هذا ومثله إلا أمثلة مضروبة، فهي والله المستعان في قلوب الجاهلين بالله محرفة مقلوبة، فهم فيها والحمد لله لا

(١) في (أ): محصد.

(٢) أمرت الحبل والخيوط: فتلتها فتلاً شديداً. (مصباح).

يعقلون ولا يعلمون، كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَظَرٍ لِّلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت].

وفي ذكر التمثيل والأمثال ما يقول الله ذو العزة والتعال: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، فذكر الإتيان وليس يتوهم إتيان الله إتيان مجي، ولا يتوهم ما ذكر من البنيان أنه بنيان مبني، ولا يتوهم السقف الذي ذكره الله سقفاً مرفوعاً، ولا قواعد بنيانهم التي هي أساسه أساساً موضوعاً من حجر، ولا طين ولا مدر، ولكنه مثل وتمثيل صادق، مثله العزيز الخالق، الذي أصدق الأقوال أقواله، وأصح الأمثال أمثاله. وكذلك فقد يمكن ما قلنا وفسرنا في الكرسي والعرش على ما مثلنا وذكرنا.

ولفي التمثيل لهم بما يعرفون من الأمثال ما يقول في كتابه ذو الكبرياء والجلال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، فلا يتوهم ختم بخاتم ولا طين، ولا يتأوله كذلك من يفرق بين كسٍ وتبيين.

ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥] ولا يتوهم أحد وإن جهل وجفا الأكنة أغطية وغُلفاً.

وكذلك قوله جل جلاله: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]، فهل يتوهم الجناح في ذلك كله كجناح طائر إلا كل أحق من السامعين عم حائر. وما في هذا ومثله من الأمثال فيكثر عن أن نذكره في مقال، فنعوذ بالله من العمى والخيبة، ونستمتع به وبهبة^(١) من الهدى والبصيرة، فإننا في دهر عم تمكن فيه الجهلة العمون، فقالوا على الله تبارك وتعالى بما لا يعلمون، وخرجوا بمقاتلتهم في الله

(١) في (أ): وهب.

من حقيقة توحيد الله وهم لا يشعرون.

فإن قال قائل: فما وجه التسمية في الحمل للعرش لعدة ﴿ثَمَانِيَةً﴾، وما تأويل ﴿فَوْقَهُمْ﴾؟

قيل: أما فوقهم فهو أعلى الحُـمَّال ورؤوسهم، وأما ثمانية فإني أحسب -والله أعلم- أن أكرم ما كان يَعْرِفُ الأولون عندهم من العروش والكراسي التي كانت تتخذ فيما خلا للملوك الأمام في الزمان الماضي ما كان من العروش ذا ثماني قوائم، في كل ركن منه قائمتان، فتلك قوائم حِـنْثِ ثمان، قائمتان في كل طرف من الطرفين، وقائمتان في كل جانب من الجانبين.

ولما كان عند الأولين حمل ثمانية حُـمَّال عرش كل ملك ذي قدرة في المملكة والجلال أكبر في التعظيم والإجلال عند الحُـمَّال وعند غيرهم من أهل المملكة، ومن وصل إليه ذلك من الجبابة المتملكة أن يكون عرش الملك محمولاً على الرؤوس، وكان ذلك أجلاً للملك في النفوس - كانت كل قائمة من قوائم عرش الملك إذا حُمِلَ العرش محمولة على رأس حامل واحد، فتلك يا بني -هداني الله وإياك- حِـنْثِ ثمانية سواء في العدد، فهذا -والله أعلم- عندي وجه التسمية لما سمي في الحمل للعرش من الثمانية.

وإنما ضرب الله للعباد الأمثال بما يعرفون من الأشياء على قدر ما قد رأوا منها في الدنيا التي لم يروا قط شيئاً إلا فيها، ففهمهم الأمثال بها وعليها، وبالله لا شريك له نستعين على ما أبان ويين من قصص آياته وأحاديثها، وقديم دلائله وحديثها.

ومن ذلك يا بني الأمثال التي مثَّلها وفصَّلها تبارك وتعالى في كتابه ونزَّلها ما يقول سبحانه: ﴿والتَّقَاتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ ۝٢٥﴾ [القيامة]، ولا يتوهم الساق ساق رجلٍ أحدٌ من له أدنى عقل.

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدثر]، ولا يتوهم أحد ذلك

كالناقور المنقور.

وكذلك قوله جل ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩]، ولا يتوهم ذلك بوقاً ولا قرناً من القرون إلا كل مختبل من الناس مجنون.

ومثل ذلك قوله: ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ﴾ [التوبة: ١٠٩]، ولا يتوهمه جرفاً من الجرفة إلا من لم يبهه الله في ذلك شيئاً من الهدى والمعرفة، وإنما الجرف من الأرض المعروف جانب الوادي أو ما كان من الأرض له حروف^(١).

ومثل^(٢) ذلك من الأمثال ما تقول قريش للرسول^(٣) ﷺ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، ولا تتوهم الأكنة أغطية ولا لبساً، ولا يتوهم الوقر صمماً، ولا ما ذكره الله من بكم الكفار خرساً، إذ يقول سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمًى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، ولا يتوهم الحجاب ستراً مضروباً، ولا بنياناً من الأبنية منصوباً.

وفيماء ضرب الله من الأمثال ما يقول سبحانه: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ١٧]، ولا يتوهم ذلك أقفالاً من حديد إلا كلُّ أحرَقَ أحمق بليد.

وما في هذا من الأمثال والبيان فيما جعل الله للعرب من اللسان فيكثر عن الاستقصاء، والتعديد له والاحصاء، لا يلتبس^(٤) -والله محمود- على من يعقل وإن لبس وغطى، ولا يخفى مخرجه وبيانه إلا على من ضلَّ وعمي، فنعوذ بالله من العمى والضلال عما ضرب الله برحمته لنا من الأمثال. فكم من جاهل حائر قد عمي يرى أنه في جهله قد هُدي، أو سامري يقول لا مساس لا يعرف البيان

(١) في (أ): حرف.

(٢) في (ب): وفي مثل.

(٣) في (أ): للنبي.

(٤) في (أ): لا تلبس.

ولا الالتباس، كالبهائم الغافلة المهملة التي لا تفرق بين هادية من الأمور ولا مضلة، فهم كما قال الله سبحانه لقوم يعقلون: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف].

قلت: فما تأويل: ﴿حَاقِبِينَ﴾؟

فقال: ما حاقفون في التأويل إلا كالكرسي والعرش وحملته في التمثيل، والملائكة يا بني فحاقفون يومئذ بمقام الحكم والتفصيل، كما قد عرف أهل الدنيا أن الملك منهم إذا حكم وقضى أحف بعرشه الذي هو الكرسي يوم يحكم ويقضي من يختار من أهل مملكته ويرتضي، فمثل سبحانه لهم مقام حكمه وفصله بما قد عرفوا في الدنيا من مثله، وليس يتوهم من يعقل العرش والكرسي سريراً محمولاً، ولا منبراً منصوباً معمولاً.

ومثل ذلك مما يعرف الناس من الأمثال في أمورهم قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام]، فذكر سبحانه ما ذكر في هذا الذكر من الأوزار والحمل، ولا يتوهم ذلك من له أدنى عقل حملاً كحمل الأحمال على ما يعرف (١) من ظهور الجمال؛ ولا كعبو محمول، ولا كور منقول، وإنما هو مثل من الأمثال معقول، تعرفه الأبواب والعقول، وقد علم الناس أن كل عبء أو وزر (٢) إنما يحمل على عنق أو ظهر.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، ولا يتوهم السرادق كما يعرف في الدنيا من السراقات ذوات الأوتاد والأطناب والرواقات إلا جاهل عمي أحق بهيمي.

وكذلك لا يتوهم قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، فلا يتوهم أحد له لب أن ما ذكر الله من ذلك

(١) «على ما يعرف» ساقطة من (أ).

(٢) في (ب): ووزر.

منهم وفيهم على أن الله يدا ذات بنان مصافحةً للمبايع رسوله (١) ﷺ.

ولا يتوهم قوله سبحانه: ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾ [المنافقون: ٤] على ما يعرف من المقاتلة التي تكون بين المقتتلين عند المواثبة والمصاولة.

ولا يتوهم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]، ولا قوله: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾، ولا ما جرى في الشراء والبيع من هذا ومثله على ما يعرف بين المتبايعين والمشتريين والبائعين من معاني المبايعة والشراء والمساومة، وكيف يكون ذلك وما اشترى سبحانه منهم من أنفسهم وأموالهم فهو له تبارك وتعالى لا لهم؟ فهل يعرف أن مشرياً يشتري ما هو له إلا الله بكرمه جل جلاله؟

وكذلك لا يتوهم قوله سبحانه لنوح صلى الله عليه: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] ولا قوله: ﴿خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِ أَيْدِينَا﴾ [يس: ٧١] على أن الله تبارك وتعالى أعيناً ولا أيدياً كثيرة، ولا كما تعرف الأعين كبيرة ولا صغيرة، وأيادي ذوي الأيدي كلهم من الآدميين طويلة أو قصيرة، ولا يعرف الناس الأعين والأيدي إلا ما كان كثيراً، ولا أن شيئاً من الأيدي يكون أبداً إلا طويلاً أو قصيراً، ولا يعرف الناس أجمعون فيما رأوا ولا فيما يصفون أن شيئاً من ذلك يكون أبداً إلا كذلك، ولكنها أمثال مثلها تبارك وتعالى لعباده بما يعرفون، ليس في شيء منها تشبيه الله بما يقول الجهلة بالله ويصفون.

والإحفاف يا بني فهو الإحاطة، والإحاطة فهي الإحداق والإدارة، وفي إحاطة الله بالأشياء كلها من أواخر الأشياء وأوائلها ما يقول سبحانه: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ﴾ [فصلت]، ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج]، والمحيط من الأشياء بما يحيط به فهو المحِفُّ المحدق بجميعه، المدير بكل ناحية

(١) في (أ): رسول الله.

من نواحيه من جوانبه كلها ومن خلفه ومن بين يديه، ولا يتوهم إحاطة الله تعالى ذكره بالأشياء كذلك، والعرش والكرسي وحمله والإحفاف به فمثل ذلك، لا يتوهم كما يعاين ويرى من أمور أهل هذه الدنيا، وإنما إحاطة الله بالأشياء قدرته عليها، وسلطانه جل ثناؤه فيها، لا يتوهم ذلك من الله العزيز الخلاق كما تعرف به الأشياء من الإحفاف والإحداق الذي يكون من الأشياء ويرى من أهل هذه الدنيا، تقدس الله وتعالى عن أن يكون شيء له مثلاً.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء]، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر]، فلا يتوهم في ذلك كلامه من قرّر في قلبه توحيدَه وإعظامَه ككلام الإنسان بشفتين ولسان، ولا يتوهم تجلّيه للجبل كتجلّي ما نرى من تجلّي أهل هذه الدنيا إلا من لم يكن به تباركت أسماؤه وتعالى عارفاً، ولا له بما وصف به نفسه من الوجدانية واصفاً، ولا يتوهم مجيئه غائب ولا كمجيء ماشٍ ولا راكب إلا من لم يكن به مؤمناً، ولا بوحدانيته ولا بربوبيته موقناً.

وكذلك فينبغي لمن علم أو جهل أن يتوهم الكرسي والعرش والإحفاف والحمل على خلاف ما يعرف من الأشياء كلها؛ لفرق ما بين الأشياء وجاعلها في كل صفة ومعنى من معانيها، وكل ما يعرفه عارف فيها، وبذلك والله محمودٌ بأن توحيدَه، ووجب على العباد تمجيده، ومن التبس عليه ذلك التبس عليه التوحيد، ولم يصح منه الله جل جلاله تمجيد، وكان بالله سبحانه جاهلاً، وفي ادعائه لتوحيد الله مبطلاً.

ومما ضرب الله سبحانه في كتابه من الأمثال قوله سبحانه: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولا يعرف أحد الحفرة إلا محفورة منقورة، وقد جاز في ذلك ما نزل الله سبحانه من المثل، وقد يجوز مثل ذلك في الكرسي والعرش والإحفاف والحمل، لا يأبى ذلك -إن شاء الله- ولا يجهل من يعرف

لسان العرب ولا من يعقله، وقد يدعى من الحفرة شفا وما كان منها ولها جرفاً، وعليها من فمها مشرفاً، فهل كان من المؤمنين الأتقياء البررة أحدٌ على فم ما ذكرنا من هذه الحفرة؟

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٧]، فلا يتوهم -والحمد لله- شيئاً من ذلك كله عقداً ولا ربطاً مربوطة ولا معقودة، مقصرة ولا ممدودة، ولا يتوهم منها ربطاً واحداً -إلا مَنْ لم يهبه الله في ذلك هداية ولا رشداً.

وما من هذا في القرآن وفيما للعرب من اللسان فيكثر عن أن نذكره كله، والحمد لله لا شريك له، ولولا كراحتنا للتكثير والتطويل لذكرنا بعض ما قالت العرب في ذلك من الأقاويل، وسنذكر إن شاء الله بعض ما نزل الله سبحانه في ذلك تنزيلاً، وبعض ما قالت العرب في الجاهلية والإسلام تمثيلاً.

فمن أمثال الله سبحانه في ذلك البينة النيرة، وأقواله جل ثناؤه المقوية فيه للعلم والبصيرة، قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩]، وليس يتوهم الظلمات ليلاً أسود ولا مثله إلا من لا عقل له، ولا يتوهم ما ذكر الله من النور شمساً ولا قمراً إلا من لم يجعل الله له لباً ولا فكراً.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ولا يتوهم الروح كأرواح البشر إلا من لم يعمر الله قلبه بضياء ولا بصر.

ومما ضرب الله من الأمثال، وما يفهم بها وفيها من المقال، قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ﴾، فدعا تبارك وتعالى ذلك كله حرثاً وسماءه، ولم يرد بذلك سبحانه الحرث الذي نعرفه نحن ونراه من حرث الأرض

الذي لا يكون حرثاً عند من لا يعقل سواه، وقد عرفنا بمن الله ما أراد بذلك وعنى.

وكذلك الكرسي والعرش والحمل فقد علمنا أنه ليس يشبهه بما يفنى، وأن لله في ذلك كله الأسماء الحسنى، والمباينة للخلق من المشابهة له في كل معنى. ومن الأمثال أيضاً التي لا تخفى إلا على من جهل من الناس وجفا قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وإنما معنى الميزان: معنى القضاء^(١) والفصل، وما حكم به بين عباده من العدل.

ومثل ذلك ما يقول أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء]، ولا يتوهم الموازين ذوات كُف، ولا الوزن وزناً بالأيدي والأكف - إلا كل بائر عم جائر، وكل ما ذكر الله من ذلك فبيّن^(٢) والحمد لله معروف، لا يعنى عنه ولا يعسف العلم فيه إلا عسوف^(٣). ومن الأمثال التي لم تزل تمثلها العرب حديثاً وقديماً، لا يجهل ما تريد بها إلا من كان من معرفة لسانها عديماً - قول زهير بن أبي سلمى في الجاهلية الجهلاء: ما عضني الدهر إلا زادني كرماً^(٤)

ولا يتوهم العض إلا لما كان فماً، وقالت الخنساء: تعرّفتني الدهر نهشاً وحزاً وأوجعني الدهر قرعاً وغمزاً

(١) في (أ، ب): للقضاء.

(٢) سقط من (أ): فين.

(٣) العسوف: الظلوم. (صاح).

(٤) تمام البيت: ولا استكنت له إن خان أو خدعا. والبيت لأبي جلدة الشكري عن قصيدة يمدح بها مسمع بن مالك بن مسمع كما في الأغاني والتذكرة الحمدونية.

ولم ترد خنساء أنه ينهش بفم ولا ناب، ولا يتوهم ذلك أحدٌ من الحمقى
فضلاً عن ذوي الألباب، ولا يتوهم الحز ولا الغمز بكف ذات أصابع، ولا
القرع بقرع من مقارع.

وقالت هند ابنة عتبة ترثي أباها:
وكان لنا جبلاً رأسياً مِيلَ المَرَاةِ (١) كَثِيرَ العُشْبِ
وقال بعض الشعراء بعد الإسلام:

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيبان
جبل تلوذ به نزار كلهما صعب الذرى متمنع الأركان (٢)

وقد علم أنه ليس أحد من الرجال بحبل مما يعرف من الجبال، ولما جعلوه
جبلاً وصفوه بما يمكن من صفة الجبل في العشب والمرعى، وتمتّع الأركان
وصعوبة الذرى، وجاز ذلك كله عندهم في المثل، وكذلك فقد يمكن مثل ذلك
في العرش وما ذكر من الحَمَلَةِ له والحمل.

وفي ضرب الأمثال وما يجوز منها في المقال ما يقول امرؤ القيس بن حجر:
أُميمة إن الدهر في وثباته أصاب جيداً نابؤه ومخالبه
وليس أحد عقل أو لم يعقل من الناس يتوهم أن الدهر ذو مخالب ولا أنياب
ولا أضراس. وقال ابن ميادة:

فإن يك ظني صادقي وهو صادقي بعبس يكن بالمشرفي عتابها
ويحتلبوها أم سقبين لاقحها عنيفاً بأيدي الحالين احتلابها

(١) في (أ): طويل المراد، وفي (ب): طويل المار. وما أثبتناه من سيرة ابن هشام والروض الأنف،
قال في هامش سيرة ابن هشام وهامش الروض: أرادت جميل المرأة فنقلت حركة الهمزة إلى
الساكن فذهبت الهمزة.

(٢) نسب البيتين في الحماسة المغربية لمروان بن أبي حفصة.

يريد بقوله الحرب، وقد عُلِمَ أن كل حرب ليست تلقح بسقبين ولا سقب، ولا بذات دَرٍّ ولا حلب. والسقب فهو ولدها إذا كان صغيراً، والحلب فهو لبنها قليلاً كان أو كثيراً، وقد علم أن هذا كله لا يتوهم فيها ولا عليها، وقد جاز أن ينسب كما ترى في الأمثال إليها، وكذلك قال النميري:

وحرب قد حلبناها صراها وحرب قد حلبناها علالاً
إذا لبست عوان الحرب جُلاً كشفنا عن مشاعرها الجلالا

والمشاعر: هي القوائم. والصرا: هو جمع اللبن في الضرع حينين، والعالل: فهو حلب اللبن في كل حين. وقد قال زهير في الحرب:

فتَعَرَّكُم عرك الرحا بئفأها وتلقح كشافاً ثم تحمل فتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحر عاد ثم تُرضع فتفطم

وقد علم أن الحرب لا تلقح ولا تتئم، ولا تنتج غلماناً ولا ترضع ولا تفطم، وقد جاز ما قال كله في الأمثال، وكان القول به عند العرب من أصح المقال.

وفي مثل ذلك من المثل ما يقول:
وهم حملوا المئين فلم تؤدهم حمالتها

ولا يُعرف الحمل لمحمول إلا كما يحمل الحاملون.

وقال زهير أيضاً:

وما إن بيتهم إن عد بيت فطال السمك واتسع البناء
فأما أسه فعلا قديماً على الأحساب إذ رفع البناء^(١)

(١) روى البيهقي في شرح ديوان الحماسة هكذا:

فأما بيتهم إن عد بيت فطال السمك واتسع البناء
وأما أسه فعلى قديم من العادي إن ذكر البناء
ونسبهما إلى أبي البرج القاسم بن حنبل المري.

ولم يرد بيتهم بيتاً من مدر ولا شعر، ولا بأسه أساً من صخر ولا حجر.
وقال ابن ميادة:

لنا قبة في المجد خضراء ضخمة تبذ القباب ذات موج وساحل
لنا راية فوق السماء كأنها ريبية وكر رُوِّقت فوق حامل

وليس يتوهم ما ذكر من القبة قبة ذوات عوارض مشبكة، ولا أنها قبة مصبوغة بخضرة ولا ملككة، فيا ويل من شبه الله - جل ثناؤه، وتباركت بقدسه أسماؤه - في ذاته ومعرفته، أو في شيء من صفته من كرسي أو عرش أو أخذ أو بطش بخلقه المفتطر المجعول، من محمول أو غير محمول، وجل الله سبحانه عن أن يقع عليه بذلك قول، أو تعتقد مشابهته في شيء من ذلك كله العقول. وقد قال أيضاً ابن ميادة:

هم الهامة العلياء والذروة التي تقصر عنها سطوة المتطاوول

وقد علم أن هذا مثل لا يجهله إلا كل عَمِيٍّ جاهل.

[معنى المجيء والإتيان في حق الله تعالى]

وسألت أبي جعفر عليه السلام عن تأويل ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، و﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، و﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]؟

فقال: تأويل ذلك كله مجيء آيات الله وحكمه، وإتيان أمر الله من رحمته أو نقمته.

ومثل ذلك في المجيء قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وفي الإتيان قوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، ولا يتوهم مجيء الله وإتيانه - جل جلاله وتعالى شأنه - مجيئاً من مكان إلى مكان، ولا إتيان رؤية ولا عيان، ومن قال ذلك أو ظنه فثبته في نفسه خرج بذلك صاغراً من توحيد ربه، والحمد لله رب العالمين كثيراً، وصلى الله على محمد وأهله وسلم تسليماً.

[معنى: ثم استوى على العرش]

وسألته عن تأويل قول الله جل جلاله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ما وجه استوى؟ وما معناه؟ فقال: تأويله: ملكه للأشياء وارتفاعه عليها واعتلائه، كما يقول القائل: استوى فلان على ملك فلان واستوى، يريد ملك ما كان يملك فلان كله سواء. وكذلك يقول إذا ملك ملكه: قعد على عرش فلان وجلس، وليس يريد أن عرشه مقعد له ولا مجلس. وقد يكون العرش لكل شيء سقفه وأعلاه، كما جعل الله أعلا ما خلق من السماوات متناه. فأني هذا كله قال به في (١): ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣] قائل لم يخط في تأويله به قائل ولا متأول.

فأما ما يذهب إليه الجاهل من أن العرش لله مقعد وحامل، تحيط به أقطاره وتحويه أقداره - فلا يجوز في الأبواب تأويله على رب الأرباب، ومن تأول ذلك في الله فهو من الجاهلين بالله، فنعوذ بالله من الجهل به وبجلاله، ومن القول بذلك فيه وأمثاله، وحسبنا الله لا إله إلا هو عليه توكلنا وهو رب العرش العظيم.

وإذا كان العرش كما قال الله مربوباً، وكان الله له رباً مبتدعاً - لم يخل من أن يكون لله خلقاً وصنعاً، وإذا كان ذلك كذلك، وعلى ما يقول الجهلة في ذلك - كان الله قبله، وكان الله إذ لم يكن العرش قديماً ولا عرش له، فدخل عليهم في ذلك ما أخزاهم، ويئس جهلهم فيه وعماهم، وأظهر كذبهم فيه وافتراهم، وقلة

(١) في (ب): في مثل استوى.

رشدھم فيه وھداهم.

والحمد لله رب العالمين على ما یبّین من عماية العمین، وتولی من ھدایة المهتدين.

وفي مثل ذلك من الأمثال وما یراد به غیره من المقال ما یقول الأول:
وإنّا لتستحلي المنايا نفوسنا ونترك أخرى مُرّة ما نذوقها^(١)
وقد یعلم^(٢) أن المنايا لا تستحلی ولا تُستمر، وأن النفوس لا تحلو في ذوق
ولا تمّر. وقوله:

وشیب رأسي قبل حين مشیه رعود المنايا فوقه وبروقها
وقد یعلم^(٣) أن المنايا لا ترعد ولا تبرق، ولا يتوهم ذلك فيها إلا أخرج
أحق، وأن الرعود والبروق إنما تكون بالسحاب، إلا أن مقاله في ذلك مثّل یجوز
في التبيين والإعراب. وكذلك قوله:

لنا نبعة كانت تقينا فروعها فقد ذهب إلاً قليلاً عروقتها
والنبعة شجرة صلبة یمانية يعمل من قضبانها هذه القسي العربية، وقد علم
كل صحيح العقل ذي سمع أنه لم یُرد بقوله هذا نبعة من شجر النبع.

(١) هذا البيت والذي بعده لحارثة بن بدر كما في تاريخ دمشق لابن عساكر والعقد الفريد وربيع الأبرار والأدب لابن أبي شيبه. ورواية البيت الثاني في الأدب والمصنف لابن أبي شيبه:

وشیب رأسي واستخف حلومنا وعود المنايا حولنا وبروقها
وفي ربيع الأبرار:

وشیب رأسي واستخف تجلدي رعود المنايا بيننا وبروقها

(٢) في (أ): وقد علم.

(٣) في (أ): وقد علم.

ومثل ذلك قول الحطيئة في آل لَآئِي من طيء وهو يمدحهم:
 هل لي ذنب بأن أعيت معاولكم من آل لَآئِي صفاة أصلها راسي
 ولا يتوهم أحد أنها صفاة من الصفي^(١) إلا كل جلف من الناس جافي، ولا
 يتوهم معاولهم من حديد إلا كل أحق من الخلق بليد، وقد علم من نور الله قلبه
 وعرف الله ربه أن العرش والكرسي ليسا ما ذهب إليه المشبهون لله بما صنع،
 وبعض ما خلق من خلقه وابتدع، سبحانه وتعالى عن ذلك، وعن أن يكون
 كذلك، وهل يمكن في وهْمٍ أو حقيقة حق أن يكون الخالق أبداً كشيء من
 الخلق؟ أو لم يسمع من توهم ذلك أو ظنه -قاتله الله ما أضل وهمه وظنه- قول
 الله العليم الخبير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١١)، وقوله
 سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(١٢)، والكفو: فهو المثل والنظير، فتعالى من
 لا مثل له ولا نظير، ولا كفؤ له ولا عدل، الذي كل موجود سواه فخلقه
 وصنعه، والله فخالق ذلك كله ومبتدعه، كبيره في صنع الله له كصغيره، وأوله في
 أنه صنع لله كأخيره، لا ينكر ذلك ولا يحمله إلا من جهل الله جل جلاله.

وقد قال العماة والجاهلون الذين لا يفهمون ولا يعقلون: إن الله خلق آدم
 على صورة نفسه، وإنه يضحك حتى تبدو نواجذه. ونواجذ الإنسان أنيابه التي
 جنب أضراسه، فشبهوه في ذلك وغيره -تعالى قُدُّسُه- بالناس، وزعموا أن
 علمه وإدراكه لما علم وأدرك إنما هو بالحواس، فقالوا: إن علمه ودركه لما يرى
 ويبصر إنما هو بالبصر، وإن سمعه لما يسمع كما يُعقل من سمع البشر، ومن قال

(١) في (ب): من الصفا.

بذلك في الله فقد برئ من المعرفة بالله، فنحمد الله على ما هدانا له من معرفته،
وأبان بالبرهان النير من فرق ما بين صفات الخلق وصفته، ونستعين بالله في ذلك
على واجب شكره، ونعوذ به فيه من الضلال عن أمره، وصلى الله على محمد
النبي وآله وسلم تسليماً.

تثبیت الإمامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله فاطر السموات والأرض، مفضل بعض مفطور خلقه على بعض، بلوى منه تعالى للمُفْضَلِينَ بشكره، واختباراً للمفضولين بما أراد في ذلك من أمره؛ ليزيد الشاكرين في الآخرة بشكرهم من تفضيله، وليذيق المفضولين بسخطٍ إن كان منهم في ذلك من تنكيله، ابتداء في ذلك للفاضلين بفضله، وفعلًا فعله بالمفضولين من عدله، يقول الله جل ثناؤه^(١) وتباركت بقدسه أسماؤه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصاص]، ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام]. ويقول تبارك وتعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء]، ويقول سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحاثية]، ويقول سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْجِبُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل]. والحمد لله رب العالمين الذي جعلنا من أبناء المرسلين، الذين اختصهم بصفوة تفضيل المفضلين،

(١) في (نخ): تبارك وتعالى وتقدسست أسماؤه.

ونستعين مبتدئ الخيرات، وولي كل حسنة من الحسنات، على واجب شكره، وكريم أثره، فيما أبتدأ به من فضله، وخص به من ولادة رسله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلنا وهو رب العرش الكريم.

[الدليل على وجوب الإمامة]

سألت يرحمك الله عن الإمامة ووجوبها، وما الدليل إن كانت واجبة على ملتزم مطلوبها، فأما وجوب الإمامة ودليله^(١) فوحي كتاب الله عز وجل وتنزيله، فاسمع لستته في الذين خلوا من قبلك تفهم، وتَفْهَمُ^(٢) متقدّم أوليها عن الله تعلم، فإنه يقول سبحانه وبحمده فيما نزل من محكم كتابه: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب]، ويقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة]، وهذا يرحمك الله لكي تعتبر بمنزلة بيانه في اشتباه حكمه في الأمم واستنانه.

ثم أخبر تعالى عما جعل من الإمامة في بني إسرائيل قبل أن ينقل ما نقل منها إلى ولد إسماعيل، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ [السجدة]، وقال سبحانه ما أنور بيانه، فيما نزل من قصص خليله إبراهيم، وما خصه الله به في الإمامة من التقديم، وما كان من دعاء إبراهيم وطلبته لإبقائها من بعده في ذريته: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة]، خبراً منه سبحانه أن عهده فيها إنما هو منهم للمتقين، فلم يزل ذلك مصراً بينهم، لم يخرجهم الله تعالى منهم بعد وضعه له فيهم وإنعامه به عليهم، حتى كان آخر مصيره في الرسالة ما

(١) في (نخ): ودليلها.

(٢) في (نخ): بفهم وتفهم متقدم أوليتها.

صار إلى إمام الهدى محمد ﷺ، فكان خاتم النبيين، ومفتاح الأئمة المهتدين. ثم قال تعالى بعد هذا كله، دلالة على أن محمداً وارث خليله: ﴿إِنَّ أَوَّلَى الْثَّائِسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران]، فكان محمدُ الوارثُ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للنبوة، وإليه ﷺ صار ما كان من إبراهيم وإسماعيل من الدعوة؛ إذ يقولان عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة].

وأبين دليل وأنور تنزيل في وجوب الإمامة وما يجب منها على الأمة قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء]. فأمر تبارك وتعالى بطاعة أولي الأمر مع ما أمر به من طاعته وطاعة الرسول، ولا يأمر تبارك وتعالى إلا بمعلوم غير مجهول، مع ما لا أعلم فيه بين الرواة فُرقة، وما لا أحسبك إلا قد رأيتها عليه متفقة، من حديث الرسول ﷺ في أن ((من مات لا إمام له مات ميتة جاهلية))، فكل هذا دليل على وجوب الإمامة وعقدها، وما في ذلك للأمة بعد رسولها ﷺ من رشدتها، مع ما يجمع عليه جميع الأمم على اختلاف مللها وعقولها، وما هي عليه من الفرقة البعيدة في أجناسها وأصولها - من تقديمها لمن يؤمها منها ويذب مخوفَ ذمار الأعداء عنها، ويحوط حرمها عليها، وينفذ حكم المصلحة فيها، ويكف سرف قويا عن ضعيفها، ويجري حكم قسط التدبير فيها في وضعها وشريفها؛ استصلاحاً منها بذلك للدنيا، والتماساً به لما فيه لها من البقيا.

فكيف يرحمك الله بطلاب رضا رب الأرباب، وحلول دار الخلد من الجنة، وملتمس حكم الكتاب والسنة، يصلح أولئك أن يكونوا فوضى بغير إمام؟ هيهات، أبى الله ذلك لمنزل الأحكام.

فَمَنْ - إن كانوا فوضي - للحدود وما عهد الله إلى الأئمة فيها من العهود؟ مَنْ لِحَدِّ الفاسق والفساق؟ ولحكم الله في السارق والسارقة؟ مَنْ لقاذف (١) المحصنات ومنع أبرار المؤمنات؟ مَنْ لحكم التفصيل وإصابة خفي التأويل؟ مَنْ لهدى أهل الجهل والضلال، والاحتجاج بحجج الله على أهل الإبطال؟ أما سمعت قول الله جل ثناؤه، وتباركت بقدسه أسماؤه: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٤) [النور]، مع جميع حكم الله فيها وفي غيرها، وما أمر به في أحكامه من تنفيذها، فهذا في وجوب الإمامة هكذا، وكفى من أنصف ولم يحف بهذا، مع حجج كثيرة تركت تكلفها، وألقيت إليك منها جملها؛ كراهية للإكثار، واكتفاءً بالاختصار، مع آخر لا بد من ذكر معترض عروضها، وتكلف تبين ما استتر من خفي غموضها، فافهم نشر مذكورها، واسمع لذكر منشورها بأذن واعية (٢) من واع، وارعها رعاية انتفاع.

[أدلة أخرى على وجوب الإمامة]

اعلم أن هذا العالم وما فيه معاً لا يخلو من أن يكون محدثاً مبتدعاً من أحكم الحاكمين، وأن يكون لواحد لا لاثنين، فإذا ثبت أن ما وجد من العالم وتديره، وما بني عليه من حكم تهيينه وتقديره، لواحد حي حكيم عليّ، ليس له ضد يناويه، ولا ندّ يماثله فيكافيه، ولا به آفة تضره، ولا ضرورة تضطره إلى ما أحدث وصنع من بدائعه، وابتدع في الأشياء من صنائعه، كان كل ما أحدث من بديعه

(١) في (ج): لقذف. وفي نسخة: لقذاف.

(٢) في (أ): بأذن واعية.

واصطنع جل ثناؤه من صنيعه عن أمرين ولشيئين:

أحدهما: الاختيار^(١) فيما أبتدأ، وحكمة ماضي إرادته فيما أنشأ.

والأمر الثاني: فإحكام تدبير مُنشأه، وتبليغه غاية مداه، بإحداث ما لا يكون بلوغ المدى إلا به، وما يريد الحكيم من إبقاء المنشأ بأسبابه، من مواد الأغذية، وحوط المنشأ من كل مفنية، ثم يكون ذلك في لطف مدخله، وحوط فرعه من الفساد وأصله، على قدر حكمة تدبير المدبّر، واقتدار قدرة العليم المقدر، فلا يمكن في حكمة التدبير ولا تدبير ذي العلم التقدير أن يريد كون بقاءه إلا مع خلقه لمقيم إبقائه، من مادة الغذاء، وتركيب آلة الاغتذاء، من الأفواه والأوعية، وبسط الأيدي المغتذية، لاستحالة بقاء المُبقّي مع عدم ما به يبقى، واستنكار دوام دائم، أو توهم قوام قائم، جعلهما الله لا يدومان إلا بمديمتهم، ولا يقومان طرفة عين إلا بمقيمتهم، ثم يقطع المديم لهما عنهما، وهو مريد مع قطعه لدوامهما؛ لما في ذلك من الجهل الذي تعالى الله عنه، وخطأ التدبير الذي بُعد سبحانه منه، كنعو ما خلق من حيوان الأشياء، الذي خلقه لا يبقى إلا بهادة الغذاء، وجعل غذاءه لا يكون إلا بالأرض^(٢) والماء، وبما فطر سبحانه من حرارة النار والهواء، وبما جعل من فصول السنة الأربعة، وجعل السنة لا تكون إلا بشهورها المجتمعة، وجعل الشهور لا تتم إلا بأيامها ولياليها، وما قدرها الله عليه من تواليها، وجعل الأيام لا تتم إلا بساعات أزمانها، والأزمان لا تتم إلا بحركة الأفلاك ودورانها، ثم فصل تعالى الليل من النهار، وفرق برحمته بين الظلم والأنوار؛ لتمام ما أراد من إبقاء المدبّر، وليتشر في النهار كل منتشر في ابتغاء حاجاته، وليسكن في الليل من فتراته، ولم يجعل الليل والنهار سرمداً، ولم يُعَرَّ منهما من خلقه إلا مخلداً، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ

(١) في (نخ): الاختبار.

(٢) في نسخة: ببرد الأرض.

اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٠﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ
 اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧١﴾ [القصر]. فجعل الليل
 والنهار رحمةً منه، ثم قسم تبارك وتعالى السنة فجعلها أربعة أزماناً، وفنّنها للبقاء
 أفناناً، من شتاءٍ وصيف، وربيع وخريف، ثم قدر في كل فن ومع كل زمن من
 الأغذية ضرباً يابساً فيه ورطباً لا يصلح في غيره، ولا يتم إلا بتدبيره، وجعل
 هذه الأزمنة عموداً لتناسل الحيوان، وعلة لبقائهم إلى ما قدر لهم من الأزمان.

ثم جعل الحيوان ضرباً، وجعل أغذيته شعوباً، فمنهم الناس المغتذون
 بطيب الأغذية، ومنهم الطير والدواب وفنون الأشياء الحية المكتفية بأنفال^(١)
 الغذاء، ويسير^(٢) مؤنة الاغتذاء، فبنى الناس على خلاف بنية المسخر لهم من
 الحيوان، وبنوا منهم بفضيلة الفكر ونطق البيان، فدبروا أغذية معائشهم
 بالفضيلة، واستعانوا في ذلك بتصرف الحيلة، وكُفي ذلك غيرهم من الحيوان،
 ولولا ذلك لما بقوا ساعة من زمان.

فكل مذكور من أجناس البهائم المسخرة لمنافع بني آدم فمبني على النقص
 مما ذكرنا من فضيلتهم، عاجز عما جعل الله لهم من متصرف حيلتهم.

وكذلك كان بنو آدم في بدْيٍ مولدهم في عجزهم عن نيل منافع غذائهم
 ورشدهم، وجهلهم بمصلحتهم في الأمور من مفسدهم، فلو كان الناس إذ
 ابتدئوا وعندما فُطِرُوا وأنشئوا لم يجعل لهم ولا فيهم من يغذوهم ويقوم عليهم
 لهلكوا، ولم يبقوا وقت يوم واحد؛ لما يحتاجون إليه في النفاس وعند المولد من

(١) (الثفل) ما يسط تحت الرّحى عند الطّحن وما استقر تحت الماء ونحوه من كدر وما يتبقى من
 المادّة بعد عصرها (مج) وعند البدو ما يؤكل غير اللبن من حب وخبز وقمر وفي الحديث (من
 كان معه ثفل فليصطنع) (ج) أنفال. (لسان العرب).

(٢) في (ج): وتيسير.

تلفيف الولدان بخرقها، وتسوية أعضائها، ولكن الله تبارك وتعالى جعل لهم في الابتداء آباء قاموا بكفاية المصلحة والغذاء، حدّهم في العلم بمصلحتهم غير حدّهم، فغذّوهم برأفة الأبوة وبُصِرَ التربية في مولدهم إلى بلوغ قوة الرجال، والاستغناء بنهاية الكمال.

ولا بد لهذه الآباء التي قامت على الأبناء من أن تكون في المبتدأ وعند أول المنشأ من الجهالة في مثل حال أبنائها، محتاجة إلى تربية آبائها، ولا بد كيف ما ارتفع الكلام في هذا المعنى من أبناء يقوم عليهم آبؤها، وآباء كانوا كذلك في الأصل إذ ابتدئ إنشاءها في مثل حد أبنائها من جهلها وقلة اكتفائها، حتى يعود ذلك إلى أب واحد، منه كان ابتداء النسل والتوالد، ولا بد للأب الأول من أن يكون أدبه وتعليمه على خلاف أدب من يكون بعده؛ إذ لا أب له، ولا يكون أدبه وتعليمه إلا من الله، أو من بعض من يؤدبه ويعلمه من خلق الله.

فإن كان من مخلوق أخذ أدبه فلا يخلو ذلك من أن يكون الله أو غيره أدّبه، وكيف ما ارتفع الكلام في هذا المعنى فلا بد من أن يعود إلى أن خلق ابتداء أدبه من قبل الله الأول البديّ، ولا بد للأب الأول الذي هو أصل التناسل من أن يكون مؤدّباً معلماً للجوامع، من معرفة جهات المضار والمنافع، مخلوقاً على الفهم وقبول أدب المعلم؛ ليتم بذلك من فهمه نفع تعليم معلمه، فيقوم به على نفسه وعلى من معه من ولده، في الأخذ لهم بأدبه، وعقاب مذنبهم بذنبه، وثواب محسنهم بإحسانه، وتوقيف كلّ على ضرره ونفعه؛ كي يتم بذلك ما أريد لهم من البقاء، وعنهم من تأخير مدة الفناء.

كذلك هم في الخلق مجرّون في طبق بعد طبق، مصرفون مدة بقائهم بين طبقات ثلاث إلى حين فنائهم، لا يخلون منها، ولا مُنصَرَفٌ (١) لهم عنها.

(١) في (نخ): متصرف.

أما الأولى منها: فطبقة التربية. والثانية: طبقة اعتمال الأغذية. والثالثة: فاكْتساب الحسنة والسيئة.

فهم في أولى طبقاتهم مكتفون بالآباء، وفي الثانية مستغنون عنهم بالاكْتفاء، مؤدبون على المعرفة بحد الأغذية والبذور، والفرق بين الضار والنافع فيها من الأمور، والثالثة فمحتاجون ما كانوا فيها وعند أول مصيرهم إليها إلى مرشد ودليل، ذي عقاب وتنكيل؛ ليكون ما أريد بهم من البقاء، وخلقوا له من عمارة الدنيا، وذلك عند بلوغ قوة الاحتلام، وحركة شهوة ملامسة الإمام، لما بني عليه الناس من شهوة النساء، لما في ذلك من زيادة النسل والنماء.

وكل ذلك من اعتمال الأغذية، وما خُصَّ به الإنسان من الشهوة في البنية، فلا بد فيه وفي الدلالة عليه من مرشد معرّف، ومُحدِّدٍ مُوقِّفٍ؛ لأنه لو ترك الناس في الغذاء وما رُكِّبوا عليه من شهوة النساء بغير حد معروف، ولا فرضٍ عزمٍ موصوفٍ - لم يكن أحد بمعتمله وما ملَّكه الله من أهله أولى عند المكابرة من أحد، إذاً^(١) لما فُرِّق بين سيِّدٍ وعبد، ولو كان ذلك كذلك لصير به إلى الفناء والمهالك، ولما أنسل ولا اغتذى ضعيف مع قوي، ولا سلم رشيد من الخلق مع غوي، ولبطلت الأشياء وفسدت الدنيا، ولكنه جل ثناؤه وتباركت بقدسه أسماؤه جعل للناس في البديِّ والداء، وحد لهم به في الأشياء حداً، أدبهم جميعاً عليه، ونهاهم عن المخالفة له فيه.

ثم جعل للمتأدبين فيه بأدبه ثواباً، وعلى المخالفين إلى ما نهاهم عنه عقاباً، فكان كل إنسان أولى بمعتمله، وأحق بما ملكه الله من أهله، ولو تُركوا فيه بغير إبانة دليل، أو كانوا خُلُّوا في خلافٍ له من التنكيل - لوُثب بعضهم فيه على بعض، ولفني أكثر من في الأرض؛ لما يقع في ذلك من الحروب، واغتصاب

(١) في (أ): «ولما» بدون إذا.

النساء والنهوب، ولكان في ذلك لو كان من الفساد في معرفة الرحم والأولاد ما يقطع تعاطف الرحمة، وما جعله الله سبباً للنسل والتربية؛ إذ لا يعرف والدٌ ولدًا، ولكنه وضع للنكاح في ذلك حداً يَبَيِّنُ كنهه ومداه، ونهى كل امرئ أن يتعداه؛ ليعرف كل إنسان ولده فيغذّوه، وتعطفه رأفة الأبوة عليه فلا يحفوه ولا يعدوه، وذلك ليتم ما أريد بالناس من التناسل والبقاء إلى غاية ما قدر لهم ودبر من الانتهاء.

وإذا كان الناس على ما ذكرنا مأمورين في الغذاء، ومحدودة لهم وعليهم من الحدود في مناكحة النساء - لم يكن لهم أن يتناولوا من ذلك شيئاً رفيعاً كان منه أو ذنباً إلا على ما جعل الله لهم، وقدّر حكمه بينهم.

وإذا كان ذلك كذلك، وحكم الله فيه بما حكم به من ذلك لم ينل طالبٌ منهم مطلوبه، ولم يدرك محبٌ فيه محبوبه، إلا بشديد معاناة، وعسير مقاساة، من العلاج والاعتماد، وحركة كسب الأموال، التي بها يوصل إلى مطلوب الغذاء، ويوجد السبيل إلى محبوب مناكحة النساء. ثم ليس لهم تناول معتمل ولا حركة في عمل حَرَّمَ تناوله عليهم أو حكم بخلافه فيهم.

ثم إذا صاروا إلى النكاح على ما أمروا به إلى الحد لم يلبثوا أن يصيروا إلى عيال وولد، يحتاجون لهم إلى أقوات التغذية، وأنواع ضروب متاع التربية، مع حاجتهم للأولاد والأنفس إلى ما يحصنهم من الحر والبر من الملبس، وما يستر عورات الرجال والنسوان، وما يظلمهم من سواتر الأكنان، وما يحتاجون إليه من اتخاذ الأبنية، وما لا بد لهم منه من أمتعة الأفنية، وكل ذلك من حوائج الإنسان يدخل فيه منهم أشد التنافس، لما يعم جميعهم من الحاجة إليه، ولظاهر ما لهم من المنافع فيه، فلا بد في كله وجميع ضروب معتمله من أن يقاموا فيه على حد معلوم، وأن يلزمهم فيه فرضٌ حكم معزوم، وإلا اقتتلوا عليه وتواثبوا، وتناهبوا فيه واغتصبوا، وفنوا فلم يبقوا، وصاروا إلى خلاف ما له خلقوا.

ولما كانوا إلى ما ذكرنا مضطرين، وفي أصل الفطرة عليه مفطورين، تفرقوا في أنواع الصناعات، واحتالوا للمكسب بضروب البياعات، فلم يكن لهم عند ذلك بدٌّ في البدِّي الأول من مُعلِّم يقوم عليهم، ويبين لهم أقدار مواقع مصالح ذلك فيهم؛ ليتعاملوا بها وعليها، ويصيروا إلى مصالحهم فيها، وإلا فسدوا وفنوا، وهلكوا ولم يبقوا.

ثم لا بد لمعلمهم ولولي أدب تعليمهم من أن يكون عالماً بجهات منافع الأشياء، مأموناً عليهم في الدين والدنيا؛ لأنه إذا كان على غير ذلك كان مثلهم، سيئ ويجهل في الأمور جهلهم. ثم لا يكون مع هذا يجب عليهم اتباعه، وقبول ما تقدم من أمره واستماعه، مع ما يدعوهم إليه من الكف عن كثير مما يحبون، ويأمرهم به من الدخول في كثير مما يكرهون - إلا بأن يكون لهم في خلافه مخوفاً بعقاب، وفي الانتهاء إلى معهود أمره موجباً لثواب.

وذلك أنه لا يكون أن ينقادوا له حتى يؤدبهم ويقبلوا قوله إلا بافتراق درجة المطيع والعاصي، وتباين مكان المحسن عنده والمسيئ، وذلك فما لا يدخله تفرق، ولا يفرق بينه مُفَرَّق، إلا من حيث قلنا وعلى ما مثلنا.

ولا يكون مخوفاً للعاصي بعقابه ولا داعياً للمطيعين إلى ثوابه إلا بدلائل أعلام بينة، تُفَرِّق بين المدعي منزلته وبينه، ولا يجوز أن تكون أعلامه مما يُقدر على مثلها، فلا يؤمن على فعلها وممكن نيلها مُدَّعي منزلته ظلماً وعدواناً، وفسقاً وطغياناً، ولا تكون الدلالة عليها وشاهد علم الإبانة فيها إلا من الله، لا يُحدث غير الله خلقها، ولا يحسن سوى من هي عليه دلالة تخلقها، وكانت من الله كغيرها من دلائله في ضوء منيرها، وإسفار نور مبينها، وإبانته من الأئمة (١) بعينها، وانقطاع عذر المُعْتَلِّين على الله في رفضها، بعقد لو كان منهم لما نُصب من

(١) في نسخة: الأئمة.

علم دلائل فرضها.

وكذلك فعل الله بالرسل صلوات الله عليها^(١) وأوصيائها، وإبانتهم من غيرهم بنور دلائله وضياؤها.

ثم فرق جل ثناؤه بين الرسل والأوصياء ومن يحدث بعدهم من خلفاء الأنبياء في علم الدلائل والحجج، بقدر ما لهم عند الله من الدرج، فجعل دلائل المرسلين وشاهد أعلام النبيين أكثر بياناً، وأقوى سلطاناً، وأفلج في الحجة للمستكبرين، وأقطع لأعالي عذر المعتلين المعتذرين.

فكان من ذلك عجائب موسى عليه السلام في فلق الله له ولمن كان معه البحر وممرهم فيه، إلى ما كان من قبل ذلك من عجيب آياته، وما أرى المصريين من فعلاته في الضفادع والقمل والدم، وما يعظم قدر مبلغه عن كل مُعْظَم.

وعجائب عيسى عليه السلام التي كانت تضل في أصغرها الأحلام، من إحيائه الموتى، وإبرائه للكمه والبرصى، وإنبائه لهم بما يأكلون وما يدخرون، وإخباره لهم عن كثير مما يضمرون.

ثم آيات محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما نزل من حكمة وحيه إليه، التي لم يقوَ لمكافاته فيها من أضداده ضدُّ، ولم يكن لحكيم منصف عند سماعها من قبولها بدُّ، مع عجيب آياته في الشجر وإجابته، وما كان من شأن الشاة المسمومة، وإنبائه بسرائر نجوى الغيوب المكتوبة، وإطعامه من قبضة كف لأكثر من ألف وألف.

فبانت الرسل صلى الله عليهم وآله وسلم من الأوصياء بما جعل الله من هذه الدلائل لهم وفيهم، وبانت الأوصياء من الأئمة بما خصها الله به من التسمية، وبما كان يعرف لها عند رسلها من المنزلة، وما كانت الرسل تنبئها به من أقوال التفضلة، كنحو ما جاء في علي عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وما كان من أقواله المشهورة المعلومة فيه،

(١) في (نخ): صلوات الله عليهم.

كقوله: ((من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه)).
وكقوله: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي))، و((أنت قاضي ديني، ومنجز وعدي)).

مع ما يكون عند الأوصياء من علم حوادث الأشياء، وما يلحقون بعد الأنبياء من شدائد كل كيد، ودُّول كل جبار عنيد، خبراً خاصاً من الأنبياء لمن يخلفهم بعدهم من الأوصياء، كنعو ما ألقى الله تعالى إلى الرسول من شأن علي وإخباره، وتناول المرادي له بما تناوله به من ختله واغتراره^(١).

وخبره له عن طلحة والزبير وعائشة ومعاوية، وما كان علي ينادي به في خطبه من دولة بني أمية، وما كان يخبر به من عجيب الأنباء، ويقص على الناس من قصص الأنبياء، وما كان به بايناً ولغيره فيه مباناً من بأس الإقدام في القتال، ومنازلة مساعير الأبطال، التي كان يقلُّ عليها^(٢) إقدام المقدمين، ويهاب اصطلاء نارها كثير من خيار المسلمين، مع تأول أوليائه فيه لكثير من آي القرآن، مع التي لا يشك فيها من سبقه إلى الله بالإيمان، والله يقول جل ثناؤه وتباركت بقدسه أسماؤه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿١١﴾ [الواقعة]. وكفى بهذه الآية لو لم يكن معها غيرها، وبما بين عنه من وحي كتاب الله تنزيلها، على الوصي دليلاً، وفي الدلالة عليه تنزيلاً، فكيف بكثير الدلائل عليه، ودواعي شواهد الوصية إليه، من قوله جل ثناؤه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٠﴾ [الحديد]؟ مع كثير آيات القرآن، ودلائل وحي الفرقان، من تفضيله له بمنازلة الأقران، وسبقه إلى الله بكرامة الإيمان، مع التي كان بها نسيج وحده، وفيها مبائناً لجميع من كان معه

(١) في (نخ): إعراره.

(٢) في (نخ): التي كانت يقل عنها.

في حده، من جمة أغوار العلم، ومعرفة أديان الأمم، وفصل بيان اللسان، ومعرفة أسرار القرآن، وهذه خاصة من حالاته إحدى أعلام الإمام بعده ودلالاته، التي لا توجد وإن جهد ملتسمها، ولا يقتبس إلا من إمام مُقْتَبَسُهَا، فجعل الله جل ثناؤه وتباركت بقدسه أسماؤه ما قدمنا ذكره، وأثبتنا في الحجة أمره، من خاص دلائل الأوصياء - كرامةً خصهم بها بعد الأنبياء، وأبانهم بها من الأئمة، واحتج بها لهم على الأمة.

ثم أبان الأئمة من بعدهم، ودل الأمة فيهم على رشدهم بدليلين مبينين، وعلمين مضيئين، لا يحتملان لبس تغليط، ولا زيف شبهة تخليط، لا يطيق خلقهما متقن، ولا يحسن تخلقهما محسن، ولي ذلك منهما وفيهما، ومُظْهِرُ دلالة صنعه عليهما، الله رب العالمين، وخالق جميع المحدثين، وهما ما لا يدفعه عن الله دافع، ولا يتحل صنعه مع الله صانع، من القرابة بالرسول ﷺ، وما جعل من احتمال كمال الحكمة فيمن الإمامة فيه.

وحد الحكمة وحقيقة تأويلها درك حقائق الأحكام كلها.

فاسمع لقول الله جل ثناؤه، وتباركت بقدسه أسماؤه، فيما ذكرنا من مكان قرابة المرسلين، وما جعل من وراثة النبوة في أبناء النبيين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَالًا عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [٣٣] ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ [آل عمران].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَوَرَزْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية].

وقال: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان].

وقال موسى ﷺ لبني إسرائيل: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ

فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَعَاقَبَكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾

[المائدة].

وقال لإبراهيم عليه السلام: ﴿رَحِمَهُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ ﴿٦١﴾ [مود]. وقال الله تعالى في نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٦٤﴾ [الصافات].

وقال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ ﴿٦٥﴾ [نوح]. فقدم في الدعوة الأبوين، ثم ثنى بعدهما بالأهلين، ثم دعا بعدهم للمؤمنين؛ تفريقاً منه عليه السلام للمفروق، وتنزيلاً لهم في التقديم والتأخير على أقدار الحقوق.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٦٦﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ [السجدة]. ثم قال تعالى لأبينا إبراهيم خاصة من دون المؤمنين: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿٦٨﴾

[الحج]، وذلك كقوله وقول إسماعيل عليه السلام عند رفعهما قواعد البيت فيما ذكر بأيديهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٦٩﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٧٠﴾ [البقرة]. وقال عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧١﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ

نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿٣١﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿٣٢﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿اِخْلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿٣٣﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٣٥﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿٣٦﴾ [الصافات]. وقال تعالى: ﴿إِلَّا عَالٌ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ ﴿٣٧﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٨﴾ [القمر].

وقال في أيوب عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٣٩﴾ [ص].

وقال يعقوب ليوסף صلى الله عليهما: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلٍ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٤٠﴾ [يوسف].

وقال موسى عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿٤١﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٤٢﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٤٣﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٤٤﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٤٥﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٤٦﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٤٧﴾ [طه].

وقال زكريا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ﴿٤٨﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٤٩﴾ [مريم]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥١﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ [الأنعام]. ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٣﴾، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ

فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿٣٧﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

فأي ضياء أضوى أو حجة لمحتج أقوى في إثبات الصفوة والفضل لأبناء المنتجبين من الرسل مما تلونا تنزيلاً مباناً، أنزله الله في منزل وحيه قرآناً، لا تعارضه شبهة لبس، ولا يلتبس على ذي ارتياده ملتبس، ولكن اقتطع الناس دونه، وحال بين العامة وبينه جور أكابرهم في الحكم، واعتساف جابرتهم فيه بالظلم، فأعين العامة في غطاء عن مذكوره، وقلوبهم ذات عمى عن نوره، فمعروفه لديهم مجهول، وداعيه فيهم مردول، إن لم يقتل عليه عظم تعنيفه فيه، ولم يعدوا - من جهلهم بفرضه، وما هم عليه من رفضه - سبيل ما هم عليه، وما أمسوا وأصبحوا فيه من جهل غيره من الحقوق وتعطيلها، ومحو أعلام الدين وتبديلها.

فالله المستعان في ذلك وغيره، وإياه نسأل تبديل ذلك وتغييره، والحمد لله الذي جعلنا لخاتم المرسلين وبقية من مضى من رسله الأولين عترة وبقية، وآلاً وذرية، ابتداء لنا في ذلك بعظيم فضله، ومناً علينا فيه بولادة خاتم رسله، من غير قوة منا ولا حول، ولا صالح من عمل ولا قول، فجعلنا راجين رجاء أبناء المرسلين بأبائهم، وما كان من حفظ الله للنبئين في آبائهم، فكفى بهذا في دلالة القرآن دليلاً على الإمام، وما ولي الله لرسله في ذلك وبه من الإكرام، منظراً لمنصف معتبر، ومعتبراً به لحكيم مفكر.

فاسمع لقول الله سبحانه في تفصيل الحكمة، وما خص به من جعلها فيه من التقدم؛ إذ يقول في داود عليه السلام: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ

الْحُطَابِ ﴿٥﴾ [ص]، وقال فيه **إِنَّ اللَّهَ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ**، ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَعَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٥١]. فمتى ما وجد الملتسمون، وأصاب عند الطلب الطالبون، مَنْ هاتان الخلتان فيه كاملتان، وهذان الدليلان عليه مبینان - حقت إمامته وصحت، وبانت الحجة لأوليائه فيه ووضحت، ولم يكن لطالب إمامة تعدّيه، ولم توجد الكفاية أبداً إلا فيه.

والعلة التي بها ولها ومن أجلها كانت القرابة والحكمة على الإمام دليلاً، وإلى وجوده عند الحاجة والطلب سبيلاً: أن مطلبه في القرابة أسهل على الطالبين، وأيسر في تكليف فرضه على المكلفين، وأقطع لعذر المعتلين، وأبلغ في الحجة على المتجاهلين، وأقرب إلى تناول البغية؛ إذ لا يمكن تقريبها بالتسمية والدولة دولة الجبارين، مخوفٌ فيها قتل الأبرّين.

[مناقشة من قال: طريق الإمامة اختيارهم للإمام]

ولو كان الأمر في الإمامة كما قال المبطلون فيها، وعلى ما زعموا من أنهم الحاكمون بآرائهم واختيارهم عليها، وأن الخيرة فيها ما اختاروا، والرأي منها وبها ما رأوا - لكان في ذلك من طول مدة الالتماس، وما قد أعطوا بقبحه وفساده من إهمال الناس ما لا يخفى على نظرة عين، ولا تسلم معه عصمة دين، ولصاروا إلى ما كرهوا من فساد الإهمال، ولتعطل في مدة الطلب أكثر الأحكام، من الجُمُع والاعياد، والدفع والجهاد، وقذف المحصنات، ومكابرة المؤمنين، ولسقط حد الزاني والزانية، وكل حكم خصه الله بالتسمية.

ثم لَمَّا كان لِمَا هم فيه من الطلب غاية تُعرف، ولا للغرض فيه نهاية ينتهي إليها المكلف، ومن شأن الله تيسير كُلفه، وتقريب مُعرفه، كنحو من تكليفه وما كان من تعريفه جل ثناؤه لنفسه بما بين السماء والأرض من خلقه، وما عَرَفَ من رسله بتواتر أعلام دلائله، وكقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ

شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴿[الحج: ٧٨]، وكقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فقالوا: نختار لإمامتنا وديننا أو ثقتنا لذلك في أنفسنا، فقلنا: لستم تختارون ذلك لأنفسكم دون اختياركم فيه على ربكم، فله الخيرة لا لكم، يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب]، يقول جل ثناؤه: إن يختاروا هم فتكون الخيرة لهم، والله سبحانه ما جعل إليهم الخيرة فيما خوَّهم، ولا فيما جعل من أموالهم لهم، فكيف تكون إليهم الخيرة في أعظم الدين عظمًا، وأكبره عند علماء المؤمنين حكمًا؟!

ثم قلنا لهم: مَنْ المختارون منكم للإمام؟ الخواص منكم أم العوام؟
فإن قالوا: لخواصنا.

قلنا: مَنْ خواصكم.

وإن قالوا: لعوامنا.

قلنا: وَمَنْ عوامكم؟ أخواصكم إنسان أم إنسانان أم بلد خاص من البلدان؟
وعوامكم أكلُّكم أم الأكثر منكم؟!

فإن قلتم: ذلك إلى كلنا وكلنا يختار فذلك ما لا يمكن؛ لما فرقت منكم الأقطار، مثل الصين وفرغانة، ومن بالأندلس وغانة، ومن يحدث فيكم وينقص كل يوم منكم، فالإمامة لا يمكن عقدها، ولا يصاب بالعقل رشدها، إذا كانت إنما تكون ويتم لها بزعمكم الكون باختيار جميعكم واجتماع كلكم، وذلك غير ممكن أصلاً، فالإمامة غير ممكنة اضطراراً.

وقد زعمتم أن الله كلفها خلقه، وأوجب على الناس فيها حقه، فقد كلف الله

الخلق عندكم غير ممكن، ومكلف ما لا يمكن جاهل غير محسن، ومن الله سبحانه كل حسنى، وله المثل الأجل الأعلى، سبحانه أن يكلف أحداً من خلقه غير ممكن، وتبارك أن يكون في صغير من الأمور أو كبير غير محسن!!

وإن قلتم: اختيار الإمام للخاصة منا دون العوام. قلنا: ومن تلك الخاصة منكم؟ وما الذي يبينها للاختيار دونكم؟ فإن قالوا: علمها وفضلها. قلنا: ومن الذي يعرف ذلك لها؟ وما حد ذلك فيها؟ وما شاهد دليله عليها؟ فإن قالوا: يعرف ذلك منها عوامها. قيل: ولم لا تعرف العوام من يؤمنها وفضله أكثر من فضل فضلائها، وعلمه فوق علم علمائها؟ وإذا عرفت العوام من ذلك الأقل فهي بمعرفة الأكثر أولى، وإذا بان لها فضل العلماء وعلمها فبيان فضل الإمام وعلمه أبين وأعلى!!

وإن قالوا: تعرف ذلك العلماء لأنفسها. قيل: وكيف يصح ذلك عند غيرها بصحته لها؟ أو يتبين عندهم بيانه عندها؟ وإذا كانوا هم الحجة على الأمة فيما يجب عليها من طاعة الأئمة فهل يجوز أن تكون بهم الأمة جاهلة إلا كانت وهي عن هدى ما كلفته ضالة؟

فإن زعموا أن الأمة عارفة بهم سئلوا: ما معرفة الأمة لهم؟ فإن قالوا: علمهم وفضلهم فقد فرغنا من هذا فيما قدمناه لهم، وإن قالوا ذلك بمعرفة أعيانهم فأى عجب في ذلك أعجب من شأنهم، أن زعموا أن من دون الإمام من رعيته مدلول عليه في حكم الدين بتسميته، وأن الإمام غير معروف بتسمية عين، ولا محكوم على أحد بمعرفته في دين!

ويقال لهم: من المحكوم بمعرفة اسمه وتنفيذ ما حكم به من حكمه الأئمة أم العلماء؟

فإن قالوا: العلماء فكلهم عندهم بالإمامة أولى؛ إذ كان مقامهم في الفضيلة أعلى.

وإن قالوا: الأئمة أولى بالمعرفة. قيل لهم: فما بالكم لم تكتفوا بتلك منهم وتسألوا دلائل الله عليهم عنهم؟

فإن هم ردوا علينا المسألة قلنا: قولوا ما شئتم أن تقولوا، واسألوا فيما قلنا من الإمامة ومن تجب له عما أردتم أن تسألوا تجابوا -والحول والقوة لله معاً- جواباً فيما تسألون عنه قصداً مجتمعاً.

فإن قالوا: من أين زعمتم أن الإمامة واجبة العقد ولم يبين الله في كتاب ولا سنة فيها ما أبان في غيرها من عهد؟ ولو كان ذلك عند الله كما قلتم، وكان وجوبه في دين الله بحيث أنزلتم - لكان فرضه مباناً، ولنزل به قرآناً، كما نزل بالصلاة وفرض مؤكِّد الزكاة.

قلنا: فمنهما بعينهما ومن بيان فرض الله فيهما صح فرض الإمامة، وأنها هي أولى منهما بالتقدمة، فأقبلوا قبل الاستماع، وتفهموا فإن الفهم سبب الانتفاع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]. وإنما تكون الجمعُ جمعاً إذا كانت هي والإمام معاً، بل ربما تقدمها فكان أمامها، كتقدم الرسول ﷺ لفرضها ولحكمها، ومن كانت تعقد له فمتقدِّمٌ قبل تقدمها، مع أنه إذا صح أنها إنما تكون بالأئمة قلهم عليها معقول التقدم، فهذا دليل فرض الإمامة من الصلاة.

فأما دليل فرضها من الزكاة فمن قول الله جل ثناؤه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٣٣]، والأئمة مكان الرسول ﷺ في أخذها ووضعها بعد الأخذ في مواضعها، وإذا قيل: خذ فالأخذ غير شك ولا امتراء قبل ما يكون من إعطاء أو إباء.

فهذا دليل على فرض الإمامة من الزكاة، إلى ما قدمنا بيانه من فرضها بالصلاة.

وفي القرآن على من أبى الإمامة وإثباتها حجة من الله في فرضه لها أثبتها، من ذلك قوله جل ثناؤه في بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، وقوله سبحانه في إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]. وما سأل إبراهيم منها لولده، وما رغب إليه سبحانه فيها من إبقائها فيهم من بعده، إذ يقول عليه السلام: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [٣٦]، فأبى سبحانه أن يجعلها من ولده إلا للمتقين، فهذه خاصة الله لرسله في أبنائهم، وعطية الله لأبناء الرسل بآبائهم، وإذا لزم تنفيذ الأقسام والأحكام، وكان ذلك لا يكون ولا يقوم إلا بالإمام - لزم جميع الأمة اتخاذ الأئمة، لزوماً ليس منه بد، ولا عنه لأحد مصد، بحجج قوية مؤكدة لا تندفع، ولا يمتنع منها من المهتدين ممتنع، ولا يأبى قبولها إلا ضال، ولا يجهل فيها حجة الله إلا الجهال، والحمد لله ذي الحجج البوالغ، والنعم الكثيرة السوابغ.

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين.

الإمامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألت من الإمام المفترض الطاعة بعد رسول الله ﷺ؟

فالإمام المفترض الطاعة بعد رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رحمة الله عليه ورضوانه، وقد ألفنا في ذلك كلاماً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، به يُعمل، وبالحجة فيه يُهتدى.

وهو: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً، والحمد لله الذي أكمل لنبيه ﷺ الدين الذي افترض على عباده، وبينه له، وافترض عليه إبلاغه، فكان مما افترض على العباد طاعة الله وطاعة رسوله، وطاعة أولي الأمر، الذي يستحق مقام رسوله والإبلاغ عنه، وليس من الفرائض فريضة أكبر قدراً ولا أعظم خطراً من الإمام الذي يقوم مقام نبيه عليه وآله السلام، وقد بين ذلك في محكم كتابه وسنة نبيه ﷺ، فجعل الله تبارك وتعالى الإمامة في بيت الصفوة والطهارة والهدى والتقوى من ذرية إبراهيم، ولا تصلح في غيرهم، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران]، ثم قال لإبراهيم ﷺ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة]، فأخبر أن الإمامة عهده الذي لا ينال ظالماً، على معنى: لا من أشرك بالله طرفة عين، ولا من أقام على ظلم؛ لأن الله لم يجعل لظالم عهداً.

ثم أخبر بمن يستحق الإمامة من ذرية إبراهيم فقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة]، ثم أخبر بذرية إبراهيم فقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ

إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة]، ثم أخبر أن الأمة المسلمة التي استجاب الله فيها دعوة إبراهيم ﷺ، وجعلهم شهداء على الناس، والشهداء على الناس الأنبياء ومن يخلف الأنبياء من الذرية التي جنبها الله عبادة الأصنام، وافترض مودتها، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج]. ثم ذكر الله تبارك وتعالى الذرية المصطفاة الطاهرة من ذرية إبراهيم التي استجاب فيها دعوته فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم]، فاستجاب الله تبارك وتعالى دعوة إبراهيم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى]، وقال لإبراهيم ﷺ: ﴿رَحِمَهُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب]، فلا تصلح الإمامة لمن عبد صنماً، لدعوة إبراهيم ﷺ لبنية الطاهرين، فليس أحد من أهل بيت الطهارة والصفوة يشهد له رسول الله ﷺ أنه خرج من لدن آدم ؑ من ظهير إلا وهو لنسبه الطاهر، حتى انتهت الطهارة في المولد إلى عبد الله وأبي طالب؛ لأن أمهما كانت واحدة، ثم شهد رسول الله ﷺ لعلي بالطهارة، والحسن والحسين وفاطمة، حيث أردف عليهم الكساء، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب]، ثم أنزل الله على نبيه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء]، فجمع بني عبد المطلب في الحديث المشهور وهم يومئذ أربعون رجلاً، فقال: يا بني عبد المطلب كونوا في الإسلام رؤساء، ولا تكونوا أذناناً، فبدأهم بالندارة قبل الناس كلهم، فقال: أيكم يجيبني إلى ما

دعوته إليه إلى الإسلام، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، على أن يكون أخي ووزيري ووارثي ووصيي وخليفتي في أهل بيتي، يقضي ديني وينجز موعودي؟

فأجابه علي من بينهم وكان أصغرهم سنًا، فضمه إليه ودعا له، فتفل في فيه، فقال أبو لهب: لبئس ما حبوت به ابن عمك حيث أجابك إلى ما دعوته، فملأت فمه بزاقًا، فقال: بل ملأته فهماً وعلماً.

ثم أورث الله تبارك وتعالى الكتاب أهل بيت الصفوة والطهارة فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر]، فلم يفرق الله بين الكتاب والحكم والنبوة فيما قص من خبر بني إسرائيل، فقال لمحمد ﷺ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]، فكان علي ﷺ أول من سبق إلى الإسلام من أهل بيت الطهارة والصفوة، لا ينازعه في ذلك أحد من بني عبد المطلب، ولا يستحقه دونه أحد، ثم دعا رسول الله ﷺ عند حضور وفاته -وبنو عبد المطلب والمهاجرون والأنصار يومئذ عنده- فدعا بسيفه ودرعه وسلاحه ودابته وجميع ما كان له، حتى تفقد عصابة كان يعصب بها على بيضة الدرع، ثم دفع ذلك إليه صلوات الله عليهما، وبنو عبد المطلب شهود والمهاجرون والأنصار.

ثم استخلفه بمكة حيث عزمت قريش على أن تُبَيِّت رسول الله ﷺ ليقتلوه أو يخرجوه، فاضطجع على فراشه، فوقاه بإدرة الختوف بنفسه، وكان يأتيه بالطعام ليلاً، وأمره يؤدي الأمانات التي كانت على يده، وأن يخرج إليه أهله، فنقد أمره، ومشى مع أهله حتى تفطرت قدماه دماً.

وخرج إلى تبوك واستخلفه وأعلمه أنه لا يصلح لخلافته إلا هو، وقال له: ((يا علي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي

بعدي))، وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر بعشر آيات من براءة إلى مكة، فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال: ((إنه لا يصلح أن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك)) ثم لم يزل رسول الله ﷺ يوليه ولا يولي عليه، ولم تجر سنة رسول الله ﷺ في علي أنه جعله تبعاً لأحد من الناس.

ثم وجه إلى اليمن خالد بن الوليد على الجيش، فقال: ((إن اجتمع الجيشان فعلي أمير الجيش))، ثم دعا له حين وجهه إلى اليمن أن يهدي الله قلبه ويثبت لسانه، ثم قال لهم: ((إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله))، فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله؟ قال: ((لا)). قال له عمر: أنا يا رسول الله؟ قال: ((لا، ولكنه خاصف النعل))، فأخبر علي بذلك، فكأنه شيء قد سمعه من رسول الله ﷺ قبل ذلك.

ثم أمره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وروي عن أبي أيوب، وعن ابن مسعود، وعن غير واحد من أصحاب رسول الله ﷺ، يقول أبو أيوب: قال لنا رسول الله ﷺ: ((تقاتلون الناكثين والقاسطين والمارقين))، قلنا: مع من يا رسول الله؟ قال: ((مع علي)).

قال ابن مسعود: إن رسول الله ﷺ أمر بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين.

وروي عن النبي عليه وآله السلام في الخبر المشهور أنه قال: ((يأتي قوم بعدي يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية)). فإنما مرقوا على علي بالإسلام ومن كان مع علي.

ثم أمر رسول الله ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه، فكان من أكبر الإبلاغ عن الله الإمام الذي يستحق مقامه، ويؤدي عنه الدين الذي أكمله الله، فأخذ بيد علي في يوم غدیر خم في حجة الوداع في آخر عمره فقال: ((يا أيها الناس، ألتست أولى بكم من أنفسكم؟)) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ((فمن كنت مولاه فعلي

مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه))، فجعله علماً لأولياء الله ولأعدائه، فمن تولى علياً كان له ولياً، ومن عاداه كان له عدواً.

وافترض الله سبحانه تبارك وتعالى في محكم الكتاب الطاعة له وطاعة رسوله وطاعة أولى الأمر، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِيَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فأعلمهم أن ولي الأمر من يعلم ما يجهلون، وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥]. والخبر المشهور الذي لا يُخْتَلَف فيه: أن علياً هو الذي آتى الزكاة وهو راعٍ.

ثم أخبر تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن أولى الناس برسوله والمؤمنين أول من اتبعه، فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨] الآية، فكان إسماعيل أول من اتبع إبراهيم صلى الله عليه وآله، وكان علي ﷺ أول من اتبع محمداً ﷺ.

وبَيَّنَّ الله تبارك وتعالى أن علياً أولى الناس برسول الله ﷺ؛ لأن لا يشك فيه أحد، فقال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]. فليس يعلم أحد ممن قد أوماً إليه الناس أنه يستحق مقام رسول الله ﷺ. تجتمع فيه هذه الثلاث الخصال إلا علي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: قد جُمع له السبق إلى الإيمان والرحم والهجرة، وهو أولى الناس برسول الله عليه وآله السلام، وأولى الناس بمقامه من الكتاب والسنة.

وروي عن علي عليه السلام أنه قال على المنبر: (والله لقد قُبِض رسول الله ﷺ ولأنا أولى الناس به مني بقميصي هذا)، وروي في الحديث المشهور: أن بريدة وقع في علي عند رسول الله ﷺ، فتغير لون النبي وأظهر الغضب، وقال: ((يا بريدة، أكفرت بعدي بالإيمان؟)) قال أعوذ بالله من غضب رسول الله، قال:

((فإن علياً مني وأنا منه، وهو وليكم بعدي)). وقال علي أيضاً وهو على المنبر: (عهد النبي الأمي إليّ أن الأمة ستغدر بي من بعده)، ثم سماه الله من نفس رسوله، فقال في كتابه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، فكان رسول الله ﷺ خير الصادقين، وأمر الله العباد أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وفرض الله اتباع العلماء فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، وسمى الله رسوله ذكراً فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فاهل بيته المصطفون الطاهرون العلماء هم الذين أوجب الله سبحانه أن يُسألوا، وأن يكونوا متبوعين غير تابعين؛ لأن الله يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٦]، وقال رسول الله ﷺ: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ألا إنها لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، ألا وإنهما الخليفتان من بعدي)). ثم دل على الحسن والحسين صلوات الله عليهما وعلى أبيهما وأمهها فقال: ((الحسن والحسين سيदा شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما))، وقال: ((اللهم حب من أحبهما))، وقال: ((تعلموا منها ولا تعلموها فيها أعلم منكم))، وقال لهما ولأبيهما: ((أنا حرب لمن حاربهم، وسلم لمن سالمهم))، وقال: ((النجوم

أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي))، وسماهها الله ابنه في كتابه، وفرض مودتهما، ولهما آية الخمس، ولهما الفيء، ولهما آية التطهير، قال الله: ﴿قَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الروم: ٣٨]، فدل عليهما بأعيانهما وأنسابهما وأفعالهما، إلا أن الحسن يتقدم الحسين بالسن، وهما جميعاً في وقتها: ((إمامان قاما أو قعدا)).

ثم دل على أولادهما فقال: ((إن تمسكتم بالكتاب وبهم لن تضلوا أبداً)).
ودل على المهدي باسمه ونسبه وفعله.

ودل على أبرار العترة الأتقياء المصطفين المطهرين بالنسب المصطفى الطاهر، والأعمال الطاهرة الزكية التي توافق الكتاب والسنة، فأكثرهم بالكتاب تمسكاً وأوجبهم على المسلمين حقاً، والشريعة التي توجب لهم أن يستحقوا مقام الرسول وأن يكونوا متبوعين غير تابعين العلم والجهاد وأداء الأمانات إلى أهلها، فمن كان فيه هذه الخصال الأربع^(١) وجب على أهل بيته وعلى المسلمين اتباعه، ومعاونته على البر والتقوى. قال الله في كتابه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢٠]، فمتى كان منهم العلم والزهد والتقوى كان على الناس أن يقتبسوا من علمه، وأن يهتدوا بهديه، فأفعالهم الصالحة، ونسبهم الطاهر الدال عليهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) هذه ثلاث خصال، والرابعة النسب الطاهر الذي ذكره أولاً ثم عطف عليه هذه الثلاث. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

الإمامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

يُسْأَلُ الَّذِينَ قَدَمُوا أبا بكر فيقال لهم: خبرونا عن جميع ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الله، وأمرنا به من طاعة الله، ما هو؟ وهل يخلو من ثلاثة أوجه: إما فريضة أو جها عليهم من الله. وإما سنة سنّها لهم، وإما تطوع أمرهم به على الترغيب فيه، إن شاءوا فعلوه، وإن شاءوا تركوه؟

فمن قولهم: لا يخلو من أحد هذه الثلاثة الوجوه - ولا سبيل لهم إلى أكثر من ذلك؛ لأن ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحد هذه الثلاثة الخصال - يقال لهم: فأخبرونا عن هذه الفرائض التي أمرهم النبي بها عليه السلام عن الله، معروفة معلومة، أو مجهولة غير معروفة؟

فمن قولهم: لا، بل معروفة غير مجهولة فيقال لهم: فمثل أي شيء؟
فمن قولهم: مثل صلاة الظهر أربع ركعات، وصلاة المغرب ثلاث ركعات، والصبح ركعتان، ومثل الزكاة من مأتي درهم خمسة دارهم، ومن أربعين ديناراً ديناراً، ومثل فرائض الموارث للبنت النصف، وللذكر مثل حظ الأنثيين.
فيقال لهم: هل يجوز لأحد أن يُحوّل هذه الفرائض فيجعلها على خلاف ما فرض الله؟

فإن قالوا: نعم أبطلوا جميع الفرائض، وإن قالوا: ما تعنون بقولكم يُحوّلها؟
قيل لهم: مثل المغرب يجعلها ركعتين، ومثل الصبح يجعلها ثلاثاً، ومثل أن يفرض للبنت الواحدة الثلث، ويعطي الذكر مثل حظ الأنثى، وفي ست من الإبل شاة، وفي مأتي درهم ثلاثة دراهم، وفي ثلاثين من الغنم شاة، وفي عشرين من البقرة بقرة.

فمن قولهم: هذا لا يجوز. قيل لهم: لم لا يجوز؟
فإن قالوا: لأن هذه الفرائض جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معروفة معلومة

محدودة، فإن زادوا فيها أو نقصوا خالفوا الله ورسوله فيما أمرهم به وفرضه عليهم، وفي خلاف هذا هدم الدين.

قيل لهم: فجميع الفرائض على هذه الحال؟

فإن قالوا: لا، تركوا قولهم: إنه لا يجوز أن يتركوا ما أمرهم الله به، فيكون في قولهم أنه يجوز في بعض ولا يجوز في بعض.

وإن قالوا: لا يجوز النقصان ولا الزيادة في جميع الفرائض. قيل لهم: هذه الفرائض قد أجمعتم عليها أنه لا يجوز فيها زيادة ولا نقصان، فأخبرونا من السنن ما هي عندهم؟ فمن قولهم: مثل مواقيت الصلاة، الظهر إذا زالت الشمس، والمغرب إذا غربت، والصبح إذا طلع الفجر، ومثل صلاة العيدين، ومثل زكاة الفطر، ومثل صلاة الوتر بالليل ثلاث، وركعتان قبل الصبح، ومثل هذا من المناسك والسنن.

قيل لهم: ما تقولون: هل يجوز لأحد أن يحوّل هذه السنن عن جهاتها، فيجعل الوتر بالنهار، ووقت الظهر لوقت العصر، وصلاة النهار بالليل، وزكاة الفطر في الأضحى، وركعتي الفجر بعد^(١) الصبح، وكل شيء من السنن يحوّلها على هذا النحو؟

فمن قولهم وقولنا: لا يجوز تحويل هذه الأشياء على خلاف ما سنّها رسول الله ﷺ. قيل لهم: وكذلك جميع السنن.

فإن قالوا: نعم، قادوا قولهم: إنه لا يجوز تغيير شيء من سنن رسول الله ﷺ، كما لا يجوز تغيير شيء من الفرائض التي ذكرنا.

قيل لهم: فما تقولون في التطوع؟

فإن قالوا: الناس كلهم في التطوع بالخيار، إن شاءوا فعلوه وإن شاءوا تركوه،

(١) في نسخة: قبل.

وكذلك قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ [البقرة: ١٨٤].

يقال لهم عند ذلك: ما تقولون في الإمامة أهى من دين الله أم من غير دين الله؟

فإن قالوا: ليست من دين الله لزمهم في إجماع من أجمع على إمامة أبي بكر أنهم لم يكونوا على دين الله.

وإن قالوا: الإمامة من دين الله، قيل لهم: من أيّ دين الله؟ من الفرائض أم من السنن أم من التطوع؟ فقد زعمتم أن الدين لا يخلو من أحد هذه الثلاثة الوجوه.

فإن قالوا: من الفرائض قيل لهم: كيف فرض رسول الله ﷺ الإمامة لأبي بكر، سماه لكم رسول الله ﷺ باسمه وعينه، أو دلّ عليه بصفته، أو تركها شورى، أو سكت فلم يقل من ذلك شيئاً؟ ولا بد من إحدى هذه الخصال ولا خامسة معهنّ.

فإن قالوا: إن رسول الله ﷺ نص لنا أبا بكر بعينه واسمه ونسبه.

قيل لهم: فما بالهم وقفوا عنه ثلاثة أيام يشاورون فيه وقد سماه رسول الله ﷺ باسمه ونصبه بعينه؟ وما بال أبي بكر قال لهم: أنا أرضى لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أحدهما: أبا عبيدة بن الجراح أو عمر بن الخطاب؟ فقال أبو عبيدة وعمر: لسنا نفعل، ولا نبايع أحداً إلا أنت، ابسط يدك حتى نبايعك، فبسط يده فبايعاه. فسماه رسول الله ﷺ باسمه ونصبه بعينه وهو يقول: بايعوا أبا عبيدة أو عمر؟! هذا خلاف ما فرض الله عليهم، أن يكون رسول الله ﷺ سماه وهم يتشاورون فيه، وهو أيضاً يسميهم وينص على من لم يُسمّه رسول الله ﷺ ولم يرضه لهم!! ولا يجوز في فريضة الله خلاف ما فرض. مع أنهم إن كانوا تركوا قول النبي ﷺ لشك منهم في قوله كفروا، وإن كان لخلاف منهم فقد عاندوا رسول الله ﷺ، ومن عاند رسول الله ﷺ فقد كفر.

وإن قالوا: لم يكن وقوفهم تلك الثلاثة الأيام لشكٍ منهم في قول رسول الله ﷺ، ولكنهم وقفوا ليجتمع الناس من غاب وحضر.

قيل لهم: أو كذلك فرض الإمامة، الوقوف والتشاور بعد الاسم والنص؟!
 فإن قالوا: نعم، قيل لهم: فهل يجوز لهم أن يحولوا هذه الفريضة عن جهتها؟
 فإن قالوا: لا يجوز لهم. قيل لهم: فهل أدّى أبو بكر هذه الفريضة كما أمر الله؟
 فإن قالوا: نعم، قد سمى لنا عمر ونصبه بعينه، كما فعل رسول الله ﷺ.
 قيل لهم: فما بالكم لم تشاوروا في عمر كما تشاورتم في أبي بكر بعد النبي ﷺ؟!
 فإن قالوا: لأن ذلك جائز لنا قيل لهم: فقد نقضتم قولكم: لا تُغَيِّرُ الفريضة،
 وهذا نقض الفريضة التي فرض الله ورسوله لكم في أبي بكر؛ إذ لم تشاوروا في
 عمر كما تشاورتم في أبي بكر، ولم تشاوروا في قول أبي بكر كما تشاورتم في قول
 النبي ﷺ.

فإن قالوا: لأن المشورة إليهم قيل لهم: فإيهما أوثق في قوله، النبي ﷺ أم
 أبو بكر؟!!

فإن قالوا: أبو بكر كفروا، وإن قالوا: النبي ﷺ أوثق قيل لهم: ما أين
 نفاقكم، إنكم تقولون: النبي أوثق وأنتم تشاورون بعده، وأبو بكر عندكم ليس
 بأوثق من النبي ﷺ وأنتم لا تحتاجون بعد قوله إلى المشورة، فقد لزمكم أن
 أبا بكر عندكم أوثق من النبي ﷺ؛ لأن أوثق الأوثاق الذي لا تشاور في
 قوله، وهذا التناقض من الكلام غير معقول ممن قاله ولا مقبول.

ويُسألون أيضاً: هل كل الله على عمر أن يؤدي فريضة الإمامة كما أدّى رسول
 الله ﷺ في أبي بكر، وكما أدّى أبو بكر في عمر؟

فإن قالوا: لا، صيروا لعمر ديناً على حدة، وإن قالوا: الله على عمر أن يؤدي
 فريضة الإمامة على مثل ما أمر به رسول الله ﷺ قيل لهم: فلم جعلها عمر
 شورى بين ستة وإنما كان فعل النبي ﷺ في أبي بكر كما زعمتم أنه سماه

باسمه ونصبه بعينه؟! وكذلك فعل أبي بكر في عمر كما زعمتم.
 فإن قالوا: لأن الخلاف في هذه الفريضة جائز قيل لهم: فقد نقضتم قولكم،
 حيث زعمتم أن فرائض الله لا يجوز تحويلها عن جهاتها، ونحن نراكم تقولون
 في أوكد الفرائض: إنه يجوز أن يخالف فيها الله ورسوله.
 ويسألون: ما تقولون، هل جعل رسول الله ﷺ في الإمامة شورى بين
 ستة؟

فإن قالوا: نعم، كذبتهم الأمة، وإن قالوا: لم يجعل فيها شورى قيل لهم: فهل
 جعلها عمر شورى بين ستة؟
 فإن قالوا: لا، قيل لهم: فقد خالف عمر النبي ﷺ؛ لأن النبي جعلها
 شورى ولم يجعلها عمر شورى، وتكذبهم الأمة أيضاً أن عمر لم يجعلها شورى،
 وكفى بتكذيب الأمة حجة عليهم.

وإن قالوا: نعم قد جعلها عمر شورى بين ستة قيل لهم: فمن كان أوثق في
 فعله النبي ﷺ أم عمر؟!

فإن قالوا: النبي ﷺ أوثق في فعله. قيل لهم: فلم خالف عمر الفرض في
 الإمامة أن يتبعوا فعل النبي ﷺ؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿مَا آتَاكُمُ
 الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، فإن قالوا: كل صواب
 وتوفيق، شبهوا فعل عمر بفعل النبي ﷺ، وأعطوه من التوفيق مثل ما
 أعطوا رسول الله ﷺ؛ لأنه خالف رسول الله ﷺ في فريضة الإمامة،
 وكان خلافه فيما أمر الله به صواباً وتوفيقاً.

ويقال لهم: أخبرونا لو أن عمر عمد إلى صلاة الظهر فجعلها خمساً كان ذلك
 جائزاً؟

فإن قالوا: لا قيل لهم: ولم؟
 فإن قالوا: لأن الفرائض لا تُغيّر، ولا يجوز أن يُصيّرَ ما جعل الله أربعاً خمساً.

قيل لهم: كيف جاز لعمر في فريضة الإمامة أن رسول الله ﷺ نصّ أبا بكر، وأن أبا بكر نص عمر، وأن عمر خالفهما جميعاً فجعلها شورى بين ستة؟ فهذا خلاف فريضة الله ورسوله، وعمل بخلاف ما فعلاه.

وإن قالوا: إن ذلك جائز في الإمامة ولا يجوز في غيرها - نقضوا قولهم في أول المسألة: إنه لا تُغيّر فرائض الله، وصاروا إلى أن فرائض الله يجوز تغييرها، ويلزمهم في ذلك إن جاز في بعضها جاز في كلها، حتى لا يبقى دينٌ إلا غُيّر، وهذا فاسدٌ منكسرٌ على من قال بهذه المقالة في فرض الإمامة أنه نص أبا بكر.

ويسأل الذين قالوا: فرض الإمامة شورى بين المسلمين، ما تقولون، كيف فرض الإمامة من رسول الله ﷺ؟

فإن قالوا: جعلها شورى بين المسلمين قيل لهم: وما الدليل على ذلك؟
فإن قالوا: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، فلذلك فعلوا في أبي بكر ما فعلوا، حيث أقاموا ثلاثة أيام يتشاورون فيه حتى أقاموا أفضلهم، يقال لهم: فهل يجوز لأحد أن يُحوّل هذه الفريضة فيجعلها على خلاف ما فرضها رسول الله ﷺ؟

فإن قالوا: نعم، نقضوا قولهم، وفارقوا الإجماع في أنه لا يُحوّل فرائض الله، ولو جاز ذلك لجاز أن يجعل الظهر خمساً والعصر ستاً والمغرب ركعتين، وكذلك جميع الفرائض. وهذا نقضٌ لدين محمد ﷺ.

وإن قالوا: لا يجوز في الإمامة تغيير ولا خلاف لقول رسول الله ﷺ قيل لهم: فما بال أبي بكر لم يجعلها شورى بين المسلمين كما جعلها النبي ﷺ؟
فإن قالوا: لأن خلاف أبي بكر صوابٌ قيل لهم: وكذلك خلاف عمر صوابٌ، وكل من يأتي بعدهما إلى يوم القيامة يخالفون رسول الله وأبا بكر وعمر

وجميع الأئمة^(١).

فإن قالوا: ذلك جائز قليل لهم: وكذلك جميع الفرائض.

فإن قالوا: لا، قيل لهم: لم لا يجوز وقد جوزتم في بعض؟ ولا حجة لهم.

وإن قالوا: يجوز، لزمهم نقض الدين كله، فإذا اضطروا أنه لا يجوز إلا الشورى كما أمر رسول الله ﷺ في قوله لزم أبا بكر أنه خالف رسول الله ﷺ حيث استخلف عمر ونصبه بعينه ولم يجعلها شورى بين المسلمين كما جعلها رسول الله ﷺ.

وخالف عمر رسول الله وأبا بكر، حيث جعلها شورى بين ستة، فلا هو اقتدى برسول الله ﷺ وجعلها شورى بين المسلمين، ولا هو اقتدى بأبي بكر فنص بعده رجلاً كما نصّه أبو بكر بعينه واسمه، وهذه فريضة متناقضة؛ لأننا وجدنا أبا بكر لم يتبع فعل النبي ﷺ في فريضة الإمامة؛ إذ زعمتم أنه جعلها شورى بين المسلمين، وكذلك عمر جعلها شورى بين ستة، فكل واحد منهما قد خالف صاحبه، وخلافهما جميعاً خلافاً لفعل رسول الله ﷺ، فإن كان صواباً ما خالفا به رسول الله في الدين قاسوا أبا بكر وعمر برسول الله ﷺ، وزعموا أنه يجوز لكل واحد منهما خلاف صاحبه، وأنه يجوز لهما أيضاً خلاف رسول الله، فإن قالوا: ذلك لا يجوز لهما. فقد ابتدعا في الإسلام ما لم يكن لهما.

ويسألون عن فعل أبي بكر وعمر في الإمامة، كان أصوب أم فعل النبي؟

فإن قالوا: فعلهما. كفروا.

وإن قالوا: فعل النبي ﷺ أصوب قيل لهم: فأيهما كان أولى بابي بكر وعمر

يقتديان بالنبي أم لا يقتديان به؟

فإن قالوا: يقتديان بالنبي خير لهما قيل لهم: فحيث خالفا النبي ﷺ في

(١) في (نخ): الأئمة.

الإمامة اقتديا به أم لم يقتديا به؟

فإن قالوا: لا، بل اقتديا به خالفوا أن تكون الشورى بين المسلمين مثل الشورى بين ستة، وأن تسمية أبي بكر لعمر وحده هي شورى بين المسلمين، وهذا المحال من الكلام.

وإن قالوا: لم يقتديا بالنبى، ولو اقتديا به كان خيراً لهما قيل لهم: أفيجوز لهما ما فعلاً أم لا يجوز؟

فإن قالوا: نعم، هذا جائز لهما قيل لهم: أفصوابٌ ذلك أم خطأ؟

فإن قالوا: بل خطأ لزمهم أنه يجوز أن يخالف رسول الله ﷺ.

وإن زعموا أنه صوابٌ فقد زعموا أن خلاف النبى ﷺ صوابٌ. وهذا ما لا يقول به أحدٌ من المصلين. وزعموا أن أبا بكر وعمر جائزٌ لهما أن لا يقتديا برسول الله ﷺ، وهذا شر ما أضيف إليهما، ترك الاقتداء بالنبى ﷺ.

وقال بعضهم: إذا كانت الشورى بين المسلمين فليس بمتناقض، إنما هو ما رأى المسلمون، إذا أجمعوا^(١) على أن يُصيروا رجلاً بعينه أو أن يجعلوه بين ستة فهو ما فعلوا، فلهم ذلك، وليس في هذه الفريضة تناقض، إنما كان الأمر شورى.

فيقال لهم: الشورى من الجميع أم من بعض؟

فإن قالوا: من الجميع. قيل لهم: فكيف جعل أبو بكر عمرَ بغير شورى بين المسلمين؟ وقد وجدناهم يقولون: نشدك الله أن تستعمل علينا عمر، فإنه فظٌ غليظ.

فقال: أتخوفونني بالله، أقيموني، فلما أقاموه قال: اللهم إني إذا لقيتك قلت: استعملت عليهم خيرَ خلقك. والدليل على أنها لم تكن شورى أنه ساعة مات أبو بكر كان الخليفة من بعده عمر، وقد أجمع الناس على هذا، وقد أقاموا بعد

(١) في نسخة: اجتمعوا.

رسول الله ثلاثة أيام يشاورون في أبي بكر، إلا أن يكون عمر بأن من الفضل بما لم يكن بأن به أبو بكر عند النبي ﷺ، فإذا انكسر هذا لم يكن يجوز لأبي بكر أن يقدم عمر إلا بشورى، ولا يجوز له ذلك دون المسلمين جميعاً.

وكذلك أيضاً يلزمهم في ستة دون المسلمين، فيلزمهم إن كانت إصابة الإمامة لا تكون إلا بالشورى من الجميع أن الذي فعل أبو بكر خطأ، وأن الذي فعل عمر خطأ، وإن كانت الشورى بين ستة كما فعل عمر فقد أخطأ أبو بكر، وإن كانت كما فعل النبي ﷺ فقد أخطأ جميعاً.

ويسأل الذين زعموا أن فريضة الإمامة من رسول الله ﷺ لأبي بكر بالصفة والدلالة، وأنهم إنما أقاموا أبا بكر بتلك الدلالة، مثل قول النبي صلى الله عليه وآله: ((صل بالناس))، ومثل يوم بدر أقعده معه في العريش، وكان مجلسه عن يمين رسول الله ﷺ، وقالوا: بهذه الصفات اختاروا أبا بكر.

قيل لهم: فما بال أبي بكر لم يدل على عمر بالصفة - حيث سماه لهم باسمه ونصبه بعينه وأقامه بعده - كما دلَّ رسول الله ﷺ على أبي بكر؟ ولا يجدون إلى دفع ذلك سبيلاً. وهذا خلاف لرسول الله ﷺ؛ يفرض فريضة بالدلالة ويجعلها أبو بكر بالنص، وكذلك عمر أيضاً جعلها شورى.

وهذا ما لا يجوز أن يحول فريضة من فرائض الله عن جهتها، وإن جاز أن يخالف رسول الله ﷺ في فريضة واحدة جاز أن يخالف في جميع الفرائض، حتى تبطل جميع فرائض الله وتحدث فرائض أخرى.

وإن قالوا: لا يجوز هذا إلا في فريضة الإمامة سئلوا الدليل على ذلك؟

وكذلك أيضاً إن قالوا: إن الإمامة سنة على مثل قياس الفريضة، فإن جوزوا تبديل سنن الله وسنن رسوله ﷺ مثل صلاة الوتر بالنهار، وزكاة الفطر في الأضحى، وصلاة العصر في وقت المغرب، وصلاة الصبح في وقت العتمة، حتى تبطل جميع سنن الله.

فإن قالوا: لا يجوز تحويل السنة إلا في الإمامة، سئلوا الدليل على ذلك؟ ولا يجدون إلى ذلك سبيلاً، ويلزمهم من ذلك مثل ما لزمنا الحجة في مسألة الفريضة.

وإن قالوا: إن الإمامة تطوع لزمهم أن سنن الله وفرائضه لا تقوم إلا بالتطوع، وهذا ما لا نحب لأحد أن يقوله.

ويسأل الذين يزعمون أن الإمامة لا تكون إلا بالشورى من جميع المسلمين يقال لهم: أخبرونا عن الشورى في الأمة جميعاً، أم في كل جنس، أم في الفاضل، أم لا تكون إلا في جنس واحد؟

فإن قالوا: لا تكون إلا في جنس واحد نقضوا قولهم: إن الشورى لا تكون إلا بالمسلمين جميعاً.

وإن قالوا: لا تكون إلا من الأجناس جميعاً قيل لهم: فما بال أصحاب النبي ﷺ لم يدخلوا معهم في الشورى غيرهم؟ وما بال عمر لم يجعلها في الأجناس جميعاً؟ وما باله لم يجعلها شورى بين المسلمين كلهم؟ وهذا متناقض لا يستقيم، فأبي ذلك قال انكسر عليه حتى يرجع إلى أهل الحق^(١).

واعلم أن أفرض الفرائض وأكدها فرض الإمامة؛ لأن جميع الفرائض لا تقوم إلا بها، ولا يجوز تبديل فريضة الإمامة بوجه من الوجوه؛ لأن فيها من الإفساد ما ليس في غيرها.

وإن سألوا فقالوا: ما تقولون في الإمامة فريضة هي أم سنة أم تطوع؟ قيل لهم: بل أفرض الفرض^(٢)، وأكدته في الفرض.

فإن قالوا: هل يجوز أن يخالف في هذه الفريضة بوجه من الوجوه؟

قيل لهم: لا؛ لأنه لو جاز أن تخالف فريضة لجاز أن تخالف الفرائض كلها؟

(١) في (أ): إلى قول أهل الحق.

(٢) في نسخة: الفرائض.

فإن قالوا: فما وجه الإمامة عندكم؟

قيل: وجه الإمامة موضع الاختيار من الله معدن الرسالة ليكون الموضع معروفاً. والدليل على ذلك: أن الإمامة موضع حاجة الخلق، فلا يجوز أن تكون في موضع غير معروف؛ إذاً بطلت الحاجة وضاع المحتاجون، وإذا كان ذلك فسد^(١) التبيين، ودخل الوهن في الدين؛ لأن الله تبارك وتعالى وضع الأشياء موضع الحاجة، ووضع للمحتاجين ما فيه صلاحهم، ولولا ذلك لفسد التدبير، وهلك الخلق.

والدليل على ذلك: أن الله بعث الرسل لحاجة الخلق؛ ليبين لهم ما فيه صلاحهم، وإذا لم يبين لهم ما فيه صلاحهم هلكوا؛ فلذلك قلنا: لا يجوز أن تكون الإمامة بعد النبوة إلا في موضع معروف؛ لحاجة الخلق إليها، وإلا فسد التدبير وضاع الخلق.

ومما يصدق قولنا: إن الإمامة موضع حاجة الخلق، وإنه لا غناء بالناس عنه - قول الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِيَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فأمر بطاعة معلوم غير مجهول، وأوجب على الخلق ثلاث طاعات ترجع إلى طاعة واحدة، وهي طاعة الله عز وجل، وأنه لا غناء بالناس بعد الرسول ﷺ من الإمام، وإلا سفكوا الدماء، وانتهكوا المحارم، وغلب القوي الضعيف، وبطلت الأحكام والحدود وحقوق اليتامى والمساكين، ورجع الدين جاهلية؛ فلذلك قلنا: إن الإمامة لا تكون إلا في موضع معروف، حتى متى قصدوا إلى ذلك الموضع وجدوا حاجتهم، وإلا اختلفوا وهلكوا.

(١) في نسخة: وإذا كان ذلك كذلك فسد التبيين.

فإن قالوا: بينوا لنا وجه الفريضة؟

قيل لهم: الوجه على مثال قياس الفرائض كلها يأتي الخبر من الله فيأمر نبيه ﷺ أن ينص رجلاً بعينه من موضع معروف، ولا يكون ذلك الموضع إلا وهم به عارفون في النسب والتقى؛ ليكون موضع القنوع، حتى لا يقول أحد: أنا أولى، كما لم يجز لأحد أن يدعي أنا أولى بالرسالة من الموضع الذي بعث الله منه نبيه.

وكذلك الإمامة في أرفع المواضع، وهو معدن الرسالة؛ لقطع الحجة.

والدليل على ما قلنا: أن الإمامة إذا خرجت من أرفع المواضع وأقربها إلى رسول الله ﷺ ادعت كل فرقة من الأمة الإمامة، ووقع الاختلاف، وفي الاختلاف إبطال الدين.

فإن قالوا: إنك ادعيت أن الإمامة بخبر من رسول الله ﷺ أن ينص رجلاً بعينه، فإذا قبض النبي انقطع الخبر عن النبي ﷺ، فقد تغيرت الفريضة عن جهتها؟

قيل لهم: من هاهنا غلطتم، إن الفرائض كلها على مثل ما أخبرناكم، تنزل الآية في الشيء بعينه، حتى تؤدي تلك الفريضة في كل زمان على مثل الخبر الذي أنزل الله في الشيء بعينه، حتى تؤدي تلك الفريضة على تلك الجهة، وإن عبتنا على من قال بخلافنا أنهم غيروا الفريضة عن جهتها، فجعلوها مرة نصاً في رجل بعينه، ومرة شورى، ومرة بين ستة. وإنا قلنا نحن: لا تكون إلا على هيئة واحدة، ألا ترى أن صلاة الظهر نزلت في يوم من الأيام جمعة أو سبتاً أو أحداً أو غير ذلك من الأيام مسمى باسم، ثم هي في الأيام كلها على هيئة واحدة لا تغير. وكذلك قلنا في رجل بعينه في ذلك الزمان، ثم في كل زمان في رجل واحد، ولو كانت الأسماء مختلفة والقراة والتقى والفضل واحد، فهذا قياس ما قلنا، فافهموا مغاليط أهل الخلاف. وكذلك على الناس أن يؤدوا جميع الفرائض على مثل هذا القياس. وكذلك الإمامة في أبر الخلق وأتقاهم، وأن يؤدوا هذه

الفريضة حيث أمرهم رسول الله ﷺ.

فإن قالوا: فقد زعمتم أن رسول الله ﷺ نصه بعينه، كذلك قلنا نحن: إن النبي ﷺ بين لنا صفته، فوجدنا أبا بكر في تلك الصفة، فلم عبتم علينا؟! قلنا لهم: لأننا ادعينا أن الله تبارك وتعالى أنزل الآية والموصوف موجود، وكان رسول الله ﷺ أولى بإقامته للناس باسمه وصفته.

وقولنا أولى من قولكم: إن الناس كانوا أولى بأن يخرجوا الموصوف، وأنتم إن أبطلتم بالفاظكم هذا فقد تدل فعالكم عليه، حيث زعمتم أن رسول الله ﷺ لم يسمه باسمه، ولم ينصبه لهم، أنهم (١) حيث سموه وأقاموه بعد الرسول ﷺ أن هذا توفيق من الله بعد النبي ﷺ ما لم يبين لهم في حياته، ونحن قلنا: كان رسول الله ﷺ أولى بأن يبين الاسم والصفة؛ لأن البيان من رسول الله ﷺ ليس كالبيان من غيره، فمن هاهنا قلنا: إن رسول الله ﷺ نصبه باسمه ونسبه.

فإن قالوا: إنا قد نراكم رجعتم إلى قولنا في الصفة والاسم بعد الأول أيضاً بالصفة، فما الفرق بيننا وبينكم؟

قيل لهم: إن اسم رجل بعينه لا يكون للناس كلهم، ولكن يكون النسب والفضل واحداً، وأنتم زعمتم أن الاسم والنسب مخالف، فهذا الفرق بيننا وبينكم في الدعوى.

فإن قالوا: من أين ادعيتم أنه معدن واحد دون المعادن كلها؟

قيل لهم: لأنه لو كانت معادن مختلفة لم يجوز أن يكون الأمر إلا بالشورى، ولا تجوز الشورى إلا في القبائل التي تجوز لهم الإمامة، فإذا ذهبوا إلى أن يجمعوا أهل الشورى من كل قبيلة لم يجوز إلا أن يختاروا من أهل الإسلام جميعاً، وإذا كان

(١) في (نخ): أنه.

ذلك لم يجز إلا جمعهم من الآفاق كلها جميعاً، مع أنه لا يكون ذلك إلا برضاهم جميعاً، ولو جاز اجتماعهم اختلفت همهم أن يكون الأمر فيهم، وفي اختلاف همهم ومشاورتهم منازعة؛ لأن كل قوم يقولون: لهم فضل الإمامة؛ لأن البنية على هذا. فإذا وقعت المنازعة وقعت الفتنة، وإذا وقعت الفتنة وقع الحرب، وإذا كان ذلك تفانوا. فإذا ما وقعوا فيه من الشر والفساد أعظم مما طلبوا من الصلاح في طلب الإمامة، ولم يكن الله تبارك وتعالى يفرض عليهم فريضة يريد بها صلاح عباده، فتكون تلك الفريضة عليهم وبالأهلاً وهلاكاً وفساداً، مع ما يدخل من النقص في التوحيد والرسالة، فمن قبل ذلك قلنا: لا يجوز إلا أن تكون في مكان معروف.

فإن قال قائل: إنما جعل الله الإمامة في قريش، وهي معروفة، فما دليلكم في الموضوع الذي تدعون؟

قيل لهم: لأنكم إذا ادعيتم أنها في قريش دون غيرها كانت الحجة لنا عليكم، ولقراءة رسول الله ﷺ لا غيرها، فإن كان ما قلتم حقاً فنحن أولى بما ادعينا من القرابة؛ لأنهم أقرب برسول الله من موضعكم الذي ادعيتم وأبين فضلاً.

[من لا يصلح للقيام مقام الرسول ﷺ ومن يصلح لذلك]

واعلم أنه لا يجوز أن يقوم مقام الرسول ﷺ من إذا قضى بقضية أو أحدث حدثاً مما لم يأت عن الله ولم يحكم به رسول الله ﷺ، وراجع فيه من هو أعلم منه بالله - رجع عن حكمه واعتذر وكان قوله: (عليّ شيطانٌ يعتريني، فإذا رأيتم مني ذلك فاجتنبوني لا أبدر^(١)) في أشعاركم وأبشاركم)، فهذا لا يصلح للإمامة، ولا يجلس في مجلس رسول الله ﷺ، ولا من كان إذا حكم بحكم فقليل له: أصبت يا أمير المؤمنين يعلوه بالدرّة، ويقول: (لا تزكونا في

(١) في شرح نهج البلاغة ولوامع الأنوار: لا أؤثر.

وجوهنا، فوالله ما أدري أصبتُ أم أخطأتُ، وما هو إلا رأي رأيتُه من نفسي). فيخبرهم أنه لا يدري أصاب أم أخطأ، وهم يشهدون له أن السكينة تنطق على لسانه، يخبرون عنه بخلاف ما يخبر عن نفسه، ويجعلون له من التوفيق ما يجعلون لرسول الله ﷺ. وإنما يصلح للإمامة ويخلف النبي ﷺ في أمته مَنْ كان إذا صعد المنبر يقول: (سلوني قبل أن تفقدوني، فعندي علم المنايا والقضايا، والحكمة والوصايا، وفصل الخطاب، والله لأننا أعلم بطرق السماء من العالم منكم بطرق الأرض، وما من آية في ليلٍ ولا نهارٍ ولا سهلٍ ولا جبلٍ إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وفيما أنزلت، ولقد أَسْرَ إليَّ رسول الله ﷺ من مكنون علمه ألف بابٍ، يفتح لي كل بابٍ منها ألف بابٍ، نحن النجباء، وأبناء النجباء، وأنا وصي الأوصياء، وأنا من حزب الله وحزب رسوله، والفئة الباغية من حزب الشيطان، والشيطان منهم، وأفراطنا أفراط الأنبياء، ولا يقوم أحدٌ يسأل عن شيء إلا أخبرته به غير مُتريثٍ)، والله تعالى يقول: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس]. والإمامة لا تكون إلا في موضع الطهر، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، وجوهر النبوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأمر بمودتهم بعد نهيه عن مودة مَنْ حادّه، وليس يخالف الحق إلا أهل العناد لله ولرسوله والبغي والحسد والجهالة، ممن لا رَوِيَّةَ له من المرجئة والقدرية، والنواصب وجميع الخوارج، ممن خالفنا أو حاد عن الحق وقال برأيه، وقد فسرنا في كتابنا هذا ما يدخل على من خالفنا ما يستدل بدونه مَنْ نصح لنفسه وترك المحاباة على ما سبق إلى قلبه، فَمَنْ فهم بعض ما وصفنا ذلك على كثير مما يريد، وبالله نستعين، وعليه نتوكل، وإليه نفوض أمورنا مستسلمين له، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وأهله وسلم.

[الوصية وذكر بعض صفات الإمام وحكم إمامين في عصر واحد]

وسألت عن الوصية؟

فاعلم أن الله تبارك وتعالى أوصى العباد بوصايا، وأرسل الرسل بوصايا، وأوصى محمداً ﷺ وعلى آله بوصايا، منها: ظاهرة ثبتت بها الحجج على من سمعها وعقلها، ومنها: وصايا خاصة لعلي بن أبي طالب صلوات الله عليه وعلى آله وليست للناس، إلا أن يشاء علي أن يعلمها، فضيلة من الله لعلي.

من ذلك قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [النساء: ١]، الآية، والثانية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ﴾ [المائدة: ٢]، الآية. وقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، يعني خيراً: مالاً. ثم نسخ ما جعل الله للوالدين من الوصية بالميراث، وجعل ما بقي للأقربين ممن لا يرث، وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]، وقال: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾، إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم أخبرهم فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، الآية. وقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ [الحج: ٤١]، الآية.

ومن ذلك وصايا الأنبياء صلوات الله عليهم جميعاً، قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ١٣]، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣٢]، الآية. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((المهدي - في بُدْيِّ دولتهم وسماه باسمه واسم أبيه - اسمه باسمي، واسم أبيه باسم أبي، سخي على المال، شديد على العمال، رحيم بالمساكين)).

والشريعة فيمن لم يشبه رسول الله ﷺ باسمه في غير وقت دولتهم، من كان من العترة فيه العلم، والجهاد، والعدل، وأداء الأمانات، فإذا كملت هذه الشريعة في رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وهي أكمل الدرجات في كتاب الله في رجل من أهل بيت الطهارة والصفوة، - وجب على أهل بيته وعلى أهل الإسلام اتباعه وتقديمه، ومعاونته على البر والتقوى.

فإن زعم زاعم أنه لا يصلح أن يكون الإمام إلا واحد، فإن النبوة أعظم قدراً عند الله من الإمام، قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]، وقال لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه]، وكان إبراهيم وإسماعيل ولوط في زمن واحد يدعون إلى الله، فإذا استقام أن يكون الداعي إلى الله من الرسل في زمن واحد اثنين وثلاثة فذلك فيما دون النبوة أجور.

تم ذلك والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد المختار، وآله الأطهار، المنتجبين الأبرار، المصطفين الأخيار، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

إمامة علي بن أبي
طالب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سئل القاسم بن إبراهيم عليه السلام عن إثبات الإمامة والخلافة لعلي بن أبي طالب عليه السلام فقال: إنما وجب على الناس طاعة علي وتقديمه لفضل علي في دين الله، وسوابقه في جهاد أعداء الله، التي لم يبلغ مثلها ممن كان مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعليه جميعاً بالغ، ولم يكن يلحق به من جميع أصحابه لاحق، مع قرابته القريبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفضله في العلم والفقه عن الله، فإذا كانت فضائله في الجهاد مما لا ينكرها منكر، وكان فضل علمه على ما لا يدفعه دافع عالم ولا جاهل إلا أحق مكابر، وكان له من القرابة الخاصة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما ليس لغيره، مع ما جاء من تتابع الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتواتره في إجلاله لعلي وإشارته إليه، وما قال من الأقاويل فيه، ومن الدلالة على فضله ما لم يقل مثله في غيره - وجب على الناس تقديم علي بالإمامة وتفضيله، وكان من قدم غيره عليه فقد قدم المفضول على الفاضل، وخالف في ذلك الصواب الذي دل الله عليه وبلغ من فهم ما لله من الحكم الرشيد العادل، بتقديم المقدّم وتأخير المؤخّر، مع خلاف أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الدلالة على علي وفضله، ووضع الأمر في غير معدنه وأهله، تم والحمد لله كثيراً بكرة وأصيلاً.

القتل والقتال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين، وعلى أهل بيته الطيبين وسلم.

سُئِلَ القاسم بن إبراهيم عليه السلام عما يجب به القتل والقتال، ويحل به عند الله السب وال أموال فقال: يحل الدم والمال والسب، ويوجب البراءة والعداوة والبغضاء، ويحرم أكل الذبائح وعقد التناكح - الكفر الذي جعله الله اسماً واقعاً على كل مشاقة أو كبيرة عصيان، ومخرجاً لأهله مما حكم الله به للمؤمنين من اسم الإيمان، بخلاف كثيرة متفقة في الحكم، مفترقة بما فرق الله به بينها في مخرج الاسم، لها جامع وتفسير، فتفسيرها كثير، وجماعها كلها وتفسير جميع مجملها فتشبيه الله عز وجل بشيء من صنعه كله، أو تجويره لا شريك له في شيء من قوله أو فعله.

وتفسير هذا الجامع أن يجعل مع الله سبحانه إلهاً أو آلهة، أو والداً أو ولداً أو صاحبة، أو ينسب إليه جوراً بعينه أو مظلمة، أو يزيل عنه من الحكم كلها حكمة، أو يضيف إليه في شيء من الأشياء كلها جهالة، أو يكذب له صراحاً في وعد أو وعيد قاله، أو يضيف إليه سنة أو نوماً، أو وصفاً ما كان من أوصاف العجز مذموماً، أو ينكره - سبحانه وبحمده - أو ينكر شيئاً مما وصفناه به من توحيد منكر، أو يرتاب فيه تبارك وتعالى أو يتحير في شيء مما وصفناه به مرتاب أو متحير، أو يذم له فعلاً أو قيلاً، أو يكذب له تنزيلاً، أو يححد له نبياً مرسلًا، أو ينسب إلى غيره من أفعاله فعلاً، كنحو مما نسب^(١) من فعله في الآيات وما جعل مع الرسل من الأدلة والبيّنات إلى السحر والكهانة والكذب والبطالة، فأبي هذه الخلال المفسرة المعدودة، والأمور التي ذكرنا المبيّنة المحدودة

(١) في المطبوع: كنحو ما ينسب.

صار إليه بالكفر صائر، ثم أقام على كفره فيه كافر، وجب قتله وقتاله، وحل سباؤه وماله، ولم تحل مناكحته، ولم تؤكل ذبيحته، وحرمت ولايته على المؤمنين، وكان حكمه حكم المشركين؛ لأنه معتقدٌ بتشبيهه من الشرك بالله لما اعتقدوا، ومعتمد بتمثيله إياه عز وجل بغيره في أي الأقوال التي حددنا لما اعتمدوا؛ لأن الشرك نفسه إنما هو تثبيت إلهين أو أكثر، والقول بأن مع الله إلهاً آخر.

وأي الأقوال التي وصفنا قاله قائل، أو جهله وإن لم يقل به جاهل، فهو فيه مثبت مع الله لغيره، قال بإنكاره فيه أو تجويره، ألا ترى أنه إن أنكره فقد مثله بمنكر الأمور، أو جوّره فقد أشرك بينه وبين أهل الجور، أو جهله عز وجل فقد مثله بمجهول، أو تحيّر فيه فقد شبّه بمتحيّر فيه غير معقول، أو زعم أن له صاحبة أو ولداً فقد أثبت بالاضطرار أنه لم يكن واحداً ولا فرداً، وإذا لم يثبت له وحدانية الأولية فقد ثبت معه اضطراراً غيره في الأزلية، وذلك فهو معنى الشرك غير شك، ولذلك سمى الله هذه الفرق كلها باسم الشرك، وحكم عليها بحكمه؛ ليعلم أولو الألباب والنهي أن باشتباههم كان حكم الله فيهم مشتبهاً.

فاسمع لما قال فيما أوجب من قتلهم وقتالهم، وحكم به سبحانه من سبائهم وتغنّم أموالهم، وأوجب على المؤمنين فيهم من البراءة، ونهاهم عنه لهم من الموالاتة، وحرّم عليهم من مناكحتهم^(١)، ونهاهم عنه من أكل ذبائحهم، فإني سأجمع ذلك لك إن شاء الله كله، وأبين لك^(٢) ما ذكر الله في ذلك أجمع وأفصّله، بآيات مسّمعات، وأحكام متتابعات، كراهية للتكثير عليك في القول، واكتفاء لك بتفصيلهن من الإكثار في علم كل مجهول^(٣). قال عز وجل: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فسيحوا في الأرض أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

(١) في المطبوع: مناكحتهم.

(٢) في المطبوع: لكم.

(٣) في المطبوع: في كل علم مجهول.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْتُمَا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٣﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤﴾ [التوبة]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥﴾﴾ [التوبة]، يريد بقوله تبارك وتعالى: ﴿كَافَّةً﴾ عامة كما يقاتلونكم عامة، لا يختصون منكم خاصة.

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَنُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

وقال سبحانه بعد الدماء فيما أحل من الغنيمة والسبأ: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الحشر]، ولا يكون شيئاً إلا ما كان غنيمة أو سبياً^(١)؛ لقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا

(١) في المطبوع: سبأ.

أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي عَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴿[الأحزاب: ٥٠]﴾، فجعل ما أفاء الله عليه منهم ملك يمينه، وأحلَّهن الله له بالسبأ في حكم دينه.

وقال سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ عَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال].

وقال فيما أوجب من البراءة على المؤمنين فيهم، ونهاهم عنه من توليهم: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران]، فنهاهم عز وجل عن ولايتهم سرا وعلانية، وحرَّم عليهم ولايتهم لهم خفية كانت أو بادية، بقوله في هذه الآية الثانية: ﴿إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٩﴾﴾.

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة]، فجعلهم بمولاتهم لهم منهم، وأزال اسم الإيمان بمولاتهم لهم عنهم.

ثم أخبر سبحانه بحال من سارع فيهم، ودل بما في قلوبهم من المرض عليهم، فقال: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾، فأبان سبحانه أن ولايتهم كانت لهم ليست إلا لخوف الدوائر، وأن ذلك لم يكن منهم لهم إلا لما في نفوسهم من مرض الضمائر،

فمتى ما وُجد لهم أحدٌ ممن يدعي الإسلام متولياً لم يكن في الدين أبداً كما قال الله إلا مريضاً قلبه دَويّاً، ومتى ما كان قلب من يدعي الإسلام مريضاً مدخولاً كان لما قطع الله من ولايتهم وصولاً، وفي كون كل واحد منهما كون صاحبه، وكل سبب من الأمرين فموصول بأسبابه، فلا يوالي من أشرك بالله أبداً إلا من مرض في الدنيا قلبه بالشك، ولا يمرض قلبٌ امرئ أبداً في دينه ويقينه إلا لم يبال من وإلى من أهل الكفر بالله والشرك.

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

وقال تبارك وتعالى فيما حرم من مناكرتهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمَ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [المتحنة: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]. فهذا في بيان ما حرم الله تبارك وتعالى من مناكرتهم.

وقال سبحانه فيما حرم من أكل ذبائحهم: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ

أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾ [الأنعام].

وقال سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة]، والإهلال به لغير الله: ذكره وتسميته وانتحاره وذبحه لسوى الله. وقال سبحانه: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾، وما ذبح عليها فتأويله: ما ذبح لها، والنُّصُب: فحجارة كانوا ينصبونها ويتخذونها مذابح ومناحر يذبحون عندها ولها ما يذبحون، وينحرون عندها من نحائرهم ما ينحرون، فحرم الله ما ذبح من الذبائح عندها أو نُحِرَ (١) من النحائر لها.

قال: ويحل الدم بعد ذلك دون السباء، ولا تحرم مناكحة النساء؛ لخلال آخر من الكفر والعدوان، يعرفها كل من وهبه الله يسيراً من الفهم فيما نزل من القرآن:

منها: ظلم الظالمين، وما بيّن سبحانه من عدوان المعتدين، فقال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج]، فأذن سبحانه للمظلومين بقتال الظالمين لظلمهم إياهم، وأذن للمظلومين - بظلم الظالمين لا بغيره - في أن يسفكوا دماءهم.

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى]، ثم أخبر سبحانه على من جعل السبيل بالقتل والتقتيل، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى]. وقال سبحانه: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [ملعونين] أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦٦﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٧﴾ [الأحزاب]. فصنّف سبحانه من

(١) في المطبوع: ونحر.

أحلَّ قتله وتقتيله أصنافاً ثلاثة مختلفة، لا يشتبه اختلافهم على من وهبه الله أدنى معرفة.

والمنافقون منهم الذين يقولون من التقوى ما لا يفعلون، والذين بسوء فعلهم يُكذِّبون ما يقولون، ويَعِدون الله فيما يَعِدونه ثم يخلفون ما وعدوه ويكذبونه، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ٧٥ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [التوبة]. وكما قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَا كُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ ٨٧ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٨﴾ [آل عمران]. وكما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ٩٤ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٦﴾ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿٩٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ [المجادلة].

وما دل سبحانه من هذه الصفات كلها وغيرها على المنافقين فموجود اليوم كثير فيمن يتسمى كذباً وظلماً بأسماء المتقين، وهذا فهو معنى النفاق المعروف في لسان العرب وكلامها، وما يدور من معلوم اللسان فيه بين خواصها وعوامها، لا يحمله منها صغيرٌ طفل ولا كبيرٌ كهل، ولو كان النفاق ليس إلا ما زعم بعض الناس من إسرار الشرك وإعلان التوحيد والإقرار لما جاز أن يقال: ﴿هُمَ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وكيف يقول: هم أقرب إليه وهم فيه وعليه؟! هذا ما لا يصح في الألباب، ولا يصلح توهّمه في الكتاب؛ لتناقضه واختلافه، وميله عن الحكمة وانصرافه، وكيف يصح أن لا يكون النفاق إلا إسرار الشرك بالله والله يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وعلى آله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم]؟ فكيف يأمره بجهادهم على ما طووه من شركهم سرّاً وهو لا يحيط صلى الله عليه بكثير من علانيتهم خبراً؟ فكيف يأمره بجهادهم على سر القلوب الذي لا يعلمه إلا علام الغيوب؟! وكل من قال: إن النفاق إسرار الشرك بالله غير موجب على نفسه لجهاد المسرّين لشركهم بالله دون أن يعلنوا من الشرك ما أسروا، ثم أن يمتنعوا في شركهم ويتبروا، وفي هذا عليهم حجة لعذرهم^(١) في الجهل بالنفاق قاطعة، بيّنة مضيئة فيما قلنا به من أن النفاق فعلٌ علانية لهم مما قالوا - إن أنصفوا - مانعة.

والصنف الثاني منهم: الذين في قلوبهم مرض، وهو شكوك الإرتياب، فهم الذين كانوا يتولون كفرَ أهل الكتاب، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

(١) في المطبوع ونسخة: لعدوهم.

يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٦﴾ [المائدة]، فجعلهم تبارك وتعالى بتوليهم لهم منهم، وأخبر بالعلة التي بها من مرض قلوبهم تولوهم عنهم، ولو كان معها غيرها لذكره، ولأبانه منهم علانية وشهره، وإذا كانوا عند الله منهم لزمهم عنده تبارك وتعالى ما لزمهم، وكان حكم المؤمنين فيمن (١) تولاهم حكمهم عليهم، وسيرتهم في الجهاد لهم سيرتهم فيهم.

والصنف الثالث منهم: أهل إرجاف وعبث، وأذى للمؤمنين والمؤمنات ورفث، كانت تُرَجَفُ بمكذوب الأحاديث وتُرْهَجُ، ليس لها دين ولا ورع ولا تخرج، إلا ولما كان لها في الإرجاف من الشغل به عنها، وبغيتها به لما أسخط الله منها كانت تكثر فيه وتجتمع عليه.

وهذه الفرقة فبقيتها بعد بالمدينة كثيرة معروفة، وبكل ما وصفها الله به من الإرجاف والعبث والرفث فموصوفة، تشاهد به مشاهدها، وتعمر به مساجدها، والله المستعان.

وكل هذه الفرق الثلاث جميعاً فقد أمر الله نبيه ﷺ بقتلهم إن لم ينتهوا معاً. وقال الله سبحانه فيما أمر به المؤمنين من قتال من قاتلهم وقتلهم لهم بحيث ثقفوهم، وإخراجهم إياهم من حيث أخرجوهم: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ وَاَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١١٦﴾ [البقرة]، فأوجب عليهم قتالهم وقتلهم بما كان من قتال الظالمين لهم، ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ

(١) في نسختين: ومن.

الْحُرَامَ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦١﴾؟
فجعل قتالهم وإن كانوا على شركهم عند المسجد الحرام محرماً، ثم أحله لهم إن
قاتلوهم عنده وحكم عليهم بقتالهم حكماً حتماً.

وقال سبحانه فيما أذن به من قتل المعتدين باعتدائهم، وبسط به أيدي المؤمنين
للعُدوان من سفك دمائهم: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا
اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٦٢﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة].
فأمرهم سبحانه للعدوان لا لغيره بقتالهم، ونهاهم عن أن يلحقوا بأيديهم إلى التهلكة
باستسلامهم لهم، وأمرهم بالإنفاق في جهادهم - سبحانه - والإحسان، وأخبرهم
أنهم إن لم يفعلوا فقد ألقوا بأيديهم إلى التهلكة لأهل العدوان، وصدق الله العزيز
الحكيم الأعلى، الذي لا يرضى لأوليائه أن يكونوا أذلاء، والذي لم يزل سبحانه
يحوط العزَّ لهم حوطَ العليم الخبير، وينصرهم عند القيام بأمره نصر العزيز القدير،
وأَيُّ تهلكة أهلكَ لهم من استسلامهم لمن يريد قتلهم!؟

وفي ذلك أيضاً ما أمر الله به سبحانه من قتال البغاة، مجتمع عليه غير مختلف
به في كل قراءة، مدنية كانت أو عراقية، وغربية كانت القراءة أو شرقية، إذ يقول
سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ
إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ
فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾ [الحجرات].

ثم قال سبحانه مدحاً للمتصرين من الباغين، وترغيباً في الانتصار في البغي
للمؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ ﴿١٦٥﴾ [الشورى]، فمن أظلم
وأبغى ممن تجبر وطغى، فخص المؤمنين بغيه وطمعاه، وعمَّت الأرض فتنته
وبلاه، لا مَنْ إن عقل من يسمع نداء كتاب الله بتعريفه، وقام لله بما له عليه في

ذلك من تكليفه.

وفي ذلك أيضاً ما حكم الله سبحانه به من ^(١) القتل على الفتنة وكبائر المظلمة، وما أذن به تبارك وتعالى من محاربة أكلة الربا من هذه الأمة، فقال في الفتنة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٣١] وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ ﴿٣٢﴾ [الأنفال]. والفتنة: فهي تعذيب أولياء الله بالضرب وغيره من أنواع العذاب والبلاء، وما كانت قريش تعذب به في جاهليتها مَنْ كان فيها من البررة والأتقياء.

وقال سبحانه فيما أذن به أكلة الربا من حربه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٣٣] فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿البقرة﴾، عزماً منه سبحانه على حربهم بأثبت الثبوت، وحكماً لازماً فيهم لكل مؤمن حتى يتوفاه الموت، لا عذر لأحد من الخلق في تبديله، ولا اختلاف في الحكم بين تنزيله وتأويله.

وقال سبحانه فيما أذن به من قتل المعتدين من عباده، والساعين بالفساد في أرضه وبلاده، والمحاربين له تبارك وتعالى ولرسوله من خلقه، ولا محاربة له سبحانه ولا لرسوله ولا فساد أعظم من تعطيل حقه، والإعراض عن نهيه وأمره، وإقامة المتحير على تحيره: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ أَجَلٍ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا

(١) في (أ): في القتل.

بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾، فأحل سبحانه من قتل الأنفس بفسادها واعتدائها مثل الذي أحل من القتل بالقصاص بينها في دمائها.

وقال أيضاً سبحانه وتعالى فيما جعل من القصاص بين القتل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى ﴿البقرة: ١٧٨﴾، الآية.

فهذه وجوه ما أحل الله به الدماء، وأوجب به على من فعله البراءة والبغضاء، وكل وجه -والحمد لله- من هذه الوجوه فغير صاحبه، لا ينكر وجهاً منها مراتب وإن عظمت بليته في ارتيابه.

وقد قال غيرنا من مراتبي هذه العوام الغوية، وأعوان المعتدين من ظلمة بني أمية: لا يحل قتل من قال: لا إله إلا الله، وكابر ما بيننا كله مما حكم به الله.

واليهود تقول: لا إله إلا الله، وتؤمن ببعض كتاب الله، كما قال سبحانه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة]. فحزبي الدنيا أن تقوى مسكنتهم وذلمهم، وقتلهم إن امتنعوا من الذل وقتلهم، فحكم الله سبحانه بقتلهم، ودمرهم بفسادهم وكفرهم والإعراض عن بعض حقه، وتكبرهم على المرسلين من خلقه، فقال سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة]، ولقتلهم الأمرين بالقسط من الناس أوجب لهم تبارك وتعالى في أن من صد عن سبيل الله، وأفسد

على أولياء الله دعوتهم إلى الله فهو من أعدى الأعداء لله، وأعظمهم عند الله عذاباً وتنكيلاً، وأوجبهم في دين الله قتلاً وتقتيلاً.

قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل]، فما ذكر سبحانه من صدوا فهو..... [لم يكن ﷺ أتم الكتاب، وهذا حده الذي بلغ فيه إليه، وصلّى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليماً كثيراً].

الهجرة للظالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، ولا قوة إلا بالله، الذي جل عن كل ذكر ذكره، وعز في كل أمر أمره، فلم يذل له سبحانه أمر بتناقض ولا اختلاف، ولم يصغر له ذكر عن جليل ولا كبير من كرائم الأوصاف، بل كَلَّ عنه جل ثناؤه كريم الصفات، وأمورٌ من خالفه فلم يحكم بحكمه فهن المختلفات، اللاتي لا يعتدل^(١) بهن عن حيف ميل، ولا يُهتدى منهن إلى حق بدليل، بل الهدى منهن ممنوع، وكل ضلال فهو فيهن مجموع، لا يأوي إليهن هدى، ولا يتفنين^(٢) من ردئ، بل كلهن ظلمة، وصمم وعمى وبكمة، كما قال سبحانه في أهلهن ومن كان مؤثراً من العمة لهن: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة].

فسبحان من خذل أعداءه فأصمهم وأعماهم، ونصر وتولى أوليائه فأعزهم وهداهم، فلم يذل له ولياً، ولم يجعله عمياً، ولم يُره في عاجل ولا آجل من ذلٍّ سوءاً، ولم يوال له قطّ عدواً، بل حكم -جل ثناؤه، وعزّت بعزته أوليائه- لأوليائه بالمحبة والموالة والمقاربة والإدناء، وخصهم في كل حكمه^(٣) لهم في هذه العاجلة بكل حسنى، من البر والصلة والمجاورة والرضا، وكَدَ بذلك كله لهم على عباده فرضاً لا يسع محجوجاً منهم إضاعته، ولا يتم منهم الله إلا بأدائه طاعته.

فسبب أولياء الله من الله بكل كرامة موصول، وعملهم بولايتهم لله في كل خير عند الله مقبول، لا يحبط مع زكي عملهم برّ ولا عمل، ولا يلزم بهم بعد ولاية الله لهم صغرٌ ولا ذل، بل لهم مع ما حكم الله به لهم على العباد من البر والمحبة ما ذكر الله سبحانه من الفلاح والفوز والنصر والغلبة، فاسمعوا هُديتهم

(١) في (ج): يعدل.

(٢) في (ج): يقين.

(٣) في نسخة: حكمة.

لذكر الله في ذلك، وخبره فيهم عن أنه كذلك، إذ يقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ٥٢﴾ [النور]، ويقول جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٢﴾ [يونس]. ويقول سبحانه في إعزازه في الدنيا لأوليائه، وما من به عليهم فيه من نصره وإعلائه: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ٧٣ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ٧٤﴾ [الصفات]، وفي ذلك ما يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨﴾ [المنافقون]، وقال فيما وصفهم به من الإخاء والولاء: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ١٠﴾ [الحجرات: ١٠]، فثبتت بينهم بتبشيت الله في الله ولله الموالاة والأخوة، فهم الإخوة المتبارزون، والأولياء المتناصرون، والمؤمنون بمن الله عليهم من كبائر العصيان، وبإيمانهم من الكبائر استحقوا (١) عند الله اسم الإيمان، فسماهم به ودعاهم، وبإيمانهم من كبائر عصيانه أعطوا هداهم، كما قال الله الذي لا إله إلا هو: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَوَعَادَهُمْ تَقْوَاهُمْ ٧﴾ [محمد]، وبتقوى الله التي هي خشية الله وإكباره، وإجلال الله عن العصيان وإعظامه - تمت من الله عليهم النعم، وثبت عند الله لهم الكرم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، فاتقوا الله فقد علمكم

(١) في نسخة: وبإيمانهم استحقوا.

وهذاكم، واطلبوا النجاة والكرم بتقواه، فيها كُرمَ عنده ونجا من آتاه هداه، فلن يوجد البر والتقوى أبداً إلا في كريم، ولا الفجور والعصيان ما بقيت الدنيا إلا في لئيم.

وفي الفريقين ما يقول الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار]، وفي المؤمنين الأتقياء الأبرار بعد الذي وصفهم الله به من التَّحَابِّ والتَّابَرِّ ما يقول الله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة]، فجعل دار المؤمنين والأبرار خير محلٍّ ومنزل ودار، جعلها سبحانه دار أمنٍ وإيمان، ظاهراً فيها كل برٍّ وإحسان، يؤمر فيها بما يرضي الله سبحانه من التقوى والبر والمعروف، بغير ما تَقِيَّةٍ فيها للظالمين ولا رهبة ولا مراقبة ولا خوف، ويُنْهَى فيها عما يُسْخِطُ الله من المنكر والطغيان، وما لا يحبه الله من الفسوق والعدوان.

فما بال من أبرٍّ وأطاع فلم يَعصَ وحلول دار كل ظالم متعدِّ لصٍّ، لا يؤمن ليله ولا نهاره، ولا تستتر عَمَّنْ حاله أسراؤه في عصيان الله ومشاقته، ولا يخفى عنه ولا يتوارى، مجاوراً من سخط (١) الله فيها لما يراه قاهراً ظاهراً، لا ينكره منه بلسان ولا يد، ولا يقوم لله فيه بدفاع ولا ردٍّ، ذليلاً بين أظهرهم وفي جورهم، محكماً لهم على نفسه في فجورهم، إن كذَّبهم في افتراءهم على الله كُذِّب، وإن باينهم لمخالفة الله (٢) صُلب أو عُذِّب، غير ممتنع منهم بغلب ولا مُعَاوِة، ولا مهاجر عنهم إلى دار عزٍّ أو مفازة، من فلاة ولا جبل وعر، أو بعدٍ أو مهرب أو مستتر يستره عنهم ومنهم، ويفرق ما بينه وبينهم، مع ما وسَّع الله لمن صدقت

(١) في نسخة: لمن أسخط.

(٢) في (نخ): لمخالفتهم لله. وفي (ج): بمخالفة في الله.

إرادته لله من المهارب، وما جعل الله في أرضه لمن هاجر في سبيله من المذاهب، التي فيها لمن ظلم وتعدى مساءً وإرغام، ولمن أسلم نفسه إلى الله هدى وإسلام، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء].

فكل ما ذكرنا من الجوار والمقاربة، والإكرام والتواد والمحابة، والنصر والولاء، والبر والإخاء فحكم الله جل ثناؤه في أوليائه، ثم حكم الله سبحانه بعدد في أعدائه بخلاف ما حكم به للأولياء؛ تفريقاً بين مفترق الأشياء، كما قال جل جلاله فيما نزل من الفرقان: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص]، وقال سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [٣٥] مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ [القلم]، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة]، فلم يسو بينهم عند ذي علم في اسمٍ منه لهم ولا حكم، وكان حكمه تبارك وتعالى على أعدائه ما لا يجهله ذو علم، من لعنته وإخزائه، ومقتته لهم وإقصائه، وما حكم به من هجرتهم على أوليائه، وما وكَّد على العباد من فرضه في مجانبه كل مجرم وبُغضه، وما أوجب الله على الأبرار من الهجرة للظالمين في المحل والدار، وما ألزم الظالمين من الصغار والذل، وما حكم به على بعضهم في ظلمه من القتل، وعلى بعضهم من القطع والصلب، وعلى بعضهم من السجن وألوان النكال والضرب، وما أوجب الله على الظالمين من الخزي في الظلم، وما حكم به عليهم في ذلك من الحكم فما لا يعمى عنه من نور الله قلبه في معرفة الحق بضيائه، ولا يخفى على محجوج من الخلق فيما يخفى عليه من الأشياء، ولا يحق لمن جهله حقيقة الإيمان، ولا يتم لمن عطَّله مثوبة الإحسان، بل يحبط الله عمله بما جهل منه وعطَّله.

[حكم من والى عدواً من أعداء الله]

وَمَنْ صار لعدوٍّ من أعداء الله إلى محبة أو موالاة، أو مسالمة أو مراضاة، أو مؤانسة أو موادة أو مدانة، أو مقاعدة أو مجاورة أو اقتراب، فضلاً عن توادٍّ أو تحابٍّ - فقد باء صاغراً راعماً من الله جل ثناؤه بسخطه، وهلك في ذلك بهلكة عدوِّ الله، وتورط من الهلكة في متورّطه، وكان في الإساءة والجرم مثله، وأحله الله في العداوة محلّه، وجعله الله لموالاته لمن عاداه، ولم يصِرْ إلى ما أمره الله به من تقواه منهم، ونسبه لموالاته لهم إليهم، وحكم عليه بما حكم به من السخط واللعنة عليهم، فرحم الله امرأً أحسن لنفسه نظراً، فسمع في ذلك عن الله وقيله، واتبع ما نزل الله في ذلك من تنزيله، فإنه يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء]، ويقول أيضاً في الكتاب: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء]، وقد قال سبحانه في فريضته هذه بعينها، وما نزل به سبحانه كتابه من تبينها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة]، فأخبر سبحانه أنه من والى من الفريقين من عادئ فليسوا ممن وهبه الله ولا أعطاه الهدى؛ لجهلهم بحكم الله في ذلك عليهم، وجعلهم بموالاتهم لهم منهم ونسبهم إليهم، ودعاهم بموالاتهم لهم كما دعاهم ظالمين، فتبارك الله أحكم الحاكمين، الذي لا يعتريه وهم ولا جورٌ في حكمه، ولا يحاط إلا بما شاء من علمه، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصر]، ولا يحكم سبحانه في صغير من الأمور ولا كبير كما يحكم الذين لا يعلمون، ولكنه يقضي الحق وهو خير الفاصلين، ولا يغفل في الأشياء كغفلة الغافلين فيتناقض حكمه وأمره، ويسوء بتناقض أو اختلاف ذكره.

ثم دل سبحانه على خفي مرض قلوب المواليين لمن أمر بمعاداته وهجرته من الظالمين، فقال سبحانه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ

يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ [المائدة]، فنبأ سبحانه بما كانوا يقولون، وبإحباطه ما كانوا يعملون، وأنهم بموالاتهم لعدو المؤمنين ليسوا منهم، وبين الله للمؤمنين ما كانوا يسترون من ذلك عنهم. فأما ما ذكر الله من مسارعتهم فيهم فهو كان بيناً غير مستور، يرونه بمعاملتهم لهم ومصيرهم إليهم، مقبلين في كل وقت ومدبرين عليهم، ألا تسمعون لقول الله سبحانه: ﴿فَتَرَى﴾، ولا يرى صلى الله عليه إلا ما كان له معايناً مبصراً، فأما مرض قلوبهم، وما كانوا يخفون من عيوبهم في الشك والارتياب والحيرة، وما كانوا عليه للدنيا من الحب والأثرة الكبيرة - فإنما يتبين عند ما يأتي به الله المؤمنين من النصر والفتح، فعند ذلك بالخسرة والندامة يفتضح من المرتابين كل مفتضح، ف﴿يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾، فخرهم الله أعمالهم، وصيرهم بموالاتهم لهم مثلهم كافرين، وقال سبحانه بعد هذا من أمره كله للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فأخبرنا سبحانه أنه لن يحبه ولن يُحب، ولن يزكو عنده ولم يطب من لم يذل لأوليائه ويعز على أعدائه.

فلعمر أبي من جاور عدوه من الظالمين ما عز عليهم، ولكنه كان لهم من الأذلين، ولعددهم في محلهم من المكثرين، ولدار ظلهم بحلوها من العامرين، فنعوذ بالله من الشقوة في الدين، والمكابرة لما جاء فيه عن الله من اليقين.

فحذر سبحانه من والاهم بمودة أو مجاورة فداناهم الارتداد بذلك من موالاتهم عن دينه، ومن قبل ذلك ما أخبر بمرض قلبه من يقينه، وكيف لا

يكون من والاهم مرتداً إليهم وقد حكم الله عليه بحكمه عليهم؟ فكُفِّرْهُ بمولاته لهم كفرهم، وأمره في الكفر لنعم الله أمرهم، وكيف لا يكون في الكفر كههم وقد جعله تبارك وتعالى مثلهم، فقال سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَتَعَدُّوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء]، فجعلهم الله سبحانه في مولاتهم لهم من المنافقين والكفار، وأحلَّهم جميعاً كلهم محل أهل النار، وما ذكر الله عنهم ولا سخط سبحانه منهم عند ذكره في الولاية لهم سوى ما ذكر من الموالاة بالمقاعدة والمدانة، فكيف من رمى إليهم بإخائه وودّه؟ وكثّر عددهم بشخصه وعدده، وعمر ديارهم وأسواقهم ومحافلهم بمحله وابتناؤه، فلعله بذلك أنفع لهم ممن خصهم بودّه وإخائه، فهو عامر لهم ومكثّر، ووليّ لهم من حيث لا يشعرون، فهم خيرته وأولياؤه، وفيهم مسكنه وثاؤه، وقد قال الله للمؤمنين جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة]، فبرّاهم الله عز وجل من ولايته وحزبه، ووليّ كل امرئ منهم ما هو أولى به، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء].

ثم قال سبحانه بعقب ما قدّم في الولاية من الآيات، وأوضح فيها أمر به فيها من البينات، تكريراً لنهي عن موالاة الظالمين وترديداً، وتوكيداً لحكمه في مجانبة دار المعتدين وتشديداً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعَبًا مِمَّنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة].

فما ارتكب الظالمون من قتل الأبرار وصلبهم أكبر عند الله أضعافاً مضاعفة من الاستهزاء بهم، والتلعب بالأنبياء كالتلعب والاستهزاء بما جاؤا به من الأشياء، وكذلك التلعب بأولياء الله كالاستهزاء بالدين عند الله، ولذلك أخبر الله سبحانه أنهم إن لم يكونوا لمن عاداه من المعادين فليسوا لما ينتحلونه من الإيثار بمستحقين، ولا في دعواهم له وتسميتهم به من المصدقين، ولا فيما أوجب عليهم من هجرة من ظلم وتعدي من المتقين، بل حالهم في ترك ما حكم عليهم من ذلك حال من جهل واستهزأ، وأعرض عما أمر به من تقوى الله فيه طغى وتعزراً، كما قال الله سبحانه فيما هو أقل من هذا قلةً، وأصغر عنده قدراً ومنزلةً، من الظلم والاعتداء فيما طلق من النساء: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِيَتَّعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه فيمن تعزز واعتدى، وأبى ما دُعي إليه من التقوى والهدى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٣٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٤٠﴾﴾، أفىكون - عند من يعقل - مستهزئاً وظالماً في الدين معتدياً^(١) من أمسك وهو يعول ويمون زوجته وهي امرأته ضراراً، ومن قيل له: اتق الله فتعزز على قائلها وأدبر نفاراً - ولا يكون من ترك حكم الله فيما تلونا من الآيات من المستهزئين المتعززين المعرضين العتاة؟! كلا لن يكون

(١) في نسخة: متعدياً.

أبدأ ذلك إلا كذلك، إلا عند كل عمي هالك.

ألا تسمعون لقول الله سبحانه، فما أوضح حجته وبيانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِنْهُمْ إِنَّا اللَّهُ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء]، فجعلهم كهْم ومثلهم وإن لم يعملوا في كل أمر عملهم، فكيف يكونون مستهزئين كافرين إن لم يكونوا كهْم كفره مستهزئين، هذا ما لا يحفل ببيانه مَنْ أوضح الله عنده للحق برهانه.

ومن أين يقوم من لم يؤدّ فريضة الله في هجرة دار الظلم بما حكم الله به على الظالمين من الحكم في القتل والقتال، وما يجب عليهم من الإنكار في معصية ذي الجلال، لذلك أعزّ عليه عِزة، وهو فيه أكثر معجزة، والله المستعان فيما يكون وما كان، ونسأل الله العفو والغفران لما مضى من صحبتنا للظلم والطغيان، بحلول دور أهل الفجور والعدوان.

فَمَنْ رَأَيْتُمْ - وفقتم وهديتم - صَحِبَ ما يكره من الأمور ويشنأ، أو جاور منكم أو من غيركم ما لا يرضى، وهو يجد منه بدأً أو عنه مندوحة، أوله إلى هربٍ منه سبيلاً أو طريقاً مفتوحة، أو تخشون ألا يكون من جاور ورضي بالمقام سخط ما يسخط الله جل ثناؤه من الظلم والآثام، بل تخافون ألا يكون من فعل ذلك وَجَدَ مَسَّ عدم الإسلام، فهو سليم لتلك ولجهله بها مما مَسَّ أهله لعدمه من الآلام.

فنعوذ بالله من الرضا بسخطه، ومن كل موالاةٍ لمسخطه، فإنه لا نجاة لأحد مع موالاتهم التي منها ما ذكرنا من جوارهم ومداناتهم.

ولما أراد الله برحمته من نجاة أوليائه نهاهم وأكد وردد نهيمهم عن موالاة أعدائه، فلم يسهل سبحانه فيها ولا فيما نهى عنه منها لمؤمنٍ في أبيه ولا أخيه، ولا في أحدٍ من أقربيه، وأزَالَ عمن وإلى منهم أحداً، أو مَنَحَهُ في جدٍّ أو هزلٍ وُدّاً

الإيمان بالله واليوم الآخر، وجعله بهما وفيهما كالكافر، فقال سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَادَهُمْ وَأَخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة]، فأنزل سبحانه بتظليمه لهم في ولايتهم إياهم وحياءاً، ثم قال تبارك وتعالى بعد للمؤمنين تقدماً ونهياً: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران]. فأخبر سبحانه كل برّ تقي أن من والى من كفر أو ظلم فليس منه في شيء، لا في ولاية من الله ولا ارتضى، ولا في برّ عند الله ولا تقى.

ثم قال في آخر نهيه للمؤمنين عما نهاهم عنه من موالاة الكافرين: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران]، فدل سبحانه بقوله: ﴿رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ على أن موالاة أهل الكفر والفساد من مساخطه العظام الشداد؛ إذ كان الرؤوف الرحيم لا يسخطه إلا الذنب العظيم.

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أْتَرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء]، فأخبر سبحانه أن ذلك منهم إن لم يفعلوه تقاة نفاق، وأنه منهم ظلم وكفر وشقاق، وأنهم كهم كفار، وأن مصيرهم جميعاً إلى النار؛ لكفرهم وفسقهم، وعصيانهم ونفاقهم.

ولو كان المنافقون الذين ذكر الله غيرهم لما صيرهم من الدرك الأسفل مصيرهم، ولما كان في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ لهم

من موعظة ولا معتبر ولا تحذير ولا ازدجار، ولكان القول في ذلك لو كان القول كذلك كالقول: إِنَّ فرعون وهامان وقارون هم فجرة ظلمة كافرون، فما كان يكون في هذا لو كان من نذير أو تعبير أو موعظة لأحد أو تذكير.

وكيف ينكر مَنْ آمَن بالله أن يكونوا كافرين لنعم الله ومنافقين في دين الله؟ أو يزال النفاق والكفر عنهم وقد جعلهم الله بولايتهم لهم منهم، ونسبهم في منزل كتابه إليهم، فاسم النفاق والكفر واقع عليهم؛ لأن من كان من قوم في دين أو حُكم لزمه ما يلزمهم من حكم واسم.

فأما قوله جل ثناؤه في الآيتين: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن من تأويل من دونهم عندي ووجوه فهمه -والله أعلم- فيهم تعريضهم ونزولهم من دون المؤمنين عليهم، وحلولهم بالمجاورة لهم بين أظهرهم، واختلاطهم في المعاملة بهم، لما في المعاملة من لين التراجع والمقاولة، وما يكون في ذلك إذا كانوا كذلك من زوال الغلظة والاشتغال عن العظة، وقد أمر الله -تعالى جُدّه، ووجب في كل حكم حمده- بالعظة لهم والغلظة عليهم، كما أمر بقتالهم والمجانبة لأعمالهم، فقال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وعلى آله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحریم].

وقال سبحانه فيمن تعدى أمره وحكمه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أولئك الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ [النساء]. ومن الإعراض ما ذكرنا من الهجرة والمصارمة، ومنها أيضاً فرفض المخاطبة والمكالمة، والغلظة فمنها العظة، وهي من يسيرها وقليلها، لا من كثيرها وجليلها، فكيف يكون مغالطاً مَنْ لم يكن لمن ظلم واعظاً؟ وكيف يكون مهاجراً لمن ظلم مجاهداً مَنْ كان مؤاكلاً له أو معاملاً أو مقاعداً؟ لا كيف وإن عارض فيه معارض بتحجير أو تشبيه، أو شبه فيه على حائر بضروب من

الحيرة والأماويه، أما يسمعون لقول الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة]، فأمرهم سبحانه بالغلظة في القتال والمقال على الكافرين.

وكيف يعقد لهم سبحانه حرمة الجوار وقد أوجب ما أوجب من حقوق الجار، وأمر بالإحسان إليه والإفضال عليه، فقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]؟ فلو كان الأمر في هذا كما ظن من يجهل لكان هذا تناقضاً في أحكام الرب، ولكنه سبحانه أوجب عليهم حقوق الجوار بعد أن أمرهم بمهاجرة الكفار.

وكيف يؤكد لمن كفر حق الجوار على المؤمنين وحُرْمَهُ وقد أمر أن يقاتلوا من كفر ويسفكوا دمه؟! إن في هذا من الاختلاف والبعد لما لا يخفى على من وهبه الله أقل الرشد، فنعوذ بالله من الحيرة في دينه، ومن الضلالة بعد هداة وتبيينه، عمي من خالف حكم الله في هجرة دار الظالمين بهواه، فأسلمه الله إذ اتبع الهوى إلى عماء.

أو ليس بمعلوم فيما فطر الله من العقول، وفي أقل ما يوجد بها من فهم كل معقول - أن مَنْ جاور لأحد عدواً فَحَالَهُ، فضلاً أن يقاعده ويعامله، فقد أغضبه وساءه، وكثر بشخصه أعداءه، كذلك من جاور أعداء الله فهو من المغضيين لله، بغير ما شك في حجة الألباب، وقبل ما نزل الله في ذلك من الكتاب.

فكيف بمن اغترَّ وخدم وجالس وحدَّث وكَلَّمَ، وجاء وذهب، وأجلب وركب، وتفقد المجالس والخلوات، وألَمَّ بحواضر الحفوات، فراح وبكَّرَ واغتدى، وظل وبات ساهراً كمدأ، مراقباً في مجالسهم ومقاعدهم للقوت، قد أغفلته مراقبة ذلك عن كل سقم أو موت، فكأنه لا يخطر بباله للدنيا زوالٌ ولا فناء، ولا يتوهم أنه يكون له إلا من الظالمين سعة ولا غناء، فهو مُتَدَلِّةٌ إليهم

حرّان، متأوه عليهم لهفان، قد شغله ما هو فيه من الحسرة عما هو سائر إليه من دار الآخرة، يروح دائماً ويكر، ويقبل أبدأ ويدبر في مواكب الظلم والظلمة، لا يتكلم في إنكار ظلمهم بكلمة، يضحك معهم إن ضحكوا، ويتباكى لهم إن بكوا، غرق في الغفلة غرقهم، يرى في كل حين فسقهم.

أفُيَعَدُّ هذا لله ولياً؟ أو من الظلم لنفسه برياً؟ ما يبريه من ذلك ولا يعده كذلك إلا مَنْ جَهِلَ أمر ربه، وضلل الله صميم قلبه، فما جهلٌ بعد توحيد الله أعظم، ولا جرمٌ في دين الله أجرم من جهل مَنْ جهل ما حكم به من هجرة الظالمين، ونهى عنه جل ثناؤه من مجاورة المعتدين، لما وكّد الله من ذلك في وحي الكتاب، وما أقام به وفيه وعليه من حجة الأبواب، وما هاجر قوماً مَنْ حالهم في بلدهم، وكان مكثراً بشخصه فيها لعددهم، فيأوي منها وفيها مأواهم، ويروح ويغتدي مقبلاً ومدبراً مغداهم، فكلهم في بلد العدوان معه، قد جمعهم من مأوى الطغيان ما جمعه، يجمعه في أكثر الأمور فيها ما يجمعهم، منتفع بحلول دار الظالمين بما نفعهم، عامراً لها من الحلول فيها كما عمروا^(١)، ومكثر لعدد أهلها بما فيها كما كثروا، وبحلول مَنْ حلّها وأوى إليها كثرت معاصي الله سبحانه فيها، فبلد أهل الطغيان لكلهم بلد، وجميعهم في حلوها وتبوتها فواحد، وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((من كثر سواد قوم فهو منهم)). ومن ذلك حكم الله على المؤمنين بالهجرة للكافرين والزوال عنهم.

[تأكيد الله لأمر المهاجرة وتشديده لفريضته فيها]

فاسمعوا هديتم لما وكّد الله من المهاجرة، التي مَنْ قبلها ترك المجاورة، فقد سمعتم نهيهِ لرسول الله ﷺ عن مقاعدة من خاض في آياته، مع ما ذكرنا من نهيهِ للمؤمنين عن مقاعدة من كفر به، وما أمر الله به رسوله من الإعراض عمن

(١) في ثلاث نسخ: بما عمروا.

تولى عن ذكر ربه، والإعراض أوكد وأقل من المقاعدة^(١) والمجالسة؛ لأن من أعرضتم عنه فقد هجرتموه وقطعتم بينكم وبينه كل مؤانسة.

فكيف تسع أحداً المجاورة لهم والمحالة؟ هذا ما لا يصح به في المعقول مقالة، يقول الله لا شريك له لرسوله صلى الله عليه وعلى آله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام]، ويقول سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم]، فكيف يكون معرضاً عنهم وهو مجاور لهم، والجوار حرمة بينه وبينهم؟

فلم يكن صلى الله عليه يُساكن ولا يُجاور ولا يقارن إلا من آمن بالله وكان ولياً لله، ولقد نفى صلى الله عليه غير واحدٍ من أهل ملته ممن جاوره بفسوقٍ في محل هجرته، فمن ذلك مخنث كان في المدينة كان فيه لين وتكسير، فنفاه من المدينة إلى جبل من جبالها يقال له: عير، فابتنى في ذروة الجبل كِتَاءً، وكان الجبل وعراً خشناً، فلم يزل ذلك الكنُّ له مسكناً حتى مات وتوفي ﷺ فلما حضر موته، وقد كانت حسنت توبته، حتى دُعي في أيام عثمان، ولا أحسبه إلا وقد دعي قبل ذلك فيما كان لأبي بكر وعمر من الأيام إلى المدينة والتحول إليها وبركة المقام فيها، فكان يقول لكل من قال له ذلك: كلا، والله لا أزول عن موضع صيرني إليه رسول الله حتى تنقضي فيه حياتي، وتحضرني به وفاتي، فقال له عند الموت بعض الصالحين: يا فلان، أتحب أن نحدرك من هذا الجبل الوعر

(١) قوله ﷺ: «والإعراض أوكد وأقل من المقاعدة» أي: إذا أوجب الله الإعراض عن تولى عن ذكر ربه فإن ترك المقاعدة والمجالسة أوجب وأكد. (من خط السيد العلامة المجهتد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

فندفناك مع المسلمين؟ فقال: لا تدفنوني والله إلا بحيث صيرني رسول الله ﷺ، فقبره ومسكنه الذي كان يسكنه معروفان اليوم بظهر الجبل.

مع ما حكم به ﷺ من نفي الزاني البكر سنة، مع ما حكم الله به على المحاريين بالنفي، ففي ذلك كله عبرة لمن يعقل بيّنة، وقد قال الله سبحانه لرسوله ﷺ ورضوانه: ﴿لَقَدْ كَذَبْتَ تَرَكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ٧٤ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ٧٣ ﴿[هود]﴾.

والركون فقد يكون السكون، فأى ركونٍ أركن أو سكون أسكن بعد الإخاء والمخادنة من الجوار والمساكنة، فمن جاور وساكن فقد ساكن وراكن عند من يعرف لسان العرب، فضلاً عما في ذلك من بيان الرب جل ذكره وعز أمره.

هذا حكمه جل ثناؤه على رسوله فيمن كفره وتعدى أمره، فلو سهّل الله سبحانه لأحد في هذا أو مثله لسهّل لرسوله ﷺ، ولكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه أولى بالتخفيف فيه والتسهيل، فاسمعوا -هديتم- لما حكم به من الهجرة في الوحي والتنزيل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلى المؤمنين، وما أمره به وإياهم من مهاجرة الظالمين، قال الله لا شريك له وهو يأمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أهله بالصبر على ما حمّله، وعلى ما يقول أهل الكفر له: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ ١١٠ [المزمل]، فأنزل الله عليه بمهاجرته لهم أمره تنزيلاً.

ومن الهجر لهم الجميل ما أمر الله به في الوحي والتنزيل من النقلة عنهم، والبعد والانتفاء منهم، وهو صلى الله عليه وآله وسلم كان فيه أولهم، وأسبقهم في الهجرة لهم؛ لأنه ﷺ هاجر قبلهم، والبلد يومئذٍ بلده، وبها أهله ومولده، مؤثراً في ذلك كله لله بهجرته، وصائراً إلى أمر الله له بذلك وخيرته، وما ذكرنا من أمر الله

سبحانه لرسوله ﷺ بالمهجرة للظالمين فما لا يجهله والحمد لله علماء المؤمنين، ولا يحتاج في ذكره إلى تكثير، لما فيه من الغناء عن كل تفسير؛ لأنه تنزيلٌ من الله غير تأويل، فبيانه عند من وفقه الله بيان التنزيل.

ومن تشديد الله لفريضته في المهاجرة للظالمين وتأكيدها أن الله سبحانه لم يجعل للمؤمنين ولاية لمن لم يقيم بها ويؤدّها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢]، فمنع سبحانه المؤمنين من ولايتهم وإن آمنوا إذا أقاموا في دار عدوّه فلم ينتقلوا ولم يظعنوا، وأبى تبارك وتعالى لأوليائه أن يؤالوا - وإن آمن - من لم يهاجر دار أعدائه، نظراً منه سبحانه للأولياء، وتطهيراً لهم عن مجاورة الأعداء.

وهل رأيتم من يجاور عدوه وهو يجد من جواره بدءاً إلا أن يكون ممن لم يهبه الله توفيقاً ولا رُشداً؟ وهل رأيتم لبيباً مجاوراً للسباع وهو يقدر منها على الامتناع، أو مقارباً للأفاعي وأولادها وله سبيل ومتدح إلى إبعادها؟! فيكم ترون من ظلم وتعدى أضر وأخبث وأردى مقارنة - والله المستعان - ومجاورة، وأكثر لمن جاروه نكاية ومضرة، وإن من ظلم وكفر وفجر ليضرك وإن نحا، فكيف يُحَالُ فيما كان له منزلاً وبلداً وملجئاً، إن هذا لضلال - والحمد لله - ما يخفى، وجفاء في دين الله لا يأتيه إلا من جفا.

ولقد قرأنا مع ما علّمنا الله في التنزيل ما في أيدي هذه النصارى من الإنجيل، فإذا فيه: أن طائفة من الأشرار أبناء الظلمة والفجار جاءوا يطلبون التوبة للرياء إلى يحيى بن زكريا صلى الله عليه، فقالوا له: طهرنا فقد تبنا إلى رب السماء بما تطهر به التائبين من الماء، وكان يحيى صلى الله عليه إذا صار إليه أحدٌ مطيعاً لله ومحياً أو تائباً إلى الله منيباً أمره بالاغتسال من نهر الأردن، وكانت تلك سيرته

صلى الله عليه فيمن آمن، فقال للذين أتوه كاذبين؛ إذ لم يكونوا بالحقيقة تائبين: يا أولاد الأفاعي، ائتوا بثمره تصلح للتوبة والتطهرة، فطردهم ولم يرهم أهلاً للتطهرة، فهذا أيضاً والحمد لله من دلائل الهجرة.

أو ما سمعتم نبي رب العالمين عما ذكرنا من جوار الظالمين، إذ يقول سبحانه لعباده المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران]. وتأويل ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ هو من غيركم، يقول سبحانه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ من غير أهل دينكم، والبطانة في المقارنة هم القرناء، كما البطانة في المخادنة هم الخدناء، فمن قارن أحداً في المحل فهو له بالمجاورة بطانة وقرين، كما أن من خادن أحداً بمحل فهو له بالمخادنة بطانة وخدين. وإنما قيل للبطانة: بطانة لأنها مخاصة ومقارنة، فهى الله سبحانه المؤمنين أن يتخذوا الظالمين أخلاء أو خدناء، أو جيرة أو قرناء؛ لأن من لا يدين دينهم لا يألوهم خبالاً، وإن لم يظهروا لهم حرباً ولا قتالاً؛ لأنهم يرجعون أبداً بهم وفيهم عيوناً ذاكيةً لعدو الله عليهم، يجادلونهم بالباطل ليدحضوا به حقهم ودينهم، ويعارضونهم فيه بزخرف القول ليوهنوا به علمهم ويقينهم، فبعلم من عليم وتقدير من حكيم ما نهاهم الله عن موالاتهم ومخاللتهم، ومنعهم من مجاورتهم ومحاللتهم.

وفي ترك مقاربتهم وإيجاب مجانبتهم، وما أمر الله به الرسول صلى الله عليه والمؤمنين من مهاجرتهم - ما يقول الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وعلى آله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ﴾ [الأنعام]، يقول سبحانه: بمهاجرتك لهم، ففيها تذكير لمن يعقل منهم إن أبصر هداه ورشده، أو كان شيء من الخير عنده، ولا تجلس معهم، ولا يجمعك من المقاعد ما يجمعهم؛ إذ كانت مقاعدهم مقاعد لهو ولعب واستهزاء، فإن ذلك إذا كان

كذلك يمنعهم من الذكر لما تذكّرهم به من الأشياء، وفي تركك لهم وإعراضك عنهم ما فيه تذكير لمن عقل منهم. ولم يذر الظالمين من جاورهم، وحلّ وسكن دارهم.

وفي جدالهم وزخرف أقوالهم ما يقول سبحانه: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف].

وفي من ذكر آيات الله فلم يذكر، وبُصّر نورها فلم يبصر - ما يقول الله لا شريك له: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

ثم أخبر سبحانه عن اعتماده واغتفاره الذي هو احتماله وعفوه وتغمده ورأفته ورحمته وإفضاله في ترك المعاجلة بعذابه ونقماته لمن أعرض عما ذكّر به من آياته، فقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا﴾ [الكهف]، فمن أشد إعراضاً عن آياته وما أوضح بها وفيها من بيناته من جهل فرض الله عليه فيها؟ أو ليس هذا هو الذي لم يلتفت قط إليها؟ بلى إنه هو ذلك وإن لم يكن عند من لا يعقل كذلك.

وقد جهل قوم ما قلنا به في الموالة، وما زعمنا أنه منها من القرب والمدانة بالجوار^(١) والمحالة والخلطة والمعاملة، وقد يقال للقوم إذا تتابعوا جميعاً في مجيء أو قالوا كلهم قولاً واحداً في شيء: إنهم جميعاً لمتوالون فيه، وفي المجيء إلى البلد: إنهم لمتوالون إليه، وإذا جاءوا متتابعين قيل: جاءوا متوالين، وكذلك يقال للقوم إذا دخلوا أرضاً، وكان بعضهم مجاوراً فيها بعضاً: إنهم بالجوار لمتوالون

(١) في (نخ): والجوار.

فيها، كما يقال: إذا ساروا إلى الأرض: إنهم لمتوالون إليها. وكما يقال للمتأصفين: إنهم أصفياء المودة والصفاء كذلك يقال: للمتوالين: أولياء في المقاربة والولاء، وقد قال الله تبارك وتعالى في أهل الكتاب من اليهود: إنهم أولياء لأهل الكفر والشرك والجحود، فاسمعوا لقول الله سبحانه لرسوله في بني إسرائيل، وما وقفه عليه من ذلك في التنزيل: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [٨٨] وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [٨٩] المائدة، يقول سبحانه: لو كانوا يؤمنون بالنبى الذي كان فيهم، وبمن صار من أنبياء الله ورسله صلى الله عليهم إلههم - لما والوا الله عدواً مشاقاً، ولا أدخلوا عليهم إذ كانوا أعداء للرب مرفقاً بمخالطة منهم لهم ولا معاملة، ولا بمجاورة لأحد منهم ولا محالّة، وقد تعلمون أن من ذكره الله سبحانه في هذه الآية بالتولي للكفار من اليهود وإن كانوا قد نقضوا في أكثر الأمور ما بينهم وبين الله من العهود، فلم ينقضوا أنهم غير متولين للكفار في أديانهم، ولا راضين بعبادة ما كان الكافرون يعبدون من أوثانهم، ولا ما كانوا يشرعون في دينهم من الشرائع، ويفترون على الله فيه من الشنائع، في أكل الميتة والدم، وما كانوا يحلون من كل محرّم، بل كانوا لهم في ذلك مخالفين، ولعملهم فيه من القالين، ولكنهم كانوا لهم موالين، وإن لم يكونوا لدينهم قابلين، وكانوا لهم على دينهم من العائنين، وهم في أنفسهم من المعادين، ولكنهم كانوا أولياء لهم بالنصرة والمودة، وبما ذكرنا من الجوار والمعاملة والمقاعدة.

أفلا ترون كيف جعلهم رب العالمين بمولاتهم لمن ظلم من الظالمين؟! فأثبت سبحانه عليهم في الحكم أنهم عنده كُهم في الظلم، وأنهم منهم بمولاتهم لهم، وإن كانوا بُرّاء منهم في شرائع دينهم، وجاهلين بأكثر أقاويلهم، لا

يعملون^(١) منها حرفاً، ولا من أوصافهم فيها وصفاً، فلذلك كان من الموالاة ما ذكرنا من القرب والمدانة، التي منها المجاورة والمحالة، كما منها الإخاء والمخالاة.

ومن قارب شيئاً ودنا إليه فهو غير شك يليه، وكذلك في المحبة من والاكم فقد وآدكم وآخاكم. ومن ذلك حرم الله سبحانه المجاورة والمدانة إذا كانت بين أهلها مقارنة وموالاة، ففرض الله على نبيه صلى الله عليه وعلى المؤمنين الهجرة لدار من كفر به، ولم يصر إلى القبول عنه لما جا به من ربه، ولمن هاجر يومئذ من المؤمنين عن الدار، وما أمر الله بهجرته من الكفار، وقبلهم وفيهم، وعندهم ولديهم - الأموال والديار العامرة، والأبناء والأهلون والقرابة الناصرة، فألزمهم الله لذلك كله الهجرة، وأوجب عليهم لدينه ولأنفسهم النصرة، وأبقى الهجرة بعدهم لمن سلك قصدهم شريعة ثابتة قائمة، وفريضة للمؤمنين لازمة دائمة.

ولم يجعل سبحانه للمؤمنين حقاً وحقيقة في الاسم وصدقا، ولم يوجب مغفرة ورزقاً كريماً، ولم يجعل برحمته فوزاً عظيماً - إلا لمن هاجر لله وفيه، وخرج من بيته مهاجراً إليه.

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه في تنزيله، وما بين به في الهجرة من تفصيله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]. فما استحقوا على الله سبحانه جزاءه وإن آمنوا

(١) في (نخ): لا يعملون.

وجاهدوا حتى هاجروا في الله من عاداه، وزالوا من دار أهل مشاقته وعصيانه،
وخرج كل مهاجر منهم عنهم هارباً إلى الله من أوطانه.

فكيف يرجو النجاة عند الله والفوز برضوان الله من لم يهاجر إلى الله كما
هاجروا، أو يؤو وينصر كما آووا ونصروا؟ لا كيف إن فهم عن الله أو عقل! أو
علم ما أوحى الله في ذلك ونزل!

أما سمع قول رب العالمين إذ يقول سبحانه للمؤمنين: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي
الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ
وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ودُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا
فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَحُذِّهُمُ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا﴾ [النساء]، ومن المنافقين يومئذٍ لبعض المؤمنين أبٌ وقريبٌ، وجارٌ
وحبيبٌ، وعون وظهير، وولي ونصير، يوالي بعض المؤمنين في حربه ويناصره،
ويعاونه على عدوه ويظاهره، فلما نزلت على المؤمنين يومئذٍ البراءة منهم، ونهوا
عن المقاعدة لهم، وقطع الله الولاية بينهم وبينهم، وأمروا بالإعراض عنهم -
افترقوا بالرأي فيما حكم به عليهم في المنافقين فرقتين، وصاروا كما قال الله تبارك
وتعالى فيهم طائفتين، طائفة تأسى على ما فاتها من نصرهم، وما كان يدخل
عليها من المرافق بهم، في المداينة والإسلاف، والمجاورة والاتلاف. وطائفة
عريّة عنهم، قد قطعت الآمال منهم، والتي أسييت من المؤمنين عليهم تمنى لهم
الهدى، والطائفة الأخرى فإنما تراهم حرباً وأعداء، وكل المؤمنين وإن اختلفوا
فيهم فقد قاموا بحكم الله في العداوة لهم عليهم، لا يعدلون بأمر الله لهم فيهم
أمراً، ولا يتخذون منهم - كما قال الله عز وجل - ولياً ولا نصيراً، فنهاهم الله
سبحانه عنهم، وجعل من تولاهم منهم، ومنافقاً مثلهم بولايته لهم، ثم أمر
سبحانه بقتل الفريقين؛ إذ كانوا جميعاً منافقين، ومنع سبحانه من آمن به وبكتابه

وكان قابلاً لحكمه وآدابه أن لا^(١) يتخذوا من الفريقين ولياً ولا نصيراً، أو يستظهروا منهم عوناً أو ظهيراً، تعزيزاً منه سبحانه للمؤمنين بأمره، واكتفاء لهم من غيره بنصره.

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وعلى أهله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فجعل له سبحانه فيمن اتبعه وكان في طاعته معه كفاية وعزاً، ومنعة وحرزاً، والحمد لله الذي لا يُذل أوليائه، ولا يُعزُّ أبدأ أعداءه.

وفي الهجرة وذكرها وما عظم الله من قدرها ما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فكأنه لا يرجو رحمة الله إلا من هاجر لله وفي الله.

ومن الهجرة وفيها ومن الدلائل عليها قول الله سبحانه: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]، فلم يوجب بينهم بالأرحام ولآء وإن كانوا إخوة وقرباء، بل وإن كانوا أمهات وآباء، إلا أن يهاجروا دار من كان لله عدواً، ولا يتبوأوا معه في محل متبوأ.

ومن ذلك وفيه ومن الدلائل عليه قول الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّاكَ وَبَنَاتِ عَمَّاكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، فلم يحل له من بنات عمه وعماته وبنات خاله وخالاته إلا من هاجر معه ما هجر^(٢)، وزال عن دار من كفر.

مع التي ليس فيها إحالة، ولا بعدها لمؤمن ضلالة، من العلم بهلكة من لم يهاجر دار من أمره الله بمهاجرته، وأقام مجاوراً لمن منعه الله من مجاورته، ممن

(١) هكذا في المخطوطات، ولعل «لا» زائدة.

(٢) في (نخ): هاجر.

اعتذر عند حضور وفاته إلى الملائكة بالضعف في الأرض التي كانوا فيها وما خشوا من أهلها على أنفسهم من الهلكة، ففي ذلك أكفى الكفاية لمن له بنفسه أدنى عناية، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء]، فاعتذروا في الجوار لمن ظلم عند مساءلة الملائكة لهم عن أمرهم بما لم يقبله الله جل ثناؤه ولا الملائكة ﷺ من عذرهم، وردت عليهم الملائكة في ذلك رداً محكماً فصلاً، جعله الله لرضاه به وحياً منزلاً، فقالت الملائكة ﷺ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾، وقال الله لا شريك له لهم: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء]، فلم يجعل الله سبحانه لهم في جوار أعدائه عذراً ولا تعذيراً، وجعل جهنم لهم مصيراً وداراً، ولم يزدهم عذرهم عنده إلا تباراً، فأى كفاية أو شفاية أشفى لمن أراد اشتفاء أو اكتفاء من هذا لمن يسمع ويصر ويرى؟ فنحمد الله على ما بين في الهجرة من الحق والهدى، فأمر به وفرضه من مهاجرة مَنْ ظلم وتعدّى.

مع ما في سورة الامتحان في الهجرة من التأكيد والبيان، قال الله لا شريك له: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ثَلُقُوتَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ﴾ [المتحنة: ١]، فإنما كان إلقاء بغير التقاء ولا مقاعدة، بكتاب كتبه فيها قالوا حاطب ابن أبي بلتعة، فقال عمر: اتركني يا رسول الله أقتله فقد كفر بمكاتبتة، فمنع رسول الله عمر مما أراد بحاطب من القتل لرجعته وتوبته، وكان رسول الله صلى الله عليه في ذلك بحكم الكتاب أعلم من عمر بن الخطاب.

ثم أكد في السورة على المؤمنين أشد تأكيد، وردد نهيه عن موالاته من كفر ترديداً بعد ترديد، وأخبرهم أن الأرحام وإن كانت بينهم فإنها غير نافعة في يوم القيامة لهم. فكل محل ودار كان أهلها كفاراً أو غير كفار، إذا كانوا أعداء لله،

وكان الحكم في الدار حكمهم، وكانت داراً ظاهراً فيها ظلمهم - فهجرتها مفترضة واجبة، وحلولها هلكة معطبة، وبذلك وله ولما ذكرنا منه هلكت القرون والأمم، ودمرت القرى والمدن؛ إذ لم يكن فيها إلا ظالم معتد، أو مجاور لمن ظلم غير مهتد، فلم يستحق الهلكة والتدمير من الفريقين إلا مذهب مجرم، يستوجب أن ينزل به من الله جل ثناؤه التدمير والنقم.

فاسمعوا لخبر الله عمن دمر بالظلم من القرون والقرى، فإن به عبرة وموعظة شافية لمن يبصر ويسمع ويرى، قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝﴾ [الإسراء]، فخص الله مترفيها بالذكر في الفسق وإن كان كل أهلها فاسقاً^(١) في حكم الحق؛ لأن أهلها إنما هم مترف أو جبار، أو مُساكن لهم وجار، فكلهم فاسق عن أمر ربه، وكلُّ إنما أخذ بذنبه.

وفي تذكير الله بإهلاكه للقرى ما يقول الله سبحانه مذكراً: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝ وَإِذْ قَالَتْ أُمُّهُ مِنْهُمْ لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزِّ بَيْبِيسَ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝﴾ [الأعراف].

فكان أهل القرية ثلاث فرق، فرقة نسبها الله إلى العتاء والفسق، وفرقة من الفرق الثلاث معذرة مقصرة، وفرقة منهن واعظة ناهية مذكرة، تنهى من عتاء عن الفسق والعتاء، وتذكر بما يجب لله من الطاعة والرضا، فلم يذكر الله تبارك

(١) في (أ) ونسختين: فاسقاً.

وتعالى في خبره عنهم أنه جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله أنجى منهم إلا من أمر ونهى، وكان واعظاً منبهاً، وداعياً لهم إلى الله مُسْمِعاً، ومُتَّبِعاً لعتاهم مُشْنَعاً، لم يذكر سبحانه عمن خلّصه وأنجاه أنه أقام مع مَنْ وعظه ونهاه في محل الفسق والعتا، ولا سبت معهم في قريتهم سبتاً، ولا استحل فيها لهم جواراً، ولا قرّ معهم فيها بعد العتاء قراراً.

وكيف يقيمون معهم في القرية، مع ما أظهروا لله فيها من المعصية، يرونها فيها عياناً، ويوقنون بها إيقاناً، لله كان أجل في صدورهم جلالاً، وأكبر في نفوسهم أمراً وشاناً من أن يجاوروا مُشَاقِّقِهِ ومَعَاصِيهِ، أو يقيموا جيراناً لمن يشاققه ويعصيه، وهم لو جاورهم جارٌّ في أنفسهم بما يسخطون، أو بكثير من الأذى والمكروه هم له ساخطون، لا يقدرّون له على دفاع، ولا منه إلى امتناع - لما أقاموا ساعة واحدة معه، ولا سيما إذا كان لا يقدر أحد منهم على أن يدفعه، فكيف بمساخط الله التي هي في صدورهم أعظم، ولقلوبهم أحرق وآلم، ما يحل توهم ذلك عليهم، ولا نسبة شيء منها إليهم، والحمد لله رب العالمين، ونعوذ بالله من مجاورة الظالمين.

وفيا ذكرنا من هلكة القرى ما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْظَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ۝﴾ [الحج]، فذكر سبحانه إهلاكه لكلّ مَنْ كان في القرية من ضعيف أو شديد؛ إذ لم يكن في القرية إلا جبارٌ أو جارٌّ، وكلٌّ فقد حقت عليه من الله الهلكة والدمار؛ لأنهم كلهم لله عصاة، وعن أمره جل ثناؤه عتاة، جبارها بتجبره واستكباره، وجارها بمحالته للظالمين وجواره، فكلُّ أهلِكَ الله بكسبه، وأخذَه الله بجرمه وذنبه، كما قال سبحانه: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝﴾ [العنكبوت]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى

ءَامِنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ [الأعراف].

فينبغي لمن كان في قرية من القرى غير معمولٍ فيها بما يحبُّ الله ويرضى، الغالب على أهلها فيها الظلم والعتا- أن لا يأمن مكر الله وأخذه لأهلها ضحًى أو بياتاً، ولا يغفل عما يتوقع من أمر الله فيها، من حلول نقمه بها وعليها، وإن أُمِّلِيَتْ فأطيل لها الإملاء، فإن بالغفلة يهلك فيها الغفلاء.

وربما أُملى الله لقرية فأطال وهو يرى فيها الظلم والضلال، كما قال سبحانه: ﴿وَكَايَيْنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج]، ففي هذا وأقل منه موعظة لمن يعقل ويبصر، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢﴾ [فاطر]، كما قال العزيز الغفور.

ولعل مَنْ عَمِيَ قلبه، وضل فلم يرشد لُبُّه، كما قال الله سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج] أن لا يبصر ما فصل الله في هذا الباب من الأمور، فيقول: إنما نزلت نقم الله وعذابه وحل تدميره وعقابه على من أشرك به ولم يقرِّ بربه، فأما نحن فمقرون، وأولئك كانوا يكفرون، ففي قول من قال ذلك لمن يعقل عجب العجب؛ لما فيه على الله من الافتراء والكذب، أو لا يرى من زعم ذلك وقاله وزُيِّن له فيه مقاله أن الله سبحانه عَذَّب قرية أهل الاعتداء في سبتهم على ما ركبوا فيه وما مسخهم الله به من معصيتهم، التي لم يخلطها منهم لله ولا لشيء من دينهم إنكار، ولم يأت لشركهم في مسخ الله لهم بمعصيتهم من الله ذكر ولا إخبار، بل إنما عَظَّمَ الله سبحانه عصيانهم، وذكر في سبتهم عدوانهم، لإقرارهم فيه على أنفسهم

بالتحريم، ولما كانوا عليه للسبت من التعظيم، وبتعظيم الله له وتعظيم رسله عندهم في دينهم عظموه، وبما حرّمت عليهم رسل الله حرّموه.

ولو كان لا يهلك إلا منكر أو مشرك لكان ما ذكر الله من إهلاكه للقرى بالعداوة^(١) والظلم تلبساً شديداً، وحيرة في الفهم والعلم، لا يخاف الهلكة معه ظالم ولا مفسد، ولا طاغٍ مقر متمرد، بل كان كل من فسق وظلم، وطغى وتعدى وغشم، آمناً للغير والنقم، في كل فسق وجرم.

وإنما الشرك ضربٌ من ضروب الفسق والظلم، خصه الله بخاصة من الكبر والعظم، كما قال لقمان عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان]، فخصه لقمان بما خصه الله به من التعظيم، وكل كبيرة سوى الشرك من المعاصي فقد خص الله أهلها فيها بالتظليم، والكبائر وإن اختلفت بأهلها فيها الشئون، فبالظلم وإن اختلف هلكت القرى والقرون، ولذلك وبه وما ذكرنا من قدره ما يقول الله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف].

وإن -فيما ذكر الله لا شريك له في سورة الطلاق، وما عظم فيها من خلاف أمره حتى في الفراق، والإشهاد عليه إذ كان بشاهدي عدل، وما حكم به على المؤمنين في السورة كلها من حكمه الفصل، وما خوّفهم فيها به من ترك أمره وعهده ونهاهم فيها عنه من التقصير، وذكرهم به في عتو القرى عن أمره من التذكير- لدليلاً مبيناً وعلماً يقيناً بأنه يهلك القرى إذا أراد وشاء بالعتو والفسوق والعدوان، وبكبائر الظلم والعصيان، إلا أن يدفع ذلك عنهم في الدنيا برحمته، ويؤخرهم بالعقاب فيه إلى يوم حشره وبعثته.

فاسمعوا لقول رب العالمين في ذلك للمؤمنين بعد الذي أمرهم به في السورة

(١) في نسختين: بالعدا.

من أمره: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ ٨ ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ ٩ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ١٠ ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ ١١ ﴿[الطلاق]، فلما كان جميع من في القرية لا يخلو من عامة أو خاصة متعدية، وكان أمر الله وأمر رسوله للعامة في الخاصة المتعدية الظالمة أن يجاهدوا إن قوا وانتصفا، وأن يهاجروهم ويتنقلوا عنهم إن ضعفوا، فلم يفعلوا ما أمروا بفعله - كانت القرية كلها عاتية عن أمر الله وأمر رسوله، فحل عذاب الله بذلك فيهم، ونزلت نقات الله فيهم وعليهم، وكان كلهم ظالماً عاتياً، فاستحقوا جميعاً الهلاك (١) بظلمهم وعتائهم، وعصيانهم واعتدائهم، ولو كان الأمر في ذلك كما قال من لم يهد فيه لرشده، ولم يسد في القول للهدى وقصده، لكان في ذلك من التجربة لكل نفس متعدية ما تقل معه الله منهم الطاعة، ويعظم به وفيه عليهم الفساد والإضاعة، ولكن لم يأمر الله سبحانه في السورة كلها ويئنه، ولم يكن بما فيها من التذكير والتحذير واعظاً منبهاً، إلا لمن آمن من المؤمنين به، ولم يحدد بشيء من رسله ولا كتبه.

فافهموا هديتم قوله سبحانه: ﴿ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، فإنكم إن تفهموا ذلك بين لكم إن شاء الله ما التبس عليكم في كل ما ذكرنا من الأمور، وخرجتم ببيان الله فيه من ظلمات الهوى إلى نور الحق والبر والتقوى.

(١) في نسختين: المثالات.

وفي قرى الفسق والعتا والظلم وما أحل الله بها من الحطم القصم ما يقول سبحانه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ١١ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ١٢ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ١٣﴾ [الأنبياء]، فمن تأويل ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾: لعلكم تعرفون وتقررون أيها المترفون المساكنون بما كنتم في مساكنكم من الظلم تعملون، فلما عرف كُبراء القرية وضعفاؤها بظلمهم فيها أجمعين قالوا عند الاعتراف والإقرار آسفين متحسرين: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ١٤، قال الله لا شريك له: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ ١٥.

فكم وكَم من نقمة وقرية منقصة، الظلم من أهلها والعدوان قصمها، والفسق من ساكنها والعصيان حطمها، قد نبأكم الرحمن نبأها، وخبركم في كتابه مهواها، وما به كانت هلكتها من الظلم ورداها؛ لتهاجروا فساقتها وفسقتها، ولتجانبوا أخلاقها وطرقها، ولتحذروا مثل الذي وقع بساكنيها ومجاوريها إذ لم ينكروا الظلم من مترفيها وجباريها، فأصبحت الجبارة مقصومة، ومدائننا بالهلكة محطومة، وجيرتها معها مدمرة؛ إذ لم تكن لظلمهم مباينة مُنْكَرَة، وفي مثل ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلِكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ١٦﴾ [القصص].

ومن ذلك ولذلك ما يقول الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ١٧﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ١٨﴾ [المؤمنون]، لأن من كان مقيماً فيهم وصل إليه ما وصل إليهم؛ لأنه لا يجاور أهل الظلم ويقيم فيهم إلا الظالمون الفاجرون، ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ١٩﴾ [الأنفال]، يقول سبحانه: يعذبهم وهم يتوبون ويتورعون؛ لأن الاستغفار هو التوبة من أهل الكفر والإقصار،

فلم يُقَمِّ أحد من المرسلين بدارٍ من دُور الظالمين إلا مبيناً داعياً، ومنتظراً فيها لأمر الله مراعيّاً.

وَمِنْ قَبْلُ ما حَكَمَ اللهُ به من الهجرة على رسوله وعلى المؤمنين، فقد حَكَمَ به على من مضى قبلهم من المرسلين ومن تبعهم فكان معهم من عباده الصالحين، فقال في نوح -صلى الله عليه- وما صَيَّرَهُ سبحانه من الهجرة إليه: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون]، ثم أمره سبحانه أن يحمدَه على إنجائِه له منهم وما حَكَمَ به عليه من البعد عنهم، وكانت هجرته لهم قبل غرقهم على ظهر الماء، وفي الفلك بين الأرض والسماء، وقال صلى الله عليه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿٧٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء]، فقال سبحانه: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٧٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿٨٠﴾﴾، فأنجاه تبارك وتعالى منهم، وأغرقهم بعد هجرته ﷺ عنهم، فهاجر صلى الله عليه أهل الكفر والفسق قبل ما أحلَّه الله بهم من الهلكة والغرق؛ تأديّة لفرض الله عليه في الهجرة لهم، وقد كان قادراً على أن ينجيهم وإن أقام معهم، ويغرقهم بجرمهم، وبما ركبوا من كفرهم وظلمهم.

وقال إبراهيم صلى الله عليه: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الصافات]، وقال ﷺ لأبيه إذ أجمع من الهجرة على ما أجمع عليه عند الرحيل والزوال، وعند ما جاءه له من السلام: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم]، فلما اعتزلهم وما يعبدون صلى الله عليه وأصنامهم،

وفارق مهاجراً إلى الله دارهم ومقامهم - وهبه الله من إسحاق ويعقوب ما وهب، وهداه الله في مذهبه إذ ذهب، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم]، فهاجر إبراهيم عليه السلام لله قومه وبلده، وفارق في الله وطنه ومولده، وهجر صلى الله عليه أباه فيمن هجر، وهو صلى الله عليه كان أبرّ من برّ، فهجر أباه في الله طاعة لله، وتبرأ منه إلى الله إذ تبين له أنه عدو لله، فقال سبحانه فيه صلى الله عليه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ۝٥١﴾ [التوبة]، والأواه فهو: الرحيم، والحليم فهو: الحكيم. وهاجر لوط صلى الله عليه إذ هاجر معه، ولم يسعه من الهجرة إلا ما وسعه، كما قال لا شريك له: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥٢﴾ [العنكبوت]، وهاجر لوط صلى الله عليه بأهله ثانية، إذ كانت القرية التي كان فيها قرية طاغية، إذ جاءته ملائكة الله فقالوا له عن أمر الله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٥٣﴾ [الحجر]، وتأويل ﴿لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾: لا يعرج أحد منكم تليثاً، وسيروا كلكم جميعاً سيراً حثيثاً، وليس تأويل ﴿لَا يَلْتَفِتْ﴾ ما يظن العمي الميِّت من الالتفات في النظر إلى ما وراء الظهر أو إلى ما عن الميامن والمياسر، ولكنه استحثاث واستعجال، كما يقول المستحث المعجال إذا أُنذر أحداً أو أرسله فاستحثه واستعجله: لا تلتفت إلى شيء ولا تعرج له.

ثم قال - من بعد قصة إبراهيم وأبيه - ربّ العالمين لرسوله ومن معه من المؤمنين: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝٥٤﴾ [التوبة]، فينّ سبحانه أن من والى من عاداه فقد ضلّ عن حقه وهداه، فمن جاور من ظلم وتعدّى وهو

يجد من جواره بدءاً فقد قاربه بالمجاورة وداناه، ومن دانى أحداً كما قلنا فقد وليه وتولاه، والمقاربة كما قلنا فهي ولاية وإن لم تكن مؤاخاة، ولذلك ما طهر الله أوليائه من أن يجاوروا في دار ومحل أعداءه، فأمر تبارك وتعالى لوطاً - إذ كان من هاجر عنه ظالماً مفرطاً - بالخروج عنهم والهجرة لهم كما هاجر عمن كان قبلهم.

وقال رب العالمين لمن بعد إبراهيم من الرسل والمؤمنين: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [المتحنة: ٤]، وما آمن بالله ولا راقب وعيده ولا وعده من وإلى أعداءه وكان متبوأهم متبوأه، ولا أناب إلى الله ولا أسلم له، ولا قبل أمره وقوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [٥] وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]، إذ من الإسلام والإنابة إليه المهاجرة لعدوه فيه، كما لا يكون أتاكم ولا ورد عليكم من مشى بعض الطريق إليكم، فكَذَلِكَ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ مَنِيباً مُسْلِماً مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْإِنَابَةِ وَالْإِسْلَامِ مُكْمِلاً مُسْتَسْتَمِماً.

ألا تسمعون لقول إبراهيم صلى الله عليه والذين آمنوا معه، وكل من آمن به من المؤمنين واتبعه: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ﴾، فقدموا ذكر التبري منهم وذكر انقطاع الولاء والمجاورة بينهم قبل ذكرهم لأوثانهم ومعبودهم وما كفروا الله به فيها من شركهم وجحودهم، فكما يجب الاعتزال للضلال فكذلك يجب الاعتزال للضلال، وكما تجب الهجرة للكفرة والفجار فكذلك تجب الهجرة للفجور والكفار، فرحم الله عبداً اعتزل الضالين وضالهم، وهجر الله وفي الله الظالمين وأعمالهم، فإنه أمر سبحانه باعتزالهم كما أمر باعتزال أفعالهم، ولم يعتزلهم مهاجراً ولا مجانباً مَنْ كَانَ لَهُمْ فِي دَارِ ظِلْمِهِمْ قَرِيناً أَوْ مُصَاحِباً.

فليحذر أمرؤ جاور مَن ظَلَمَ وحالُه وإن لم يفعل من الظلم أفعاله أخذَ الله له وعقابه، وليذكر حكم الله عليه وكتابه، فقد سمع ما نزل الله من ذلك وفيه، وما حكم به من هجرة الظالمين عليه، ففي أقل من ذلك كفاية وغنى ونور لمن هداه الله وضياء، فقد جاءت من الله في ذلك كله البينة المضية، ووصلت إليه فيه سنن رسله وأوليائه المقبولة عنده المرضية، التي جعلها الله سبحانه من بعدهم صلى الله عليهم تذكراً كافية، وحجة على كل من آمن بالله وموعظة بليغة شافية.

وليسمع قول أصحاب الكهف إذ يقولون وهم هاربون من قومهم في الله فارّون: ﴿وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾ [الكهف]، فذكر اعتزالهم لأشخاصهم وأبدانهم قبل ذكره لاعتزال أصنامهم وأوثانهم، وكانوا معتزلين لهم هارين منهم إلى كهف الجبل، مفارقين لله وفي الله الآباء^(١) والأهل، مهاجرين بذلك في الله مَن كان عدواً لله.

وأمرُ الله سبحانه لبني إسرائيل بالخروج من قرى فرعون، ففيه بينة ظاهرة جليلة في الهجرة لقوم يعقلون، قال الله لا شريك له لموسى وهارون صلوات الله عليهما ورضوانه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿[الشعراء]، وقال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾﴾، فأمرهم سبحانه بهجرة عدوّه، وأخبرهم بأنهم سيتبعون لتشتد عليهم فيما أمرهم به من ذلك المحنة، ولتعظم لهم ومنهم به في طاعتهم لله الحسنة، فلم يمنعهم خوفهم لفرعون وجنوده من المضي لما عهد الله إليهم في الهجرة من عهوده، مع ما دخل من الخوف في اتّباعه عليهم، وقال سبحانه بعدُ فيهم إذ هاجروا مع هائل الخوف في الله مَن كان لله عدواً:

(١) في ثلاث نسخ: الأناس.

﴿فَأْتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ [يونس: ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجُمُعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ١٦]، يعني سبحانه: جماعة بني إسرائيل وجماعة القوم الظالمين، فلم يمنعهم هول الرؤية والمعاناة، وما طُلبوا عند ذلك من الهلكة والمنازلة، عن النفاذ على ما أمروا به من الهجرة، منطلقين بكليتهم ونسائهم وصبيتهم، لا يلتفتون إلى شيء، قد خرجوا ليلاً سارين، لظفر فرعون وجنوده خائفين محاذرين. فهذه هديتهم عزائم الموقنين بالمرجع إلى رب العالمين، فأما من ضجعه تربُّصه وارتقابه، وصرعه شكه وارتياحه، فما أبعد في الهجرة من عزمهم! وما صاروا به إليها من علمهم^(١).

وقال موسى صلى الله عليه إذ عصته بنو إسرائيل فيما عهد الله إليهم وإليه من دخول الأرض المقدسة، وما اعتلوا به عليه من خوفهم لمن فيها من الجبابرة المتعفرتة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، سأل الله صلى الله عليه أن يفرق بينه وبينهم؛ إذ أجمعوا جميعاً كلهم على ما يسخط الله منهم، إكباراً منه صلى الله عليه للمقام مع معصية الله فيهم، فكيف يُجاوَرُ العاصون في أكثر الأحوال أو يُصار إليهم؟!

وفي ذلك ومثله ورضا الله به من أهله ما يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]، فكفى بهذا كله وما تلونا منه في وجوب الهجرة بياناً وتنويراً.

وما كان من موسى صلى الله عليه عند رجعته إلى قومه في أخيه إذ أقام مع العصاة في مكانهم وهم مصرون لله على عصيانهم، ففيه عبرة لمعتبر، وبيان

(١) في (أ) ونخ: عملهم.

وموعظة لمدكر، قال الله سبحانه لا شريك له: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف]، فأخذ صلى الله عليه برأس أخيه يجره إليه غضباً وأسفاً، وتغيظاً وتلهفاً، وإعظاماً وإكباراً، وتقبيحاً وإنكاراً لمقامه معهم وبين أظهرهم مع ما صاروا إليه من معصية الله في أمرهم، وهارون صلى الله عليه مبين لهم فيما هم فيه من عصيانهم وضلالهم وما ارتكبوا فيما بينهم وبين الله من سيء أفعالهم، يأمرهم فيه دائماً بالهدى، وينهاهم عما هم عليه من الضلالة والردى، يناديهم في إنكاره وتقبيحه وإكباره بصوتٍ منه صيِّتٍ رفيع، يسمعه منهم كل سميع متمسك صلى الله عليه في نفسه ومن أطاعه من آله وغيرهم من قومه بعصم الحق والرشد والهدى، بريء مما هم فيه من الضلالة والردى، يقول صلى الله عليه: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٥١﴾﴾ [طه]، فما منعه ذلك كله من سخط موسى عليه، ولا من وثوبه صلى الله عليه عليهما إليه، يجره بلحيته ورأسه، وهارون في كُرب أنفاسه، يعتذر في غمه وكربه وفيما نزل منه به بما يراه هارون صلى الله عليه له عذراً، وعدوه من عصاة بني إسرائيل يرى من فعل موسى به ما يرى، وهارون يعتذر إليه صلى الله عليه، فما قبل موسى ذلك منه، ولكنه نبهه لما غفل عنه، فقال صلى الله عليهما: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٥٢﴾﴾ ألا تتبعن أف عصيت أَمْرِي ﴿١٥٣﴾﴾ [طه]، قوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ يدل على أن قد كان أمره أن لا يقيم - صلى الله عليهما - مع من شاقَّ الله وكفره، وقوله: ما منعك ألا تتبعتني إذ عصوا ما منعك أن لا تركهم وتلحقني، ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْفُقْ قَوْلِي ﴿١٥٤﴾﴾.

فهل رأيتم هديتم من قولٍ أشبه بأن يكون عذراً من قول هارون واعتذاره، مع ما كان من أمره ونهيه وإنكاره؟ فلما علم موسى صلى الله عليه ذلك كله، وأن هارون صلى الله عليهما آتاه وفعله، وأن جميع ما فعل من ذلك وإن كان إحساناً وكان لله تبارك وتعالى رضواناً غير مقبول عند الله منه، وأن مقامه مع الظالمين ذنبٌ يحتاج إلى الله في العفو عنه - قال موسى بعد اعتذار هارون صلى الله عليهما إليه، واستعطافه بذكر أمه له عليه، إذ يقول: ﴿ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، فلم يستغفر موسى لهارون ذنبه، ولم يسأل العفو عنه ربّه، حتى علم هارون أنه قد كان أخطأ في مقامه مع الظالمين، يرى ويعاين عصيانهم لرب العالمين، فعندما اعترف هارون بزلته في مقامه معهم وتركه لاتباع موسى عندما رأى منهم قال موسى صلى الله عليه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، وقول موسى لهارون صلى الله عليهما: ﴿أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ١٣]، بين أن قد كان أمره وقال له: إن رأيت من القوم عمى أو ضلالاً أو ظلاماً، فلم يقبلوا قولك فيه، وأقاموا مصرين عليه، فالحقني وأتني واتبعني، فهذا وجه قوله: ﴿أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي﴾، يقول: فأقمت مع مَنْ كَفَرَ وَظَلَمَ، وجاورت مقيماً مع من أجرم.

وفي موسى نفسه صلى الله عليه ومن كان معه وتبعه لميقات الله له من خيار بني إسرائيل ما يقول الله تبارك وتعالى فيما نزل على محمد ﷺ من كتابه الحكيم: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فأخذتهم الرجفة، وحلت بهم من المعصية المخافة، وهم هم، ومع سخطهم لهم، فوصلت معرفة العاصين منهم إلى من قد

زال عنهم، فلما أصابتهم الرجفة، ظنوا أنها اهلكة المتلفة، ولم تكن تلك الرجفة من الله لهم هلكة مدمرة، ولكنها كانت من الله لهم ولغيرهم من الأمم موعظة وتذكرة، نفعهم الله بها وأوليائه، وذعر بها من الأمم أعصياه؛ رحمة من الله للمطيعين والعاصين، وموعظة للفريقين من رب العالمين، فتبارك الله فيها أحكم الحاكمين، والحمد لله بها وفيما كان منها لأرحم الراحمين.

ومن ذلك وفيه فخر الله جل ثناؤه عن عيسى صلى الله عليه، بعد الذي كان من إخباره عن موسى صلى الله عليه بما قد سمعته عن الله آذائكم، وأحاط به يقيناً إيقانكم، من مهاجرته صلى الله عليه، وسياحته مهاجراً على قدميه، هارباً لسخطه في الله من بني إسرائيل؛ إذ لم يعملوا بما في أيديهم من التوراة، ولم يقبلوا ما جاءهم به من الإنجيل، وأبوا إلا الكفر لنعمة الله، والمشاققة بعصيانهم على الله، فلما أحس عيسى صلى الله عليه كفرهم، وتوجس في إصرارهم على الكفر أمرهم، كما قال الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، يريد: مَنْ المهاجرُ معي إلى الله، والتابعون لي سياحة في سبيل الله، ولسياحته في الله ونصيحته بها لله سواه الله مسيحاً، وكان لله فيها نصيحاً.

ولقد قرأنا مما في أيدي النصاري لعنة الله عليها، في كل ما عندها من أناجيلها: (أن عيسى ابن مريم لما وجه في المدائن والأمم للدعاء إلى الله حواريه قال: لا تزودوا معكم زاداً، ولا تحملوا معكم فضة ولا ذهباً، وأي مدينة حللتموها أو أمة دخلتموها فلم تقبل منكم، ولم تسمع الحق عنكم، فأقلّوا بها وفي أهلها مقامكم، وانفضوا من غبارها إذا خرجتم عنها أقدامكم، لكيما تكون شهادة الله عليهم، وحجة باقية من بعدكم فيهم، فخرجوا فكانوا يطوفون في المدائن والقرى، وينشرون أمر الله فيهم نشرًا).

ومن مثل ذلك وفيه ما كان يقول صاحب إنجيلهم صلى الله عليه: (للسباع

مغاراً، وللطير أوكار، وليس لي مأوى آوي إليه، ولا بيت أستكن فيه)، فأين هذا ومثله وما كانت عليه أنبياء الله منه ورسله من جوار من ظلم وفجر، وساكن وكثر وعمر؟ لا أين، والحمد لله! والحجة البالغة فلله، ونستعين فيها وجب علينا في ذلك بالله.

فالهجرة أمرها عظيم كبير، وفرضها في كتاب الله مكرر كثير، لا يحمله إلا جهول، ولا ينكره إلا مخذول، إلا أنه قد قطع ذكرها، وصغر قدرها، وأخفى عهودها، وحل عقودها، تحكّم الناس على الله فيها، وتظاهروهم بالمخالفة لله عليها.

والمقام مع الظالمين في دارهم محرم، حكّم من الله كما ترون أولّ مقدّم، قد جرت به سنة الله قبلكم في الماضين، وسار به من قد مضى قبل رسولكم من المرسلين - صلى الله عليه وعليهم - في الأمم الذين كانوا فيهم.

فكفى بهذا في وجوب الهجرة وما حرم الله من جوار الظالمين والفجرة نوراً وبرهاناً، وحجة وبياناً، لمن أثر الله على ما يهوى، ولم يمل مع هواه على التقوى.

فأما من لا يصبر عما تجمع ديار الظالمين من الشهوة والفكاهات، وما يأوي إليها ويجتمع فيها من المجالس الملهيات، فما أبعد وأصدّه وأدفعه وأردّه للبيان فيما عطلّ من هذه الفريضة وبدّل، وافترى في خلافها ومضادّتها على الله وتقول، فإلى الله المشتكى من ذلك وهو المستعان، فما بعد بيان الله في ذلك بيان فيه شفاء لمشتفٍ ولا اكتفاء لمكتفٍ، وما بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون، ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣].

فاتقوا الله في الهجرة أيها الناس، فلا يقطعكم عنها الإلف والإناس، والمعارف والأحباب، والمجالس والأصحاب، والفكاهات والألعاب، والشك فيها والارتياب، فإن الله وملائكته أنس لمن هاجر إليه، وقام لله من الهجرة بما يحب عليه، من كل إلف وأنيس، وصاحب وجليس، ورضا الله أرضى من كل

رضا، وفرض الهجرة أوكد الفروض فرضاً، فلا تثقل عليكم الهجرة، فإن من أيقن بالمرجع إلى الله والمعاد خف عليه ثقل كل رشدٍ ورشاد، ومن أيقن بقصر مدته وبقائه فكان مراقباً لأجله وانقضائه لم يغترر بدنياه، ولم يلهه شيء عما أنجاه، وكان أبغض الناس إليه مَنْ شَغَلَهُ عما ينجيهِ، أباً كان شاغله عن ذلك أو أخاً، ولم يعد شيئاً من دنياه سروراً ولا رخاءً، ولم يرغب فيما هو فيه من الحياة إلا لما يطلب من النجاة، وكانت الدنيا ونعيمها عنده بلاءً، وما يستخفه الجاهلون منها ثقلاً، وغروراً كلها وكذباً، وهوياً في نفسه ولعباً، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت]، فحياة الدنيا عند من يعقل موت، ودركها وإن أدرك فوتٌ، وهي كما قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: ((الدنيا سجن المؤمن وبلاؤه، وجنة الكافر ورخاؤه))، ليست بدار سرور لمن يعقل ولا أمن، ولكنها دار الفناء ودار الأذى، ودار البلى ودار الحزن، لا يغتر بها إلا مغرور، ولا يأمنها إلا مثبور، ظالم لنفسه جهول.

**تم كتاب الهجرة، والحمد لله كما هو أهله ومستحقه،
وصلى الله على رسوله الأمين، وأهل بيته الأكرمين، وسلم
عليه وعليهم أجمعين**

الرد على الملحد ومناظراته

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قيل: كان وافي مصر رجل من الملحدين، فكان يحضر مجالس فقهاءها ومتكلميها فيسألهم عن مسائل الملحدين، وكان بعضهم يجيب عنها جوابا ركيكا، وبعضهم يزجره ويشتمه، فبلغ خبره القاسم بن إبراهيم عليه السلام، وكان بمصر متخفيا في بعض البيوت، فبعث صاحب منزله ليحضره عنده، فأحضره، فلما دخل عليه قال له القاسم رضي الله عنه: إنه بلغني أنك تعرضت لنا، وسألت أهل نحلتنا عن مسائلك، ترجو أن تصيد أغمارهم بحبائلك، حين رأيت ضعف علمائهم عن القيام بحجج الله والذب عن دينه، ونطقت على لسان شيطان رجيم لعنه الله: ﴿وَقَالَ لَا تَخْذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيْبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء].

فقال الملحد: أما إذا عبت أولئك وعيرتهم بالجهل فإني سائلك وممتحنك، فإن أجبت عنهم فأنت زعيمهم، وإلا فأنت إذا مثلهم.

فقال القاسم عليه السلام: سل عما بدا لك، وأحسن الاستماع، وعليك بالنصفة، وإياك والظلم ومكابرة العيان ودفع الضرورات والمعقولات، أجبك عنه، وبالله أستعين، وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

فقال الملحد عند ذلك: حدثني ما الدلالة على إنية^(١) الصانع؟

قال القاسم عليه السلام: الدلالة على ذلك قوله في كتابه عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ

(١) الإنية: إنية الشيء، وهو ثبوت كونه ووجوده. (محيط).

بِهَيْجٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝
وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝ ﴿٧﴾ [الحج].

ووجه الدلالة في هذه الآية فهو: كون الإنسان تراباً ثم نطفة ثم علقة، لا تخلو هذه الأحوال من خلتين:

إما أن تكون محدثة أو قديمة، فإن كانت محدثة فهي إذاً من أدل الدلائل (١)
على وجود إنبيته، لعلل:

منها: أن المحدث متعلق في العقل بمحدثه، كما كانت الكتابة متعلقة بكتابها،
والنظم بناظمه؛ إذ لا يجوز وجود كتابة لا كاتب لها، ووجود أثر لا مؤثر له في
الحس والعقل.

ومنها: أن المحدث هو ما لم يكن فكون، فهو في حال كونه لا يخلو من أحد
أمرين:

إما أن يكون هو كون نفسه أو غيره كونه.

فإن كان هو الذي كون نفسه لم يخل أيضاً من أحد أمرين:

إما أن يكون (٢) كون نفسه وهو معدوم أو كَوْنَهَا وهو موجود، فإن كان كونها
وهو معدوم فمحال أن يكون المعدوم أوجد نفسه وهو معدوم، وإن كونها وهو
موجود فمحال أن يكون الموجود أوجد نفسه وهو موجود؛ إذ وجود نفسه قد
أغناه على أن يكونها ثانياً. فإذا بطل هذا ثبت أن الذي كونه غيره، وأنه قديم
ليس بمحدث، إذ لو كان محدثاً كان حكمه حكم المحدثات.

وإن كانت الأحوال قديمة فذلك يستحيل، لأننا نراها تحدث شيئاً بعد شيء
في حين واحد في نفس واحدة، فلو كانت كلها مع اختلافها في أنفسها وأوقاتها
قديمة لكانت الترابية نطفة مضغة دما علقة عظما لحما إنساناً في حالة واحدة، إذ

(١) في (أ): الدلالة.

(٢) في (أ): إما أن يكون المعدوم كون نفسه.

القديم هو الذي لم يكن ولم يزل وجوده، وإذا لم يزل وجود هذه الأحوال كان على ما ذكرت وقلت من كونه تراباً مضغاً لحماً عظماً إنساناً في حالة واحدة؛ إذ الأحوال لم يسبق بعضها بعضاً، لأنها (١) قديمة، ولأن كل واحد منها (٢) في باب القدم سواء. فإذا استحال وجود هذه الأحوال معاً في حين واحد في حالة واحدة، وثبت (٣) أن الترابية سابقة للنطفية، والنطفية سابقة للحال التي بعدها - صح الحدث، وانتفى عنها القدم، وإذا صح الحدث فقد قلنا بديا: إن المحدث متعلق في العقل بمحدثه.

قال الملحد: وما أنكرت أن تكون الأحوال حديثة، وأن العين - التي هي الجسم - قديمة؟

قال القاسم عليه السلام: أنكرت ذلك من حيث لم أره منفكاً عن هذه الأحوال بته، ولا جاز أن ينفك (٤) [فلما لم أره منفكاً من هذه الأحوال ولا جاز أن ينفك] (٥) كان حكم العين كحكم الأحوال في الحدوث.

قال الملحد: ولم؟

قال القاسم عليه السلام: من قبل أنها - أعني العين - إذا كانت قديمة وكانت الأحوال محدثة فهي لم تزل تحدث فيها الأحوال، وإذا قلت: لم تزل تحدث فيها ناقضت، لأن قولك: لم تزل خلاف قولك: تحدث. والكلام إذا اجتمع فيه إثبات شيء ونفيه في حال واحد استحلال. وذلك أنها إذا لم تزل تحدث فيها فقد

(١) في (أ، ب): ولأنها.

(٢) في (أ): ولأن كلها في باب القدم سواء.

(٣) في (أ): وصح أن.

(٤) ولا جاز أن ينفك ساقط من (ب).

(٥) في (أ): بدل ما بين المعقوفين: فلما لم يجز ذلك.

أثبتها قديمة^(١) لم تزل تحدث فيها، وإذا كان هذا هكذا فهي لم تسبق الحدث، فقد صار الحدث قديماً، لأنه صفة الجسم الذي هو قديم، وإذا كانت صفته استحالة أن تكون صفة القديم التي^(٢) لا يخلو منها ولا يزول عنها محدثة، وهذا محال بين الإحالة، لأن فيه تثبيت المحدث قديماً، والقديم محدثاً.

قال الملحد: فما أنكرت أن تكون الأعيان هي التي فعلت الأحوال؟

قال القاسم عليه السلام: بمثل ما أنكرت زيادتك الأولى؛ لأنه لا فرق بين أن تكون هي الفاعلة وهي لم تسبق فعلها أو تكون هي قديمة ولم تسبق صفاتها؛ لأن الفاعل سابق لفعله متقدم له، وكذلك القديم الذي لم يزل، سابق للذي لم يكن، لأن في إثبات الفعل له إثبات حدث فعله، وإذا لم يسبق فعله فقد جمعت بينهما في حال واحد، وثبت للشيء الواحد القدم والحدث في حالة واحدة، وهذا محال بين الإحالة.

قال الملحد: فإني لم أركون شيء إلا من شيء، فما أنكرت أن تكون الأشياء لم تزل يتكون بعضها من بعض؟ وما أنكرت أن يكون الشيء الذي هو الأصل قديماً؟

قال القاسم عليه السلام: أنكرت ذلك أشد الإنكار، وذلك أن الشيء الذي هو الأصل لا يخلو من أن يكون فيه من الأحوال والهيئات والصفات مثل ما في فرعه أو ليس كذلك، فإن كان فيه مثل ما في فرعه فحكمه في الحدوث كحكمه، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى بما فيه كفاية، على أنا نجد الصور والألوان والهيئات والصفات بعد أن لا نجدها فيه، ووجود الشيء بعد عدمه هو أدل الدلالة على حدثه، فحدثني عن الصورة من أي أصل حدثت؟ فإن قلت: إنها قديمة أحلت، وذلك أنها لا تخلو من أمور:

(١) في (أ، ب): قديماً.

(٢) في (ب): الذي.

أحدها: أن الصورة لو كانت قديمة لكانت في هذا المصور الذي ظهرت فيه الصورة أو في عنصره الذي تسمونه هيولى، فإن كانت في هذا المصور بان فساد قولكم ودعواكم، إذ قد نجده على خلاف هذه الصورة، وإن كانت في الذي تسمونه هيولى فلا بد إذ ظهرت في هذا المصور أن تكون قد انتقلت عنه إلى هذا، فإن قلت: انتقلت أحلت؛ لأن الأعراض لا يجوز عليها الانتقال، على أن الصورة ما يرى بالعيان، فإن كانت متقلة فما بالها خفيت عند الانتقال وظهرت عند اللبث؟

وفيه خلّة أخرى، وهي: أنها لو كانت في الأصل ثم انتقلت عنه إلى فرعها فقد جعلت لانتقالها غاية ونهاية، وإذا جعلت لها غاية ونهاية فقد صح حدث الذي انتقلت عنه هذه الأحوال.

فإن قلت: لم تزل تنتقل كان الكلام عليك في هذا المعنى كالكلام الذي قدمناه آنفاً في باب لم يزل يحدث.

وفيه معنى آخر، وهو: أنك إذا جعلت الأشياء في وهمك شيئين، إذا أفردت كل واحد من صاحبه نقص وانتهى إلى حدٍّ ما وقل، وإذا جمعت كل واحد إلى صاحبه زاد وانتهى إلى حد ما وكثر، أفليس إذا انتهى في حال وزاد فكثير أو نقص فقل فالنقص والزيادة يخبران بالنهاية عنه؟ وإذا ثبتت فيه النهاية ثبت فيه الحدوث؟

قال الملحد: ما أنكرت أن تكون صورة التمرة والشجرة كامنة في النواة، فلما وَجَدْتُ ما شاكلها ظهرت؟

قال القاسم عليه السلام: إن هذا يوجب التجاهل؛ وذلك أنا لو تتبعنا أجزاء النواة لم نجد فيها ما زعمت.

وشيء آخر، وهو: أنه لو جاز هذا لجاز أن يكون الإنسان كامنة فيه صورة الخنزير والحمار والكلب، وإذا كان ذلك كذلك كان الإنسان إنساناً في الظاهر

كلباً حماراً خنزيراً فيلاً في الباطن. فإن قلت ذلك لحقت بأصحاب سوفسطاء.
فإن شئت تكلمنا فيه، على أنه قد ظهر من حمقهم لأهل العقول ما يُرغبهم
عن القول بمقالتهم.

قال الملحد: وكيف يجوز أن يكون الإنسان إنساناً في الظاهر وكلباً حماراً
خنزيراً فيلاً في الباطن؟ قال القاسم عليه السلام: كما جاز أن تكون صورة التمرة
والنخلة كامنة في النواة.

قال الملحد: فإن بين التمرة والنخلة والنواة مشاكلة، وليس بين الإنسان
والكلب مشاكلة.

قال القاسم عليه السلام: لو كان بين التمرة والنخلة والنواة مشاكلة مع اختلاف
الصُّور لجاز أن يكون بين الإنسان والكلب مشاكلة.

قال الملحد: فإن النواة إذا انتقلت من صورتها انتقلت إلى صورة النخلة.
قال القاسم عليه السلام: وكذلك الإنسان إذ تفرقت أجزاؤه جاز أن يكون كلباً في
الطبع والقوة الهيلولية عندك، فمهما أتيت به من شيء تريد الفرق بينهما فهو لي
عليك أو مثله.

ووجه آخر، وهو: أن الصورة لو كانت في الأصل نفسه لكان الأصل نفسه
هو التمرة، لأن التمرة إنما بانت من سائر المصورات وعرفت من غيرها
بالصورة، فعلى هذا يجب أن يكون أصلها التمرة، وهذا مكابرة العقول؛ لأنه لو
كان هذا هكذا لكان ظهورها في نواتها أقرب وأشهر وأعم، ولم يستحل وجود
صورتين معاً في حين واحد.

قال الملحد: إن النواة هي ثمرة بالقوة الهيلولية، أعني أنها إذا انتقلت لم تنتقل
إلا إلى شجرتها، ثم إلى ثمرتها، ثم تعود إلى أصلها، ثم تصير نواة في وسطها.

قال القاسم عليه السلام: لو كان هذا هكذا لكانت الطبيعة التي هي الأصل ثمرة
بالقوة الهيلولية إن كنت ممن يقول بالدهر، وإن كنت ثنويًا فالنور والظلمة، وما

أصلت من أصل فيجب على هذا أن يكون ذلك الأصل ثمرة بالقوة؛ لأنها إذا انتقلت انتقالاتها صارت ثمرة، وهذا مكابرة واضحة، وذلك يوجب عليك أن الأصل البحث: ثمرة نواة خوخة باذنجانة؛ لأنه جائز عندك الانتقال من صورة إلى صورة.

وإن كان حكم الأصول في الهيئات خلاف حكم الفروع فسنقول فيه قولاً شافياً إن شاء الله.

[الدليل على أن حكم الأصول حكم الفروع]

قال الملحد: إن صححت أن حكم الأصول حكم الفروع تركت مذهبي، فإنه قد عظمت علي الشبهة في هذا الموضع.
قال القاسم عليه السلام: اعلم أن طرق العلم بالأشياء مختلفة، فمنها: ما يعرف بالحوس.

ومنها ما يعرف بالنفس.

ومنها: ما يعرف بالعقل.

ومنها ما يعرف بالظن والحسبان.

فأما الذي يعرف بالحوس فطرقة خمس: سمع، بصر، شم، ذوق، لمس.

فالسمع: طريق الأصوات والكلام.

والبصر: طريق الألوان والهيئات.

والذوق: طريق الطعوم.

والشم: طريق الأرواح.

واللمس: طريق اللين والخشونة.

وما يعرف بالنفس فالخجل، والوجل، والسرور، والحزن، والصبر، والجزع،

واللذة، والكراهية، وما أشبه ذلك من التوهم وغيره.

وأما ما يعرف بالعقل فشيئان:

أحدهما: يدرك ببديته مثل تحسين الحسن وتقييح القبيح، وحسن التفضل، وشكر المنعم، ومثل تقييح كفر المنعم، والجور، وما يجانسه من علم بدائه العقول.

والوجه الثاني: هو الاستنباط والاستدلال الذي هو نتيجة العقول^(١)، كمعرفة الصانع، وعلم التعديل والتجوير، والعلم بحقائق الأشياء.

وأما ما يعرف بالظن والحسبان فهو: القضاء على الشيء بغير دليل، فهذا ربما يصيب وربما يخطي، وإنما لخصت لك هذا كله ليكون عوناً لنا فيما تأخر من كلامنا، ويكون أحد^(٢) المقدمات التي نرجع إليها، فكل شيء من هذه العلوم لا يصاب إلا من طريقه، ولو حاولته من غير طريقه لتعسر عليك، وكنت كمن طلب علم الألوان بالسمع، وعلم الذوق بالعين.

فأما أحوال الأجسام فإن طريق المعرفة بها من جهة البصر، والبصر لا يؤدي إلى الإنسان إلا الأجسام؛ لأن الأجسام لا يجوز أن تخلو من هذه الصفات فيتوهمه ويمثله في نفسه خاليا منها، فإذا لم يجز ذلك ثبت أن الأجسام لا تخلو من هذه الصفات، وأنه لا يكون حكم أصولها إلا حكم فروعها.

قال الملحد: إنهم يزعمون أن علة كون الأشياء وفسادها حركات الفلك وسير الكواكب، وبعضهم يقول: إن علتها تمازج الطبيعتين، أعني النور والظلمة، وبعضهم يقول غير ذلك.

قال القاسم عليه السلام: الدليل على فساد قولهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَقَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يَردُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ الْكَيِّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾^(٣) [الحج: ٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾^(٤).

(١) في (أ، ب): العقل.

(٢) في (أ): إحدى.

(٣) ما بين المعقوفين من (أ).

[يس]، فلو كان علة كونه ما ذكروا لكان الإنسان لا يتوفى أحدهم في طفوليته، ولا يفسد كونه مع وجود علة كونه، اللهم إلا أن يقرّوا بحدوث علة الفساد، فيكونوا حينئذ تاركين لمذهبهم، فإن قالوا: بل علة كونه وفساده قديم فالشيء إذا كان فاسداً في حال كان فيها صالحاً؛ إذ عللها موجودة، ومحال أن تكون عللها موجودة ويتوفى هذا في الطفولية ويرد هذا إلى أرذل العمر، وينكس هذا في الخلق إذ يعمر؛ إن هذا العمري لعكس العقول.

قال الملحد: لو لزمهم هذا^(١) للزمك حين زعمت أن الله علة كون الأشياء وفسادها مثل ما ألزمت خصومك.

قال القاسم عليه السلام: ولا سواء؛ وذلك أنا لا نزع أن الله علة كون الأشياء وفسادها، بل نزع: أن الله تعالى هو الذي كون الشيء وأفسده من غير اضطرار^(٢). والدليل على أن الله عز وجل ليس بعلة ذلك أن أفعاله مختلفة الأحوال، منتقلة الصفات، فلو كان هو العلة لما زال شيء عن صفته؛ لأنه عز ذكره قديم، والقديم لو كان علة شيء لم يزل معلوله، كما لم يزل هو في نفسه^(٣)، وزوال الأشياء عن صفاتها يدل على أن الله عز وجل ليس بعلة ولا معلول.

فقال الملحد حينئذ: بارك الله فيك وفيمن ولدك، فقد أوضحت ما كان ملتبساً علي، وإني سائلك عن غيرها، فإن أجبتني عنها كما أجبت أسلمت.

قال القاسم عليه السلام: إن أسلمت فخير لك، وإن أصررت فلن يضر الله إصرارك، سل عما بدا لك.

(١) في (ب): ذلك.

(٢) في (ب): من غير ما اضطرار.

(٣) في (ب): في ذاته.

[الدليل على أن صانع العالم واحد]

قال الملحد: ما الدلالة على أن صانع العالم واحد؟

قال القاسم عليه السلام: لأنه لو كان أكثر من واحد لم يخل من أن يكون كل واحد من الصانعين حياً قادراً أو ليس كذلك؟! فإن كان كل واحد منهما حياً قادراً لم يكن محالاً متى أراد هذا خلق شيء أن يمنعه الآخر من خلقه لذلك الشيء بعينه، ولو منعه صاحبه من ذلك كان الممنوع عاجزاً، وذلك عجزه على حدثه. وإن تمنعاً وتكافأت قواهما وقع الفساد، ولم يتم لواحد منهما خلق شيء، ودخل على كل واحد منهما العجز؛ إذ لم يقدر كل واحد منهما على مراده. فلما وجدنا العالم منتظماً متسق التدبير^(١) دلنا على أن صانع ذلك ليس باثنين ولا فوق ذلك.

قال الملحد: ما أنكرت أن يتفقا ويصطلحا؟

قال القاسم عليه السلام: إن الاتفاق والاصطلاح يدلان على حدث من تعمدهما؛ لأنهما لا يتفقا إلا عن ضرورة، والمضطر فمحدث لا محالة. قال الملحد: إنهم يقولون: إن صانع الخير لا يأتي بالشر أبداً، وكذلك صانع الشر لا يأتي بالخير أبداً.

قال القاسم عليه السلام: إن هذا مكابرة العقول.

قال الملحد: وكيف ذلك؟

قال القاسم عليه السلام: لأن ذلك يدعو إلى القول بأن أحداً لم يذنب قط ثم اعتذر من ذنبه؛ وإلى القول بأن إنساناً واحداً لم يصدق ولم يكذب، ولم يضل ولم يهتد، ألا ترى أنهم يزعمون أن انتحاهم حق، وأنه واجب على الناس الرجوع إلى مذهبهم، فإن كان الشيء الواحد لا يأتي بالخير والشر فحدثني من يدعون إلى مذهبهم؟ فإن قالوا: الخير، قيل: فإن الخير لا يضل أبداً، وإن قالوا: الشر فالشر

(١) في (أ): واتسق تدبيره.

لا يهتدي^(١) أبداً، فليت شعري من هذا الذي يدعونه إلى مذهبهم؟ قال الملحد: لعمرى لقد لطفت في الاستخراج على القوم، ولعمرى إن هذا مما يقطع شغبهم، ولكنهم يقولون: لما كان في العالم خير وشر دلنا ذلك على أنها من أصليين قديمين.

قال القاسم عليه السلام: أما وجود الخير والشر في العالم فإننا نجده، إلا أن هذا يدلنا على أن صانع العالم واحد.

والدليل على ذلك: أن الخير والشر معتقان على الخير والشرير، ووجدناهما محدثين، وقد قدمنا الكلام في هذا المعنى^(٢) بما فيه كفاية، وبيننا أن العالم أصله وفرعه محدث، وأن المحدث يقتضي المحدث، فإن كان حكم فاعله كحكمه أوجب ذلك حدوث صانع العالم، ويقتضي المحدث، فإن كان هذا هكذا فلكل صانع صانع إلى ما لا نهاية له، وقد بينا فسادة آنفاً.

ووجه آخر، وهو أن الخير والشر ليس اختلافهما يدل على قدمهما، وليس اختلافهما بأكثر من اختلاف الصور والهيئات. وقد قلنا: إن اختلافهما يدل على من خالف بينها واختراعها مختلفة، فلو كان الخير والشر وسائر المختلفات قديمة لكان فيها دفع الضرورات.

ووجه آخر، وذلك أنا نرى الشيء خيراً لمعنى وشرّاً لمعنى آخر، ونرى الخير والشر مجتمعين في حين واحد، فلا يخلوان في حال اجتماعهما من أمور: إما أن يكونا اجتماعاً بأنفسهما أو جمعاً غيرهما، فإن كانا اجتماعاً بأنفسهما فمحال^(٣)؛ وذلك أنها ضدان، والضدان لا يجتمعان بأنفسهما، لأننا نشاهد نفورهما وفرار كل واحد من صاحبه، فإذا فسد ذلك لم يبق إلا أن جامعا جمعهما.

(١) في نخ: لا يهدي.

(٢) سقط من (أ): المعنى.

(٣) في (أ): فذلك يستحيل.

ووجه آخر، وهو أنه لو كان وجود الخير والشر دالا على أن لهما أصليين قديمين لكان وجود الطبائع الأربع دالا على أن لها أصولا قديمة، وإذا كان هذا هكذا دلنا على أن شاهدهم شاهد زور.

[الحكمة في خلق العالم]

قال الملحد: فإذا لم يكن العالم قديما، ولا كان مزاج الاثنين، وكان صنعا من صانع قديم - فحدثني لم خلق الله هذا العالم؟

قال القاسم عليه السلام: إن هذا الكلام فرع من أصل، فإن سلمت لي الأصل كلمتك فيه، وإلا نازعتك في الأصل.

قال الملحد: وما ذلك الأصل؟

قال القاسم عليه السلام: هو أن تعلم بالدلائل أن العالم محدث، وأن له محدثا، ثم تعلم أن محدثه واحد قديم، ثم تعلم أنه قادر حي، حكيم في نفسه وفعله.

قال الملحد: قد دلت على الصانع، وعلى أنه واحد، فما الدليل على أنه قادر

حي حكيم؟

قال القاسم عليه السلام: الدليل على ذلك أنا وجدنا الفعل المتقن المحكم متعذرا

إلا على القادر الحي الحكيم العالم؛ فلما وجدنا الفعل واقعا دلنا ذلك على أن صانعه عالم قادر حي حكيم.

قال الملحد: فهل وجدت الفاعل الحكيم القادر سوى الإنسان؟

قال: لا.

قال: أفقول إنه إنسان؟

قال: إني وإن لم أجد إلا إنسانا فلم يقع الفعل منه لأنه إنسان، إذ قد وجدنا

إنسانا تعذر عليه الفعل، فلما وجدناه متعذرا عليه دلنا ذلك على جواز وجود

فاعل ليس بإنسان.

ألا ترى أنا لما قلنا: إنه لا يجوز كون الفعل إلا من قادر حكيم جازم منه ذلك،

فكان قولنا فيه مستمرا؛ ولما لم يستمر القول في ذلك لم نقل به.
قال الملحد: قد أبلغت في هذا، فنرجع إن شئت إلى مسألتني.
قال: سل.

قال: لِمَ خلق الله العالم؟

قال القاسم عليه السلام: قال الله سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجن: ١٣]، فأخبر أنه خلقنا للعبادة والابتلاء وليبلغ بنا إلى أرفع الدرجات وأعلى المراتب.

قال الملحد: فما دعاه إلى خلقنا؟ أَلِحَاجَةٌ خلق؟

قال القاسم عليه السلام: أما قولك: ما دعاه؟ فمحال؛ وذلك أنه لم يزل عالماً بلا سهو ولا غفلة، فقولك: ما دعاه؟ محال؛ لأن الدعاء والتنبيه والتذكير إنما يحتاج إليها الغافل فأما الذي لا يجوز أن يغفل فمحال أن يدعوه شيء إلى شيء؛ إذ لا غفلة هنالك ولا سهو. والدلالة على ذلك: أن الغفلة من الدلالة على الحدوث؛ وقد قامت الدلالة على أنه قديم.

وأما قولك: أَلِحَاجَةٌ خلق؟ فالحاجة أيضا من صفات المحدثين، والقديم يتعالى عنها.

قال الملحد: فَلِمَ خلق؟

قال القاسم عليه السلام: أما قولك: لم خلق؟ فقد أجبتك؛ لأن قولك: لِمَ؟ سؤال، وقولي: لأن إجابة.

قال الملحد: فما وجه الحكمة في خلق العالم، وخلق الممتحنين؟

قال القاسم عليه السلام: وجه الحكمة في ذلك أنه إحسان أو داع إلى إحسان، وكل من أحسن أو دعا إلى إحسان فهو حكيم فيما نعرفه.

قال الملحد: وكيف يكون حكيماً من خلق خلقاً فألمه بأنواع الآلام وامتحنه بضروب من الامتحان؟ أخبرني^(١) عن وجه الحكمة في ذلك من الشاهد؟

قال القاسم عليه السلام: أما قولك: كيف يكون حكيماً من خلق خلقاً فألمه بأنواع الآلام؟ فوجه الحكمة في ذلك من الشاهد أنا وجدنا من الآلام في الشاهد ما هو دافع إلى الإحسان، من ذلك: ضرب المؤذنين للصبيان، ومنه الحجامة والفصد وشرب الأدوية الكريهة؛ كل ذلك داعية إلى الإحسان وإلى شيء حسن في العقل، فإذا كان من الآلام في الشاهد ما هو كذلك فكل ما كونه^(٢) من قبل الله عز وجل - مثل الموت والمرض والعذاب وغيره - حكمة في الصنع، وصواب في التدبير؛ إذ كان كل ذلك داعية إلى الإحسان.

قال الملحد: ما الدليل على أن ذلك داعية إلى الإحسان؟

قال القاسم عليه السلام: الدليل على ذلك أنها أفعال الحكيم^(٣)، وقد صح أن الحكيم إنما يفعل هذه الأشياء التي هي الترغيب في السلامة والصحة والخير، والترهيب^(٤) من الغم والشر والسقم، ومن رَغِبَ في الخير فحكيماً فيما نعرفه.

وأما قولك: لم امتحن امتحانات عَطِبَ^(٥) أكثرهم عندها؟

فإننا نقول في ذلك ولا قوة إلا بالله: إن الله سبحانه إنما امتحانه وأمره ونهيه داعية له إلى الخير^(٦)، فمن عطِبَ^(٧) فمن قبل نفسه عطِبَ^(٨)، لأنه لم يَأْتِ بِمَا

(١) في (أ، ب): خبرني.

(٢) في (أ، ب): ما هو كونه.

(٣) في (أ): قال القاسم عليه السلام: لأنه فعل الحكيم، والحكيم إنما يفعل.

(٤) في (أ): التي هي ترغيب في السلامة والصحة والخير والترهيب.

(٥) العطِبَ: الهلاك. (مختار).

(٦) في (أ، ب): إلى الحكمة.

(٧) في (أ): فالمأمور من قبل نفسه عطِبَ.

(٨) سقط من (ب): عطِبَ.

أمره الله به سبحانه؛ ولا انتهى عما نهاه^(١) عنه، ولو كان انتهى عما نهاه عنه وركب ما أمره به لكان يؤديه ذلك إلى الفوز العظيم، فهو من قبل نفسه عطب؛ لا من قبل الله عز وجل.

ومثل ذلك فيما نعرفه: أن حكيماً من حكمائنا لو أعطاه عبداً له دراهم وقال لهم: اتجروا، فإن ربحتم ولم تفسدوا فأنا معطيكم ما يكفيكم، وإن لم تفعلوا عاقبتكم؛ فأطاعه منهم قوم وعصاه آخرون - لم ترجع اللائمة عليه بعصيانهم إياه، ولكنها لاحقة بهم حين عصوه، ولم يخرج دعاء سيدهم إياهم وعطيتهم من الحكمة؛ إذ لم يدعهم به إلا إلى الإحسان، فلما كان ذلك كذلك كان الله حكيماً بامتحانه وأمره ونهيه.

قال الملحد: إن الله يعلم ما هم صائرون إليه، ونحن لا نعلم ذلك. قال القاسم عليه السلام: إن الجهل والعلم لا يحسن الحسن ولا يقبح القبيح؛ وذلك أنه لو كان حسناً لأن الأمر به يعلم أنه يفعل له لكان ذلك^(٢) قبيحاً إذا^(٣) كان الأمر منا بما يصير إليه المأمور جاهلاً، فلما^(٤) لم يكن ذلك قبيحاً لجهل الأمر منا لأنه إنما أمر بالحسن ودعا إلى الحسن وإن كان جاهلاً بما يصير إليه المأمور، أو عالماً^(٥).

وشيء آخر: وهو أنه لو كان الامتحان قبيحاً إذا علم أنه يعصي لكان لا شيء أقرب من إعطاء العقل، لأنه إنما يعصي عند وجوده، ويستحق الذم والمدح به، فلما كان إعطاء العقل عند الأمم كلها موحدها وملحدها حسناً دل ذلك على أن

(١) في (أ): نهى.

(٢) في (أ): لكان قبيحاً.

(٣) في (أ): إذ.

(٤) في (أ): ولما.

(٥) هكذا في المخطوطات، وفي الكلام نقص؛ إذ لا جواب لـ (لما).

الامتحان والخلق والأمر بالحسن كله حسن، علم أنه يعصي أو يطيع.
قال الملحد: فلم مزج الخير بالشر؟ ولم صار واحد غنياً وواحد (١) فقيراً،
والآخر قبيحاً والآخر حسناً؟

قال القاسم عليه السلام: لأن هذه الدار دار امتحان وابتلاء، وحقيقة الامتحان فهو
أن يخلق فيه أو يأمره بشيء ثقيل على طباعه فينظر هل يطيع أم لا يطيع؟
ولو خلق الله ما هو خفيف على طباعه ثم أمره بالخفيف لكان ذلك لذة له
وليس بامتحان؛ فلما كانت هذه الدار دار امتحان كان الواجب في صواب التدبير
أن يمزج الخير بالشر، والنفع بالضرر، والمكروه بالمحسوب، والحسنة بالسيئة،
والكره المنظر بالحسن المنظر؛ إذ كانت الدار دار امتحان؛ لأنه لو كان كله محبوباً
كان دار الثواب، ولو كان كله مكروهاً كان دار العقاب، ودار الثواب والعقاب
هذه صفتها.

واعلم أنه لو لم تعرف علل ذلك كان جائزاً؛ وذلك أنه في بدى الأمر إذا
أقمت الدلالة على أنه حكيم في نفسه وفعله، ثم دلت على أن الكل من أفعاله
حكمة - استغنيت عن معرفة علله.

ومثال ذلك من الشاهد: أنا لو هجمنا على آلات من آلات الصانع فرأينا اعوجاج
المعوجات واستواء المستويات، وصغر بعضها وكبر بعضها، وغلظ بعضها ورقة
بعضها، فحكمنا أن صانعها غير حكيم - لكننا جاهلين بالحكمة، نضع الحكمة في
غير موضعها، بل حيثئذ الواجب علينا أن نسلم للحكماء حكمتهم، ونعرف أنهم لا
يفعلون شيئاً من ذلك إلا لضرب من الحكمة يعرفونه، ونعلم أن (٢) المعوج
وكل زوج منها يصلح لعمل لا يصلح له الآخر، فحيثئذ وضعنا الحكمة في موضعها.
فاعرف ذلك وتبينه تجده كما قلنا إن شاء الله تعالى.

(١) في (أ): والآخر.

(٢) في (ب): بأن.

فلما كانت أفعال الله كلها إحساناً أو داعية إلى الإحسان كان تبارك وتعالى بفعليها كلها حكيماً؛ إذ كل ذلك حسن في العقل.

فإن قلت: لم فعل الحسن في العقل؟

قيل لك: يفعل الحسن لحسنه، ولو لم يفعل الحسن في العقل لحسنه لكان لا يترك القبيح لقبحه في العقل، وكفى بهذا القول قبحاً.

قال الملحد: لقد أبلغت، وقد بقيت لي مسائل.

قال القاسم عليه السلام: سل.

[الدليل على أن الصانع له رسول]

قال الملحد: ما الدليل على أن الصانع له رسول؟

قال القاسم عليه السلام: الدليل على ذلك أن الصانع حكيم محسن إلى خلقه، وفي العقل أن شكر المنعم واجب، فلما كان هذا في عقولنا واجبا، وكان الله حكيماً منعماً على خلقه - كان من كمال النعمة أن أرسل إليهم الرسل مع دلائل اضطرت العقول عندها لبيان لهم كيفية شكره؛ لأن كيفية شكره ليس مما يعلم بالعقل ولا بالنفس ولا بالحس ولا بالظن، وإن كان في العقل جوازه؛ فحيث أقام لهم معهم^(١) دلائل ومعجزات دل بها على صدقهم.

قال الملحد: كأنك تقول: إن شرائع الأنبياء خارجة عن العقول، إذ قلت: لا تعلم كيفيتها بها.

قال القاسم عليه السلام: أما قولك: إن شرائع الرسل خارجة عن العقول إذ ليس فيها كيفيتها فإني لم أقل لك: ليس فيها كيفيتها بته، بل اشترطت لك فقلت لك^(٢): إنه وإن لم يكن فيها كيفيتها ففيها جواز كونها.

قال الملحد: وكيف ذلك؟

(١) في (أ): أقام معهم.

(٢) في (أ): بل اشترطت فقلت إنه.

قال القاسم عليه السلام: هو مثل ما نعرفه في الشاهد، وذلك لو أن سيداً أمر عبده ببناء دار أو قطع شجرة أو إعطاء عبد الله أو ضرب زيد فإنه ليس في العقل أن السيد يأمر به، فإذا أمر به كان في العقل أن الائتثار به حسن وأن تركه قبيح إذا (١) كانت لأمر سيده عاقبة محمودة ومرجع نفع إلى العبد، فالعقل يجوز الأمر بكل شيء على حياله، ولا يوجب شيئاً من ذلك دون شيء، إذا كان ذلك الأمر مما ينتقل حاله في العقل، وذلك أنه قد يكون المشي إلى موضع ما حسناً في العقل إذا كان للمشي معنى حسن، فأما اللواتي يدرك حكمها في العقل فقد أدرك أن (٢) الأمر بها لا يأمر إلا بما هو حسن، ولا ينهى إلا عما هو قبيح عنده.

قال الملحد: فحدثني عن الصلاة والصيام وغيرهما من الشرائع هل له أصل في العقل تفرع هذا منه؟

قال القاسم عليه السلام: أجل، قد أخبرتك به آنفاً، وهو كالأمر بالمشي إلى موضع ما، وكضرب زيد، وإعطاء عبد الله، ليس له أصل في العقل أكثر من الائتثار لأمر الحكيم، ووجه الحكمة فيه أن الأمر إنما يأمر به لينظر هل ياتمر به المأمور فيجازه له لذلك؟ لا سيما إذا كان الأمر مستغنياً غير محتاج إلى ما يأمر به وإنما يأمرهم ليمتحنهم وليظهر بذلك أعمالهم فإن الأمر به حسن، وعلى ذلك سبيل الشرائع كلها.

قال الملحد: خبرني عن كيفية معجزاتهم.

قال: هو قلب العادات، وأن لا يترك العادات جارية على مجراها، فإذا جاء أحدهم وقال له قومه: ما الدلالة على صدقك، قال: الدليل أن الله يقلب عاداتهم في كذا وكذا إلى كذا وكذا، فحيث يعرفون صدقه، ويضطرون إلى قبول قوله، وهذه سبيل المعجزات كلها، وبمثل ذلك يفرق بين النبي والمنتبي، وبين الصادق والكاذب.

قال الملحد: إنه بقي في قلبي شبهة، فأحب أن تقلعها بحسن رأيك ونظرك.

(١) في (أ، ب): إذ.

(٢) في (ب): بأن.

قال القاسم عليه السلام: هاتها لله أبوك!

[الحكمة في إماتة الإنسان وإفناء العالم]

قال الملحد: أخبرني عن الله عز وجل لِمَ يميت الإنسان ويصيره تراباً بعد أن جعله ينطق بغرائب الحكمة، وبعد هذه الصورة العجيبة البديعة؟ ولِمَ يفني العالم كله؟ أرايت لو أن إنساناً بنى بناء فنقضه لا لمعنى هل يكون حكيماً؟ قال القاسم عليه السلام: ليس الأمر كما ظننته، أرايت لو أن إنساناً بنى بناء للشتاء، فلما جاء وقت الصيف نقضه وبناه للصيف هل يكون حكيماً؟ قال: نعم.

قال عليه السلام: ولِمَ؟

قال: لأن الذي اتخذ للشتاء لا يصلح للصيف، وكذلك الذي اتخذ للصيف لا يصلح للشتاء.

قال القاسم عليه السلام: وكذلك الله عز وجل، خلق الدنيا وما فيها للابتلاء، فإذا انتهى إلى أجله وحينه أفناها^(١)، ويعيدها ثانياً ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم]، ولا يكون ذلك خروجاً من الحكمة، بل الحكمة أن لا يضيع الثواب والعقاب.

[الدليل على ثبوت البعث وكيفيته]

قال الملحد: إن التوحيد والتعديل والرسول قد تكلم فيه ناس من أهل الملل، وكل يشك^(٢) في الميت أحياء أم لا، وكل يجيء في ذلك بشيء، فإن دلت على ثباته وكيفيته لم تبق لي مسألة، وحيث أن آمنت بربي.

(١) في (أ): يفنيها.

(٢) قوله عليه السلام: «وكل يشك» هل هو معطوف على ما قبله؟ وهل التعميم مستقيم؟ قد تكون الواو للحال أي: والحال أن كل الناس الذين تكلموا في الرسل وفي العدل والتوحيد يشك.. إلخ، وبهذا يستقيم الكلام وينحل الإشكال. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

قال القاسم عليه السلام: أما الدلالة على ثباتها^(١) فإني وجدت الله تبارك وتعالى حكيماً قد امتحن خلقه وأمرهم ونهاهم، وكان قول من يقول بإزالة الامتحان داعياً إلى الإهمال، والإهمال داع إلى أن الله غير حكيم، وإذا جاز أن يكون العالم قديماً؛ لأنه لا فرق بين أن يفعل من ليس بحكيم هذا الصنع العجيب وبين أن يقع فعل لا من فاعل، والأشياء موجودة، فتكون قديمة أزلية لا فاعل لها.

ووجدت هذا القول داعياً إلى التجاهل، فلما كان ذلك كذلك صح أن الله حكيم، والحكيم لا يهمل خلقه، وإذا لم يهمل خلقه لم يكن بد من أمر ونهي، ولم يكن بد من مؤتمر وغير مؤتمر، وكان من حكم العقل أن يفرق بين الولي والعدو، ووجدنا أوليائه وأعداءه مستوية الأحوال في الدنيا؛ لأنه كما أن في الأعداء من هو موسر صحيح ففهم من هو معسر مريض، وكذلك الأولياء، فلما كانت في الدنيا أحوالهم مستوية ولم يكن بد من التفرقة بينهما صح أن داراً أخرى فيها يفرق بينهم، فيها يحيون وفيها ينشرون، إذ قد وُجِدَتْ هذه الحال قد اشتملت الكل^(٢) الولي والعدو.

وذلك قوله عز وجل: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص].

وأما قولك: أخبرني عن كيفيةها فإن الله عز وجل جعل الروح لجسد الإنسان حياة له، كالأرض إذا اهتزت بالماء وتحركت بالنبات، كذلك الروح إذا صار في الإنسان صار حياً متحركاً، إذا امتزج أحدهما بصاحبه.

قال الملحد: وكيف يمتزج الروح بالبدن وقد صار تراباً؟

قال القاسم عليه السلام: وكيف يمتزج الماء بالأرض الهامدة إذا صارت قحلة

يابسة؟

(١) في (أ، ب): حياتها.

(٢) في (أ، ب): بالكل.

قال الملحد: هو أن يمطر عليها أو يجري فيها فتتصل أجزاء الأرض بأجزاء الماء بالمشكلة التي بينهما، فعندها تهتز وتحرك.

قال القاسم عليه السلام: وكذلك الروح يرسل إلى ذلك التراب فيماسه ويبازجه، فحينئذ يحيا الإنسان ويتحرك؛ أولا ترى إلى بدء خلق الإنسان كيف كان؟ أوليس تعلم أنه كان ترابا، فلما جمع الله بينه وبين روحه صار إنسانا، فأصل خلق الإنسان يدلك على (١) آخره، أولا تسمع قوله سبحانه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٣﴾ [يس]؟

قال الملحد: إنه ليس بين الروح والتراب مشكلة فيما نعرف.

قال القاسم عليه السلام: فهل تعلم (٢) بين النار والشجر الأخضر مشكلة؟

قال: نعم، وهي أنها مجموعة من الطبائع الأربع إحداهن النار.

قال القاسم عليه السلام: الله أكبر، هل بين النار وبين ثلاثتها (٣) مشكلة؟

قال: لا.

قال القاسم عليه السلام: فكيف اجتمعن؟ إنه لما جاز أن تجتمع النار مع الماء والأرض والأهوية بلا مشكلة بينهن جاز للروح مثل ذلك.

فقال الملحد عند ذلك: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن كل ما جاء به حق، وتعتست أمه ضلت عن مثلك. وأسلم وحسن إسلامه، وكان يختلف إلى الإمام أمير المؤمنين القاسم عليه السلام ويتعلم منه شرائع الإسلام.

تمت المناظرة وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله

الطيبين الطاهرين (٤)

(١) في (ب): إلى.

(٢) في (أ): فهل تعرف.

(٣) في (أ، ب): ثلاثتهن.

(٤) في (أ): تم ذلك بحمد الله ومنه، وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم تسليماً.

الرد على الزنديق ابن
المقفع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بالحمد أستعين، قال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

الحمد لله خالق كل معبود، المستوجب للحمد في كل موجود، الذي لا يقصر عنه بالحمد من رشيد خلقه حامد، الصمد الذي ليس من ورائه غاية يصمدها صامد.

دليل من استدل بالحقائق فيما فطر سبحانه من مختلف الخلائق، التي يوجد من اختلافها وما خالف بينه من أصنافها ما يوجد من اختلاف الظلم والأنوار، وفرقة ما بين الليل والنهار، بل أكثر في الفرقة بياناً، وأوضح في التباين فرقاناً، لتفاوت ما فيها من اختلاف الألوان والطعوم، ولضروب ما فيها من كل محسوس ومعلوم، دلالة منه سبحانه بمتفاوتها ومختلف ما بين حالاتها على الأول الأحد، السابق لكل عدد، الذي لا يكون ثانٍ إلا من بعده، ولا يثبت الثاني إلا من بعد عده، البعيد من مساواة الأنداد، المتعالي عن مناواة الأضداد.

نحمده على ما هدانا إليه، ودل برحمته من توحيده عليه، ونسأله أن يصلي على ملائكته المصطفين، وعلى جميع رسله والنبين، وأن يخص محمداً في ذلك من صلاته بأفضل ما خص به أهل كراماته، ونستعينه لا شريك له على شكر نعمته فيما وهب لنا من أبوة محمد عليه السلام وولادته، والحمد لله رب العالمين، ونعوذ به من عمية العمين.

[قول ماني والرد عليه]

ثم إن فرقة من الكفرة قادها عصيانها، ونعق بقاداتها في الكفر والعمى شيطانها، إمامها المقدم وسيدها المعظم (ماني) الكافر بأنعم الله اللعين، الذي لم يبلغ كفره قط بالله الشياطين، ابتدع من القول زوراً لم يسبقه إليه سابق من الأولين، ولم يقل به قبله قط أحد من قدماء الخالين، مع افتراق مللهم ومختلف سبلهم، فزعم أن الأشياء كلها شيثان، وقد يوجد خلاف زعمه بالعيان، فلا

يوجد بين ما ذكر من النور والظلمة فُرقة إلا وجدت الأشياء كلها بمثله لها مفارقة، إلا أن الفُرقة بين الأشياء أوجد، ومن الأشياء للنور والظلمة أوكد، مكابرة لعقول أطفال الأنام، وتجاهلاً بما لا تجهله بهيمة الأنعام.

ثم قال تحكماً وافترى زعماً: إن الأشياء كلها من النور والظلمة مزاج، وإنه لم يكن بينهما فيما خلا من دهرهما امتزاج، سفهاً من القول وتعبثاً، ومجانةً في السفه وخبثاً، فثبت بينهما شبه الاستواء، وحكم عليهما حُكم السواء في حالين يجمعانهما عنده معاً، وفعالين يتساويان فيهما جميعاً، فقال في أولاهما: لم يمتزجا، ثم قال في أخراهما: امتزجا، فجمعهما عنده في الامتزاج وخلافه الحالان، واشتراكهما فيما كان من إساءة أو إحسان، وليس في أنهما هما الأصلان دليل واضح به يثبتان أكثر من تحكُّم العماة في الدعوى، والاعتساف منهم فيهما للعشوى، ماذا يرون قولهم لو عارضهم مبطل في الدعوى كهُم، فقال: بل النور والظلمة مزاجان، ومن ورائهما فلهما أصلان، هل يوجد من ذلك لهم إلا ما يوجد لمن خالفهم؟!

فإن قالوا: الدليل على ذلك نفع النور، فربما ضر بالنور في أكثر حوادث^(١) الأمور، ولما يوجد من نفع قليل غيره أنفع مما يوجد من أكثر كثيره، لثمرة أنفع في الغذاء لأكلها من الأنوار كلها^(٢)، ولئن كانت الدلالة من الدال على المنكر ضرراً يعود عندهم شراً إن النور لأدل على طلبات الأشرار، وأكشف لهم عن خفيات ما ييغون من الأسرار التي عنها تجلّ لهم نورهم، وبها كثرت في الضر شروهم.

وإن كان دليل عماة الظلمة على ما ثبتوه أصلاً من الظلمة ضر الظلمة في بعض أمورها لربما منعت كثيراً من الشرور بستورها، فلم يجد -لمنعها بسواتر

(١) في (أ): في أكثر موجودات الأمور.

(٢) في (ب): لثمرة في الغذاء لأكلها أنفع من الأنوار كلها.

ظلامها - الأئمة سبيلاً إلى تناول آثامها، ولسنا نجد عياناً نورهم من المضار معرّى، ولا ظلامهم في جميع الأحوال مضراً، إلا أن يكون نورهم عندهم غير النور المعقول، فيصيروا بعد إثبات أصلين إلى إثبات (١) أصول، ويحكموا على غائب لا يرى بحكم لا يتيقن ولا يمتري، يتبين به عند أنفسهم قصرة (٢) عماهم، ويصح لهم بلة غيرهم فيه خطاهم.

ثم يقال لهم أيضاً: حدثونا عن نور الشمس، وما يباشر أبصار المبصرين منه عند شروقه باللمس، أليس نافعا في نفسه وعند مباشرة لمسه؟ فإن قالوا: بلى، وكلما تالّأ؛ لأنه يتالّأ فيشرق وينير، وكذا لا مرية كل نور إما قليل وإما كثير.

قيل: فما باله يُعشي أبصار الناظرين ويؤذيها؟ وما بال بعض الحيوان لا يبصر مع ضوء الشمس وتالّأها؟ فإن قالوا: لعله أن النور إذا أشرق على ناظر الإنسان وغيره مما يبصر مع ضوء الشمس من الحيوان ردّ مع شروقه ما في النواظر من الظلمة إلى الناظر، فلم يرفيه، ولم يطق النظر إليه.

قيل: فالظلمة في قولهم تستر، فكيف مع مكانها في الناظر يبصر، وقد ترى الأبصار إذا أشرقت الأنوار تبصر حينئذ الأشياء، وترى الظلمة والضياء، فلو كانت الظلمة لها سترة لما أبصرت ما ترونها له مبصرة.

فإن قالوا: الحرارة هي التي فعلت ذلك بالأبصار؛ لأن النور من شأنه دفعها إلى ما هي فيه من محجر القرار.

قيل: فالحرارة عندكم يا هؤلاء من شأنها الإحراق، وقد نرى الناظر يديم النظر إلى شروق الشمس فلا يحرق ناظره الإشراق. وقد يزعمون أن الحرارة في

(١) في (أ)، (ب): تثبت.

(٢) في (أ): قصرة منونة بالفتح.

الظلمة أوكد، وفي سُوسِها وكونها أوجد، ثم يديم الناظر إليها نظره فلا تعشيه ولا تحرق بصره، فأى دليل أدل على تلعبهم وأوضح برهاناً على سفه مذهبهم من هذا عند من ذاق من المعارف ذوقاً، أو عَقَلَ بين مفترقات الأشياء فروقاً؟

وأخرى يا هؤلاء فافهموها تدل فيها على غير الأوهام التي توهموها أن الرّمْد الشديد الرمد يجد في الظلمة راحة وفترة، وأنه يجد في النور عند مقاربتة له مضرة منكّرة، فلا نرى الظلمة إلا تفعل خيراً، ولا النور إلا يفعل شراً كبيراً.

وهذا فقد يبين أيضاً بوجه آخر يدل على خلاف ما قالوا في الخير والشر، وهو أن يقال لهم في الماء إذ زعموا أنه مزاجٌ من النور والظلماء: ما بال قليله ينفع وكثيره يضر؟

فإن قالوا من قَبْلِ أن المزاج يقل ويكثر.

قيل: فما بال كثيرُ نوره في الكثير من بحوره لا يمنع ضر كثير ظلمته، كما منع قليلُ نفعه قليلُ مضرته؟!

أم تزعمون أن قليل النور أقوى من كثيره، فهذا من القول هو المحال^(١) بعينه، أن يكون قليل من شيء هو أقوى من كثير كان منيراً أو غير منير.

ومما -أيضاً- يدخل عليهم أن يقال إن شاء الله لهم: حدثونا يا هؤلاء عن الثور ما باله يفر عن الحر إذا أحرقه إلى البرد والظلال، ويفرد من البرد إذا آذاه إلى الصّلاء والنار، وهما في زعمكم جميعاً ظلمة مضرة، ليس لأحد فيهما منفعة ولا مسرّة، ولن يخلو عندكم أن يكونا من سُوسه فينفعاه، أو مما زعمتم من خلافه فيضراه؟!

فإن قلتم: بما فيهما من مزاج النور انتفع قيل لكم: فإلى أيهما فرّ ونزع؟!
فإن قالوا: إلى أكثرهما نوراً وأقلهما في المزاج شروراً قيل: لكن كان من الشر إلى

(١) في (أ): المحير.

الخير صار بفراره لقد أدركه الشر منهما في مقره وقراره، وإن ذلك لما لا ينمي ندأ، ولا يكون حيث كان إلا ضداً.

ثم يقال لهم: هل الظلمة مضادة للنور؟ فإن قالوا: نعم. قيل: أبمثل ما يعقل من تضاد الأمور؟ فإن قالوا: نعم. قيل: إن الضد لا يجامع أبداً ضداً إلا أفناه، فكان له عند المجامعة مفسداً، ولا تكون المضادة من الشئيين واقعة إلا لم تجمعها بعد تضادهما جامعة إلا مع بطلان موجود أعيانها، أو تبدلها باجتماعها عن معهود شأنها، كبطلان الثلج والنار عند اعتلاجهما، أو كتبدل اللونين أو الطعمين في امتزاجهما.

فكيف يصح لما زعموا من الأصلين الاجتماع؟ أو يوجد منهما بعد المزاج إضرار أو انتفاع، وهما لا يكونان إلا متنافرين، أو مزاجاً فيكونا متغيرين، كتغير الممتزجات عند مزاجها إلى فعالٍ واحدٍ يجده منها بدرك الحواس أو بعضها كل واحدٍ، لا كما قال (ماني) المكابرُ لدرك حسه، المخالفُ فيما قال ليقين نفسه، المتلعبُ في مذهبه، السفیه في متلعبه.

ومما يكذب أيضاً^(١) قولهم أن يقال لهم: حدثونا ممن موجود الضحك والبكاء؟

فإن قالوا: هما من الظلماء، لم يصح أن يكونا وهما متضادان من واحدٍ غير متضادٍ، وكذلك إن قالوا: من النور لم يصح أن يكونا منه وهو واحدٍ غير ذي تضاد.

وكذلك الجوع والشبع، والصبر والجزع، والفرح والحزن، والجراحة والجبن، وهذا كله وفرعه وأصله عندهم شرٌّ مذموم، وفي كل حال مقبَح ملوم؛ لأنه قد يضحك ويبكي، ويصح في هذا الدار ويشتكى، ويجوع ويشبع، ويصبر ويجزع،

(١) في (أ، ب): وهذا أيضاً يكذب قولهم.

ويفرح ويحزن، ويجترئ ويجبن من^(١) يكون ذلك كله منه عندهم في بعض الحال
 شراً؟ فكفى بهذا لمن أنصف الحق من نفسه منهم معتبراً.
 فهذا أصل قول (ماني) النجس الرجيس، الذي لم يسبق قوله فيه قول إبليس،
 ولم يعت على الله بمثله قط عاتٍ، ولم يقصر بمعتقده عن غايات الضلالات،
 وعلى هذا من قوله وما وصفنا فيه من أصوله مات ماني لعنه الله لعناً كثيراً، وزاده
 إلى سعي ناره سعيراً.

(١) في (أ): ممن.

[أقوال ابن المقفع والرد عليها]

ثم خلف من بعد ماني أبي الحيرة والهلكات خلف سوء استخلفه إبليس على ما خلف ماني من الضلالات، يسمى ابن المقفع، عليه لعنة الله بكل مرأى ومسمع، فورث عن ماني في كفره ميراثه، وحاز عن أبيه ماني فيه تراثه، فعقد بعنقه من ضلالاته أرباقها، وشد على نفسه من هلكاته أطواقها، فنشأ في الغواية منشأه، وافترى على الله ورسله افتراءه، فوضع كتاباً أعجمي البيان حكم فيه لنفسه بكل زور وبهتان، فقال من عيب المرسلين وافترأ الكذب على رب العالمين بما تقوم له ذوائب الرؤوس، وتضطرب لوحشته أركان النفوس، ووصل إلينا في ذلك كتابه، وما جمحت به فيه من الإفك ألعابه. فرأينا في الحق أن نضع نقضه بعد أن وضعنا من قول ماني بعضه؛ إذ كان ماني العمي له فيما قال من الضلال إماماً، فأما النقض على ماني فسنضع له إن شاء الله كتاباً تاماً.

زعم ابن المقفع اللعين عماية وفرطاً أنه لا يرى من الأشياء كلها إلا مزاجاً مختلطاً. كذلك زعم النور والظلمة اللذان هما عنده الجهل والحكمة.

فاعرفوا إن شاء الله هذا من أصله، فإنما وضعناه لنكشف به عن جهله، وبالله نستعين في كل حال كانت منا في قول أو فعال.

كان أول ما افتتح به كتابه ما أكذب به نفسه وأصحابه أن قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فإن كان النور^(١) هو الذي فعل اسمه فلا اسم له، وإن لم يكن هو فعل اسمه فمن فعله؟ فإن هم ثبتوا له اسماً غيره لم يكن إلا مفعولاً، وإن كان هو اسمه كانت أسماؤه ممن سماه فضولاً، والفضول عندهم من كل شيء فمذمومة، وأسماؤه إذاً كلها شرور ملومة، فهل يبلغ هذا من القول إلا كل أحق أو مخبول؟

(١) «النور» ساقطة من (أ).

وقال: الرحمن الرحيم، فلِمَن زعم لنفسه أم للأصل الذميمة؟ فإن كان عنده رحماناً رحيماً لمن لم يزل عنده شراً مليماً، إن هذا هو أجهل الجهل والرضا عما ذم من الأصل، وإن كان إنما هو رحيم رحمان لما هو من نفسه إحسان فهذا أحول المحال، وأخبت متناقض الأقوال.

ثم قال: أما بعد: فتعالى النور الملك العظيم، فليت شعري أيُّ تعالٍ يثبت لمن هو في أسفل التخوم!! ومن هو مختلط عنده بكل مذموم من الأنتان القدرة، والبول والعذرة، وبكل ظلمة هائلة، وأوساخ سائلة، مرتبط في الأسفل، منزل فيها بأمواج الزلازل، لا يُطَيَّب منها نتناً، ولا يُعيد قبيحاً حسناً، ولا هائلاً أنساً، ولا سائل بول يبساً.

وأيُّ ملكٍ لمن لا يملك إلا نفسه وحدها، ولا يستطيع رشداً إلا رشدها، ولا يتخلص من مرتبط عدو، ولا يقدر على النجاة من سوء؟ وأيُّ عظمة تحق لمناوي ضده بالمباشرة؟! ولم يعلُ عدوه بغلبة له عن مباشرته قاهرة، ومن فرّقه المناواة أعضاء، ومزّقه المحاربة أجزاء، ومن حطّه حربه من أعالي العلى إلى بطون الأرض السفلى؟!

ثم قال زعم: الذي بعظمته وحكمته ونوره عرفه أولياؤه، فليت شعري أنور أولئك عنده أم ظلمة؟ فإن كانوا نوراً فهم أجزاءه، أو ظلمة فتلك -زعم- أعداؤه، فهو الذي لا ولي له في قوله، ولم يؤمن عليه الفناء بعد زواله عما كان معهوداً من حاله، ومع ما صار إليه من انتقاله عن دارٍ أودّائه إلى دار أعدائه.

فيا ويل ابن المقفع، أي مشسع عن الحق شسع، وأي متطوّح من الضلالة تطوّح، وإلى أيّ طحية من العماية تروّح.

فافهموا أيها السامعون عجيب أنبائه، وتدبروا من قوله معيب أهوائه، إذ

زعم^(١) أن بعظمة نوره وحكمة ما ذكر من زوره كانت له أولياؤه -زعم- عارفةً، كأنه يثبت أنها كانت به جاهلة، ومع تثبيت هذا من القول في أموره ثبت عمى الجهل والشر في نوره، ثم نسب عظمة إلى عظيم، وثبتَّ حكمة لحكيم، فأضاف نوراً إلى منير، ولا يخلو ذلك من أن يكون قليلاً من كثير، فيكون كثير ذلك أفضل من قليله، فيكون مقصراً بالقليل عن الكثير وتفضيله، والتقصير نقص، والنقص عنده شر من شروره، والشر -زعم- لا يكون أبداً في نوره. فاسمعوا لقول التناقض، وزور حجج التداحض، ففي واحدة مما عددنا وأصغر ما من قوله أفسدنا كفاية نور كافية، وأشفية من الضلالة شافية، لمن أنصف فاعتبر، واعتبر فادكر.

فإن زعم أن عظمته ونوره وحكمته هنَّ هو زال عنه بزواله عنهن -إذ هو هن- الارتفاع والعلو، إلا أن يزعموا أنه ليس في الأرض للنور عظمة، ولا في دار هذه الدنيا من حكمه حكمة، فيكون هذا ترك قولهم كله، والخروج من معهود فرعهم فيه وأصله.

ثم قال زعم: والذي اضطرت عظمته أعداءه الجاهلين له والعامين عنه إلى تعظيمه، كما زعم لا يجد الأعمى بداً مع قلة نصيبه من النهار أن يسميه نهراً مضياً. وجهله بما بين العامين والعمين من الفرق في اللسان أوقعه بحيث وقع من جهله بمخارج^(٢) القرآن، فالعامي فإنما هو ما نسب إلى أعوام الزمان^(٣)، والعمي فإنما هو أحد العميان، فكيف ويله مع جهله لهذا ومثله يقدم على تعنيف وحي كتاب الله ومنزله الذي نزل على رسله؟ سبحان الله ما يبلغ العمى بأهله!!

(١) في (أ): يزعم.

(٢) كأنها في (أ): لمخارج.

(٣) في تاج العروس: العامي: الذي لا يبصر طريقه.

فثبت العظمة من نوره جزءاً، وجعلها^(١) من أعضائه عضواً، ونسب إليها بعدُ فعلاً زالت به عن عدو النور جهلاً، ورفعت به عن العمين -زعم- عماهم، والعمون فلا يكونون عنده إلا ظُلُمًا، فلا نرى عظمتهم عندهم وإن كابروا في ذلك جهدهم إلا وقد أولت الظلمة خيراً كثيراً، وأحدثت للجهل والعمى تغييراً، وهو يزعم في قوله أنه لا تغيّر في شيء من أصوله، والأعمى فلم ينكر قط نهاراً، ولم يستصغر نهاره احتقاراً، ولم يعارضه به جهل، ولم يكن له عما فيه تبدّل، وأعداء نوره به -زعم- جاهلة، وعن مذهبه فيه ضالة مضلة، فكيف يصح تمثيله لهم بالأعمى؟ إن هذا لصمٌّ من ابن المقفع وعمى!!

ثم قال: ومُسَبِّحٌ ومُقَدَّسُ النور الذي -زعم- من جهله لم يعرف شيئاً غيره، ومن شك فيه -زعم- لم يستيقن بشيء بعده.

فاسمعوا لما في هذا القول من أعاجيبه، وما استحوذ عليه فيه من ألعابيه، قال: ومُسَبِّحٌ فَمَنْ يَا وَيْلَهُ مُسَبِّحُهُ^(٢)؟ إذ ليس إلا هو وعدوه الذي لا يسبحه، فإن كان إنما سبح نفسه فإنما يسبح جنسُ جنسه، فما في ذلك له من المدح، وما يحق بهذا من مسبح وغير مسبح؟ وإن كان إنما سبحه جزء من أجزائه فإنما سبح الجزء نفسه، وغيره نظيره من أكفائه، وقد يحق له يا هؤلاء على الأكفاء من تسبيحه ما يحق لها عليه بالسواء، فهو مُسَبِّحٌ ومُسَبَّحٌ، ومادِحٌ وممدَحٌ، فليس له من مُسَبِّحِهِ إلا ما عليه مثله من تسبيحه، ولا له من مادحه إلا ما عليه من مديحه، وكل هذا عجبٌ عجيب، وقولٌ متناقض وتكذيب.

قال: ومُقَدَّسٌ، وإنما مُقَدَّسٌ مُفْعَلٌ، ومعناه مُبْرَكٌ، فمن يُبْرِكُهُ وهو عنده يُبْرَكٌ ولا يُبْرَكُ؟ وليس معه إلا عدوه الذي لا سوء إلا سوؤه، فنفسه تبرّكه، فقد كان إذاً ولا بركة له. فسبحان الله ما أفحشَ خَطَأُهُمْ! وأبينَ جهلهم وعماهم!!

(١) في (أ): وجعله.

(٢) في (أ): فيا ويله من سبحه.

فإن قال قائل منهم: فبهذا فقد قلتهم، وقد يدخل لهم عليكم ما أدخلتم. قلنا: أما مُسَبِّح فنقولها، وأما مقدس فأنت تقولها، ونحن لا من طريق ما كَفَرْتَ فقد نقولها في النور الذي ذكرت؛ لأن الله تبارك وتعالى بارك فيه، وفطره من البركة على ما فطره عليه، فنفع بقدره في بعض أمره، فدل بذلك على بركته، وإحسان وليّ فطرته، ولكننا نقول في الله: الملك القدوس كما قال؛ إذ كان كل شيء فبقُدسه^(١) نال من قُدس البركة ما نال.

وَمُسَبِّح فقد نقولها، إذ نجدها له ونعقلها من كل ما هو سواء مفطوراً، ظلمةً كان ذلك أو نوراً، فأما هذان التعبت وقول التناقض والتنكث فهو بحمد الله ما لا نقول، مما لا يقارب قول أهل العقول^(٢). فأما قوله: الذي مَنْ جَهْلَهُ لم يعرف شيئاً غيره فافهموا فيه هذيانه وهذره، فلعمر أبيه ولعمر مُغْوِيهِ لقد يعرف الطبّ والصناعات وأنواع ما تفرق فيه الناس من البياعات - مَنْ لا يعرف نوره، ولا يتوهم أموره، يعرف ذلك يقيناً من نفسه ابن المقفع، ويرى منه بياناً بكل مرأى ومسمع، كم ترون من طيب طلب منه ابنُ المقفع الدواء؟! أو موصل من العوام أوصل إليه سراء أو ضراء، توقن نفسه أن طبيبه يداويه، وأنه لا ينجع فيه بغير يقين تداويه^(٣).

وكذلك من أوصل إلى ابن المقفع ضراءه فقد يعلم أنها غير سرائه، أو أوصل إليه سراءه فقد يوقن بتأ أنها غير ضرائه، وهذا من تكذيبه فيما قال فأتّم موجود، كثير بين الناس في كل ساعة معهود، لا يشك في يقينه أهل الطب والصنائع، ولا العامة فيما تدبر من المضار بينها والمنافع، وكلهم لا يوقن بشيء مما زعم في نوره، بل يزعم أن الجهل في كل ما هو عليه من أموره.

(١) في (أ): فبتقدسه.

(٢) في (أ): مما لا يقارب قبوله المعقول.

(٣) في (أ): مداويه.

ثم ابن القفع فقد يعلم بتأ يقيناً أن الناس لا يُثبتون لشیطانه فعلاً ولا عيناً^(١)، فأی أمرٍ أعمه عمه أو ضلالة أقل شبهاً من ضلالة دخلت بأهلها في مثل هذا السبيل من جهلها؟ فنعوذ بالله من خزي الأضاليل، ونعتصم به من هو الأباطيل، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

وأما ما بعد هذا من حشو كتابه فإننا قصرنا لضعفه فيه عن جوابه.

ثم قال وتلعب في بعض كلامه، وجوز ما حكم به لنفسه من أحكامه: فقد يبصر المبصرون -زعم- أن من الأمور محموداً وأن منها مذموماً، فقال: منها، ولم يقل: كلها، وسقط عنه نقصها وفضلها، وإذا كان لأياها كان بعض وكل كان لكلها يقيناً على بعضها فضل، وإذا ثبت بين النور التفاضل ثبت لبعضه على بعض فضائل، وإذا كان النور فاضلاً ومفضولاً فقد عاد النور بعد أصل أصولاً؛ إذ الفاضل والمفضول اثنان، والفضل والنقص منهما شيان، والفاضل فخير^(٢) حالاً، والمفضول أسفل سفالاً، فكل جزأين من أجزائه فهما خير من جزء، وكل عضو من أعضائه فهو في الشر كعضو، وهما إذا اجتماعاً خير منهما إذا انقطاعاً، فمرة فهما خير عند الاجتماع، ومرة فغيرهما خير منهما عند الانقطاع.

وكذلك أيضاً فقد يدخل عليهم في الظلمة وتفاضلها ما يصيرهم إلى أن شر البعض منها أقل من شر كلها؛ إذ شر كلها أكثر من شر بعضها، وإذا الشر من أقلها ليس هو أكثر من شر كلها، فالنور في نفسه واسمه شر ضرار ونافع شرار، وذلك أنه يقل، والقلة عنده شر، فيعود نوره ضرراً^(٣)، ويقصر عن قدر مبلغ كماله، والتقصير عنده ضرر، فيعود ضرراً، والظلمة فخير إذا عندهم شر ونفع

(١) في (أ): ولا عيناً.

(٢) في (أ): خير.

(٣) في (أ): فيعود نوره شرراً.

وضر؛ إذ قليلها مقصر في الشر عن مبلغ كثيرها في مواقعه من الضر، وبعضها كذلك مع كلها، وفرعها فيه ليس كأصلها.

فأي عدوان أعدى أو طريقة أقل هدى مما تسمع من أمورهم أيها السامع؟ فلتنفعك في بيان قبائحه المنافع، وأيما-ويله- رأى من الأشياء ومن كل ظلمة أو ضياء يحمد أو يذم في الناس دائباً، أو ليس في الحمد والذم عندهم متقلّباً؟ ألم ير أن الظلمة ربما نفعت فحُمدت؛ وذلك إذا استترت الأبرار بها عن ظُلم الظالمين فسَلِمَت، وطلبت فيها وبها البرد فأدرسته في طلبها، فهذا منها نفع ظاهر في دنيا ودين، يراه^(١) بيناً من أمرها كل ذي عين وقلب رصين، ثم تعود منافعها مضاراً إذا أعطت هذا منها أشراراً، وكذلك أحوال النور في جميع ما يرى من الأمور، ربما نفع فيها ثم عاد بالضر عليها، وقد ذكرنا من ذلك في صدر كتابنا طرفاً فيه لمن أنصف في النظر ما كفى.

وقال في كتابه زعم لبعض من دعا: إن الذي دعاه إليه رجاءه فيه للهدى. فمن يا وَيْلَه رجاء؟ الظلمة التي لا ترجا، ولا يكون منها أبداً إلا الأذى، ولا يفارقها بدأ عنده العمى؟ أم النور الذي لا يُخشى ولا يعمى، ولا يكون منه أبداً عنده إلا الرضا، بل ليت -ويله- شعري فلا يشك -زعم- ولا يمترى من الذي يدعوه إلى الإحسان من الإساءة^(٢)؟! ومن الذي يناديه إلى الصواب عن الخطأ؟ أهو النور الذي لا يُسيء والمصيب الذي لا يخطئ؟ فلا حاجة له إلى دعائه وندائه وهو لا يسيء، أبداً فيكون كأعدائه، أم المسيء الذي لا يحسن، والمخطئ الذي يُشتم ويلعن، كان -يا ويله- إليه دعاؤه، وبه كان نداؤه، فأنى يحببه وليس بمجيب؟! وأنى يصيب من ليس أبداً بمصيب؟!

إن ابن المقفع ليكابريقين علم نفسه، وإن به لطائفاً من لمم الشيطان ومسه،

(١) في (أ): يراها.

(٢) في (أ): الإساءة.

بل مثل ابن المقفع يقيناً وما مثله الله به بيناً ما ذكر الله جل ثناؤه وتباركت بقدسه أسماؤه حيث يقول: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف]، يقول الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٨١]، ثم قال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [١٨١]، فلعمري الحق وأهله ما وفق ابن المقفع فيه لعدله، ألم يسمع -ويله- قول الله لا شريك له: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [١٨٥] مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١٨٦] [الأعراف].

فيا ويل ابن المقفع لقد أداه عتته وعماه في الأمور إلى أجهل الجهل فيما وصف من الظلمة والنور، وليس علته فيما أحسب من ضلاله، ولا علة من تبعه عليه من جهاله إلا قلة علمهم بما شرع الله به دينه، ونزل به كتابه من الحكمة، لا عن شبهة دخلت عليه ولا عليهم فيما وصفوا من النور والظلمة، فلما عموا عن حكمة الله في ذلك ورسله، وما حكم به فيه سبحانه من أحكام عدله، ورأوا فيه ما ظنوه تناقضاً، ورأوا كل أهل ادعائه فيه متباغضاً، ولم يلجأوا إلى الله في جهله باستسلام، ولا عصمهم فيه من صالح عمل بعروة اعتصام، ولم يلقوا فيما اشتبه منه من جعلهم الله معدنه، فيكشفوا لهم الأغطية عن محكم نوره، ويظهروا لهم الأخفية من مشتبه أموره، الذين جعلهم الله الأمناء عليها، ومن عليهم بأن جعلهم الأئمة فيها، ولم يجدوا عند علماء هذه العامة فيما اشتبه عليهم منه شفاء، ولم يرجوا منهم في مسألة لو كانت لهم عنه اكتفاء -ازدادوا بذلك إلى حيرتهم فيه حيرة، ولم تفدهم أقوال العلماء فيه بصيرة، حتى بلغني -والله المستعان- من تهافت الضعفاء في هذا المذهب العمي، لما رأوا من جهل علماء هذه العامة بما فيه لأهله من دعاوي، ما هو دعائي إلى وضع أقواله، والكشف عما كشف الله عنه

من ضلاله، وإن كان عندنا قديماً لحمقه وضعفه لمِمَّا لا أحسب بأحد حاجة إلى كشفه، حتى بلغني عن الحمقى منه انتشار، وتتابع بتناشره على أخبار، ورُفعت^(١) إلينا منه مسائل عن ابن المقفع لم آمن أن يكون بمثلها اختدع في مذهبه كل مختدع، فرأيت من الحق علينا جوابها، وقطع ما وصل به من باطله أسبابها، فلينصف فيها من نظر إليها، وليحكم فيما يسمع منها ومن نقائضها حكم الحق، فإنه أعدل الحكم وأرضاه عند من يعقل من الخلق، وما أَلَفَ من مسائله هذه وجمع فهو ما أوقعه من الضلال بحيث وقع، فذكر فيها النور والظلمة تلعباً، وتلعب بذكرهما فيها كذباً.

فافهموا عنا جواب مسائله، فإن فيه -إن شاء الله- قطع حباله التي لا تصيد صوائدها ولا تكيد له كوائدها إلا حمقان الرجال، وموقان^(٢) الأندال.

كان أول ما بدأ منها وقال به متحكماً عنها أن قال: إن سألتك يا هذا فما أنت قائل؟ أتقول: كان الله وحده ولم^(٣) يكن شيء غيره؟

فاعرفوا يا هؤلاء فضول قوله: فإن لم يكن شيء غيره، هي من فضوله التي كثر بها كتابه، وضلل بها أصحابه، ومسألته هذه مما كان جوابه فيه قديماً من كل من أثبت لله من خلقه توحيداً وتعظيماً، وفي ذلك من كتب ضعفة الموحدين وعلمائهم ما فيه اكتفاء لمن نظر في آرائهم، ففي كتبهم فانظروا، ومن نور قولهم فيه فاستنبروا، ففيها لعمرى منه ما كفى، وصفوة هدى لمن اصطفى، ومع ذلك فسنجيب مسألته، ونقطع إن شاء الله علته.

نعم، وكذلك^(٤) نقول في الله، فليعقل قولنا فيه من سمعه، ممن لم يتبع ابن

(١) في (أ): ووقعت.

(٢) الموقان: الحمقى.

(٣) في (أ): لم يكن بحذف الواو.

(٤) في (أ): فكذلك.

المقفع ومن تبعه، فقد يعلم كل أحد أن الواحد لا يكون واحداً عند من أثبت له نداءً أو ضدّاً، وأنه متى كان معه غيره ضده كان ذلك أو نظيره زال أن يكون معنى الواحد المعلوم ثابتاً، ويعلم كل أحد أنه لا يكون ذو الأجزاء إلا اشتتاً، ولا تكون أبداً الأشتات إلا كثيراً، ولا تكون أجزاءً إلا كان بعضها لبعض نظيراً.

أو ليس معلوماً معروفاً أن من وراء كل غاية غاية حتى ينتهي إلى المنتهى الذي ليس من ورائه غاية ولا نهاية، وأنه إن كانت مع غاية غاية أو بعد نهاية عند أحد نهاية فلم تَصِرْ^(١) بعدُ إلى غاية الغايات، ولم ينته عقله إلى نهاية النهايات، وأنه يصير بالعظمة عند النظر من عظيم إلى عظيم حتى يَقِفَ النظر على غاية ليس وراءها مزيد في تعظيم.

وكذلك الأمر في كل معلوم أو مجهول حتى ينتهي إلى الله الذي لا يدرك إلا بالعقول، فيجده كل عقل سليم وفكر^(٢) قلب حكيم واحداً لا اثنين، وشيئاً لا شيئين، عظيم ليس من ورائه عظيم، وعليم ليس فوقه عليم، ذلك الله الرحمن الرحيم، الواحد الأول القديم، القدوس الملك الحكيم، الذي لا تناويه الأعداء بمقاتلة، ولا تكافيه الأشياء بمائلة، وهو الله الذي لم يلد ولم يولد، والصمد الذي ليس من ورائه مبتغى يصمد، غاية طلب الخيرات، ونهاية النهايات، وإذا صحح حجتنا في هذا صواباً فهو لمن سأل عن وحدانية الله جوابنا.

فأما ما ذكر بعد هذا من القيل فحشو مسربل بهذيان الفضول، ليس فيه مرجوع نفع، ولا يحتاج له إلى دفع.

أرأيتم حين يقول: انقلب عليه خلقه الذين -زعم- هم عمل يديه، ودعاء كلمته، ونفخة روحه، فعادوه وسبوه وآسفوه، وأنشأ تعالى يقاتل بعضهم في

(١) في (أ): يصر.

(٢) في (أ): أو فكر.

الأرض، ويحترس من بعضهم في السماء بمقاذفة النجوم، ويبعث لمقاتلتهم ملائكته وجنوده.

فيا ويل ابن المقفع ما أكذب قبيله! وأضل عن سبيل الحق سبيله! متى قيل له -ويله- ما قال، أو زعم له أن الأمر في الله كذا كان؟ ومتى -ويله- قلنا له: إن من قوتل هو من قُذِفَ بالقذف، وإن^(١) الله في نفسه هو المحترس؟ أفٍ لقوله ثم أف. بل الله هو المانع لأعدائه من أن يصلوا من العلو إلى مقر أوليائه؛ تفريقاً بعدل حكمه وفيما تعلّم الملائكة من علمه بين الشياطين العصاة وبين ملائكته المصطفاة، ورحمة منه سبحانه للآدميين، وإقصاءً عن علم السماء للشياطين، تأكيداً به لحجته سبحانه وإحداثاً، وإحياء به لموتى الجهالة وابتعائاً، وإكراماً منه بذلك لنبيه، وصيانةً إلا عنه لوحيه.

فمن أين -يا ويله- أنكر من هذا ما كان مستباناً وما يراه الناس في كل حال عياناً؟ أو يقول: إن ما يرى من هذا لم يزل، وإنه ليس بحادث كان بعد أن لم يكن، فأين كانت مردة قريش عن الرسول به ودلالاتها للعرب فيه على كذبه، وهو يزعم لها [أنه] إنها رمي بها عند بعثته وأن الرمي بها علّم من أعلام نبوءته؟ فلو كانت عند قريش على ما قال حالها لكثرت على الرسول فيه أقوالها^(٢)، ولما أرادوا^(٣) من شاهد أكبر بياناً من هذا في إكذابه، ولكن ابن المقفع يأبى في هذا وغيره إلا ما أُلِفَ من ألعابه، لَلْعَرَبُ إذ أكثرها أهل ضواح وبادية، وقريش فإذ كانت منازلها على جبال عالية -أُحْدِثُ بالنجوم عهداً، وأشد في الكفر تمرداً من أن يكون أمرها على خلاف ما قال الرسول فيها ثم لا يكذبونه فيما زعم من اختلاف حالها، وإلا فالرسول كان في حكمته وفيما كان له عَلَيْهِ السَّلَام من فضيلة

(١) في (أ): أو أن الله.

(٢) في (أ): لكثرت فيه على الرسول أقوالها.

(٣) في (أ): ازدادوا.

الصدق عند عشيرته يتقول مثل هذا لعباً، أو يفترية^(١) عندهم كذباً، بل ليت شعري ما أنكر ولم -ويله- نفر فاستكبر من أن تُرجم الشياطين على علم وحي الله ومنزله، كي لا تسبق به الشياطين إلى أوليائها قبل رسله، فينتشر علمه قبلها في الناس انتشاراً، فيزداد مثله يومئذ له إنكاراً، ويحكم له^(٢) فيه ظنونه، ويزيد فتنة به مفتونه؟ فأيا من هذا ينكر في رحمة الله الرحيم، وفيما خص الله به رسله من التكريم.

فإن قال: فما باله إذا أراد إنزاله لم يطوه حتى لا يناله شيطان رجيم مرید ولا مطيع رشيد إلا رسوله من بين خلقه وحده، فيكون هو الذي يثبت رُشدُه؟ فليعلم أنه لم يصل^(٣) إلى الأرض من الله حكمة في تنزيل إلا كانت ملائكة الله أولى فيها بالفضل؛ لأنها صلوات الله عليها أطوع المطيعين، وأعلمهم عن الله بحكم التنزيل، وأنها في ذلك متعبدة، وبه الله عز وجل ممجدة، وإنما تعبدها الله سبحانه بالعلم^(٤)، وفضلها في العبادة^(٥) للحكم^(٦)، والتنزيل بعلم العلوم^(٧) وبحكمة كل محكوم^(٨)، وجِبِلَّةُ الجن جبِلَّةٌ للسمو إلى السماء محتملة،

(١) في نسخة: ويفترية.

(٢) في (أ): به.

(٣) في (أ): لا يصل.

(٤) قوله ﷺ: «تعبدوا الله سبحانه بالعلم»: أي من أجل أن الملائكة أعلمهم بحكم التنزيل. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٥) في (أ): بالعبادة.

(٦) قوله ﷺ: «وفضلها في العبادة للحكم»: «فضلها» مضمَّن معنى اختارها، والمعنى واختارها في العبادة لتنزيل الحكم، والتنزيل بعلم العلوم وبحكمة كل محكوم، ولا مانع من العطف للتفسير والتوضيح. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٧) قوله ﷺ: «والتنزيل بعلم العلوم»: القرآن. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

والجن فهم بفضل أهل السماء عالمون، وإلى علم ما عندهم من العلوم متطلعون، فإذا دارت في السماء (٢) حكمةٌ وحي نُزِّلَ فيها، أو عدلٌ حكم حكم به في الأمور وعليها- استرقت منه الجن ما سمعت في مشاهدتها، وما ذكرت أنه لها هناك من مقاعدها، ألم تسمع قولها في ذلك، وخبرها عن مقاعدها هنالك: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشَرُّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)﴾ [الجن]، وهذا يا هؤلاء فإنما كان منها نبأ الله به فيما أدى عنها بعد أن قالت: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ في الأرض ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ (١١)، ألا تسمعها تقول من بعد: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ (٨).

وما ابن المقفع بمأمون من أن يظن أن الحرس شُرطيون؛ لما بَلُونَا من جهله باللسان، وقلة علمه بمخارج القرآن، وإنما الحرس مثلٌ على معنى الحفظ لها بما جعل من الرجم دونها، فازدادت الجن بما وجدت هنالك يقيناً وإيماناً بذلك، فما ينكر من القذف بالشهب وغيره ما فيه من التعجب؟! هل ذلك ممن يقدر عليه إلا كغيره مما هو فيه، وقد زيد به في هدى مَنْ مِنَ الجن اهتدى وتجنب طرق الضلالة والردى، وكان فيه منع لتوكيد كذب الشياطين، ودفعٌ عن الرسول لتصديق (٣) أقوال المكذبين (٤)، والله يقول لرسوله ﷺ في السورة نفسها،

(١) قوله ﷺ: «وبحكمة كل محكوم»: تفصيل الحكم الشرعي في كل أمر. (من خط السيد العلامة

المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) في نسخ: الملائكة.

(٣) في (أ): لتكذيب.

(٤) قوله ﷺ: «وكان فيه منع لتوكيد كذب الشياطين، ودفعٌ عن الرسول لتصديق أقوال المكذبين»:

وكان في رجم الشياطين بالشهب تأكيد لكذب الشياطين فيما تخبر عنه من أخبار السماء، وفيه

ومع ذكر الشياطين وحرسها: ﴿قُلْ إِن أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ ٥٠ عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٥١﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٥٢﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٥٣﴾ [الجن].

وأما قوله في القتال: وأنزل ملائكته فإذا غلبوا عدوًّا قال: أنا غلبته، أو غلب له وليُّ قال: أنا ابتليته. فما أنكر -ويله- من «أنا غلبته» وقد قاتلت معه ملائكته، وقذف بالرعب في قلوبهم، وبث الرعب في مرعوبهم؟ وما ينكر من قتلهم -ويله- بالملائكة؟ وهل ذلك بهم إلا كغيره من كل هلكة، إلا أن ملائكة الله في ذلك متعبدة مثابة، وأنه منه جل ثناؤه بالملائكة لأعدائه معاقبة، وأنه لأوليائه عزٌّ ونصر، ولأعدائه ذلٌّ وكسرٌ.

فإن قال: ألا قتلهم بما هو أوحى، واجتاحهم بغير القتل اجتياحاً. فهذا إن دَخَلَ علينا له دَخْلٌ في الملائكة دَخَلَ في غيره من كل هلكة، حتى يقال في كل واحدة بعينها: ألا كان الأمر بغيرها، وكل ما كان به كائنُ الهلكة فهو أمره، بالملائكة أو غير الملائكة.

فإن قال: ألا خلق الناس أبراراً، ومنعهم أن يكونوا أشراراً؟ فمسألة من سأل عن هذا محال، وليس لأحد علينا في هذا مقال؛ لأنه إنما يكون البرُّ برّاً ما فعله فاعله متخيراً، فأما ما جُبر عليه صاحبه جبراً فلا يكون منه خيراً ولا شراً. وفيها قال: أن يكون الإنسان إنساناً لا إنساناً، والإحسان إحساناً لا إحساناً؛ لأن الإنسان لا يكون إنساناً إلا وهو مملك مختار، والإحسان لا يكون إحساناً إلا ولم يحْمِلْ عليه اضطرار.

وأما قوله في ظفر أعدائه في بعض الحالات على أوليائه أفليس -ويله- بموجود

أيضاً دفع لدعوى المكذبين الذين يقولون: إنها تنزلت به الشياطين. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

من قولنا صحيح يعلمه كل أعجمي منا أو فصيح أن أوليائه لم تغلب إلا بنصره، ولم تغلب إلا بمخالفتهم أو بعضهم لأمره؟ والدليل على ذلك أنه لما أمسك عنهم نصره لما كان من عصيانهم كان ذلك هو بعينه سبب خذلانهم، وأنه من فقد سبب ما به الغلبة غلب، وأنه غير مستنكر ذلك من فعالٍ حكيمٍ يملكه أن يعصيه من أعطاه إياه فيمسكه، فيفقد فيه من نصره ما كان يجد، ويتغير الأمر به إذا (١) عصى عما كان يعهد، فمتى نصر الله له ولياً فبرحمته، أو تركه من النصر فبضرب من معصيته، وهذا من الأمر فلا تزول به عن قديرٍ قدرة، ولا تفسد معه لحكيم حكمة، بل الحكمة معه قائمة موجودة، والأفعال فيه منه عدلٌ محمود.

ألم تسمع حكيم الحكماء وأقدر قادري (٢) العطاء يقول في هذا من نصره وخذله، وقدرته سبحانه وعدله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران]، يخبر عن أنه متى حبس عنهم نصره حل مع حبسه خذله، فمن لم يخذله سبحانه فأولئك هم المنصورون، ومن خذله فلم ينصره فأولئك هم المبتلون، فما في هذا مما ينكره عقل، أو يفسد فيه من الله فعلٌ، سبحانه الله ما أحق فيمن جهل هذا شبه البهائم التي مثلها جل ثناؤه بأهل الجرائم.

وأما قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] فهي فيما أرى - والله أعلم - مما قد يجوز في اللسان ويُعلم: أنك لم ترم بالرمح في قلوبهم إذ رميت، ولكني أنا الذي به في قلوبهم رميت، وبالرمح الذي قذفه الله في قلوبهم انهمزوا، لا بالبطحاء إذ رُموا.

ومثل ذلك من الله لا شريك له قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ

(١) في نسخة: إذ.

(٢) في (أ): وأقدر قادر العطاء.

فَرِيقًا ﴿٥٦﴾ وَأَوْزَنَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٥٧﴾ [الأحزاب]، فما ينكر من القدير على الأشياء أن يفعل ما يقدر عليه من الرماء؟ ما ينكر هذا إلا أحق، ولا يدفع هذا من الله مُحَقٌّ، فالله على هذا وخلافه يقدر، وكذلك قدرته في أن يخذل وينصر، وما صحت في فعله لقادر قدرة فغير مستنكر أن تكون له وحده^(١) مفتعلة، وإلا كان معنى القدرة عليه باطلاً؛ إذ ليس يرى بها القادر^(٢) طول الدهر فاعلاً.

فإن قال قائل: فما تقولون: هل يقدر الله على أن لا يدخل المتقين الجنان، ولا من كفر نعمته وأنكره وأنكر رسله^(٣) النيران؟

قلنا^(٤): قديماً كان ولم يدخل واحداً من الفريقين مُدْخَلَه، وإنما القدرة على أن يُدْخَلَ ولا يدخل، فقدماً فعله، فقد كانوا قديماً ولم يدخلوا، ولا بد بعد أن يدخلوا، فقد كان المقدور عليه من لم يُدْخَلَ وسيُدْخَلَ، فافهموا ما قلنا عنا، وضعوا الفهم فيه حكماً بيننا.

وأما قوله: فقتلت أعداؤه أنبياءه ورسله، فما ينكر من قتلهم لهم قاتله الله وقتله، لو لم يُقتلوا لم يجب لهم من الكرامة عنده ما أوجبه، ولم يدركوا ثواب ما كان القتل فيه سببه^(٥)، ولو كان له علينا في قتلهم مطلب لكان في موتهم، ولو دخل علينا بقتلهم وموتهم لدخل علينا في أصل الفطرة لهم، والفطرة لا يكون فيها من الحكمة ما فيها إلا بموجود البنية التي بنيت عليها، وذلك ما قد فرغنا من الجواب فيه، ودللنا بآثار الله في الحكمة عليه، وفيها وصفنا منه وأنبأنا به عنه ما أوضحه، ووضح به فصَحَّحه، والحمد لله رب العالمين كثيراً، وصلى الله على

(١) في (أ): حدة. وقبلها بياض قدر كلمة.

(٢) في (أ): لقادر.

(٣) في (أ): وأنكره ورسله.

(٤) في (أ): قيل.

(٥) قوله ﷺ: «ما كان القتل فيه سببه»: القتل هو سبب لحصول الثواب للمقتول. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليماً.

وأما قوله: فأَجَلْ عدوه إلى يوم يبعثون، فهو وأصحابه في هذا يلعبون، ولو فسد في التأجيل طول تأخيرهِ لفسد في ذلك أقصر قصيره، فليت شعري ويله لم تَقَابِح هذا وأنكره وهو لو لم يبقَ لم يعص ولم يُطع^(١)، ولولا المعصية والطاعة لم يُخلَق ولم يُصنع؟

وأما قوله: وأمراض خلقه وعذبهم بما عَرَّض من الأسقام لهم، فلعمري لقد وفَّاهم سبحانه طبائعهم مفصلة، وسلمها إليهم مكلمة عن هلكات العصيان، وشين معائب النقصان^(٢)، فما دخلها من سقمٍ بدنٍ أو فساد متديّنٍ فبعد اعتدال تركيبها عن كل نقص من معيبتها، وما فسد لهم من دين بعصيان فبعد هدى من الله وبيان، وتخير في الطاعة وإمكان، فما في الذي ذكر وفنّن فيه فأكثر مما يدخل له أو لغيره علينا، أو يجد به أحد مقال تعنيفٍ فينا؟ كأن كلامه -ويله- وأحكامه كلام لم يزل يسمعه^(٣) من شطار أهل السجون، أو كأنما قبل آدابه عن سفلة أهل المجون، بل كأنه مجنون مصاب لا يحق له جزاء ولا عليه عقاب.

ومتى قيل له -قاتله الله وقتله- ما زعم وقال وهذى به وهذر إذ سأل أنه أصمّ خلقه من حيث ظن، وأعماهم كما توهم، أو جبرهم على عصيانه، أو حال بين أحد وبين إيمانه، أو أنه هو أمرضهم، أو عذب بغير ذنب بعضهم؟ بل نقول:

(١) قوله ﷺ: «وهو لو لم يبقَ لم يعص ولم يُطع» معناه: لو لم يبق عدو الله الشيطان لم يحصل منه طاعة ولا عصيان لموته، وهو لم يخلق إلا ليختبره الله بالطاعة والعصيان. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) قوله ﷺ: «وشين معائب النقصان»: أكمل الله خلق الإنسان وجعل له السمع والبصر والفؤاد والقوة والكمال، ووجود النقص نادر وعارض، وهذا جواب على طعن الطاعن بقوله: أمرضهم وعذبهم.. إلخ. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٣) في (أ): نزل نسمعه.

هو أسمعهم بالدعاء نداه^(١)، ونور أبصارهم بنور هداه، ومن مرض منهم فمن الله يطلب شفاه، وإذا ابتلي ببلاء فهو سبحانه الذي يكشف بلاه، ألم يسمع - ويله - الله تعالى وقوله عن أيوب نبيته المبتلى عليه صلوات الرب الأعلى: ﴿وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا لَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۖ﴾ [ص]، وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۖ﴾ [الأنبياء]، قال الله سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ۖ﴾ [الأنبياء].

أو ما سمع قول إبراهيم فيما نزل الله من القرآن الحكيم فيما ذكر عن الله لمرضه إذا^(٢) مرض من الشفاء، وأضاف إلى نفسه من الغفلة والخطأ، إذ يقول صلى الله عليه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۖ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۖ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۖ﴾ [الشعراء].

وأما قوله: وكل خلقه دمر تدميراً، فلقد أنكر ويله من تدميرهم ما لم يجعله الله نكيراً، عصيائهم لله مستحق الطاعة ظلاً واعتداً، ومجانبتهم لما جعل الله لهم به النجاة والهدى هو الذي به هلكوا ودُمِّروا، بعد أن بصرهم الله منجاتهم فلم يبصروا، إلا أن يكون توهم^(٣) أن الله هو الذي حملهم على العصيان وجبرهم،

(١) قوله ﷺ: «هو أسمعهم بالدعاء نداه» معنى هذا الكلام: أن ابن المقفع يقول: إن الله أصمهم عن سماع الحق وأعمى أبصارهم عن رؤيته، وحال بينهم وبين الإيمان.. إلخ؛ فأجاب الإمام القاسم بأن الله أسمعهم نداه ودعاهم إلى طاعته وحذرهم من معصيته وأراهم نور الحق والهدى.. إلخ؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) في (أ): إذ.

(٣) في (أ): يتوهم أن يكون هو الذي.

فكيف يا ويله^(١) وهو الله الذي مكنهم فيه وخيرهم، وما أجبر^(٢) أحداً تعالى على إحسان، فكيف يجبره له على عصيان؟! ولم يسخط ما قضى، ولا رضي إلا بما فيه الرضا، ولم يغضب له من فعال، ولم يتضاد بحال، ولم ينزل عدواً بقتال، ولم يتمثل في شيء بمثال، وإذا مرض خلقه شفاهم، أو تعاملوا عن الهدى أراهم. فيا غباء من جهله، وأنكر حقه وعطّله، لو كان الله سبحانه صاحباً لوجب حقه، فكيف والخلق خلقه، وهو خالق الخلق ومبتدعه، والمحسن إليه في كل حال ومصطنعه، ومن لم يُدبر عنه بإحسانه حتى أدبر، ولم يُغيّر ما به من نعمة حتى كفر، كيف وهو من عصاه استرضاه، ومن استكبر وهو القادر عليه أملاه، ثم كرّر عليه في دعوة الهدى نداءه، ثم من قبل حظه فيه جازاه، ومن أبى عطيته من الخيرات حرمه، وهو الذي قبّح من كل ظالم ظلمه؟ فيا ويل من جهل إحسانه، وركب في الكفر عصيانه، ماذا جهل من إحسان كثير لا يحصى؟ ومن عصى إذ إياه عصى؟ فمن أولى منه جل ثناؤه بالعبادة والتعظيم فيما دعا إليه من الطاعة له والتسليم، وهو الله الهادي إلى سبيل النجاة، والمنعم بنعمه التي ليست بمحصاة.

فإن قال قائل: ومن أين تدري أن هذه نعمه؟ وأن محدثها إحسانه وكرمه؟ فليعلم أن كل ما يرى منها نعمٌ بين آثار الإنعام فيها، تحكم بصحيح أثره العقول عليها، وأنه لا بد في فطرة العقول وما وجد فيها ولها من المعقول من أن يكون لهذه النعم مُولٍ أو لاها، هو الذي فطرها وأنشأها، وأنه لا ينبغي أن يكون مولياً كهي فيها بان^(٣) من أثر الصنعة عليها، وأنه لا يوجد شيء غيرها إلا وجدت فيه الصنعة وتأثيرها، حتى ينتهي ذلك إلى مَنْ لا يشبهه مصنوع، ومَنْ

(١) في (أ): فكيف ويله.

(٢) في (أ): وما جبر.

(٣) في (أ): أبان.

كل الأشياء^(١) فمنه بدع مبدوع، وأنه الله الأول القديم، الملك القدوس الحكيم. فإذا صح ذلك عند من يعقل بإشهاد علم أن النجاة من الله لا تكون إلا بإرشاده الذي نزل فيها أوحى من كتبه، ودل على النجاة فيه بسببه، فالحمد لله ولي النعمة في الأشياء، والمتولي لنجاة من نجا بهداه من الأولياء، الذي ليس له أكفاء فتساويه، ولا شركاء في الملك فتكافئه، المتبرئ من كل دناءة، المتعالي عن كل إساءة، ربّ الأنوار المتشابهة في أجزائها، ووليّ تدبير الظلم وإنشائها، العليّ الأعلى ذي الأمثال العلى والأسماء الحسنى، شاهد كل نجوى، ومنتهى كل شكوى، والممهل للمبطل، ومن لا يُعدّل من الأشياء كلها بعدل، فكل ذي خير محمود أو منسوب إلى كرم أو جود فالله مبتدئ فطرته محموده، والسابق الأول بما حُمد من جوده.

فأين قولنا ويله مما ادعاه وتقولّه؟ سبحان الله ما أشدّ سفهه وأجهله! لقد لعنه الله وأضلّ عقله، ولولا أني سمعت الله لا شريك له يقول: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الزخرف]، ويقول سبحانه: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف]، ثم لم يترك مع ذلك تذكيرهم، وبعث مع ذلك فيهم نذيرهم - لما رأيت لمن ذهب مذهبه وتلعب في القول متلعبه منازعة ولا إجابة ولا تذكيراً، ولظننتهم إلا ما شاء الله^(٢) في العقول بقرأ أو حميراً.

أرأيتم حين يقول: ولا يغلب أحداً إلا بالخيّل والسلاح، إنه ليطمح في الخطأ - ويله - أيّ طماح، أترونها إنما يظن تغالب البهائم، أو غلبة الناس للإبل الجلة

(١) في (أ): كل شيء.

(٢) قوله ﷺ: «إلا ما شاء الله في العقول» مم الاستثناء؟ وبم يتعلق «في العقول»؟ تقدير الكلام: ولظننتهم بقرأ أو حميراً إلا ما شاء الله من تمييزهم على البقر والحمير بالعقول، وبهذا يتضح الاستثناء والتعلق. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

الصُّلّادِم، وارتباطهم للفيلة بالأمراس، وقرع سُؤاسها لرؤوسها بالأجراس - إنما كان منهم بخيل أو سلاح، ويله إنه ليجمع عن الحق أيّ جراح^(١)، ولئن كان يظن أن الناس أقوى من الملائكة إن هذا في الظن لأهلك الأهلّة، وقد بينا في جواب ذلك لهم وفيهم من غلبة الأولياء بالله لعدوهم وظهورهم عليهم بما فيه بيان كافٍ، وعبرة واضحة لذي إنصاف.

وأما قوله: يقاتل على الملك والدين، فكيف -ويله- يقاتل على الملك والدين وطلب العز فيها والكبرياء مَنْ كان لبأسه فيها -مع وجوده لملكها- الشَّعَر والوبر والعباء والصوف، وشعاره فيها -والناس شباع آمنون- الجوع والظمأ والخوف، وما الملك ممن يظل نهاره وليله خاشعاً باكياً، ومن يسبح على قدميه في الأرض حافياً، يدعو من هلك من أهلها إلى النجاة، وينادي من مات عن الهدى إلى الحياة، ومن هو أعز ما يكون^(٢) مفارقاً^(٣) لأحوال ملوك الدنيا وأغنيائها، ومَنْ لا يُرى متكبراً عن مساكين العامة وفقرائها، يقف عليها، ويرى واقفاً فيها، ويأكل معها إذا أكلت، ويحيبها إذا سألت، ويعود مرضاها إذا مرضت، ويشهد موتها إذا ماتت.

فأين هذا كله وفرع هذا وأصله من أحوال الملوك التي تتكبر على آبائها، ولا

(١) قوله ﷺ: «ولا يغلب أحداً إلا بالخيل والسلاح.. إلى قوله: ويله إنه ليجمع عن الحق أي جراح» - المعنى: إنما يظن تغالب البهائم من غير معونة من الله ونصر وتأييد لأوليائه، أو أن غلبة النبي ﷺ قد كانت لكثرة الإبل العظيمة الشديدة وبإعداده للفيلة وتمرينها للحرب. و«إنما كان منهم بخيل أو سلاح» تأكيد للكلام الأول. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) قوله ﷺ: «ومن هو أعز ما يكون مفارقاً» المعنى: أن بلوغ النبي ﷺ لأعلى مراتب العزة قد كان بسبب مخالفته لأحوال الملوك. ومفارقاً: حال من فاعل «أعز». (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٣) في (أ): مفارق. وشكل أعز بالفتح.

تنظر بخير إلى أبنائها؟ ما أشبه بعض ابن المقفع ببعض، وما أحسب له في المكابرة نظيراً من أهل الأرض.

وأما قوله قول الزور والباطل: وأخرج -زعم- سلطان^(١) الجاهل الذي يستر عليك الجهالة، ويأمرك أن لا تبحث ولا تطلب، ويأمرك بالإيمان بما لا تعرف، والتصديق بما لا تعقل، فإنك -زعم- لو أتيت السوق بدراهمك تشتري بعض السلع، فأتاك الرجل من أصحاب السلع ودعاك إلى ما عنده، وحلف لك أنه ليس في السوق شيء أفضل مما دعاك إليه -لكرهت أن تصدقه، وخفت الغبن والخديعة، ورأيت ذلك ضعفاً وعجزاً منك حتى تختار -زعم- على بصرك، وتستعين بمن رجوت عنده معونة وبصراً.

فمن -يا ويله- الذي يخاطب ويسأل؟ ومن الذي يخشى أن يُخدع ويجهل؟ النور الذي لا يجهل -زعم- فيعود شراً، أم الظلمة التي لا تكون إلا خديعة ومكرراً؟ سبحانه الله ما أشبه أمثاله بعقله، وما أوجد شبهه في الدناءة بفعله، أمحمد^ﷺ -ويله- كان يدعو إلى شيء مما كذب عليه فيه؟ معاذ الله أن تكون تلك كانت قط من آدابه، ومما^(٢) نُزل عليه في كتابه، أهو -ويله- يحمل على خلاف ما يُعرف وإنما جاء ﷺ يدعو إلى المعارف؟ أو يأمر ﷺ بالكف عن الطلب والبحث وهو الكاشف عن أسرار الغيوب لكل متبحر؟ أو هو يرضى دناءة الخدع وقبائحها أو يقارب الأسواء وفضائحها ولم يُقبَّح أحدٌ من الخلق السيئات بأكثر مما قبَّح، ولم ينصح في الدلالة على الخيرات أشد مما نصَّح، ولم يناد بإظهار أمره أحد قط كما نادى، ولم يدع إلى كشف الحق ما إليه دعا؟

أما سمعه -ويله ما أكذب قيله- وهو يقول صلوات الله عليه ورضوانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

(١) في (أ): شيطان.

(٢) في (أ): وما.

اللَّهُ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾
 [يونس]، ويقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا
 وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران]، ويقول
 سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ
 أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ
 كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس].

وإن دعوى ابن المقفع هذه فيه لما لم يدعه قط مدع عليه، لا ممن أجابه
 فاهتدى ولا ممن صد عنه واعتدى، ولكني أحسب أن ابن المقفع هذى، وألقى
 الشيطان على لسانه ما تمنى، فجعل ظنه عليه يقيناً، أو كابر من وجد قوله بيئاً.
 كيف - يا ويله (١) قاتله الله وقتله - يكون كما افتراه، أو على شيء مما (٢) ادعاه،
 والله يقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادَى
 ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ
 شَدِيدٍ ﴿٦٦﴾﴾ [سبا]، ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ
 فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف]، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يونس]،
 فهل دعا أحد إلى إخلاص الفكر دُعاه (٣)، أو حدا أحد من الناس على النظر
 حُداه؟ ما يبلغ كذب ابن المقفع في الكلام كذب أضغاث الأحلام، طلب -

(١) في (أ): ويله. بدون «يا».

(٢) في (أ): أو على ما ادعاه.

(٣) في (أ): فهل دعا أحد إلى الفكرة دعاه.

ويله- في الكتاب من التعنيف وتكلف في عيبه من التكاليف^(١) ما لم تُطِقه قبله عفاريت الشياطين، فكيف به وإنما هو مجنون من المجانين؟ أما سمع قول رب العالمين: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء]، وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس].

وأما قوله: فلا نعلم ديناً مذ كانت الدنيا -زعم- إلى هذا الزمان الذي حان فيه انقضاؤها أبحث زبدة كلما مخض، وأسفه في ذلك التمخيض أهلاً، وأبتر^(٢) أصلاً، وأمر ثمرأ، وأسوأ أثراً على أمته والأمة التي ظهر عليها، وأوحش سيرة، وأغفل عقلاً، وأعبد للدنيا، وأتبع للشهوات -من دينكم- فلقد قال -ويله- في هذا من أصول ديننا وفروعه ومُفرِّق حكم دين الله ومجموعه بها^(٣) لا يخفى كذبه فيه عمن حُكِّم بأقل الحق عليه.

وأيُّ دين أحسن نظاماً وأعدل أحكاماً وأقل تناقضاً وأرضى رضا من دين قامت دعائمه واعتدلت قوائمه على الأمر فيه بالعدل والإحسان، ونهت نواهيه عن كل فحشاء وعدوان^(٤)، فلم يترك لمحسن ثواباً، ولم يضع عن مسيء فيه عقاباً، بمقادير من قسط عادلة، وموازن من عدل غير مائلة، لولاه لفسدت الأرض خراباً، وعدمت الصالحات ذهاباً.

ولكنني أراه ظن ديننا وتوهم أحكام ربنا أحكام معاوية بن أبي سفيان، وما سن بعد معاوية ملوك بني مروان، من تناقض أحكامها، وجورها في أقسامها،

(١) في (أ): الأكاليف.

(٢) في المخطوطات: وانبت. ولعل ما أثبتناه الصواب.

(٣) في (أ): ما.

(٤) في (أ): أو عدوان.

وأولئك فأعداء ديننا، وحُكم أولئك فغير حكم ربنا، وحكم ديننا فالحكم الذي لم يخالطه قط جور، وأموره من الله فالأمور التي لا تشبهها أمور، ويحق بذلك أمرٌ وليّه أحكم الحاكمين، وحكمٌ جاء من رب العالمين.

وأما قوله: رجل من أهل تهامة، فإنما هو ضرب من العجامة، وما في هذا ويله ما أشد عتوّه وكفره؟ تهامياً^(١) كان عليه السلام أو شامياً، أو مغربياً كان من الناس أو مشرقياً، هل هو إلا بشر آدمي بعثه إلى كل فصيح وأعجمي، كما قال سبحانه عنه أجزل الله له كرامته ورضوانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۖ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) [فصلت]. هل هو إلا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم بعثه الله إلى الإنسان، وإحسان من الله وهبه عباده لا كالإحسان، أرسله سبحانه بهداه مبتدياً إلى أوفى الخلق بأن يكون مهتدياً، إلى الملائمة من عشيرته، وفي ولد إبراهيم وذريته، وإلى أبناء قحطان من جирته، وهم الذين كانوا في كفرهم أوفى أهل الكفر لمن عاهدوا عهداً، وأكرمهم لمن وادوا وُدّاً، وأحسنهم لمن تحرّم بهم تحرّماً، وأحفظهم لجوار من جاورهم تكرباً، وأشدّهم للكذب إنكاراً، وعن كل دناءة خُلقي استكباراً، وأشدّهم لله إعظاماً، ولحرم بيته إكراماً، والذين يقول عنهم فيما ذكر منهم في عبادة ما كانوا يعبدون معه من الأوثان؛ تقرباً بعبادتهم لذلك إلى الرحمن: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٢٣]. أما سمعت قول الله فيهم وفيما ذكر لعباده من تمنّهم: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ۖ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ۖ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات]. ويقول سبحانه عنهم خاصاً دون جميع الخلق في تمنّهم دون أهل الأرض لدين الحق: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢].

(١) في (أ): اتهامياً.

(٢) ما بين المعقوفين لا يوجد في (أ).

وأما قوله -عليه اللعنة^(١)- في آيات المرسلين، وتمثيله لها بسحر الساحرين، فغير بدع بحمد الله منه، وقبله ما قال إخوانه من الكافرين فيها قوله، أما سمعتم قول فرعون وملائته عندما رأوا من نور الحق وضيائه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء]، و﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: ٦٣]، فبينما هو يقول: يا أيها الساحر إذ قال: إنك لمسحور، وبينما قريش تقول لمحمد ﷺ: ما هذا إلا سحر إذ قالوا: إنك لمجنون، ولعمري لو كان موسى ومحمد صلى الله عليهما ساحرين عندهم وفيهم لكان ذلك بيناً جلياً لديهم، لا يخفى منه شيء عليهم، كما كان يتبين لهم سحر السحرة والكهان فيوقنونه منهم بحقيقة الإيقان، ولا يدعون سحرهم جنوناً، ولا ساحرهم مسحوراً؛ تخليطاً^(٢) وعتهاً^(٣)، وعمايةً وعمهاً.

هذا ليعلم أن قولهم فيه لم يكن إلا كذباً وافتراء، وأن السحر لم يكن عندهم ما يشك فيه ولا يمتري.

كيف -ويله وويل أسلافه، ومن تبعه بعده من أخلافهم وأخلافه- يسمى سحراً أو جنوناً ما^(٤) يملأ بطوناً وعيوناً، وتُرى آثاره اليوم إلى الدهر الأطول دائمة، ومواقعه في بطون الأكلين والشاريين من الظمأ والجور باقية، ما هذه بطريقة السحر المعروف، ولا يُعرفُ السحرُ بوصف من هذه الوصوف، إلا أن يكون في مؤممه^(٥) وعماه، وشدة تباعده عن هداه، يبصر اليوم من السحر ما لم يكونوا يبصرون، أو يُظهر السحرة اليوم له منه ما لم يكونوا يومئذٍ يُظهرون، والسحر يومئذٍ فيهم ظاهر منشور، وصاحبهم إذ ذاك عندهم مكرم محبور، ومن

(١) «عليه اللعنة» ساقط من (أ).

(٢) في نسخة: غلطاً.

(٣) عَتَتْهَا وعتاهة: نقص عقله من غير مس جنون. (مصباح).

(٤) في (أ): لما.

(٥) الموم: البرسام. (صباح).

أظهر اليوم السحر لم يكن له عند الأمة عقوبة إلا القتل، ما أوضح الأمور، وأبين الساحر والمسحور، وليس في هذا شغل لأحد ممن يعقل، مع أنك لم ترقط أحداً يسحر إلا وهو يعبث في سحره ويسخر، ولم تره وإن سحر إلا مسترذلاً، وسفلة ذليلاً نذلاً.

وأما قوله: نافر الله الإنسان فقال: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ١٧ ﴿سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ﴾ ١٨ ﴿[العلق]، ثم افتخر بغلبته -زعم- لقرية أو لأمة أهلكها من الأمم الخالية- فما في هذا ويله من نافرَ وافتخر، لا ولكنه أوعد سبحانه وحذر بما فيه لمن عقل مزدجر، وعبرة كافية ومذكر، وهذه من لفظاته الأولى، وشبهتهن في الدناءة والعمى، فيا ويله ما أغلب عليه قول السفال والبهتان، وأجهله بما يدور بين أهله من هذا اللسان، الذي لا يصاب إلا به تأويل القرآن، ولا يتبين بغيره من الألسن ما يتبين به من البيان، فليقبل من أراده قبل تعلمه، ولا يحكم على القرآن بوهمه (١)، فإن ابن المقفع إنما استعار أحرفه، فأما معناها فجعله وحرّفه، يسمع منا في ذكر الله لفظاً فوعاه كما سمع حفظاً، ثم ثبته إلى نوره (٢) وضلالته كذباً، فأنشأ يمدح به غير الممدوح تلعباً، والمعاني منه فأعجمية، والأسماء التي سمى فعربية.

وأما قوله: انقلب وأنشأ، فكلمتان ليس لهما في الله معنى؛ لقبح (٣) مخرجهما، وضلال منهجهما عن كلام أهل القدر والنهي، وإنما قبلهما من الناس عنه الطبقة السفلى!

ومن قال له ويله: انقلب عليه خلقه؟ وأنه أنشأ سبحانه يقاتله ويغالبه؟ هذا ويله فما لم يقل به في الله قط منذ كانت الدنيا مقتصد ولا مفرط.

وأما قوله: عمل يديه، ودعاء كلمته، ونفخة روحه -فكله منه على ما توهمه

(١) في نسخة في (أ): فليعمل من أراده قبل تعلمه تَقَمَّهُ، ولا يحكم على القرآن توهمه.

(٢) في (أ): «زوره» ظن.

(٣) في (أ): لقبيح.

زور وبهتان، وأكثر قوله فيه هذر وهذيان، وليس فيما فننّ في هذا من قوله لا في قصره ولا في طوله أكثر من أن الله أحدث صنعا، وأبدع لا شريك له بدعا.

فإن قال قائل: ولم أوجد صنعه؟ وما العلة التي لها أبدع بدعه؟ فهي الاختيار فيما أنشأ، وإظهار حكمته فيما أبدى، جوداً منه وكرماً لا يشوبه حسد، ولا يجب به إلا له فيه حمد، وكفى بهذا لصنعه علة، وفيما سأل عنه جواباً ومسألة.

فإن سأل سائل أو قال قائل: فما باله إذا كان الجود عندكم من علة صنعه وبريته، والجود فلم يزل عندكم من ذاته - لم يحدث الصنع قبل إحداثه؟ فهذا ضربٌ من غلط السؤال وأعيائه؛ إذ كان الصنع كيف ما كان حدثاً، وكان الله له في ذلك محدثاً، فهذا جوابنا له^(١) فيما سأل؛ إذ كان في مسألتها قد أحال، والحمد لله رب العالمين، وأول من أنعم من المنعمين.

وأما قوله: فصارت الغلبة للشيطان؛ بأن تبعه الخلائق على ضلالتة إلا أقلهم. فإيا ويله ما في هذا من غلبته، بل هبهم تبعوه على ضلالتة، فإنما تبعوه ومالوا إليه بأهوائهم، وأطاعوه لعماهم^(٢)، لا عن غلبة منه لهم، فوالله ما غلبهم، فكيف يغلب خالقه وخالقهم؟! ومتى غالب الله الشيطان فغلب أو غلب؟ يأبى ابن المقفع -ويله- إلا اللعب، لئن كان الشيطان غلب الله بكثرة أتباعه لقد غلب الشرُّ نورَه بكثرة أشياعه، ويله إنما يتبع الشيطان من أطاع هواه، وعمي عن الله مثل عماءه، وسبله إلى الله لو أرادها ذُلُّ، وطريقُ نجاته بالحق له مُسهِّل، ولم يعص من عصي غلبة ولا قهراً، ولم تطع نفس على طاعتها جبراً، إنما خُلِقَ الثقلان مخيرين بين الطاعة والعصيان؛ لتكون الطاعة بالاختيار إحساناً، والمعصية للإنسان عصياناً.

وأما قوله عليه اللعنة: أدخلوا عليه الأسف والحسرة والغیظ - فكذب عدو

(١) «له» ساقطة من (أ).

(٢) في المخطوطات: لعذابهم.

الله، لا يقال لله تحسّر ولا غيظ، ولكن يقال لهم: آسفوا إذا^(١) عصوا الله فأسرفوا، ولا يقال: تحسر الله ولا اغتاظ، وليس سبحانه مما يغاظ، يأبى ابن المقفع إلا عجمة اللسان^(٢)، ومظلمة كذب البهتان، متى وجد الله سبحانه عما يقول زعم مما لا تقبله العقول؟ أظنه ذهبت به ذواهب استعجام الحيرة فيما ذكر عن الله سبحانه من الغيظ والحسرة إلى قول الله سبحانه: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٣) [يس]، فهذه إنما هي حسرة على العباد لا عليه، وتحسّر فيهم على الهدى لا فيه.

وأما قوله سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾^(٤) [الحج]، وهذا أيضاً فإنما كان لما هو لهم من أمر الله مغيظ، يقول سبحانه: أَمَّا مَنْ أَمْرِي غَاظَهُ فَلَيْسَ يَذْهَبُهُ اغْتِيَاظُهُ. وأما ﴿ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥] فهو أفرطوا في عصياننا، فوجب عليهم بذلك تعجيل انتقامنا، لا على ما توهم من حرقة الأسف التي لا تحل إلا بكل مستضعف، ولقد كان له في هذا بيان واضح لو تبين، ويقى علم صادق لو تيقن، لقول الله جل ثناؤه وتباركت بقدسه أسماؤه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٥) [الشورى]، وأن الذي توهم لتمثيل هو التمثيل، فسبحان من لا تصل إليه الآلام^(٦)، ولا يعرض له نوم ولا نسيان، ومن ليس كمثل ما خلق من الإنسان، ذلك الله رب الأرباب، وولي مجازاة العدل في الثواب والعقاب.

وأما قوله: فجعل الله السبيل سبيلين - فوا عجباً لمحال قوله في هذا التكثير والتفنين! وكيف يله يكون سبيلان سبيلاً؟ ما أحسب كلامه بهذا ومثله إلا خبلاً وتضليلاً، فسبيل زعم للطاغوت وحزبه، وسبيل تفرد الله زعم بنهجه،

(١) في نسخة: إذ.

(٢) في (أ): البيان.

(٣) في (أ): الأوهام.

وإنما يكون سبيلهم لهم سبيلاً وغياً إذا كان كل أحد سواهم منه برياً، وإنما يكون السبيل لله سبحانه سبيلاً إذا كان إليه داعياً وعليه دليلاً، فهذا -ويله- وجه السبيلين، لا ما قال به من محال الشيئين^(١).

وقال: هل تعلم يا هذا لم خلق الخلق؟ فنعم نعلم لِمَ إذ علم وفهم ومنّ، وما نزل^(٢) من ذلك ويّن، أما الجن والإنس فلما قال تعالى من عبادته؛ إذ العبادة له واجبة على أهل النعمة في محمده، وأما ما سوى الثقلين فلهما^(٣) خلّقه، وبه استحق عليهما من الشكر ما استحقه، فذلك قوله جل ثناؤه، وتباركت بقدسه أسماؤه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات]، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ فِيهِ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[الجاثية]، فسبحان الله مستحق الرضا من أطاع أو عصى بأحق حقائق الاستحقاق، وما يحق للخالق الرزاق.

فأما قوله: فما أراد بخلقه الخير أم الشر؟ فالخير أراد بهم جميعاً سبحانه معجلاً، وثواب المحسن منهم أراد جل ثناؤه مؤجلاً، فأراد سبحانه الخير في كلهم إرادة تعجيل، أتمها فأكملها أفضل تكميل، لا كما يريد من لم تتم إرادته ولا تحق على غيره عبادته، وأما إرادته في التأجيل لإرادة خلافها يستحيل؛ إذ لا تكون بنية أهل الدين إلا بنية تمليك وتمكين، وأنه متى كان غير ذلك لم تكن البنية بمحكمة، ولم يُر فيها ما يرى من آثار الحكمة، وكانت مواتاً لا تفعل، أو

(١) في (أ): السنين.

(٢) في (أ): أنزل.

(٣) يعني: للثقلين.

شيئاً من الأشياء لا يعقل، فليعقل -ويله- أسباب حكم الله المترافدة، وليعلم تعالي الله عن بنية أعيان الأشياء المتضادة، التي لا تقوم بحال في وهم الأصحاء، ولا توجد بفهم في جهلاء ولا علماء.

وأما قوله لعنه الله: إن ربهم على كرسیه قاعد، وإنه تدلى فكان قاب قوسين أو أدنى - فإلعباد الله من أعطاه -قاتله الله ما أعظم فراه- أنه جلس فقعد، أو تدلى أو صعد، من حيث ظن أو كما توهم، وما نبالي ما قال علينا كذباً، وادعاه من القول فينا تلعباً، إن الذي قال من قعد وتدلى وانقلب، وجزع وافتخر وأنشأ وغلب -فأكثر فيه من هذا القول علينا كذباً وقرفاً وخُلُفاً- لشيء ما علمت أن ملئاً ولا ذمياً يعقل ما قال [قال] منه قط حرفاً، وبلى ولعله وعسى أن يكون ظن قوله: ﴿اسْتَوَى﴾، فلا لم يعن الله بها ما عنى، وما لله سبحانه من ذلك لو عنى به ما ظن هنالك من المدح المعظم والتعظيم المكرم.

أما علم أن ما يراد بالاستواء الإجلال لله والإعلاء بملكه لما فوق السموات العلى، وأن استواءه على ذلك كاستوائه على الأرض السفلى، وأن استوى في هذا كلمة من الكلام جائز معناها بين الخواص والعوام، تقول العرب إذا ظفرت بأحد أو غلبت على بلد: لقد صرت إليها واستويت عليها، تريد غلب سلطاني^(١) فيها، فهذا وجه قوله جل ثناؤه: ﴿اسْتَوَى﴾، لا ما يذهب إليه فيه من العمى.

وأما ما جهل من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة] فقد يمكن أن يكون ثمانية أصناف، أو ثمانية آلاف، أو ثمانية معانٍ ليس مما يدرك بعيان، وأن لا تكون كما ظنوا ملائكة، وأن أقل ما في ذلك إذ لم يأتهم عن الله فيه بيان أن تكون قلوبهم فيه ممترية شاكّة؛ لأن ذلك قد يخرج

(١) في (أ): سلطانك.

في اللسان، ويتوجه في فهم أهله بإمكان، وإن في ذلك لعلماً عند أهله مخزوناً، وإن فيه لله لغيباً مكنوناً، يدل على عجائب خفية، ويتجلى إذا كشف عنه تجلية مضية، وليس معنى ﴿فَوْقَهُمْ﴾ ما يذهب إليه الجهلة من الرقاب، ولا ما يتوهمون فيه من تشبيه رب الأرباب. والثمانية فقد يمكن فيها غير ما قال به الجهلة عليها.

وأما قول الله لا شريك له: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥] فقد يحتمل ﴿حَافِينَ﴾ أن يكون مُكْبِرِينَ مُجَلِّين، ويحتمل أن يكونوا بأمره عاملين؛ لأن الإحفاف قد يحتمل ذلك في لسان العرب أبين الاحتمال؛ لأنهم قد يقولون: إن قوم فلان لمحفون به في الإجلال.

فإن قال قائل: فما وجه قوله فيما ذكر من إحفافهم به من حوله؟ فقد يكونون حافين وإن كانوا من تحته، كما يقال: إنهم بفلان لحافون، وإن كان من علالي منازل به حيث لا يبصرون، فذلك كقوله (١) سبحانه فيما أرى، لا ما توهم في حمل وأحف واستوى: ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة]، فإذا انشقت السماء للنفاء والبلاء تحوزت الملائكة لِسَقِّهَا (٢) إلى الأرجاء، وهي النواحي، فصارت حيثئذ حافة حول العرش الباقي، والعرش فإنما هو السقف الأعلى، والأسفل ففناؤه قبل فناء الأعلى، فليعقل هذا من المعنى من أراد حقيقة ما عني، وليعلم أن سقف أعلى (٣) ما فيه الملائكة (٤) من السماوات غير مسكون بشيء من البريات.

(١) في (أ): فذلك قوله فيما أرى فتعالى.

(٢) في (ب): من سقها.

(٣) في نسخة: أعلى سقف.

(٤) قوله عَلَيْهِ السَّلَام: «وليُعلم أن سقف أعلى ما فيه الملائكة»: المعنى أن أعلى مكان تسكنه الملائكة له سقف خالٍ من السكان، ويسمى العرش.

فإن قال قائل: أفيكون مكان غير مسكون؟ قيل: نعم سقف ما تناهى من بناء السماوات العلى؛ لأنه لا يكون سفلاً أبداً إلا بأعلى^(١). فأما أن العرش هو السقف فموجود في اللسان، كثير ما يتكلم به بين العرب والعجمان. وقد يمكن أن يكون معنى: (الذين يحملونه) إنما يراد به الذين يلونه؛ إذ ليس بينهم وبينه شيء، فتعالى الله الملك العلي.

وقد تقول العرب في المنزل تنزله والأمر تحمله: إنه ليحملنا، إذا كان عليهم واسعاً، وبمرافقه^(٢) لهم ممتعاً، وليس يريدون حمله لهم بيد ولا عنق، أفما في اختلاف هذا ما وقف عن تشبيه الخالق بالخلق؟

فأما الخداع والمكر والكيد بمن كان يمكر ويخدع ويكيد فقد نقوله عنه، ونصفه سبحانه منه؛ لأنه خير الماكرين، وذو الكيد المتين، وخادع من خادعه من الكافرين، وكل ذلك منه فليس كفعال الخاسرين، والمكر والخدع والكيد فإنما هو إخفاء ما يريد من ذلك المريد، وما عند الله مما يريد بأعدائه فأخفى ما يحتال في إخفائه.

وأما حربه فإنما هو حرب أوليائه عن أمره، فهذا وجه ما ذكر سبحانه من حربه وكيده ومكره الصحيح معناه، لا ما شدد^(٣) به ابن المقفع جهله وكفره وعماه.

وأما ما سمعه من الله سبحانه إذ يقول: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ

(١) قوله ﷺ: «لأنه لا يكون سفلاً أبداً إلا بأعلى»: هذا تعليل لوجود سقف غير مسكون؛ فأعلى مكان تسكنه الملائكة لا بد أن يكون له سقف، فالملائكة تسكن أسفل والسقف أعلى. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) في (أ): أو بمرافقه.

(٣) في (أ): لا ما سد.

حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ [النحل]، أَفَتَرَى أَنْ أَحَدًا يَعْقِلُ أَوْ لَا يَعْقِلُ يَتَوَهَّمُ أَنْ هُنَالِكَ سَقْفُ بِنَاءٍ مَسْقُوفٍ (١)، وَأَنَّ ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمْ﴾ إِنَّمَا هُوَ بِمِثْلِ مَا يَعْرِفُ مِنْ سَقُوطِ السَّقْفِ؟ مَا يَتَوَهَّمُ هَذَا أَحَدٌ، وَلَا يَضِلُّ فِيهِ مِنْ ذِي لُبٍ قَصْدٌ، وَهُوَ أَيْضًا وَتَوَجُّهُهُ مِنْ تَنْزِيلِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا فِي فَهْمِهِ وَإِعْرَابِهِ يَدُلُّ عَلَى غَيْرِ مَا تَوَهَّمُ فِيهِ ذِكْرُ كُلِّهِ، إِلَّا أَنْ يَأْبَى ذَلِكَ مَكَابِرَةً لِعَقْلِهِ.

وقوله في الكيد سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الْقلم]، وقوله في المنافقين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله سبحانه في الاستهزاء: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة]، فإنما يريد تركه لهم وتأخيرهم إياهم وهم عاصون، لا ما ظنه ابن المقفع بالله كذباً، ولا استهزاء يكون من الله لعباً، كقول قوم موسى إذ قال لهم صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧﴾﴾، فهذا الاستهزاء إذا كان كذباً، وقول الخداع إذا (٢) كان لعباً - فإلى المخلوق يضاف وينسب؛ لأنه هو الذي يلهو ويلعب، فهذا وجه الاستهزاء منه والخداع والمكر، لا ما يذهب إليه كل عمي ضيق العلم والصدر.

وإذا قيل له سبحانه: يرضى أو يحب أو يأسف أو يسخط أو يغضب فإنما ذلك إخبار عن أقدار الطاعة والعصيان، وجزاء الإساءة عنده والإحسان، لا يتوهم مع ذلك ضمير مسكون، ولا حركة منه في رضا ولا سخط ولا سكون، وكيف يكون عندنا غير هذا وهو - ويله - عندنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٢]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]، ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

(١) في (أ): مسقفاً وأن: فخر عليهم.

(٢) في (أ): فلذا.

الحكيم ﴿٢٢﴾ [الحشر].

وأما قوله: فما باله جزع في غير كنهه من عمل يديه، فهي أخوات قوله: انقلب وافتخر وأنشأ التي لا تخرج إلا من بين جنبيه، ومتى^(١) زعم ويله أنا أخبرناه أنه جزع أو سخط أو كره أو عاب شيئاً مما صنع؟
وأما قوله: ابتدع الأشياء^(٢) مما كان هاذياً فيه، وهذا من قوله في الأشياء فقول فاسد ليس يُعزى، إلا أنا أدينه عنه بحفظه، وكرهنا تبديله إذ حكيناه عن لفظه.

ثم قال عذبه الله وأدام العذاب عليه: وتجاوز رضاه إلى سخطه، ومحابه إلى مكارهه، والخير لعباده إلى الشر لهم، والرحمة لهم إلى العذاب عليهم، ثم افتخر - زعم - وامتدح بأنه غلبهم وقهرهم، وإنما هم لا شيء ومن لا شيء.
افهموا قوله: وإنما هم لا شيء، فكيف - ويله - يكون هم لا هم، وشيء لا شيء^(٣)، ما يبلغ مثل هذا هذيان المجانين، ولا جنون أقوال الهاذين.
فأما قوله: إذا غلبهم افتخر وامتدح، فهما من أخوات انقلب، وهو فيهما يلعب كما كان يلعب.

ثم عمد إلى أسر أسرار الفرقان، وأعجب عجيب^(٤) سر القرآن، من الرآيات والحواميم، وما ذكر فيه من ﴿ق﴾ و﴿الم﴾ و﴿طسم﴾، فعذّ علمها جهلاً،

(١) ما معنى الاستفهام بـ(متى) هنا؟ يظهر أن الطاعن ادعى أن الإمام القاسم أخبره بأن الله تعالى.. إلخ - فاستنكر الإمام هذا الادعاء وقال: متى أخبرناه.. إلخ. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) في (أ): ابتدع الأشياء فأخرج الأشياء.

(٣) من أين جاء: هم لا هم وشيء لا شيء؟ جاء ذلك من قول المتمدح: «وإنما هم لا شيء...»
فإخباره عنهم بأنهم لا شيء متناقض في قوة: هم لا هم وشيء لا شيء. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٤) في (ب): عجائب.

وظن مصون عجيبيها مبتدلاً، وأراد ويله علم سر أنبائها، وما طواه الله إلا عن الأصفياء في إيجائها^(١)، وكلاً، لم يجعله الله لعلمها أهلاً، ولم يجعل قلبه العمي لها محلاً، بل أخفاه الله وزمّله، ولم يعطه إلا أهله، فإن كان جهله يُصيّر المعلوم مجهولاً فقد يوجد كثير مما هو عنده علم مجهولاً، وليس من جهل لذي فضل فضيلته ولا من رأى أمراً فلم يدر علتة يسلب ذا فضل فضله، ولا يزيل عن ذي علل علله، وقد يرى -ويله- هو آلات الصناعات وأشياء كثيرة من أنحاء الأمتعات فلا يدري لم ذلك، وأهله به دارون، ولا يشعر بما فيه من المنافع وهم يشعرون.

فأين -ويله- كان من إحضار هذا وهمه؟ ألا -ويله- حكم بما رأى من هذا وأشباهه حكمه، ولكنه يأبى إلا تحكم العمى والاعتداء، والمكابرة في العلم للعلماء، وإلا فلم لم يفكر إن كان ذا فطنة، وينظر إن كان من أهل النظر فيما يستدل به أهل الكتاب والعرب من هذه الأحرف على ضمائر كل مغيب، فكانت هي الدليل لهم على الكتاب، والسبب لعلمه دون جميع الأسباب، أفما رأى ويله سر عجائبها فيما تنبئ عن محجوب غيبها من سرائر قلوب المتكاتبين بها، ويدور^(٢) من الأنباء في البعد بسببها؛ اكتفاء منهم بها في أنباء الأمور من كل مشاهدة بين المخبرين^(٣) أو حضور، فهذا وأشباهه فليس لمثله فيه مدخل تعنيف، ولا يشتغل منه ولا من مثله فيه بمنازعة في تحريف، مع أن لهذه الوجوه

(١) في (ب): أنحائها.

(٢) قوله عليه السلام: (يدور) معطوف على «تنبئ» في قوله: «فيما تنبئ عن محجوب غيبها». (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٣) (بين المخبرين) متعلق بـ«مشاهدة» وهو اسم فاعل، أي: أن الكتابة أو الحروف تقوم مقام المخبر الحاضر والمشاهد للحدث. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

من التفاسير ما لو سقط عنا علمها في التنزيل لكان علينا أن نعلم أن لها مخارج عند الحكيم، ووجوهاً صحاحاً في علم العليم.

ولو كان جهلنا بها يزيل صحتها أو يبطل عن الحكيم حكمتها لما ثبتت للحكماء حكمة، ولا في علم العلماء معلمة؛ إذ توجد العامة لا تعلم علمها، ولا تعرف للحكماء حكمها، ولو لم يثبت العلم لعالمه ولا حكم الحكمة لحاكمه إلا بأن يعلم غيره منه ما علم، أو يحكم في الأمور كما حكم - لما كان في الأرض من أهلها جاهل، ولما وجدت بين الناس في العلم فضائل.

وما -ويله- في جهله لحكم الكتاب وما جعل الله فيه من عجائب الأسباب مما يلحق^(١) بالله جهلاً، أو يزيل عن كتابه فضلاً، ما له -لعنه الله- تأبى به عماياته إلا تباباً؟ لقد كابر من فرق ما بين الجهلاء والعلماء ما لا يكابره ذوو العمى، يقيناً منها^(٢) به وعلماً، ومرمى منها إلى غير ما رمى.

والتيان في هذا بيننا وبينه وما ينبغي أن نشغل به منه فإنما هو في تثبيت الصانع ورسوله، لا فيما أنكر وفنن فيه من هذيان قليله، فإذا ثبتت الحجة فيهما وأقمنا دليل الحق عليهما علم بعد إقامة الدليل أن الحكمة ثابتة موجودة في التنزيل، جهل ذلك أو علم، أو توهم فيه أو لم يتوهم.

فدليل معرفة الله الذي لا يكابر، وشاهد العلم بالله الذي لا ينكر - ما أرى وأوضح مما تراعيه أعين الناظرين، وتحيط بالتحديد فيه أفكار المفكرين من الأشياء كلها، في تأثير مؤثرها، وتصوير صور مصورها، وتناهي أقطار موجودها، وظاهر افتطار محدودها. وما ذكره منها ذاكر ووصفه منها واصف،

(١) في (أ): مما لم يلحق.

(٢) الضمير في (منها) يعود إلى «ذو العمى» أي: يقيناً من عند أنفسها بحكمة الكتاب، أي: أنهم لم يكابروا كما كابر الطاعن في حكمة الكتاب. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

أو تصرف بوصفه من الواصفين لها متصرف - ففيه لمن نظر وأنصف وعدل في النظر فلم يحف دليلٌ على حدوث الأشياء مبین، وشاهد ثابت لا^(١) يدفع مكين؛ إذ الأشياء كلها محدودة، والآثار في قائمها موجودة، ومعلوم بأن التحديد إذا وجد لا يكون إلا من محدد غير محدود، ولا أثر إذا عُوين إلا من مؤثر موجود، ولا تصويرٌ مصوّرٍ إلا من مصوّر، ولا فطرة مفطور إلا من مفتطر، كما لا يكون كتاب وجد إلا من كاتب، ولا تركيب إذا كان إلا من مركب، ولا فعلٌ مّا كان إلا لفاعل، ولا مقالٌ قيل إلا من قائل، فالله تعالى مؤثّرٌ كلّ مؤثّر، والفاعل جل ثناؤه لكل مفتطر، لا ينكره إلا منكر، ولا يأبى الإقرار به إلا مكابر، والمنكر فغير منكر، والمكابر فغير مستنكر.

فلمن أنهج إلى معرفته السبيل وأوضح بمرته الدليل الشكرُ على إبانة التعريف، ووضوح دلالة التأليف، التي لا يضل عنها إلا متضال، ولا يجهل معلومها إلا متجاهل، ولا يبور^(٢) على الله فيها إلا خاسر، ولا يجور عن قصدها إليه إلا جائر.

وإذا ثبت تأثير الأشياء كما قلنا، واستدل امرؤ عليه من حيث استدللنا، فمعلوم أن المؤثر بعيد الشبه عن مؤثره، وأن من ولي تصوير المصور متعال عن مساواة مصوره، وأنه إن قُرب من الشبه منه، أو لم يفرق بينه جل ثناؤه وبينه في كل معنى من معانيه، وفيما جل أو دق مما فيه - جعل كهو في عجزه ومقاديره، وذُلّ ضعفه وتأثيره، وعاد المؤثر مؤثراً، ومصور الأشياء مصوراً، فأثبتوا على المؤثر سمة المؤثرين، وأضافوا إلى الله تعالى ذلة تصوير المصورين، وكان في قولهم وما سلكوا من سبيلهم^(٣) المؤثر مؤثراً، ومصور الأشياء مصوراً،

(١) في (أ): وشاهد ثابت ياله لا يدفع محدثها مكين.

(٢) في (أ): ولا يثور.

(٣) في (أ): سبيلهم.

وصانعُها مصنوعاً، ومصنوعُها صانعاً، وبديعُها مبتدعاً، ومبتدعُها بديعاً. وهذا من قول القائلين ومعمد جهل الجاهلين عين متناقض المحال، ونفس متدافع الأحوال، الذي لا يقوم له في الأوهام صورة، ولا من فطر معقولات الأقوال فطرة، وفي ذلك أن تكون الأشياء موجودة لا موجودة، ومفقودة في الحال التي وجدت فيها لا مفقودة، وصار المخلوق لا مخلوقاً، والخالق في قولهم لا خالقاً، فتعالى العلي الأعلى، الذي نهج إلى معرفته سبلاً ذللاً - عما وصفه به المشبهون، وافترى في التشبيه به المفترون، ونحمده على ما عرفنا به من الفرق فيما بينه وبين جميع الخلق، ونعوذ به من جهل توحيده^(١)، ونستعينه على ما ألهمنا من شكره وتمجيده، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً.

وأما^(٢) مذهبه في العاديات وعيها لجهله بشاهدها وغائبها فغير مستنكر منه قاتله الله ولعنه، فقد تكون العاديات من العدوان والغى، وتكون العاديات من العدو والسعي، ثم لكل ما كان من ذلك وجوه شتى، يرى ما بينها من يعقل متفاوتاً. والصبح أيضاً فألوان مختلفة، وكل ما ذكر في السورة فله وجوه متصرفة، يعرفها من عرفه الله إياها، ويوجد علمها عند من جعله الله محبتها، فليقتصر من عمي عنها في عماه، فإن العمي لا يعلم الظاهر ولا يراه، فكيف يعلم خفي ما بطن من الأسرار التي جعلها الله أفضل مواهبه للأبرار؟ أو لا^(٣) فليسأل عنها، وليطلب ما خفي عليه منها عند ورثة الكتاب، الذين جعلهم الله معدن علم ما خفي فيه من الأسباب، فإنه يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُ

(١) في المطبوع: ونعوذ به من جهل ما جهل من توحيده.

(٢) في (أ): فأما.

(٣) علام عطف هذا؟ العطف على متوهم أي: إن كان يعلم فما باله يعيب ويطعن، أو لا يعلم فليسأل.. إلخ. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ [فاطر]، ولتكن مسألته منهم
للسابقين بالخيرات؛ فإن أولئك أمناء الله على سرائر الخفيات من منزل وحي
كتابه، وما فيه من خفي عجائبه، فقد سمعت قول الله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ
كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ [النحل].

فأما من لا فرق عنده بين عامي من عمي، ولا غي^(١) في العاديات من سعي،
ولا الصُّور من صَوَّر، ولا العُمَر من عَمَّر، ولا النُّور من نَوَّر، ولا الأمور من
أمور^(٢) - فحقيق أن يتعلم لسان القرآن، الذي صَوَّر والصور فيه مفترقان،
والحمد لله رب العالمين، وصلواته على محمد وآله وسلم.

وأما قوله: ثم زعموا أن الله خلق الأشياء كلها بيده لا من شيء موجود،
وزعم أن اليد لا يتوهم قبضها وبسطها إلا بعد وجود - فواعجباً لجهله بمسائله،
وزور كذبه علينا ومقاولة! ومتى - ويله - زعمنا له أن جميع ما بث من خلقه
وأرى مما ولي خَلَقَه بيده تعالى؟ إنما قيل ذلك في آدم خاصة دون غيره من
الأشياء؛ إذ تولى سبحانه صنعه بالابتداء، فلم يكن ككون بعض الأشياء من
بعض، ولم يتقدمه في خلقه^(٣) نظير من أهل الأرض، فأما نظراؤه الذين كانوا
بعد من أولاده فإنما خلقهم سبحانه بالتناسل من بعده، لا على طريق خلخته من
الابتداء، ولا بمثل مبتداه من الأشياء^(٤)، خلقاً عن غير والدين وكَداه، ومبتدعاً
لا على مثال ابتداه.

(١) في (أ): عي.

(٢) في المطبوع: أمر.

(٣) في (أ): خلخته.

(٤) لعلها: من الإنشاء، وإلا فما معنى هذا الكلام؟ مع قوله: خلقاً من غير والدين.. إلخ وهو في أولاد
آدم؟ وما إعراب: خلقاً؟ نعم، لعلها «من الإنشاء» وخلقاً مفعول مطلق أي: خلق آدم خلقاً عن غير
والدين. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

وأما قوله في قوله الله سبحانه: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة]، وزعمه أنه لا يقال: كن إلا لما هو كون، فليس -ويله ويلاً يُكْثَرُ عَوْلُهُ- مذهبنا في ذلك إلى ما توهم، ولا أنه سبحانه نطق أو تكلم، إنما ذلك للإخبار عن القوة منه والافتقار، وأنه لا يفعل ما فعل بمباشرة، وأن سبيل فعله كله سبيل قدرة، لا يعاني بكفين، ولا يستعان فيه بمعين.

فأما قوله: لأن كون شيء لا من شيء لا يقوم في الوهم له مثال، وما لا يقوم في الوهم مثاله فمحال - فإنه يقال فيه لمن قال مقالته، ورضي فيما قال منه حاله: أتزعم يا هذا أن الأشياء قديمة، ليس لبعضها على بعض عندك تَقْدِمة^(١)؟ فمن قوله: نعم قد يثبت لكلها القدم.

فيقال له: أليس إقرارك لكلها بقدمها وإثباتك للقدم في توهمها إقراراً بأنها لا من شيء، وأنها أولٌ بدي؟ والأول لا يكون أولاً إلا لغيره، ولا يثبت أولاً لتكريره، فأيهما أولى بالقيام في الوهم حدوث شيء لا من شيء متقدم أو شيء لا أول له يعلم ولا نهاية في آخره تُتوهم؟ فإن قال: شيء لا أول له ولا نهاية أولى بالتوهم منه ولاية.

قيل: فلا يكون هو أولاً^(٢) إلا وهو متوهم^(٣)، وإذا أَجَزَتْ في معنى^(٤) «لم يزل» التوهم ثبتت به حينئذ الإحاطة، ولا يحاط إلا بما له نهاية محيطة، والنهاية

(١) شكلها في (أ): تَقْدِمة.

(٢) في (أ): أولى.

(٣) ما معنى هذا الكلام؟ هذا على حسب قول ابن المقفع: إن ما لا يقوم في الوهم مثاله فمحال، وإذا أجاز ابن المقفع التوهم -الذي هو التصور- في معنى «لم يزل» ثبتت الإحاطة، ولا يحاط إلا بما له نهاية.... وما كان كذلك فليس بقديم. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٤) في (أ): في معناه.

أقطار، والقطر تحديد وافتطار.

فإن قلت: ليس نتوهمه على هذا؛ لأن هذا قد استحال، ولكننا نتوهم أنه لم يزل ولا يزال.

قيل: فأنت إنما تريد تتوهم أنك تدرك وتعلم، فلم أنكرت المحدث وإن لم تعلم له كيفية في الوهم؟ وقد ثبت معنى لم يزل غير متوهم، فقد يلزمك أن يكونا جميعاً عندك في التعجب مشتبهيْن. فإن قلت^(١): فإني أنفي يا هذا هذين الوجهين فالمسألة عليك في نفسك لازمة، والأشياء بعدد قائمة، يقال لك: أتخلو الأشياء من أن تكون حوادث أو قديمة؟ إذ الأشياء ليست إلا قديماً أو حادثاً، لا يتوهم متوهم فيها وجهاً ثالثاً.

فإن قلت: فإني^(٢) لا أدري أعلى حقائق الأشياء أم لا لحقَّت بأصحاب سوفسطا^(٣)، وفيما كان من رد الأوائل عليهم غني^(٤) كافٍ، وبيان قد تقدم منهم شافٍ، والحمد لله رب العالمين كثيراً، وصلواته على محمد وآله الذين طهرهم تطهيراً. ومما يقال إن شاء الله لمن قال: إنه لا يكون شيء لا من شيء، وإن كل ما أدركنا بالحواس كلها فأوليُّ أزلي، وهم فرق شتى متفرقة، فمنهم من يقول: إنما الحدث اجتماع وفرقة.

ومنهم من يقول: إنما هو تغير العين باختلاف ما يدخلها من التغير. ومنهم من يقول: إنما الحدث كون بعض الأشياء المختلفة المتضادة من بعض، كالأرض التي تكون من الماء، والماء الذي يكون من الأرض، ومن أجل هذا الأصل قالوا جميعاً: إن الكل مختلط بالكل، وإن الكل من الكل يكون، وإن

(١) كتب فوقها في (أ): قال.

(٢) «فإني» ساقطة من (أ).

(٣) وهي جهة لهم، وقيل: بل اسم رجل. (معراج).

(٤) في (أ): عنا.

هذا هو الحدث والكون، إلا أنه من صغر أقداره لا يوجد ولا يُحس به، وهو لا منتهى له في عدده، وإن كل ضد من الأشياء مختلط بضده، البياض بالسواد، والنامي بالجمد، والعظم باللحم، واللحم بالعظم، ليس شيء منه بخالص وحده، ويرون أن طبيعة الشيء هي الأكثر منه أو مما ضاده.

يا هؤلاء، إنه إن كان الشيء لا منتهى له في نفسه لم يعرفه أبداً عارف، وإن كان لا منتهى له في عدة أو كثرة^(١) لم يكن للكمية معارف، وإن كان لا منتهى للشيء في الصورة كانت الكيفية مجهولة، وإذا كانت الأشياء لا تعرف لأنه لا منتهى لها فما كان منها فلا يعرف أيضاً مثلها، وإنما يعرف ما يدرك ويسهل بمعرفته المسلك إذا علم من كم رُكب، وأي الأشياء هو إذ تركب^(٢)، ومضطر أن يكون ما كان من الأشياء لما منه كان نظيراً، قليلاً كان منه إذ كان أو كثيراً، وأن الذي يكون عنه كالكل إذا يكون منه.

فإن كان لا يستقيم أن يكون الحيوان ولا ما جعل الله له من الأجسام، ولا الأشجار ولا ما جعل الله له من الثمار بلا منتهى في عظم ولا صغر، ولا فيما يرى له من قدر - فكَذلك الكل عند من يعقل ذو نهاية؛ إذ هذه الأشياء التي هي أجزاء ذوات غاية، ولا يستقيم له ما لم يستقيم لأجزائه، وإنما تناهيها من قبل انتهائه.

وإن كان الحيوان والشجر وأجزاؤهما التي لحق بها في وصفها انتهاؤهما لسن حوادث مفتعلة، وإنما يريد القائل بحوادث منفصلة، وبعضها عندهم فبعض، فالماء منها هو الأرض، والأرض فهي الماء، والماء فهو الهواء - فإن ذلك يصير إلى أن كل موجود فمن موجود، والموجود فلا يصح أن يقال له: يكون ولا يعود، وكيف يكون الكائن أو يبين شيء من شيء وهو بائن؟ كقولك: إن الماء ينفصل من اللحم، واللحم ينفصل من الماء، كيف والماء فأصل موجود، وإن

(١) في (أ): في عدده أو كثره.

(٢) في (ب): ركب.

كان كل جسد ذي حد إذا خرج^(١) منه بقدره جسدٌ مثله محدود فني عندها يقيناً، وبطل أن يكون كميناً، فمعروف أنه لا يكون الكل من الكل^(٢)، ولا يخرج منه في الوزن مثلٌ له بعد مثل، كيف وقد يعلم أن الشيء إذا أخذ منه مثله فقد فني وذهب كله، وإن كان ما أخذ منه مقصراً في القدر عنه نقص منه بقدر ذلك، لا يكون الأمر فيه أبداً إلا كذلك، ولا يستقيم أن يكون لهذا الذي أخذ منه مثله قوام أبداً بلا منتهى، ولو انتقص منه مثل بعضه لكان بذلك قد تنهى الشيء الذي يدوم عظمه وينفى عنه تغيره، ولا يستقيم أن ينفصل منه أبداً غيره، ومن أجل أنه لا يبقى أبداً قدره وهو يخرج منه أجساد مثله، وبقدره في الوزن محدودة مستوية في الوزن بقدره موجودة، وهو أيضاً لا يُحد إذا حد^(٣) بكثرتها، فلا يوصف عند الصفة بصفته. وإن كان كل جسد من الأجساد إذا أخذ من بعض زنته لا بد أن ينقص من كميته، كيف ما كان في حده من كبره أو صغره، فمعلوم أنه لا ينفصل^(٤) منه أبداً جسد مثله إلا انتقصه ما فصل منه كله، وأنه لا يجوز في الباب الأصحاء ولا فيما يحمد من قضاء النصحاء - أن يكون يؤخذ من شيء شيء ثم لا ينقصه ما أخذ منه، وإذا انتقص فالنقص يخبر^(٥) بالنهاية عنه. ويقال أيضاً لهم: إن كانت الأجساد والأعراض مختلطة، وإنما يفارق بعضها بعضاً عندكم فرقة، وهي كلها في قولكم فواحدة - فالإنس والجن^(٦) بينهما

(١) في (أ): أخرج.

(٢) «من الكل» لا توجد في (أ، ب).

(٣) في (أ): إذا أخذ.

(٤) في (أ): لا يفصل.

(٥) في (أ): لا يجبر.

(٦) في (أ): فالأيس والخلق.

عندكم خلاف، والأعراض والأعيان فقد تجمعهما^(١) الأوصاف، ولا بد لهذا الخلق من رؤوس أولية مبتدعة من الله سبحانه بديّة، منها برى الله كل برية ترى من البرايا كلها بعيان، ويثبت أن تركيبها شيء أو شيئان، ولا ينبغي لهذه الرؤوس أن يكون بعضها من بعض، بل تكون متضادة تضاد النار والأرض. ويقال أيضاً: إن كانت صور الأشياء لم تزل ولا تزال، والصور فهي الألوان والهيئات والأشكال - كان قول القائل: إنه لا يمكن أن يكون شيء لا من شيء، ولا يفسد من الأشياء كلها شيء فيعود إلى التلاشي - قولاً من قائله مقبولاً، وعُد ما زعم فيه قولاً.

وإن لم تكن صور الأشياء دائمة، ولا في كل حين موجودة قائمة - أعني بالصور: صورة اللحم، وصورة الدم، وصورة العظم، وصورة الأشكال الطبيعية، والألوان كلها الظاهرة منها والخفية - فلا محالة أنها لم تكن قبل حدوثها، وأنها قد تفتن بعد حدوثها، وأن حدوثها استحالتها من ليس إلى أيس، وأن فناءها استحالتها من أيس إلى ليس، كيباض الثلج الذي يحدث عند كون الثلج معاً، ويبطل بياضه عند بطلانه فيفنيان جميعاً، وهل من فعالٍ في سكونٍ أو زوالٍ يجده واحد أو يشهد به على فاعله شاهد إلا وهو محدث كان بعد أن لم يكن، بريء من معنى لم يزل، تعلم كل بهيمة مضيّ ماضيه، وفراقها في المعنى لمنتظر آتيه، فلا يجهل أحد منهم منه ماضياً، ولا يشبه ماضٍ منه آتياً، إلا أن يزعم متجاهل أو يكابر عاقل فيقول: إن كون الحركة والسكون في حال واحدة معاً، وإن الحركات والسكون لم تزل^(٢) قط جميعاً، فيلزمه أن تكون أوقاتها كلها وقتاً، ونطق ما يُعقل ناطقاً من الأشياء سكتاً، فيعود يومه من أوقاتها أمساً، ومجنوسها عنده لنفسه جنساً، وفرعها أصلاً، وآخرها أولاً، وكفى بهذا من القول محالاً،

(١) في (أ): تجمعها.

(٢) في (أ): لم يزلن.

ومن وصف محالات القول مقالاً، إن البهائم جميعاً في اختلافها تنتظر ما لم يأتها بعد من أعلافها، فإذا وصل إليها افترقت مواقعها لديها، فما تنتظره بعد إتيان، ولا تضطرب إليه بجولان، ومن قبل ذلك ما كانت تصهل إليه وتنهق، وتضطرب إليه دائبة وتقلق، ولكن لم يعد القوم في جهلهم من ذلك لما جهلوا وضاللتهم عن حقائق الأمور عما ضلوا ما وصفهم الله به، وذكر من ضاللتهم في محكم كتابه^(١)، إذ يقول تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان]، فلم يقفهم على مواقف البهائم في الجهل ومناهيها، بل زادهم^(٢) في حكم الجهل عليها، فافهموا دلالة هذه الآية المعجبة المتحققة، وما أوجد الله سبحانه منها عياناً في هذه الفرقة، فإن وجودها فيهم ودلالة الله بها عليهم آية عظيمة عند من يعقلها في البيان، لا توجد إلا فيما ذكر سبحانه من الضالان، والحمد لله رب العالمين حمداً موفوراً، وعلى سيدنا محمد النبي وآله السلام كثيراً.

ثم جعل ابن المقفع النور الذي زعم أنه خيرٌ واحدٌ أفانين، ولونه في معناه الأولين، وجعله بعد توحيده له كثيراً لا يحصى، وعدداً جماً لا يتناهى، فقال: إنه نور وحكمة، وطيب وبهجة، وخير وبركة، وإحسان وراحة، وكذا وكذا مما لا يتناهى، وقد تعلمون أن البركة والبهجة والطيب والحسن والحكمة أشياء في العدد كثيرة، ومعانٍ لا يشك فيها متغايرة، كل واحد منها غير صاحبه، والسبب منها غير سببه، لا يشك في ذلك ولا يمتريه إلا من لا يعقل شيئاً ولا يدره.

وكذلك قال في تكثير الظلمة وما نسب إليها من الشر وخلاف الحكمة، ثم جعل كثيرها واحداً، وزعم أنه لا يكون منها خير أبداً.

أفليس يا هؤلاء الليل الأدهم وسواده الذي هو من كل ظلمة أظلم موجوداً

(١) في (أ): كتبه.

(٢) في (أ): زادوا.

فيه ما ذكر الله فيه من السكون بأوجد معارف ما يُعرف من كل كون؟ والسكون راحة، والراحة فسحة، والفسحة خير كثير، فالظلمة الآن عندهم خير، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس]، وقال الله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص].

وهل ينكر أن نور الشمس - يدرك ذلك منها بالحس - معشة لبعض العيون، ومضار في كثير من الفنون، وهو أفضل النور عندهم فضلاً، وأكثره في النور محصلاً، أو ليس قليل النهار مقصراً في النور عن كثيره، والتقصير شر، فالشر في بعض النهار بتقصيره، فأبي محال أوضح أو مقال إحالة أقبح من هذا مقالاً، ومن محاله محالاً؟ ليس بالأمر من خفاء، ولا على عورة أهله من غطاء، إلا أن عجمة القلوب وما فيها من عمه الذنوب تجول بأهلها كل مجال، وتهلك بمجالها ضعفة الرجال.

ومما قال من همهم صدره^(١) وزمازم هتره: إن الشيطان - زعم - قد بنى على كل صنف من أهل الأديان حائطاً حصيناً وسوراً شديداً حصرهم - زعم - فيه، ووكل بهم شيطانا من شياطينه وجعله عليه، فإن كان الوكيل حفظ السور فهذه أمانة، وإن لم يحفظه وكانت منه لموكله فيه خيانة كان السور كما لم يكن، ولم يبق فيه أحد ممن سجن.

فاعجبوا أيها السامعون لما تسمعون من متناقض هذا القول، الذي لا يقول مثله إلا كل منقوص مرذول، فافهموا ما به وصف شيطانه، وكيف شدد أركانه؛ إذ جعل له أسواراً وحصوناً، وجعل نوره عنده مسجوناً، وذو السجن والحصون محتال، والحيلة فلا يعرفها عنده الجهال؛ لأن المعرفة عنده خير سائر،

(١) همهم النفوس: أفكارها وما تهم به عند الريية في الأمر. والزمازم: جمع زمزمة، وهي الكلام الذي لا يفهم. والهر بالکسر: السقط من الكلام.

والجهالة شرٌّ ضارٌّ.

وقال: حصرهم، والخاصر فقويٌّ، والقوة فخير، فقد عادت الظلمة عندهم خيراً، والمحصور فعاجز، والعجز فشر، فقد عاد النور عنده شراً.

ومما يقال لهم فيما زعموا من المزاج، وجاروا به من ذلك عن كل منهاج سلكه سالك، أو فتك فيه فاتك: من أين يا هؤلاء جاء تعادي الممتزجين من المتضادة بعد أن صارا في عقدة من المزاج واحدة، كنحو معادة إنسان لإنسان، أو ضرب آخر سواء من موات أو حيوان؟ وكيف يكون من الناس - ما كانوا صلحاء - نسل غير صالح، ومن طالحهم - شيئاً كانوا أو أشياء - شيء ليس بطالح، ولا يرى صلاح أبيهم أصلحهم، ولا ما في أبيهم من الطلاح أطلحهم، ولا يكون منهما وهما اثنان ولما هو منهما أصلان إلا أنثى واحدة أو ذكر، لا يوجد لهما سواء بشر، فما بال فرعهما من ولدهما، إذاً لا يكون كأحدهما: إما أنثى مفرداً أو ذكراً أبداً، فلو كان الأمر على ما يزعمون أو في شيء من طريق ما يتوهمون كان ولدهما ذكراً أنثى، وأنثى ذكراً؛ إذ كان عندهم إنما يكون كل شيء من مثله، وكل فرع شيء زعموا كأصله، والوالدان لولدهما أصل، وكل شيء فإنما يكون منه ما هو له مثل، والمزاج نفسه فثمرة لا من مثلها، وعقدة المزاج فليست كأصلها؛ إذ أصلها اثنان وهي واحدة، وإذ هما لها أصل وهي لهما عقدة، فأى مكابرة أوحش أو محال قول أفحش مما أدى إلى مثل هذا، وما كان من القول هكذا؟

فليعلموا ويلهم أن الله هو الذي صنع الأولاد للآباء، وأنه لا يصنع الأكفاء الأكفاء، ولكن الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. وكيف يصنع والدٌ ولداً وإنما كان بالأمس مولوداً؟ إذاً يكون الوالد من صنع ولده، كما الولد من صنع والده؛ لأنها كفوان في الميلاد، وولدان كالأولاد،

ولكن ذلك كما قال الله لا شريك له، وما بينه في كتابه^(١) ونزله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا لَهُ وَهَّابٌ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَا لَهُ عَاقِبٌ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝﴾ [الشورى].

ويقال إن شاء الله لهم: من الناطق؟ الظلمة؟ فالمنطق خلاف الخرس، وهو خير زعمتم، أم النور والظلمة جميعاً؟ فقد استويا في النطق، والاستواء تشابه كما علمتم، أم الناطق النور؟ فالمنطق خير وشرور، والشر إذا فهو في نوركم، ويلكم ما أبين في هذا شناعة أموركم، وأشد مجونكم، وأعظم جنونكم، وأظهر السفه به وبغيره فيكم، وأغلب الدناءة فيه عليكم.

وزعموا أنها حساسان، فهما لا محالة في الحس مشتبهان، ومشبه الشر لا يكون إلا شراً مؤذياً أليماً، ومشبه النور لا يكون عندهم إلا نوراً كريماً، وفي مشابهة النور بالحس للظلمة نفي ألا تكون خيراً، وفي مشابهة الشر للنور بالحس نفي أن لا يكون شراً، فكل منهما^(٢) خيرٌ وشرٌ، وشرٌ وخيرٌ، وهو من القول فأحول ما يكون من المحال، وأخبت ما قيل به في الإحالة من الأقوال.

ومن قولهم: أن الأشياء لا تتغير عن جواهرها، وقد يرون أنها تتغير عن صورها، فصورة النور مؤنسة مضيئة، وصورة الظلمة موحشة ظلمية، فإذا ما هما امتزجا عوين مزاجهما بصورة في المزاج أخرى ليست بما كان يرى، لا مؤنساً مضيئاً، ولا موحشاً ظلمياً، فمن أين كانت هذه الصورة الثالثة إلا أن الأمور حادثة؟ ولكن القوم يلعبون بنفوسهم، ويقولون بخلاف ما يجدون من محسوسهم، وليس ببديع^(٣) ممن جسر على قول الزور والبهتان أن يحدد بلسانه ما

(١) في (أ): من كتابه.

(٢) في (أ): فكل خير منهما.

(٣) في (أ): ببديع.

يدركه بشواهد العيان، فيزعم أن الرطب يبس، وعشر العدد خمس، وإنما التبيان في الحقائق الموجودة ما يدرك منها بشواهد المشهود.

وزعموا أن الشيء لا يكون منه أبداً إلا مثل جوهره مجتمعاً ومفرداً، وشأن النور العلو والارتفاع، وشأن الظلمة السفول والانتضاع. وكذلك شأن كل ضدين متى وجدا متضادين، متى علا هذا هوى ذا، فهو أبداً يهوي إذا ضده سما، ويسمو إذا ضده هوى، وفي فراق الشيء لشأنه حقيقة فناءه وبطلانه، كالنار التي من شأنها التسخين، واللين الذي لا يكون إلا وله تلين، فمتى بطل شأنهما بطلت لا بد عيناهما؛ لأنه لا حار إلا مسخن، ولا لين أبداً إلا ملين.

وقد زعموا أن النور قد زال عن داره من العلى وصار إلى هذه الأرض السفلى، وفي ذلك من تغيره ما قد قيل من بطلان عينه. وكذلك الظلمة في بطلانها إذا صارت إلى خلاف شأنها، فصارت في منزلها سفلاً إلى ارتفاع ومعتلى، فهما في قولهم قد بطلا، وقد يوجدان بالعيان علواً وسفلاً، وهذا نفس متناقض المحال، وعين متدافع الأحوال؛ إذ في أن يبطلا فقدانهما، وفي أن يوجد بطلانهما، فعدمهما وجود، وغيبتهما^(١) شهود، فأى عجب أعجب ومتلعب ألعب ممن رضي بهذا قولاً، وكان بمثله معتلاً؟ وفي هذا من أمرهم وما أوجدنا فيه من ذكرهم كفايةً للناظر المبصر، بل قد يكتفي به غير المفكر، والحمد لله حمداً دائماً مقيماً، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً.

فأما خرافات أحاديثهم وترهات أعايشتهم فهزل ليس فيه جد، ولا مما يجب له رد^(٢)، ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة]. وبأي متلعب قاتلهم الله يتلعبون؟ ألم يروا أسماءهم التي يسمون وما منها لا غيره يعظمون، فمنها عندهم: أبو العظمة، وأم الحياة المتنسمة، وحيب الأنوار،

(١) في (أ): وغيبهما.

(٢) في (أ): له به رد.

وحراس الخنادق والأسوار، والبشير والمنير، والإنسان القديم، وما ذكروا من الأراكنة^(١) التي عليهم بها من الله ألعن اللعنة، وما قالوا من عمود الشبح التي بها وبقولهم فيها أقبح ما يستقبح، وأكذب أكاذيب الزور، وأعجب عجائب ما وصفوا من الظلمة والنور، فزعموا أن أسماءهم هذه التي افترروا وفننوا فيها بأعبائهم وكثروا هي رد الظلمة - زعموا - عن النور، أفلا ردت عن أنفسها ما هي فيه من الشرور؟!

وزعموا أن هؤلاء لأجزاء النور مصطفىون، وهم في أنفسهم بالظلمة مختلطون، فيا ويلهم ويا ويلاً من أقاويلهم قليلاً قليلاً في أبي عظمتهم، وأم حياتهم، وحبيب أنوارهم، وبشيرهم ومنيرهم، وعمود شبحهم وإنسانهم، وما يعبثون فيه من أركانهم^(٢)، فعظموا منها غير ما معني، وسموها كذباً بالأسماء الحسنی، وهم يزعمون عنها ويلهم أنها مخالطة في حال للأقذار^(٣)، ملتبسة فيما زعموا بالأشرار، تنكح في بعض الأحيان نكاحاً، وتؤكل في بعضها صراحاً، وتسقم تارة وتُحدث، ثم تقيم في ذلك وتمكث، فيالعباد الله، إن هذا هو العبث العابث، والمقال الفاسد العايث، الذي لم يقل بمثله سوى أهله قط قائل، ولم يسأل فيه بمثل عجز مسائل ابن المقفع سائل، ولقد ويله أكثر في المسألة - والمسألة لا تكثر - وطغى، حتى هممنا أن لا نجيبه لولا مخافة أن يكون على ذلك المحق^(٤) مُتَّبِعاً، وذلك لجهله بما سقط إلينا من مسائله وخلط من قوله، ولكذبه أيضاً فيما ينحل ويتحل، وكثرة ما يختلف في كل مسألة ويتقل، وما أحسبه جالس قط متكلياً، ولا أحسن لمسائله تفهماً.

(١) الأركون بالضم: الدهقان العظيم.

(٢) في (أ): أركانهم.

(٣) في (أ): الأقذار.

(٤) المحق: النقص والمحو والإبطال. (نهاية).

فليعلم من قرأ كتابنا هذا وفهم ما فيه لهم جوابنا إن هو كان من غيرهم عمن مذهبهم وصممهم، وإن كان ممن تلبس بضاللتهم فليحذر غير الله ونقمه، فلقد قذفوا قذفاً، مسخاً وخسفاً، وكادت السماوات أن يتفطرن، وشوامخ الجبال أن تخر بدون ما قالوا، ولأصغر أضعافاً مما نالوا؛ لأن الذين قالوا قبلهم الأقوال وجعلوا لله سبحانه الأمثال أثبتوه سبحانه ولم ينفوا، وأن هؤلاء أنكروا ونفوا، فلا يغترنَّ منهم مؤخرٌ في الجزء بما يرى من استدراجه بالإملاء، فإن الله يقول لا شريك له، وتعالى عن كذب الكاذبين قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثْمِلُ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثْمِلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [١٧] ﴿إِنَّمَا نُمَلِّهِمْ أَجَلًا ضَافًا مَّا نُمَلِّهِمْ إِلَّا لِيَظَاهِرَ أَنَّهُمْ نَادُونَ وَلِيَآخِذَ بِنِغْمَتِهِمْ فَانْطَبَؤُا فِيهَا وَلِيُوْثِقَ أَعْقَابَهُمْ لِيَخْلُؤُنَا فِيهَا وَنَكْنُقَ عُيُونَهُمْ فَانْطَبَؤُا فِيهَا وَنَكْنُقَ أَصْفَادَهُمْ فَهُمْ فِيهَا مَحْضُوحُونَ﴾ [١٨]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [١٩] ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [٢٠] ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّن رَّوَالٍ﴾ [٢١] ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [٢٢] [إبراهيم].

فإن قال قائل منهم: تحذرنى النار، وتخبرني عن كتابه الأخبار، ولست بهما بموقن، ولا لخبره^(١) عنهما بمؤمن - فليعلم أن أقل ما عليه فيما أُنذر، وفيما يعقل من يعقل فيما حُدِّر خوف الممكن المظنون؛ إذ كان ما حُدِّر غير مستنكر أن يكون، وإن الناس لو كانوا لا يحذرون إلا ما يعلمه من حذروه، ولا ينذر

(١) كأنها في (أ): بخبره.

المنذرون قوماً إلا ما عاينوه وأبصروه - لَقَلَّتِ النُّذُرُ، وفني الحذر، وإنه لو حُذِرَ جباراً بل إنساناً ذليلاً لارتاع له ارتياعاً، ولاستشعر من الخوف لتحذيره - وهو هو - أفزاعاً، فكيف بملك الملوك، ومن له ملك كل مملوك، ذلك الله العلي الجبار، الذي بإرادته كانت الظُّلُم والأُنوار، والسلام على من اتبع الهدى، وأثر رضا الرب الأعلى، فرضي من الأشياء مرتضاه، واصطفى من الأمور مصطفاه، فأدى إليه سبحانه في نفسه حقه، وعلم أنه هو الذي فطره وأحسن خلقه، وأنه له عليه فرضاً واجباً أن يكون لما أحبَّ محباً، ومن كل ما كره من الأمور قَصِيّاً، ولمن عادي من خلقه ولياً، ولمن عادي سبحانه من أهل الأرض عدواً، فإنه لا يعادي سبحانه إلا مسيئاً أو سُوءاً، والحمد لله رب العالمين كثيراً، وصلواته على محمد وآله الذين طهرهم تطهيراً.

أتم الرد على ابن المقفع، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله

بكراً وأصيلاً^(١)

(١) ما بين المعقوفين غير موجود في (أ).

الرد على النصارى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي لم يزل ولا يزال، وله الكبرياء بدياً والجلال، البري من كل تغير وزوال، وتبدل وحركة وانتقال، أو فناء أو احتيال، المتعالي عن أن يكون لشيء أصلاً متأصلاً، أو عنصراً من عناصر الأشياء كلها متحللاً، فيكون كواحد منها، أو كما بان من فروعها عنها، فكثر من قلته بتفرع بعد قلة، أو عز بكثرتة بتجمع من ذلة، ولو أن ذلك كان فيه كذلك لعاد غيره له ندأً ومثلاً؛ إذ كان له سبحانه محتداً^(١) وأصلاً، ولكان حيثنذ لكل ما كان منه ووجد من فروع وعنه ما كان من التوالد له؛ إذ كان المتولد منه مثله.

وكذلك يوجد لكل فرع كان من أصل ما يوجد لأصله من التوالد مثلاً بمثل، كفروع ما يرى من الأشياء كلها، التي يتولد يقينا عياناً من نسلها مثل ما يتولد غير مرية من أصلها، كما يرى من ولادة الأبناء لمثل ما يتولد من الآباء، سواء ذلك كله سواء.

وكذلك ما يرى من متولد الشجر وغير الشجر، فكالأنثى في ذلك أجمع والذكر، يتولد في ذلك كله من أولاده ما يتولد سواء من والده، فكل شيء أبداً كان ممكناً في أصلٍ ووالدٍ كون وجوده فمثله ممكن سواء في نسله ومولوده، لا يمتنع مما قلنا به في ذلك وقبوله إلا مكابر في ذلك لعلمه ومعقوله. ولذلك وما فيه من الإمكان، وما يدخل به على أهله من النقصان - ما تقدس الله عنه، وجل وتطهر منه، فلم تمكن فيه منه سبحانه ممكنة في فكر ولا مقال، وكان القول عليه جل جلاله بذلك أحول محال؛ إذ في أن يكون شيء له ولداً، أو أن يكون لشيء أصلاً ومحتداً، إبطال الإلهية والربوبية، وزوال الأزلية والوحدانية، وإذ لا يكون واحداً من كان له ولد أبداً، ولا يكون أزلياً من كان والداً أو أباً؛ لأن الابن ليس

(١) المحتد: الأصل. (صحيح).

لأبيه رب، وكذلك الرب فليس لمربوب بأب؛ إذ كان الابن في الذات هو مثله فكلاهما من الربوبية قاصي متباعد، إذ ليس منهما من هو بها متفرد متوحد؛ لأن الربوبية لا تمكن أبداً إلا لواحد ليس بأصل لشيء ولا ولد ولا والد.

ولكل ولد في ذاته ما للوالد من صفاته، وكذلك والده فله في الذات مثل ما للولد في ذلك من الصفات، كالإنسانية التي للابن منها ما لأمه وأبيه، وفي الأبوين منها ومن كمالاتها مثل ما فيه، فليس له من الإنسانية وحدودها، ولا مما يوجد فيه وفيهما من موجودها - أكثر مما لهما منها، وكل واحد منهما فغير مقصر عنها، ولتتامها جميعاً فيها وفطرة الله لهما عليها كان الابن ولدا لهما ونسلا، وكانا له محتداً^(١) وأصلاً، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه لعيسى صلوات الله عليه ورضوانه، فيما نزل من الكتاب، في يوم البعث والحساب؛ توقيفا وتعريفا له وللعباد على أنه قد يجب للوالد في الذات ما يجب للأولاد، وتوبيخاً لمن أفرد دون أمه في العبودية والإلهية وحالهما في الذات حال واحدة مستوية، فعبوده عماية وجهلاً دونها، وهم يعلمون أنه ابنها ومنها، ويوقنون ولا^(٢) يشكون أن أباهما أبوه، فهي وآباؤها أولى منه بما أعطوه؛ إذ كان لولا وجودهم لم يوجد، ولولا ولادتهم له لم يولد.

فكيف يعبدونه دونهم ولم يكن قط إلا منهم؟ فهو في الذات كهم، إلا أن يفرقوا بينه وبينهم بحال يخصونه بها دونهم، أو بغير ذلك من فعل من الأفعال هو سوى ما يجمعهم وإياه في الذات من الحال، فكيف وذلك غير قولهم وما يبنون عليه من أصلهم؟

فاسمعوا لقول الله في ذلك وبيانه، وما بين فيه جل جلاله من تفصيله

(١) في (ب): وكانا له بها محتداً.

(٢) في (ب): فلا يشكون.

وفرقانه، إذ يقول له صلى الله عليه في ذلك من غير^(١) ما سخطه منه عليه فيه ولا لوم: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة]، فسبح الله جل جلاله إكباراً له عن أن يقول في ذلك على الله علام ما كان وما يكون من الغيوب بقول إفاك مفترئ مكذوب، لا يصح فيه أبداً قول في فطرة، ولا يقوم في سليم من عقل ولا فكرة.

وقال صلى الله عليه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة]، فأنبأهم صلى الله عليه أنه عبد له كما هم كلهم جميعاً عبده، وأخبر الله سبحانه من قوله في ذلك بما لا تنكره النصارى كلها وإن اختلفت في أديانها وفرقتها البلدان في كل مفترق من أوطانها؛ لما رأوا منه عياناً وأيقنوه من غاب منهم إيقاناً من عبادته ﷺ، واجتهاده في طاعة الله، وكان فيما عاينوا من مشابهته لهم في الخلقة دليل مبين على أنه عبد لله، يجري عليه من حكم الله في أنه عبد لله ما جرى عليهم بما بان من أثر تدبير الله وصنعه فيه وفيهم.

وفيماء قلنا من ذلك ومثله وفي أن الفرع من الشيء له ما لأصله ما يقول الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف]، يخبر جل جلاله عن أنه قد يجب للولد ما يجب للوالدين^(٢) في كل ما يجب لهم بالطبيعة والذات، لا فيما يجب من ذلك بالأعراض المحدثات.

(١) في (أ): عن غير.

(٢) في (ب): للوالد.

ولو كان عيسى صلى الله عليه كما قالوا رباً وإلهاً، وعن أنه عبدٌ أو صنعٌ^(١) منزهاً- لكان لأمه من ذلك ما له، إذ كانت في الذات مثله، بل لكان ينبغي لمن ولده أن يكون أعلى من ذلك منزلة منه، إذ كان وجوده صلى الله عليه به وعنه.

وليس أحد من النصارى يثبت لمريم ما يثبت لابنها من الإلهية، بل كلهم يقول: إنها أمة من إماء الله محدثة غير قديمة ولا أزلية، وقد يلزمهم صاغرین فيها من إضافة الإلهية إليها ما قال الله تبارك وتعالى فيها^(٢)؛ إذ الحكم واقع بالاشتباه^(٣) في الذات عليها^(٤)، فهي في ذلك كله كولدها؛ إذ روحه من روحها وجسده من جسدها.

فإن لم يكن ذلك فيها كذلك زالت البنية عنه منها، وزال أن تكون له أما عنها، فلم تكن له أما ولم يكن لها ابناً؛ إذ لم تكن إلا موضعاً له ومكاناً، إلا أن يجعلوا الأماكن أمهات لما كان فيها فيقع ما قالوا من أنها أم له عليها. فأما إن جعلوها من طريق ما يعقل أما له فقد جعلوها في الطبيعة لا محالة مثله.

وإذا كان ذلك فيهما كذلك جعلوه صاغرین كأمه إنساناً لا رباً ولا إلهاً، وكان الناس كلهم -إذ هو مثلهم في ذلك- له أمثلاً وأشبههاها، لا افتراق بينه وبينهم في الإنسانية، ولا تفاوت بينه وبين جميعهم^(٥) في الجنسية، ولذلك كان يطعم صلى الله عليه كما يطعمون، ويألم مما يؤلمهم كما يألمون، ويقيمه كما يقيمهم الشراب والطعام، ويعرض له الحزن والغموم والاهتمام.

(١) في المطبوع: أو صنع معظماً في ذاته منزهاً.. إلخ.

(٢) في (ب): فيها.

(٣) في (أ): في الاشتباه.

(٤) في (ب): عليها.

(٥) في (أ، ب): بينه وبينهم.

والنصارى كلها فقد تقرر بطعمه وحزنه واغتمامه، وتحمده بما كان من صبره وآلامه، التي كانت وصلت إليه عندهم في الضرب والصلب، وما كان يلقي في سياحته وأمره ونبيه من الدؤب^(١) والتعب، وفيما جعل الله من طعمه وأكله من الآيات البينة الجليلة ما يبطل ما قالت به النصارى فيه من الأقوال الكاذبة المفترية الردية، وفي نسبة الله له المعقولة في الدنيا والآخرة إلى أمه ما يدل - والحمد لله - من رشد على أنها من أصله وجرمه، وأنه في ذلك كله كمثله؛ إذ هو منها ومن نسلها، آباؤها آباؤه، وغذاؤها غذاؤه.

فليفهم هذا من أمره وأمرها، وعند ذكره في النسب وذكرها - من يفهم ويعقل، ولا يتجاهل منه ما لا يحفل. وليعلم أن قول الله سبحانه كثير^(٢) في كتابه: ابن مريم، وترديده في ذلك لذكره بها صلى الله عليه وسلم، فيه من يقين الثلج، وغوالب الحجاج، التي يثلج بها كل قلب، ويغلب فلا يعلى بغلب، إذ تقرر من ولادتها له ما لا ينكره من النصارى ولا غيرها منكر، ولا يتحير فيه من كل من عرفه بها ولا بما كان له من ولادتها متحير، إذ جعله الله سبحانه ابنها، وجوده منها وعنهما، منها كونه وفصوله، وأصولها كلها أصوله، وكل ما لزم فرع شيء من تغيير أو فناء لزم أصله، وكذلك كل ما كان من ذلك للأصل فهو له، لا يأبى ذلك ولا يكابر إلا فاسد العقل حائره.

وفيما قلنا به - والحمد لله - من ذلك، - وأن عيسى صلى الله عليه كذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ١٥]، فأي آية أدل لهم على أنه مثلهم من أكله للطعام لو كانوا يعقلون؟ فلقد جهلوا من هذا - ويلهم - ما لم يجهل قوم نوح إذ يقولون: ﴿مَا

(١) في (ب): والدؤب.

(٢) لعلها: كثيراً.

هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴿٣٨﴾ [المؤمنون].

ومن قبل ما قالت به النصارى في المسيح بن مريم ما قال بمثل قولهم المشركون، فزعموا أن ملائكة الله المقربين ولدُ وبنات الله رب العالمين.

ومنهم من^(١) قبلت النصارى أقوالها، وحذت في الإشراف بالله منهم مثالها، وهو قول كان يقول به في الأوائل الروم والقبط وأهل الجاهلية، من كان يقول في النجوم السبعة بتثبيت الربوبية لها والإلهية، وكانوا يزعمون أن النجوم السبعة ملائكة لله ناطقة، وأنها آلهة مع الله لما تم بها كونه خالقة، وأن الله سبحانه صنعهم منه صنعاً، ولم يبتدعهم لا من شيء بدعاً، فلما أكملهم تبارك وتعالى وتم تمامهم كلهم^(٢) به وعنه قال هن: أنتن آلهة الإلهية، بِكُنَّ عقد كل معقود وحل كل محلول.

وزعموا أن بهن وعنهن كانت من الحيوان المايث^(٣) جعله كل مجعول، بهن كان وجوده وقوامه، ومنهن كان صنعه وتمامه، وأنهن علة واسطة بين الله وبين الأشياء، وأن الله الصانع هن ولغيرهن^(٤) بهن ما بث الأحياء، وكان الله لا شريك له إله الآلهة العلى الذي لا يمثلونه بشيء، والأول القديم الذي لم يزل تبارك وتعالى من غير أول ولا بدي، وأنه هو المبتدئ الصانع للنجوم السبعة،

(١) في (أ، ب): ما.

(٢) في (أ، ب): كُنَّ كلهن.

(٣) في (أ): المائئة.

(٤) هل هذا من قول المشركين أو رد عليهم؟ وما معنى قوله ﷺ: «وأن الله الصانع هن ولغيرهن بهن ما بث الأحياء»؟ هو من كلام المشركين، وقولهم: «ولغيرهن» يراد أنه يوجد أجرام عظام خلقها الله ليست آلهة. «بهن ما»: مصدرية، أي: بهن بث الأشياء. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

المتعالي عن مشابهة كل مصنوع كان أو يكون وكل صنعة.

وكذلك قالت النصارى: إن الله خلق الأشياء بآبئه^(١) نفسه، وحفظها ودبرها بروح قدسه، وإن الابن خلق الخلق وفطره، وإن روح القدس حفظ الخلق ودبره، وزعموا أن قوة الخلق غير قوة الحفظ والتدبير، وأن الأب لم ينفرد من ذلك كله بقليل ولا بكثير، وأن حال الأب والابن وروح القدس في الإلهية واحدة، وأن عبادة كل واحد منهم عليهم واجبة.

وكذلك زعم المشركون من أصحاب النجوم أن الله خلق الحيوان الميت ودبره بالنجوم السبعة، وأن بهن وبها جعل الله سبحانه من القوة فيهن كانت من ذلك كل بريته وكل صنعه^(٢)، فأقوالهم كلهم في أن الله ولدا واحدة غير مفترقة^(٣)، وفريتهم جميعا في ذلك على الله فكاذبة غير مصدقة؛ إذ شبهوا بالله غيره، فجعلوه ولده ونظيره.

[القول بالولادة والمساواة يستلزم إبطال الإلهية]

وفي القول بالولادة^(٤) والاشتباه إبطال من قائله لكل إله؛ لأنها إذا تماثلا واشتبهتا لم يكن كل واحد منهما إلهاً، لأنه لا يقدر مع تشابههما أحدهما على إبطال الآخر، وإذا لم يقدر على إبطاله كان عاجزاً غير قادر، ومن كان عن شيء من الأشياء كلها عاجزاً كان عاجزاً له عن الربوبية والإلهية عاجزاً.

وإن قال قائل: كان كل واحد منهما قادراً على إبطال نظيره - ففي ذلك أدل الدلائل على نقص كل واحد منهما وتقصيره، وإذا كان كل واحد منهما منقوصاً مقصراً لَمْ يَكُنْ من الأشياء كلها لشيء صانعاً مدبراً، ليس له كفو من الأشياء

(١) في (أ): بآبئة.

(٢) في (ب): كل برية وكل صنعة.

(٣) في (ب): متفرقة.

(٤) في (أ، ب): في الولادة.

كلها ولا مثل ولا نظير، ولم يُوجد في السماء ولا في الأرض ولا فيما بينهما صنع ولا تدبير، والصنع فقد يرى بالعيان في ذلك كله قائما موجودا، فكفى بذلك دليلا بينا على أن لهذا الصنع العجيب صانعا لا والدأ ولا مولودا.

ووجود صانعه أبين وأوجد من وجود كل موجود وجودا، وأنه واحد صمد ليس والدأ ولا مولودا، ولن يجد ذلك واحد أبدا إلا الله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يزل تبارك وتعالى واحدا صمداً، ليس من ورائه أزلي مصمود، ولا أولي من الأشياء موجود، فيكون متقدماً أولاً قبله، فلا يكون الله هو الخالق له، بل هو الله الخالق الأول القديم، الذي ليس لغيره عليه أولية ولا تقديم، ولكن كل ما سواه فخلق ابتدعه وأبداه، فوجد بالله خلقا بديا بعد عدمه، برياً من مشاركة الله في قدرته وقدمه، بينة آثار الصنع والتدبير فيه، شاهدة أقطاره بالحدث والصنع عليه، مختلف مؤلف، ضعيف مصرف، مجسم محدود، ومتوهم معدود، قد ناهاه قطره وحده، وأحصاه مقداره وعده، فهو كثير أشتات، له نعوت وصفات كثيرة متفاوتات، كذلك الحيوان منه والموات.

فليس يوجد أبدا الواحد الأزلي الذي ليس له مثل ولا نظير ولا كفي إلا الله تقدست أسماؤه، وجل ذكره وثناؤه. وفي ذلك وبيانه، ومن حججه وبرهانه، ما يقول الله - جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله - فيما نزل من كتابه المجيد في سورة الإخلاص والتوحيد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، والأحد: فمن ليس له والد ولا ولد، ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢]، والصمد: فهو الغاية في كل خير والمعتمد، الذي ليس من ورائه من يسمى بأسمائه فيستحق منها كما استحق الله شيئاً، فيكون لله فيما يسمى به منها كفاً، كما قال سبحانه في كتابه، وما نزل من البيان به على عباده، فيما كان الله (١) تبارك وتعالى من أسمائه الحسنى متسمياً:

(١) في (ب): لله.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم].

وفيا نزل سبحانه من أنه ليس له كفؤ ولا نظير ما يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، و ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام].

وفي أنه ليس له شبيه ولا مثل ولا كفي ولا بدي ما يقول الله سبحانه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الأنعام] وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ [الإخلاص]، وكيف يولد من لم يزل واحداً أولاً؟! أو يلد من جل أن يكون عنصراً متخللاً؟ لا كيف والحمد لله أبداً يكون الله والدأ أو ولدأ؟ فنحمد الله على ما من به علينا في ذلك من البيان والهدى، ونعوذ بالله في الدين والدنيا من الضلالة والردى.

فليسمع من قال بالولد على الله من كل من أشرك فيه بالله من اليهود والنصارى والملل الباقية الأخرى - حجج الله المنيرة في ذلك عليهم، ففي أقل من ذلك بمن الله ما يشفيهم من سقم كل عصى عارضهم فيه أو داء، ويكفيهم في كل قصد أرادوه أو اهتداء^(١)، ففي ذلك ما يقول الله سبحانه لهم كلهم جميعاً، ولكل من كان من غيرهم لقوله فيه سميعاً، ممن لم يعم عن قول الله فيه عماهم، ولم يعتد على الله فيه اعتداءهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦]، فقال الله إكباراً لقولهم فيه ورداً: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١٧] بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧﴾ [البقرة].

وفي ذلك وتبيينه، وفي افترائهم فيه بعينه ما يقول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

(١) في (أ): واهتداء.

يَصْفُونَ ﴿١٣﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً
وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٥﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ
يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٦﴾ [الأنعام]، ومعنى خرقوا فهو: افتروا
واخترقوا باطلاً وبهتاناً، وعماية وجهلاً وطغياناً.

وتأويل {سبحان} ومعناها -فليعرف ذلك من قراها- إنما هو بعدان الله (١)
وتعالیه عما قالوا به من اتخاذ الولد فيه، وقول القائل: سبحان إنما معناه: بعدان،
كما يقال: بينك وبين ما تريد سَبْحٌ يا هذا بعيد، فالسبح هو البعيد الممتنع، والأمر
المتعالی المرتفع.

فما الذي هو أَمْنَعُ (٢) وأبعد من أن يكون الله والداً أو يولد؟ وهذا فهو قول
متناقض، محال داحض، لا يقوم أبداً في فكرة ولا وهم، ولا يصح به كلام من
متكلم.

ولذلك من محاله وتناقضه وإبطاله ما يقول الله سبحانه تعالياً عن قولهم
وبعداً: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦]، والمتخذ عند كل أحد فهو
المستحدث (٣) المصطنع، وما اتَّخَذَ فاصْطُنِعَ فهو يقينا المحدث المبتدع، والوالد
كما قد بينا في صدر هذا الكتاب كالمولود فيما لهما بالذات والطبيعة من الخاصية

(١) في نسخة: بُعِدَ الله.

(٢) ما معنى (أمنع) هنا؟ ومم اشتقت؟ المعنى: أن العقل يمنع تصديق أن يكون الله والداً أو ولدأ
ويحيل ذلك ويأباه أشد الإباء. وأمنع: مشتقة من المنع، يقال: منع يمنع منعاً، وكان الإمام يتكلم
هنا باصطلاح أهل الجدل والمنطق فهم يقولون: هذه القضية ممنوعة، وهذه القضية مسلمة، ثم
يعقبون بدليل المنع، وهنا عقب الإمام المنع بدليله وهو التناقض.. إلخ. (من خط السيد العلامة
المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٣) في (أ): المحدث.

والحدود، فجعلوا الإله البديع كالمبدوع، والرب الصانع للأشياء كالمصنوع، وكلهم يزعم أن الله صانع غير مصنوع، ومبتدع لجميع البدائع غير مبدوع. وإذا (١) صح أن السماوات والأرض وما فيهن لله، وأن قيام ذلك ووجوده وصنعه بالله، وما قضى من أمر فإنما قضاؤه له بأن يبتدع صنعه وفعله لا ينصب ولا علاج، ولا أداة ولا معاناة ولا احتياج، ولكنه يَتِمُّ كونه وصنعه إذا هو أراد وشاءه.

وإذا قيل: أمر الله في خلقه وقضى فإنما هو من الله بمعنى أراد وشاء، وما ذكر من قنوت الأشياء لله فإنما هو قيامها ووجودها بالله، وتأويل قوله: ﴿لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم] إنما هو كل به ومن أجله كائنون، وسواء في هذا الباب وفيما ذكر منه في الكتاب قلت: له وبه ومن أجله (٢)، وكما يقال: فعلت ذلك بك ولك، وكذلك يقال: فعلت بك ومن أجلك.

ولما أن صح بأحق الحقائق وأوجد ما يكون من الوثائق أن السماوات والأرض ومن فيهن لا تكون أبداً إلا من واحد صح أن ذلك لا يكون أبداً من مولود ولا والد، فكان القول - مع صحة هذا ونحوه وأمثاله - بما قالوا به في الولد من أخبث القول وأحول محاله، وأي تناقض في مقال يقال أقبح أو محال بتناقض فاحش أوضح من قولهم: اتخذ الله ولداً؟ فجعلوا الولد مُتَّخِذاً مولوداً، وهم يقولون مع قولهم لذلك: إن الولد لم يزل قديماً موجوداً، لم يفقد قط ولم يزل، ولم يتغير حاله ولم يتبدل، فمن أين يكون مع هذا القول منهما ولد ووالد وأمرهما جميعاً في القدم والأزلية واحداً؟ وكيف يكون متخذاً خِذْناً (٣) من لم يزل

(١) أين جواب الشرط؟ جواب الشرط مقدر، أي: بطل أن يكون له ولد؛ للمنافاة بين الملك والولد. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) لعلها: له أو به أو من أجله.

(٣) الخذن: الصديق في السر، والجمع أخذان، مثل حمل وأحبال. (مصباح).

موجوداً قديماً؟ وإنما يكون المتخذ المستحدث من كان قبل أن يتخذ مفقوداً عديماً. فقالوا جميعاً كلهم: هو ابنه وولده، ثم زعموا مع ذلك أنه ابنه يسبحه ويعبده، والمولود عندهم في الإلهية والأزلية كالوالد، فصيروا الرب المعبود في ذلك كله كالمربوب العابد، فهل وراء ما قالوا به من التناقض في ذلك على الرب من مزيد في تناقض أو محال أو إبطال أو إفساد^(١) أو كذب يقول به قائل مناقض محيل، أو يضل في مثله إلا تائه ضليل، قد عظم في المحال والتناقض إسرافه، وقل في المقال بالباطل لنفسه إنصافه، فهو يلعب في حيرته ساهياً، ويخوض في غمرته لاهياً؟

وفيه - والحمد لله - وفي أمثاله ممن قال على الله بمقاله ما يقول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ [الزخرف]، وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ [سبا].

وفي إحالة قول من قال بالولد من أهل الكتاب ومن كل ملحد ما يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ ﴿٨٦﴾ تَكَاذُ السَّمَوَاتِ يَتَّقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿٨٧﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿٨٩﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ﴿٩٠﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ ﴿٩١﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ ﴿٩٢﴾ [مريم]، والإد من الأمور والأقاول فما امتنع إمكانه في العقول فلم يطلق له أحد احتمالاً، وكان في نفسه فاسداً محالاً، وهو كما قال الله سبحانه: ما لا ينبغي، وذلك فما ليس بممكن ولا متأتى.

(١) في (ب): فساد.

فأي ممتنع من الأمور أبعد إمكاناً مما قالوا به في الولد على الله بهتاناً؟ وهل تمكن السماوات^(١) والأرض في عقل أو لب أن تكون من ابن أبداً أو أب؟ وهل الابن إلا كالأبناء؟ وكذلك الأب فكالأباء، فإن لم يكن كهم زال أن يكون أباً أو ابناً، ولم يكن ذلك أبداً في الأوهام ممكناً؛ لأنه إن لم يكن أب وابن كأب وابن في الأبوة والبنوة مثله زالت الأبوة والبنوة واسمها كلها عنه، وإن كان الابن للابن مثلاً كان مثله خلقاً مجتبلاً^(٢). ومتى^(٣) جعلوا المسيح ابناً وولداً كان مثل الأبناء لله عبداً مخلوقاً متعبداً، ومتى أنكروا أنه كغيره من الأبناء عبداً لله أنكروا صاغرين أن يكون كما قالوا ابناً لله، أفليس هذا من القول هو المحال بعينه وما لا يحتاج أحد يعقل إلى تبينه؟

إذ يثبتون من ذلك في حال واحدة ما ينفون، وينفون من مقالم فيه في حال واحدة ما يثبتون.

والله تبارك وتعالى من الحجة والرد في كتابه على من قال عليه بالولد ما يكثر بمن الله عن أن نحصيه أو نعدده، أو يدرك مدرك سوى الله أمده، وكفى بما ذكرنا -والحمد لله- حجة ورداً على من زعم أن الله تبارك وتعالى ولداً من فرق النصارى واليهود، وأهل الفرية على الله والجنود، ممن جعل لله سبحانه نداً أو ضدّاً، أو جعله^(٤) والداً أو ولداً، فليفهم حجج الله في ذلك كله من كان لله موحداً، وليتفقد تناقض قولهم فيه وفساده وإحالاته واختلافه، يجده قولاً محالاً

(١) ما إعراب (السماوات)؟ السماوات: فاعل لتمكن، والمعنى: هل يمكن أن تكون السماوات والأرض في عقل أو لب من ابن.. إلخ. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) في (أ): كان مثله سواء خلقاً مجتبلاً.

(٣) في (أ): فمتى.

(٤) في (ب): وجعله.

فاسداً متناقضاً مختلفاً.

وفيه ما يقول الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه ورفعه شأنه: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ❶ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ❷ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ❸ [الكهف]، فأخبر سبحانه بأسف رسوله ﷺ من قولهم على الله سبحانه بالفساد المحال، وبأخبث ما يقال من متناقض الأقوال، ونبأ الله جميع عباده بجهلهم لقولهم فيه وفساده بقوله سبحانه: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ❹ [الكهف]، ووجدنا ما قال الله من كذبهم فيه وقلة علمهم عليهم لازماً واجباً، وكان ذلك على ما قال به من أهل الكتاب أوكد لما يقولون به من ربوبية رب الأرباب، فكلهم يثبت لله الربوبية، ويصحح له الوجدانية، وجميعهم - وإن زعم أن الله ولداً - يقر بربوبيته ووجدانيته، ويشهد له بدوامه وأزليته، التي لا يصح لهم أبداً ما يقولون به منها إلا بتركهم لمقاتلتهم في الولد والرجوع عنها، ولن يرجعوا عن ذلك مصارحة أبداً، وإن هم قالوا أن قد اتخذ الله ولداً، لأن في رجوعهم عن القول لله بالوجدانية والأزلية لحوقهم عند أنفسهم بقول أهل الجاهلية من عبدة الأوثان والنجوم والنيران، وذلك فما لن يقولوه وإن لم يعرفوا الله وجهلوه؛ لفساد ذلك عندهم وشناعه، وبعد إمكان ذلك في الله وامتناعه، ولذلك ما يقول جلّ جلاله عن أن يصح عليه تشبيهه له بشيء أو يناله، في أزلية قديمة أو ذات، أو صفة ما كانت من صفات؛ إذ في ذلك لو كان كذلك إشراك غيره معه في الإلهية، إذ كان شريكاً له في القدم والأزلية.

فتبارك الله الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ❺ [الشورى]، وجل ربنا عن أن يكون له في شيء كفو أو نظير، وأنى وكيف يكون خلق كخالقه؟ وهل يصح من ناطق بهذا منطق لناطقه؟ لا ولو تظاهر الخلق جميعاً

عليه لما صح لهم - والحمد لله - أبداً منطلق فيه.
وبعد، فلا بد لمن أنصف خصماً في منازعته له ومجادلته من ذكر ما يرى الخصم
أن له فيه حجة من مذهبه ومقالته، فإذا ذكر ذلك كله بان ما فيه عليه وله، فكان
ذلك لباطله أقطع، وفي الجواب له أبلغ وأجمع.

والنصارى فهم خصماؤنا في الله، فلا بد من تبين ما افترقنا فيه على الله، وهم
من قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ [حُجَّتُهُمْ
دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ]﴾^(١) [الشورى: ١٦]، ومن الذين قال فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ
يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج: ٣]، ومن الذين قال فيهم: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ
اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ٣]، فهم في ذلك كغيرهم من كفره الأمم.

فليفهم من قرأ كتابنا هذا ما نصف فيه من قولهم كله، فنسنتصفه بما يعلمه
علماء كل فرقة منهم إن شاء الله ويعرفه، وسنستقصي لهم فيه كله ما استقصوا
لأنفسهم من المقال، ثم نجادلهم فيه على الحق بالتي هي أحسن وأبلغ في الجدل،
وندعوهم إلى سبيل ربنا وربهم بالحكمة والبينة، ونعظهم فيه إن شاء الله
بالمواعظ البليغة الحسنة، فإن الله سبحانه يقول لرسوله ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى
سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢) [النحل: ١٢٥]، فنستعصم الله
في ذلك كله بعصمة الهداة المرشدين.

(١) ما بين المعقوفين من (ب).

[ذكر جميع أصول النصارى]

وهذا كتاب ما حددت النصارى من قولها، قد استقصينا فيه جميع أصولها، فليفهم ذلك إن شاء الله منها من أراد فهمه من الأمم عنها.

زعمت النصارى كلها أن الله سبحانه ثلاثة أشخاص مفترقة، وأن تلك الأشخاص الثلاثة كلها طبيعة واحدة متفقة، وقالوا: تلك الثلاثة في درك يقين النفس: أب وابن وروح قدس.

قالوا: فالأب غير مولود، والابن فابن وولد مولود، وروح القدس فلا والد ولا مولود، وكل واحد من الثلاثة بما قلنا فموجود.

وقالوا: إن هذه الأشخاص الثلاثة لم تزل جميعاً معاً، لم يسبق بعضها في الوجود بعضاً، وإن ما ذكروا من الأب والروح والولد لم يزالوا كلهم في لاهوت^(١) وملك واحد، ليس بين الثلاثة كلها تفاوت في إلهية^(٢) ولا في قدم ولا قدرة ولا ملك ولا مشيئة، وإن الثلاثة كلها واحد في الطبيعة والذات، وإن هذا الواحد في الطبيعة ثلاثة في الأشخاص المفترقات، [قالوا]^(٣): وذلك كالشمس فيما يدرك منها بالחס، التي هي شمس واحدة في كمالها وذاتها، وثلاثة متغايرة في حالها وصفاتها، كل واحد منها غير الآخر في شخصه وصفته، وإن كان هو هو في ذاته وطبيعته.

فمن ذلك زعموا أن الشمس في عينها كالأب، وضوؤها فيها كالابن، وحرها منها كالروح، ثم هي بعدُ وإن كانت لها هذه العدة فشمس - لا يشك فيها أحد - واحدة، لأن الشمس إن فارقها ضوؤها لم تدع شمساً، وكذلك إن فارقها حرها لم تدع أيضاً شمساً، وإنما تسمى الشمس شمساً وتدعى إذا كان

(١) في (ب): اللاهوت.

(٢) في (ب): الإلهية.

(٣) زيادة من (أ).

هذا كله فيها مجتمعاً.

وكذلك الإنسان، فإنه وإن كان في الإنسانية واحداً فإننا قد نراه وترونه أشياء كثيرة عدداً، منها نفسه وجسده، وحياته ومنطقه، فجسده^(١) غير نفسانيته، ومنطقه غير حياته، لأنه ليس يقدر أحد أن يزعم أن الحياة هي المنطق، ولا أنها جميعاً واحد متفق، لأن كثيراً من الأحياء لا يتكلم ولا ينطق.

قالوا: ولسنا نريد بالمنطق القول الذي يسمع سماعاً، ولكننا نريد الفكر الذي جعله الله في الإنسان غريزة وطبعاً، وفطرة خاصة في الإنسان لا في غيره من الحيوان، كالحیوان الذي جعل من البهائم وغيرها من نوابت الأرض وشجرها، ولو كانت الحياة هي المنطق لكان كل حي من الأشياء ينطق، فنطق جميع البهائم كما ينطق^(٢) بنو آدم.

قالوا: فلما لم يكن الأمر كذلك دل على ما قلنا به من ذلك، فالأب والابن وروح القدس كان دركهم بعقل أو حس قد صاروا في الذات والطبيعة واحداً فرداً، وفي الأقانيم التي هي الأشخاص ثلاثة عدداً، فالطبيعة تجمعهم وتوحدهم، والأقانيم تفرقهم وتعدددهم، فالأب ليس بالابن، والابن فليس بالروح. وما قلنا به من هذا فبين مشروح، فهم كلهم بالطبيعة والذات واحد، وهم في الأقانيم ثلاثة: روح وابن وأب والد؛ لأن الأب والد غير مولود، والابن فمولود غير والد، والروح فثالث موجود لا والد ولا مولود.

قالوا: ثم إن هذه الأقانيم الثلاثة التي لم تزل جميعاً معاً ثلاثة عدداً، لم يسبق في الوجود^(٣) والأزلية والقدم واحداً منها واحداً، أنزل واحد منها - وهو الابن - إلى الأرض رافة بالبشر والإنس، عن غير مفارقة منه للأب ولا لروح القدس،

(١) في (أ، ب): منها نفسه وحياته، فجسده.. إلخ.

(٢) في (أ): كما نطق.

(٣) في (ب): لم يسبق في الأزلية والقدم واحد منها واحداً.

إلى مريم العذراء، فاتخذ منها حجاباً وسترًا، فتجسد منها بجسد كامل في جميع إنسانيته، فتبدّى به وظهر فيه لأعين الناظرين عند معاينته، فأكل كما يأكل الإنسان وشرب، وساح على قدميه ودأب وتعب، وأسلم نفسه رافة ورحمة بالبشر للصلب، ولما صار إليه -لكرمه وحلمه- من الأذى والنصب.

ثم اختلفت النصارى بعد في الابن والولد^(١)، وما كان من تجسده بما زعموا من الجسد، فقالت فيه الروم وهو قولها المعلوم: إن القنوم الإلهي الذي لم يزل موجوداً، ومن قبل الدهور من الأب مولوداً- أنزل إلى مريم العذراء فأخذ منها طبيعة بغير قنوم فكان لطبيعتها قنوماً، فعمل^(٢) بطبيعتها التي أخذ منها كل ما كان لها في طبيعتها معلوماً، فنام كما كانت تنام نومها وإن لم يكن قنومه قنومها، وفعل من أفعال طباعها فعلها وإن لم يكن أصله في الناسوت أصلها. قالوا: فعمل بطبيعتها، فكان المسيح إنساناً تاماً بطبيعتين وإن كان قنوماً واحداً لا اثنين، والمسيح فهو ابن الله الأزلي المولود، وعمل الطبيعتين جميعاً فهو فيه موجود، قالوا: فإذا سُرَّ أو بكى أو ضحك أو اشتكى -وكلهم يقر ولا يشك أن قد كان يبكي ويضحك- فكل^(٣) ما كان من ذلك كله وما أشبهه مما في طبائع الإنس فمن عمل الطبيعة الإنسانية، وما كان من إحيائه الموتى وإبرائه للكمه والبرصى ومثله فمن عمل الطبيعة الإلهية.

وقالت اليعقوبية: إن الابن الذي لم يزل زال من السماء إلى الأرض ونزل، رافة منه ورحمة بالإنسان، وتعطفاً منه على البشر بالإحسان، فأخذ من مريم العذراء جسداً فتجسد به فصارا جميعاً واحداً، وقالوا: ألا ترون أن الإنسان من

(١) في (أ): في الابن والوالد.

(٢) سقط من (أ)، (ب): فعمل.

(*) في (ب): فكان الطبيعة قنوماً لطبيعتها الذي أخذ منها... إلخ.

(٣) في (أ): قالوا جميعاً: فكل.

روح وجسد ثم هو يدعى إنساناً باسم واحد، قد ترونها وإن سمياً بالإنسان فليس يقال لهما: إني في الإنسانية اثنان، ولكن يقال: إنه إنسان واحد، وهو كما تعلمون روح وجسد. قالوا: وكذلك المسيح الذي هو اجتماع اللاهوت والناسوت يسمى مسيحاً، وهو ابن الله الذي لم يزل، أفما ترون هذا قولاً فيما ذكرنا وقسنا بينا صحيحاً؟

وقالت النسطورية: إن الابن الذي لم يزل نزل بمحبته رافة وكرماً، فتجسد من مريم عند نزوله جسداً كاملاً تاماً، بطبيعة وقنومية من إنسانية وأدمية، فكان المسيح طبيعتين وقنومين بعد تجسده بالجسد تامين. وقالوا: فنحن إذا رأينا يأكل ويشرب، ويحيى في الأرض ويذهب، وينصب ويشتكى، ويضحك ويبكي - جعلنا ذلك كله وما رأينا منه ومثله من الناسوت، وإذا نحن رأينا يحيى الموتى ويرى المرضى ويمشي على الماء جعلنا ذلك للاهوت.

وقالت فرق النصارى كلها مع اختلافها وافتراق أقوالها في أوصافها: إن سبب نزول الابن الإلهي الذي نزل من السماء رحمة للبشر ومحافظة على الرسل والأنبياء - قالوا: من أجل خطيئة آدم، فإنه لما أن أخطأ وأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها فعصى تبرا الله تبارك وتعالى منه، وأسلمه إلى الشيطان باتباعه له، قالوا: فكان في حيز الشيطان ودار ملكه، وكذلك زعموا كان معه فيها جميع ولده، يحكم فيهم الشيطان بما أحب من حكمه، قالوا: وكان فيها ملك الشيطان من آدم ونسله أنفس كثيرة من أنبياء الله ورسله، فمن تلك الأنفس نفس نوح ونفس إبراهيم وغيرهما من أنفس الرسل والأنبياء، قالوا: فتلطف الابن واحتال لاستخراج تلك الأنفس من يد الشيطان، فلبس لذلك ومن أجله جسداً آدمياً؛ ليكون بما لبس منه عن الشيطان خفياً، فتكرر الابن بذلك له لكي لا يحترس الشيطان منه فلا ينفذ فيه مكره.

قالوا: فلما غلبت على الناس الخطيئة، وحلت فيهم البلية، واستبان لآدم -

زعموا- ما فعل الشيطان به، وما كان من غروره إياه وخديعته له خَدَعَ عند تلك الابنُ الشيطانَ بمكره، فبلغ فيه ما أراد من أمره، فاستخرج آدمَ وجميعَ ولده من سلطان الشيطان ويده. قالوا: وذلك كله فإنما كان الابن يبذل نفسه للصلب، ولما لقي من الأذى قبله والنصب، إحسانا من الابن إلينا وكرماً، ورأفة من الابن بنا ورُحماً.

قالوا: فاشتري الابن البشر من أبيه بما وصل من الأذى^(١) والصلب إليه، وذلك -زعموا- أن أباه لم يكن في حكمه وعدله أن يظلم الشيطان ما جعل له من آدم وولده، إن صاروا إلى طاعة الشيطان وأمره، لأنه قال للشيطان فيما يزعمون من المقال: كل من اتبعك فهو لك. قالوا: فلذلك اشترينا الابن من أبيه بالعدل، وغلب الشيطان على ما كان في يده منا بالمكر.

فلما استخرج آدم ونفوس الرسل والأنبياء صعد بعد فراغه من معاملة الشيطان إلى السماء، بعد أربعين مرت بعد الذي كان من صلبه. قالوا: فجلس عن يمين أبيه تاماً بكليته وجسده وجميع ما فيه من اللاهوت والناسوت، وكل ما كان فيهما ولهما من النعوت.

قالوا: وسينزل أيضاً مرة أخرى فيدين الأحياء والأموات عند فناء الدنيا. قالوا: ولذلك آمنا بالأب والابن وروح القدس. قالوا: والأب فهو الذي خلق الأشياء بابنه، وحفظها بروح قدسه.

فهذا -فليعلمه من أراد علمه- جماع قول النصارى وما لبسوا من اللبس في الأب والابن وروح القدس، وفي الأقانيم والطبيعة، وما لهم في ذلك من المقالة البديعة، التي لم يقل بها قبلهم قائل، ولم يتنازع فيها مجيب ولا سائل. وقولهم: إن

(١) في (أ): بما وصل من ذلك من الأذى.

الثلاثة في موضع يُوحَّدون وفي موضع بعد التوحيد يُثَلَّثون، وفي سبب نزول الابن زعموا من أجل خطيئة آدم، وما قالوا به في ذلك من خلاف جميع الأمم، فلم نترك لهم بعد هذا من قول يجهله إلا كل جهول.

[بداية الرد عليهم]

ونحن إن شاء الله مبتدئون فرادون لباب فباب بما يقولون ويجددون، فليفهم ذلك من يريد مجادلتهم من أهل التوحيد والدعوة، فإننا مُقَدِّمُونَ إن شاء الله من ذلك باب الأبوة والبنوة.

فقائلون لهم جميعاً: جوابهم: أخبرنا عن هذه الأسماء التي سميتهم، وادعيتهم من خرافات القول فيها ما ادعيتهم، من أب زعمتم وابن وروح قدس، لم يدل على شيء منه قياس ولا حاسة من الحواس الخمس، ما هذه الأسماء؟ أسماء طبيعية ذاتية جوهرية؟ أم هي أسماء شخصية قنومية؟ أم تقولون: هي أسماء حادثة عرضية؟ فإنكم إن كنتم إنما سميتهم الأب عندكم أبا لأنه ولد بزعمكم ولداً وابناً فليس هذه الأسماء بأسماء طبيعية ذاتية، ولا أسماء أيضاً قنومية شخصية، ولكنها حادثة عرضية عند حدوث الولاد بين الوالدين والأولاد، وليس^(١) بأسماء طبيعة ولا قنوم لا في الروم ولا في غير الروم.

والطبيعية فإنما تسمى بذاتها وطباعها، وبما يكمل ذلك كله لها من اجتماعها؛ لأننا بالأسماء المعلقة بالعلة المشتقة من الأفعال المعتملة أعرف، لأن اسم الطبيعة غير اسم القنوم، واسم القنوم غير اسم الفعل المعلوم، واسم الطبيعة ثابت لا اختلاف فيه ولا تفاوت، إنما هو اسم لها محدود موقف، لا ينصرف فيها ولا يختلف فيدل على قنوم وعلى فعل مفعول، ولكنه اسم الشيء نفسه يدل عليه لا على جنسه، كالأرض والسماء والنار والماء وأشباه ذلك من الأسماء التي قد تدل على أعيان

(١) قال في هامش المطبوع: في (د): وليست.

الأشياء، فهذه هي أسماء الذات والطبائع، لا أسماء الأقاليم والصنائع.
فأما أسماء القنومية التي ليست بطبيعية ولا عرضية فمثل إبراهيم وموسى
ودوداد وعيسى، وليس في الأسماء الطبيعية ولا في الأسماء الشخصية القنومية
أبوة ولا بنوة، ولا فعال ولا قوة، إنما هي أسماء تدل على الأعيان، كالإنسانية
التي تدل على الإنسان.

وفيا بينا - والحمد لله - من تحديدنا الذي حددنا في الأسماء حجة لا يدفعها في
التسمية عندهم إلا من كان من أهل الجهل والعمى، لأن الأسماء عندهم
للأشياء ثلاثة أسماء:

اسم جوهر، كالأرض والسماء.

واسم قنوم، كفلان المعلوم.

واسم ثالث من عرض وحدث، يسمى به كل عارض^(١) محدث.

وزعمت الفرق الثلاث من النصارى - فنعوذ بالله من الجهل بالله - أنها تجد
فيما في أيديها من كتب الأنبياء أن المسيح بن مريم هو الله وهو ابن الله، فجعلوا في
قولهم هذا الابن أباه، ثم رجعوا فجعلوا الأب هو إياه، غفلة وسهواً واختلافاً،
وعماية وتخرصاً واعتسافاً، تصديقاً لقول الله فيهم وفي أمثالهم، ومن كان يقول
من أهل الجهالة بمقاتلتهم: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ ۝ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝﴾ [الذاريات].

وإنما أخذت النصارى وقبلت هذه الكتب فيما زعمت وقالت عندما صلب
عندهم^(٢) المسيح صلى الله عليه من اليهود، وليس أحد من خاصتهم ولا
عامتهم عند النصارى بعدل ولا محمود، ولا تقبل شهادته على يهودي مثله،
فكيف تقبل شهادتهم على الله تعالى وعلى رسوله؟

(١) سقط من (أ، ب): عارض.

(٢) عندهم ساقطة من (أ).

مع أن لما قالت النصارى من ذلك كله مخارج عندنا في التأويل صحيحة، لا يعمى عنها ولا عما بين الله منها إلا من لم يقبل فيها عن الله بيانا ولا نصيحة، ولكن النصارى تأولت تلك الكتب بآرائها، وعلى قدر موافقة أهوائها، فضلت في ذلك وما تأولت منه بعمى التأويل، وأضلت من اتبعها عليه عن سواء السبيل.

فيقال إن شاء الله لهم فيما تأولوه من ذلك وادعوا، وافتروا في ذلك على كتب الأنبياء وابتدعوا، مما لم يسبقهم إليه أحد، ولم يقل به قبلهم مفتر ولا ملحد: إنا لم ندرك نحن ولا أنتم الأنبياء ولا المسيح بن مريم صلى الله عليه وسلم، ولم ندرك نحن ولا أنتم أحداً من حواريه، فنسأل من أدركنا منهم عما اختلفنا نحن وأنتم فيه فتكتفوا بمن أدركتم من الأنبياء عليه السلام في التأويل، ونجتمع نحن وأنتم على الحق فيما اختلفنا من الأقاويل.

فلا بد لنا ولكم من الإنصاف فيما وقع بيننا وبينكم من الاختلاف، فإن نحن تناصفتنا ائتلفنا، وإن فارقنا التناصف اختلفنا، ثم لم نعد أبداً للاتلاف (١) إلا بعودة منا إلى الإنصاف. والتناصف هو الحكم العدل بعد الله بين المختلفين، والشفاء الشافي الذي لا شفاء أبداً في غيره للمتناصفين، فأنصفوا الحق من أنفسكم تخرجوا بإذن الله بإنصافكم من لبسكم، وارفضوا للحق أهواءكم تسعدوا في دينكم ودنياكم، وأقيموا ما أنزل إليكم من ربكم من التوراة والإنجيل، واتركوا الافتراء على الله فيها بعمى التأويل، تهتدوا إن شاء الله لقصد سبيلكم، وتأكلوا كما قال الله: من فوقكم ومن تحت أرجلكم، وافهموا قول العزيز الوهاب فيكم وفي غيركم من أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْثَرُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، فكفى بهذا بيانا

(١) في (أ): إلى الائتلاف.

من الله في أهل الكتاب لقوم يعقلون.

وليعلم من فهم منهم أو من غيرهم أن فيما ذكر الله لهم من المأكل ومثله آية عجيبة ظاهرة لمن تفهّمها بعقله، تدل على أنه لم ينزلها إلا علام الغيوب، الذي لا يخفى عليه شيء من سرائر القلوب، ثم لا سيما خاصة في النصارى من أهل الكتاب، وما هم عليه من الحرص والكد والاكتساب، فإنما لم نر أمة من أهل الكتاب أرغب في المأكل والمشرب واكتناز الفضة والذهب منهم خاصة دون غيرهم، معلوم ذلك من غنيهم وفقيرهم، ولذلك ما يقول الله سبحانه فيهم وفي بيان ما قلنا به من ذلك عليهم: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة]، فرهبانهم إلا القليل وشمامستهم^(١) تعولهم أبداً أقوياء وهم وضعفتهم، وليس من الرهبان ولا الشمامسة من تكلف في مطعمه ولا مشربه ولا كسوته ولا مصلحته كلفة، ومن كفاهم ذلك من عوامهم وضعفتهم فقد يرى ذلك قرينة له عند من يعبدون وزلفة.

فأول ما يقال -إن شاء الله- لمن أراد الإنصاف لنفسه منهم، وعند من تجري المجادلة فيما ادعوا من الكتب بين أحد من أهل التوحيد وبينهم: يا هؤلاء، أنصفونا فيما ادعيتم من شهادات الكتب من أنفسكم، فلا تدعوا فيها ولا تأولوا تأويلاً ملتبساً يزيدكم لبساً على لبسكم، فإن شئتم تأولتم الكتب وتأولنا على ما قد قلتم وقلنا، ولنا من التأويل مثل ما لكم، وقولنا فيه يخالف أقوالكم، فإن كان ذلك أحب إليكم فافهموا فيه ما يدخل عليكم، فلسنا ندخل عليكم فيه إلا ما نجمع نحن وأنتم عليه.

(١) الشماس كشداد: من رؤوس النصارى الذي يحلق وسط رأسه لازماً للبيعة، والجمع شمامسة.

(قاموس).

أجمعنا نحن وأنتم جميعاً كلنا -قولكم مما قلنا به من ذلك قولنا- على أن
أصدق الشهادات كلها وأعدّها خمس شهادات يلزمنا وإياكم أن نقبلها:

فأولها: زعمنا وزعمتم شهادة الله.

والثانية: فشهادة ملائكة الله.

والثالثة: فقول المسيح وشهادته.

والرابعة: فما شهدت به أمه ووالدته.

والخامسة: فشهادة الحواريين وما كانوا يقولون.

فهذه خمس شهادات ليس منها ما تنكرون، وكلها فنحن به وأنتم راضون فيما
ندعي في المسيح وتدعون.

فقد وجدنا ووجدتم في الأناجيل الأربعة شهادات مختلفة كلها فيما عندنا
وعندكم، وقد أحطتم وأحطنا معرفة فيما في الإنجيل الذي يدعى عندكم
إنجيلاً، مثل ما لا تنكرون من قوله في أول ما وضع من إنجيله: (هذا ميلاد
يسوع المسيح بن داود)، فهذه شهادته وهو من الحواريين على أن أبا المسيح
داود، وأن المسيح ابنه وهو منه مولود، وهذه الشهادة في الأناجيل الأربعة نظائر
كثيرة، وفي ذلك حجة عليكم لا تدفع ظاهرة منيرة.

ومنها: شهادة المسيح صلى الله عليه لحواريه أنهم بنو الأب جميعاً، وأن الله أبوهم
كلهم معاً، وهذا يدل على أن تأويل الأبوة والبنوة غير ما قلتم به فيها من الدعوة.

ومنها: شهادة المسيح أن الحواريين إخوته، فإن شئتم فقولوا: في نسب أو غير
نسب، فلهم بذلك ما له بعد شهادته صلى الله عليه زعمتم أنه ابن الأب.

ومنها: شهادة أمه صلى الله عليها- على أنه ابن يوسف جدها وأبيها.

ومنها قول فيلبس^(١) لسائل سأله إذ قال له عند مسألته عنه: هو ذلك الذي ذكره موسى في التوراة، ونسبه صلى الله عليه فيها وسماه، فقال: يسوع بن يوسف، يعرف هذا منكم كل عارف^(٢).

ومنها أيضاً: شهادة يحنى التي تدل على أن معنى البنوة والولادة إنما هو بمعنى المحبة والولاية والعبادة، إذ يقول: أما أولئك الذين قبلوا قوله وسلموا فيما سمعوا منه له فلم يولدوا من اللحم والدم، ولا من مزاج المرة والبلغم، ولكنهم - زعم - من الله ولدوا، وأعطوا من كرامة الله ما رضوا وحمدوا. فتأويل هذا ومثله إن كان صدق فيه فإنما هو على ما يصح أن يكون عليه، لا على ما يستحيل في الأبواب والعقول، ويفسد ويتناقض من القول في التأويل، من أن يكون الرب عبداً، والوالد مع ولادته ولداً، وذلك أجهل الجهل، وفي ذلك المكابرة للعقل.

أما سمعوا قول الملائكة لمريم صلى الله عليهم وعليها وسلم عندما صاروا به من البشارة بولادتها للمسيح ابنها: (تلدن ابناً) ولم يقولوا: تلدين ابن الله، وقالوا: (يدعى يسوع، ويكون عليا عظيماً بالله، ويرث كرسي أبيه داود)، فلو كان كما يقولون لقاتل الملائكة: تلدين ابن الله ويكون منك مولوداً، فكان أعظم في القدر والخطر من أن يقال: ابن البشر.

وكذلك قال الملك ليوسف -زعمتم بعلمها- عندما أراد لما ظهر من حملها من

(١) في (أ): فيلبس، وفي (ب): فيلقس. وهو تصحيف.

(٢) ذكر هذا في العهد الجديد (الإنجيل: ٣٨٣) بلفظ: «٤٣ وفي اليوم التالي توى يسوع أن يذهب إلى منطقة الجليل، فوجد فيلبس، فقال له: «اتبعني!» ٤٤ وكان فيلبس من بيت صيدا، بلدة أندراؤس وبطرس. ٤٥ ثم وجد فيلبس ثنائيل، فقال له: «وجدنا الذي كتب عنه موسى في السريعة، والأنبياء في كتبهم وهو يسوع ابن يوسف من الناصرة». ٤٦ فقال ثنائيل: «وهل يطلع من الناصرة شيء صالح؟» أجابه فيلبس: «تعال وانظرا!».

تطليقه لها وتخليته لسبيلها: (يا يوسف بن داود، لا تخل سبيل امرأتك؛ فإن الذي بها من روح الله، وهو يدعى يسوع، وبه يحيي الله شعبه^(١) من خطاياهم بإذن الله).

ومما زعموا -فاعرفوه- أنه دلهم، وشهد على ما ادعوا لهم، واعتقدوا من ضلال أقاويلهم - قول الله زعموا في إنجيلهم، في المسيح بن مريم صلى الله عليه وسلم: (هذا ابني الحبيب الصفي). وقول سمعان^(٢) الصفا له: (أنت ابن الله الحق).

وما ذكروا من هذا إن صح ومثله مما يدعون على الله وعلى رسله فقد يوجد له تأويل، لما قالوا مبطل مزيل، لا ينكرونه ولا يدفعونه، ولا يكذبون من خالفهم فيه ولا ينازعونه.

فمن ذلك ما هم عليه وغيرهم مجمعون، لا يختلفون فيه كلهم ولا يتنازعون، من أن ملائكة الله ومن مضى من رسل الله لم يسبح المسيح قط ولم يعبد، ولم يزعم أحد منهم أن الله ولده.

ومن تأويل ما ذكروا من الولد والابن في زمن المسيح وكل زمن أن الناس لم يزالوا يدعون ابنا وولداً من تبنا وأحبوا وحظي عندهم، وإن لم يكن على طريق التناسل ولدهم، ثم لم يزل ذلك لديهم معروفاً قديماً وحديثاً، ولا سيما في القدماء من أهل العلم والحكماء، فكان الحكماء منهم يقول: يا بني لمن علمه، ويدعو المتعلم باسم الأبوة معلّمه، فيقول: قد قلت وقلنا يا أبانا، وربما قال أحدهم: يا أبت أما ترانا.

قال بعضهم:

آباء أرواحنا الذين همُّ همُّ أخرجونا من منزل التلف

(١) في (أ، ب): سبعة.

(٢) في (أ، ب): شمعان.

من علم العلم كان خير أب ذاك أبو الروح لا أبو النطف
وذلك -والحمد لله- في الأمم كلها فأوجد موجود، يقوله الرحيم منهم لمن
ليس بابن له مولود.

ومن ذلك ما كان يقول المسيح صلى الله عليه كثيراً لا تنكره النصارى
لحواريه: «اذهبوا بنا إلى أبينا، وقولوا: يا أبانا أنزل من سمائك طعامك علينا».
ومن ذلك قوله لهم صلى الله عليه وعليهم: (قولوا: يا أبانا تقدس اسمك
لتنزل في الأرض ملكوتك وحكمك).

فهل يتوهم أحد أنه أب من الآباء يلد وينسل ويتغير ويتغذى؟! أو يصل إليه
صَلْبٌ أو نصب أو أذى؟! لا بحمد الله وكلا، وتبارك ربنا عن ذلك وتعالى،
ولكنه أرحم بنا وألطف، وأعطف علينا وأرأف من الآباء كلهم والأمهات،
ومن أنفسنا فيما يهمننا من المهمات.

وقد ذكر عن بعض الحكماء من مضى من أوائل القدماء أنه كان إذا أخذ في
التسبيح لله والذكر قال: الله الذي هو في ذاته محب للبشر. وإنما يراد بالمحبة لهم
الرأفة والرحمة بهم.

وكذلك قال الرحمن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالتَّائِسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة]،
فمن أرأف بهم وأرحم وأعطف عليهم وأكرم^(١) ممن خلقهم مبتدئاً فسواهم
وأعطاهم من نعمه ما أعطاهم، ثم دهم بعد على الهدى، وبين لهم الغي
والردى؟ لا من بحمد الله وفضله. فنستمتع الله بالنعم في ذلك كله.

ومما يحتج به على من كفر منهم بربه جهلاً ومجانة قول المسيح بن مريم لهم فيما
زعموا من إنجيلهم إبانة، وهو قوله: (جئكم من عند أبي، وما سمعت عنده

(١) في (أ): فمن أرأف بهم أو أرحم أو أعطف عليهم أو أكرم.

فهو ما أكلمكم به، وأنتم لو كنتم منه لقبليتم ما جئتمكم به من أمره، ولكنكم من الشيطان وأنتم بنوه، ولذلك قبلتم قوله فلم تخالفوه، وإنما أنتم بنو الخطيئة والشيطان أبوها، وأنتم صاغرون لطاعتكم فبنوها. فقالوا: نحن بنو إبراهيم، ورموه بالبهتان العظيم. فقال: لستم بولد إبراهيم ولا بنيه، لو كنتم ولده لعلمتم بما يرضيه، ولكنكم بنو الشيطان والخطيئة،

أخبروني هل منكم^(١) من يرتجي الله بمعصيته؟ فعلام تريدون قتلي؟ ولم لا تقبلون قولي؟ لو عملتم بطاعة الله إذا كنتم أبناء الله.

فجعل -كما ترون- الله أباً لمن أطاعه وأرضاه، وجعل الشيطان أباً لمن أطاعه واتبع هواه، وكفى بهذا حجة دامغة وشهادة قاطعة بالغة على من تأول من النصارى الأبوة والبنوة على ما تأولوها عليه، وما قلنا به من هذا كله فهم كلهم مقرون به في إنجيلهم لا يختلفون فيه.

فإن لم تكن الأبوة والبنوة إلا على ما قالوا لزمهم أن يتأولوا كل ما في إنجيلهم من الأبوة والبنوة بما تأولوا، فقد يقرون كلهم من ذلك في إنجيلهم بما سنذكره مع ما ذكرنا إن شاء الله من أقاويلهم.

زعموا أن فيها وفيما يضيفونه إليها: أن المسيح خرج من القرى وتنحى، وصام في البرية أربعين صباحاً، لم يأكل فيها طعاماً ولم يشرب فيها شراباً، فجاءه إبليس في صومه ومنتحاه، فعرض عليه جميع زهرة الدنيا وأراها إياه، فلما رأى المسيح ذلك كله سأله إبليس أن يسجد له سجدة واحدة على أن يعطيه من ذلك كل ما أراه، فلعنه المسيح وأخسأه، وقال: لا يصلح السجود لغير الله، أخسأ إليك يا عدو الله، فقال إبليس -زعموا- له عندما جرى من القول بينه وبينه:

(١) في (أ): فيكم.

فاليوم لك أربعون يوماً لم تشرب شراباً ولم تطعم طعاماً، فادع الله إن كنت له حبيباً، أن يجعل لك هذه الحجارة فضة وذهباً، فقال له: ألم تعلم يا لعين أن كلام الله يكفي من اكتفى به من أحب كل طعام وشراب؟

ومن كلام الله الذي ذكر صلى الله عليه ما نزل لا شريك له من كل كتاب. وزعموا في أنجيلهم أن الله أوحى إلى يوسف بعل مريم بعد ولادتها للمسيح بها الله به أعلم: «أن انطلق بالصبي وأمه إلى مصر، فأقم بها أنت ومريم وابنها حتى أبين لك موت هيردوس -وهو ملك من ملوك الروم كان ملكاً على بني إسرائيل- فإنه يريد قتل عيسى ودماره، فرحل يوسف بمريم وابنها ليلاً، وأتم الله -زعموا- بما كان من ذلك أمره^(١) بعض ما أوحى إليه من كتب رسله؛ إذ يقول سبحانه: من مصر دعوت صفيي».

وقالوا في إنجيلهم: «فلما مات هيردوس أوحى الله إلى يوسف أن قد مات فانطلق بعيسى وأمه إلى أرض إسرائيل» وزعموا أن هذا كله موجود عندهم فيما في أيديهم من الإنجيل، وأنه لما قدم بهما يوسف سمع أن كيلا دوس ملك من اليهود بعد أبيه ما كان يملك أبوه، ففزع لعيسى وأشفق عليه، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: (أن امض إلى جبل الجليل فكن فيه، فخرج حتى نزل منه في مدينة يقال لها: ناصرة؛ تصديقاً لما أوحى الله به قديماً في بعض كتبه، وفيما ذكر من عيسى وأمره في أنه: «يكون ويدعى ناصرياً»، وبذلك -يروى- يدعى كل من تنصر نصرانياً.

فلما كبر عيسى وظهر في أيام يحيى، وكان يحيى صلى الله عليه ممن أجابه وصار إليه، فأمره بالتطهر والاغتسال في نهر الأردن، وكان ذلك تطهره من

(١) في نخ: بما كان من أمره. وفي نخ: بما كان من ذلك من أمره.

الخطايا لمن تاب وآمن، فقال فيما زعموا من إنجيلهم: «أنا أطهركم كما ترون بالماء، والذي يأتاكم على أثري هو أكرم على الله مني، وهو الذي يجعل الله به المذرة، فلا يودع خزائنه إلا الحبوب المطيبة المنقاة، وما بقي بعد ذلك من الغرابلة والتبن وما ليس بذي قيمة ولا ثمن يحرق بالنار التي لا تخمد، حيث يبقى التحريق ويخلد».

فلما سمع عيسى بأخبار يحيى -صلى الله عليهما وعلى جميع النبيين- وما يصنع من تطهيره للمؤمنين أقبل إلى يحيى من جبل الخليل ليصبغه بالماء ويطهره، فكره يحيى عليه السلام مجيئه لذلك -زعموا- وأمره، وقال له يحيى عليه السلام: بي إليك فاقة، وتجيء إلي أنت تطلب الطهارة؟ فقال عيسى صلى الله عليه وعلى أخيه يحيى: دعنا الآن من هذا، فإنه هكذا ينبغي لنا أن نستتم خلال البر كلها، أو كل ما قدرنا عليه منها، فتركه يحيى حيثئذ فاغتسل، وعمل في ذلك ما أراد أن يعمل.

ثم سمع بقتل اليهود ليحيى فانطلق إلى أرض الجليل فسكن في كفر ناحوم يتفياً من حد زبولون. وثم أوحى الله -زعموا فيه- إلى شعيب صلى الله عليه في مصير عيسى من زبولون إلى ما صار إليه، وكان في مصيره إليها ومقامه بها سياراً يسبح في أرض الجليل، يبشر ويعلم ما يجب لله على كل جيل وقبيل، ويرى كل مرض ووجع في بني إسرائيل، حتى سمع بفعاله وتبشيره ومقاله في كل ناحية وأرض، وأني بكل ذي وجع ومرض من البرص والمجانين والكمه والمقعدين، فأبرأهم بإذن الله من أمراضهم المختلفة الهائلة، وانطلقت على إثره جموع كثيرة من كل قبيلة من أرض الجليل، ومن المدائن العشر وأهل بيت المقدس، ومن غير الأردن.

فلما رأى عيسى صلى الله عليه تلك الجموع وما اجتمع منها إليه صعد على جبل مرتفع فارتفع عليه ليسمع قوله كل من اجتمع، فلما صعد عليه أدنى منه

حوارييه، ثم قال: طوبى بالروح عند الله غدا للمساكين ذوي التقوى كيف يكون ثوابهم في ملكوت الله ودار الإقامة والمثوى طوبى للمحزونين على خطاياهم في الدنيا كيف يغفر الله لهم خطاياهم غداً، طوبى للمتواضعين لله كيف يرثون أرض الله، طوبى للجوع العطاش في الله بالبر كيف يشبعون ويروون في يوم البعث والحشر، طوبى للرحماء في الله كيف يفوزون برحمة الله، طوبى للنقية قلوبهم إذا نظروا إلى ربهم كيف يصنع غداً بهم، وكيف يتفجعون عنده بكسبهم، طوبى لعمال السلام^(١) لله كيف يدعون أصفياء الله، طوبى للذين يطردون لأعمال البر كيف يملكون في ملك السماء إلى آخر الدهر.

ثم قال صلى الله عليه لمن أجابه ولحوارييه: طوبى لكم إذ أنتم عُيِّرْتُمْ وطُرِدْتُمْ فيّ وعليّ، وقيل لكم قول السوء والكذب من أجلي، عندها فليعظم فرحكم لما عظم الله في السماء من نوركم، وذخر عند الله في الآخرة لكم من أجوركم، فإن تظلموا فقبلكم ما ظلمت الرسل والأنبياء، أو يكذب عليكم فمن قبل ما قيل على الله الكذب والافتراء، أنتم ملح الأرض، فإذا أنتم الملح فبم يملح؟ فحيث لا يصلح إلا أن يرمى به وي طرح، فيكون شيئاً ملقى، وتراب أرض يوطأ. أنتم نور العالم الذي لا يخفى على من يبصر ويرى، وهل تستطيع مدينة ظاهرة على جبل أن تخفى أو تتوارى؟ وهل يسرج السراج تحت الأغطية؟ لا ولكن يحمل فوق المنارة العالية لكي ينير فيضيء، ويظهر فلا يخفى، فكذلك^(٢) أنتم تنيرون للناس بنوركم المضيء، لينظروا عياناً إلى عملكم الرضي، لتحمدوا الله ربكم الذي زكاكم، وأعطاكم من توفيقه ما أعطاكم. ألا ولا يظنّ أحد أني جئت لدفع التوراة والإنجيل والأنبياء، ولا لنقص شيء جاء عن الله من جميع الأشياء،

(١) في (أ): السلم.

(٢) في (أ): كذلك بدون واو.

ولكني جئت لتمام ذلك كله، ولتصديق جميع ما أمر الله فيه ورسله، بل أقول لكم قولاً حقاً، وأنبئكم نبأ فافهموه صدقاً: إنه لا تُغَيَّرُ من آيات الله كلها آية ولا تنتقص، إلى (١) أن تتغير وتفنئ السماوات والأرض، ومن نقص من آيات الله آية، أو غَيَّرَ من أصغر وصاياه وصية، فعَلَّمَهَا أحداً من الناس مبدلة مغيرة، صغيرة كانت الآية والوصية أو كبيرة - دعي في ملكوت الله خسيساً ناقصاً، ومن علمها كما أنزلت كان في الآخرة تاماً خالصاً.

وحقاً أقول لكم: لئن لم تكونوا من الأبرار، ويكن بركم من أفضل بر الكتبة والأحبار - لا تدخلون غداً في ملكوت الله الغفار. ألا وقد سمعتم في التوراة ألا تقتلوا النفس المحرمة، ومن قتلها فقد استوجب في الدنيا العقوبة المؤلمة، وأنا فإني أقول لكم: إن (٢) من قال لأخيه كلمة قبيحة تؤذيه فقد استوجب العقوبة، إلا أن يحدث لله منها توبة، ومن قال لأخيه ليعيره: إنك لأرغل لم تحتتن فقد استوجب في الآخرة نار جهنم، بل من قَرَّبَ منكم قربانه على المذبح وأداناه وقربه ليذبحه، ثم ذكر أن أخاه واجد عليه فليدع قربانه وليذهب إلى أخيه فيصالحه.

ألا وقد قيل في التوراة: لا تكذبوا إذا حلفتكم، ولكن اصدقوا إذا حلفتكم بالله وأقسمتم، وأنا فإني أقول لكم: لا تحلفوا بشيء من الأشياء، ولا تقسموا طائعين بقسم ولا إيلاء، لا تحلفوا بالسماء التي هي مكان كرسي الله، وفيها يكون ملائكة الله، ولا بالأرض التي هي منزل رحمة الله وآياته، ولا بحياة شيء، ولا برأس آدمي، ولكن ليكن كلامكم نعم ولا وكلا فيما تقولون وبلى، وما كان سوى ذلك فهو من السوء والهزوء، ومن سأل أحدكم شيئاً فليعطه وإن كان نفساً علياً.

(١) في (أ، ب): إلا أن.

(٢) «إن» ساقطة من (أ).

ألا وقد سمعتم أن قيل: أحبوا أولياءكم، وأبغضوا من الناس أعداءكم، وأنا أقول لكم: أحبوا في الله أعداءكم، وبركوا منهم على من لعنكم وآذاكم، وأحسنوا منهم إلى مبغضيك، وصلوا منهم من يؤذيك، لكي تكونوا من أصفياء الله، ولتفوزوا بالكرامة والرضا من الله، الذي يطلع شمسهُ على المتقين والفجرة، وينزل أمطاره على الظالمين والبررة، فإن كنتم إنما تحبون من يحبكم فأى أجر حيثئذ لكم؟ أوليس المكسة والعشارون كذلك فيما بينهم يفعلون؟

ألا ولا تراءوا الناس بالصدقة والزكاة، ولا بما تصلونه لله من الصلاة، فتحبطوا أعمالكم في ذلك لله بالرياء، وتتوفوا أجرها في عاجل هذه الدنيا، ولكن لتكن صدقتكم لله فيما بينكم وبين الله خفية سرا، فإن الله ربكم الذي يرى سركم وهو يجعلها لكم علانية جهراً، وإذا كنتم في صلاة لله أو خشوع فلا تقوموا بذلك في السكك والجموع، كالمرائين للناس بما هم فيه لذلك من حالهم، فحقاً أقول لكم: لقد توفى أولئك جزاء أعمالهم.

وإذا صليتم فلا ترفعوا أصواتكم ودعاءكم طلباً للرياء، فإن الله يعلم قبل أن تسألوه ما تحتاجون إليه من الأشياء، ولكن إن صليتم فله وحده فصلوا، وإذا حكمتكم في أرضه بحكم فاعدلوا، وقولوا ربنا الذي في السماء تقدس اسمك وحكمتك، وعظم ملكك وجبروتك، أظهر حكمتك في أرضك كما أظهرته في سمائك، وارزقنا طعام فاقة يومنا، واغفر لنا سالف جرمنا كما تغفر لمن ظلمنا، واعف عنا برحمتك وإن أجرمنا، ولا تبتلنا ربنا بالبلاء، وخلصنا من مكاره الأسواء، فإن لك الملك والقدرة، ومنك الحلم والمغفرة أبد الأبدين ودهر الداهرين.

واعلموا أنكم إن غفرت للناس ما بينهم وبينكم فإن الله سبحانه يغفر لكم. وإذا صمتكم فلا تغيروا وجوهكم ليعلم الناس صومكم، [ولكن إذا صمت فاعسلوا

وجوهكم وادهنوا رؤوسكم، لكيلا لا يعلم الناس صومكم^(١) فإن الله الذي صمتم له سرّاً هو يجزيكم بصومكم علانية جهراً.

ألا ولا تخزنوا خزائنكم ولا تجعلوا في الأرض ذخائركم، فإن ما في الأرض يفسده السوس وتأكله الأرضة، وتعرض له الآفات وتناله السرقة، ولكن اخزنوا خزائنكم واجعلوا ذخائركم في السماوات العلى، حيث لا يفسد منها شيء ولا يبلى بسرقة ولا آفة معترضة، ولا ينهاها أكل سوس ولا أرضة، فحقاً أقول لكم: إن حيث تكون خزائنكم وذخائركم هنالك تكون قلوبكم وضمايركم.

واعلموا أن سراج الجسد العين، فإن كانت العين نيرة مضيئة كان الجسد نيراً مضيئاً، وإن كانت العين عمية مظلمة كان الجسد مظلماً عمياً، وإذا كان النور الذي فيكم مظلماً لا يبصر ولا يعلم فيكم ترون ظلمة حواسكم وقلوبكم أعمى وأظلم.

واعلموا أن الله لم يجعل لأحد في جوفه من قلوبين، وأنه لا يستطيع أحد منكم أن يعبد ريبين؛ لأنه لا بد له من أن يكرم أحدهما ويحمله فيقصر بالآخر عن الكرامة ويغفله، أو يهين أحدهما ويحقره فيجل الآخر ويكبره.

وكذلك لا تستطيعون أن تعبدوا الله وتعزروه وتسعوا للمال فتجمعوه وتكثروه، ومن أجل ذلك فإني أقول لكم: لا تهتموا بما تأكلون ولا ما تشربون ولا ما تلبسون، أليس ما خلق الله لكم من الجوارح والأجسام أكرم وأجل وأكبر من الشراب والطعام؟ أوليس ما خلق الله لكم من الأنفس أثر عند الله من الثياب والملبس؟

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (أ، ب).

انظروا إلى طير الأرض والسماء، وما خلق الله من دواب الماء، التي لا تزرع زرعاً ولا تحصدنه، ولا تذخرنه في الأهواء ولا تحشدنه، والله ربكم الذي في السماء يرزقهن^(١) في كل يوم ما يصلحهن من الغذاء.

وانظروا إلى عشب البرية الذي لم ينسج ولم يغزل، ولم يعن منه بشيء ولم يعتمل، كيف يلبسه الله في حينه كل لون زينة تبهجه^(٢) أو حسناً أو نوراً. فأنا أقول لكم: إن سليمان بن داود في كل ما كان فيه من ملكه وسلطانه ما كان يقدر على أن يلبس لوناً واحداً مما ألبسه الله العشب من ألوانه، فإن كان العشب في حين تنويره ذا بهجة ونور فعما قليل وبعد يسير ما يجعل وقوداً للتنور، ثم الله - تبارك وتعالى اسمه - يلبسه من البهجة والنور ما يلمسه.

فكم ينبغي لكم يا ناقضي الأمانة ألا تهتموا فتشتغلوا، ولا تكثروا من القول لأنفسكم ولا لغيركم، فتقولوا: ما نأكل وما نشرب وما نلبس وأين نذهب؟ كأنكم بما قلت من هذا لا توقنون، فكل هذه الشعوب التي ترون تبتغي ذلك ولا تبتغوا منه ما يبتغون، فإن ربكم الذي في السماء يعلم ما ينبغي لكم من قبل أن تسألوه إياه، ولكن ابتغوا طاعة الله ورضاه.

فأما ما ذكرت من هذا كله فهو يعطيكم ويعطيه من لا يرضى عليه، فلا تشغلوا بغد وما بعده من شغله، فبحسب غد أن يقوم بشغل أهله، وكفى يومكم من غده بما في غد من كده.

ألا ولا تعسفوا أحداً بظلم؛ فإنكم كما تدينون تدانون، والمكيال الذي تكيلون به تكتالون، فما بال أحدكم يرى القذى في عين أخيه ولا يرى السارية الشاخنة في عينيه؟ أم كيف يقول لأخيه: اتركني أنزع من عينك قذاها، والسارية

(١) في (أ): الذي يرزقهن.

(٢) في (ب): أو بهجة.

الشاحخة التي في عينيه لا يراها؟

أيا مخادعا ملقاً، ومخاتلاً لغيره مسترقاً، أخرج السارية أولاً من عينك، ثم التمس بعد إخراجها من عين غيرك.

ألا واسمعوا مني، وافهموا ما أقول عني: لا ترموا بقدس الصواب بين نوايح الكلاب، ولا تقذفوا بلؤلؤكم المنير بين عانات الخنازير، فلعلهن أن يدنسنه ويتن ما ألقيتن بينهن منه، ألا واسألوا تعطوا، وابتغوا تجدوا، واطرعووا يفتح لكم؛ فكل سائل يعطى، ومبتغى يجد ما ابتغى، وكل من استفتح يفتح له، وأي امرؤ منكم يسأله حبيبه أو ابنه برأ أو خيراً فيعطيه مكان ما سأله من ذلك حجرأ؟ أو يسأله سمكة فيعطيه حية مهلكة؟ فإن كنتم وأنتم أنتم في النقص والتقصير، ومنكم كل ظالم وشرير تعطون العطايا الصالحة أبناءكم، وتجيئون عند الدعاء والمسألة أحباءكم، فكم ترون الله في ذلك وإذ الأمر كذلك من الزيادة عليكم فيه للذي تسألونه وترغبون إليه.

وانظروا كما تحبون أن يفعل الله بالناس بكم فافعلوه لهم، وكما تريدون العدل من الناس عليكم فكذلك فاعدلوا عليهم، وإن تلك سنة الرسل والأنبياء، وميزان عدل الله في الأشياء.

ألا وادخلوا الله وفي الله باب الضيق والمخاوف، فإن باب الأمن والسعة بمعصية الله سبب الهلكة والمتالف، وكثير ممن يدخله ويؤثره، ممن يبصر ذلك ومن لا يبصره، وما أضيق المدخل والباب، وأعفى السبيل والأسباب التي تبلغ العباد الحياة، وتوجب للناس النجاة، وأقل من يجدها ويسهل له وردها.

ألا واحتفظوا من كذبة أولياء الشيطان، الذين يراؤون الناس بلباس الحملان وهم مع ذلك ذئاب ضارية، وقلوبهم مستكبرة عاصية، فلا تغتروا بظاهر حالهم، ولكن اعرفوهم من قبل أعمالهم، فهل يخرج من الشوك عنب؟! أو من

الحنظل رطب؟! لا لن يكون أبداً ذلك ولن يوجد كذلك، ولكنه يخرج من كل شجرة طيبة ثمرة طيبة، ويخرج من كل شجرة خبيثة ثمرة خبيثة، وإنما تعرف الشجرة الخبيثة من قبل خبث ثمرها، فإذا كانت كذلك خبيثة أوقدت النار بها، وكذلك العمل إذا كان سيئاً غياً فلا يكون صاحبه إلا مسيئاً غوياً.

وليس كل من يقول: ربي ربي بإقراره والدعاء يدخل يوم القيامة في كرامة ملكوت السماء، إلا أن يكون ممن عمل في دار الدنيا بما حكم الله عليه به من التقوى، ولكثير في ذلك اليوم من يقول: ربنا باسمك هدينا وسعينا، وباسمك أخرجنا من الشياطين ما أخرجنا، وباسمك أموراً كثيرة من العجائب صنعنا، ثم يقول الله لهم في ذلك اليوم: تأخروا عني يا عمال الزور.

وقال صلى الله عليه: اعلّموا أنه من سمع كلامي فعمل بما سمع وقبله عني، فمثله كمثّل رجل ذي لب وحكمة بنى بنية على أساس من حجر محكمة، فلما جاءت الأمطار، وجرت فأعظمت الأنهار، وتهيجت الرياح الكبار جعل ذلك ينطح من كل جدار، فلم يسقط البيت ولم ينخر.

ومثل من سمع كلامي بغير تسليم ولا تقبل كمثّل رجل ذي حماقة وجهل مضلل بنى بنية على جرف منهار، أو رمل كثير هيال، فلما جاءت الأمطار ودرت، وتحركت الأنهار فجرت، وعصفت الرياح فأعصرت - خر بيته منقعرًا، وسقط سقوطاً مفزعاً مذعراً.

قالوا: فلما فرغ من كلامه هذا كله عجب من حضره من حكمته فيه وقوله، ثم لا سيما الكتب والأخبار، فإنهم كانوا أعجبهم به.

وفي أناجيلهم أنه قال ﷺ: بحق أقول لكم أيها الناس والكتب والأخبار: إن كثيراً من المشرق والمغرب يجيء يوم القيامة والجزاء يتكئ مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السماء، وإن كثيراً ممن يزعم أنه ابن لهم يقصن عنهم مع

الظلمة في النار، ثم يكونون مخلدين أبداً في البكاء وتحريق الأستار.
وفي أناجيلهم: أن رجلاً من الكتبة جاءه فقال: إني أحب أن أتبعك، وأكون
حيث كنت معك، فقال عليه السلام: لشعالب الوحش مغار، ولطير السماء أوكار، وأنا
فليس لي منزل ولا قرار أقر إذا قروا فيه، ولكل مأوى وليس لي مأوى آوي إليه.
وفي أناجيلهم: أن رجلاً من حواريه قال له: يا معلمي، ائذن لي أذهب فادفن
أبي، فقال له: تعال اتبعني وكن معي وعلى أثري، واترك الأموات يدفنون
موتاهم، ففيهم لدفنهم ما كفاهم.

تم والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم

النبئين، وعلى أهله الطيبين، وسلم عليهم أجمعين

الرد على المجبرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المحسن إلى جميع خلقه بما عمهم من فضله وإحسانه، الذي: ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء]، الذي خلق خلقه لعبادته، وقوَّاهم على طاعته، وجعل لهم السبيل إلى ما أمرهم به، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات]، وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال لموسى وهارون صلى الله عليهما: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [٦٣] فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيًّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه].

فرزعت القدرية الكاذبة على ربها أن الله (١) عز وجل عن قولهم خلق أكثر خلقه ليعبدوا غيره، ويتخذوا له الشركاء والأنداد، مع قوله لهم: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ومع قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، وقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [محمد: ٣٣]، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت].

فرزعموا أنه لم يُرد منهم أن يطيعوا رسله، وأن الله أمر بما لا يريد، ونهى عما يريد، وخلقهم كفاراً وقال الله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ومنعهم من الإيمان، وقال: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ٣٩]، وقال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ [الإسراء: ٩٤] ومنعهم من الهدى، وأفكهم وقال: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة]، وصرفهم عن دينه وقال: ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [غافر].

فافهموا - وفقكم الله - ما يتلى عليكم من كتاب الله، فإن الله يقول: ﴿وَشِقَاءُ

(١) في المخطوطة: المجوزة أن الله.

لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴿يُونُس: ٥٧﴾، ويقول: ﴿كِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿١١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت]، ويقول: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية]، ويقول: ﴿اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥].

وقد بيّن الله للخلق، واحتج عليهم بما بيّن لهم في كتابه، وأمرهم بالتمسك بما في الكتاب، والافتداء بما عن نبيه جاءهم، فإنما هلك من كان قبلهم بإعراضهم عن كتاب ربهم، والترك لمن مضى من أنبيائهم، من أهل الكتاب وغيرهم. فاتقوا الله وانظروا لأنفسكم قبل نزول الموت، واعلموا أنه لا حجة لمن لم يحتج بقول الله، فإن الله سبحانه يقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فاسمعوا قول المفترية على الله، فمن قولهم: إنه لم يعمل أحد خيراً ولا شراً.. فرد الله عليهم مكذباً لهم فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد]، وقال: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ﴿٥٢﴾﴾ [النجم]، وقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات]، وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧]، وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة]، مع الآيات الكثيرة المحكمة الواضحة من كتاب الله تصديقاً لما قلنا، وتكذيباً لما قالوا.

وإنما أنزل الله الكتاب ليمسك به، قال لنيبه ﷺ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢٠]، وقال: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٢٣٦﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿٢٣٦﴾﴾ [طه]، وقال: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، ثم قال لجميع الأمة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف]، فاتقوا الله ولا تقولوا على الله إلا الحق، فقد بيّن لكم آثار

من مضى من أسلافكم، وقص عليكم قصة من كان قبلكم من المؤمنين والصالحين، ومن أوليائه المرسلين، وما أمركم من الاقتداء بهم، ورغبكم في مرافقتهم، وقد خبركم ما قد أصبح بمن خالفهم وسلك عكس طريقهم من قوم لوط، وأصحاب فرعون، فأخذهم الله بذنوبهم، فقال: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال سبحانه لنبيه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝﴾ [الزمر].

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝﴾ [محمد].

فهذا ما أخبر الله عز ذكره عن جميع عباد، كيف ضل من ضل منهم واهتدى من اهتدى منهم، ومن بعد ما قد حكى الله عن أنبيائه صلوات الله عليهم وعلى آدم وحواء، قال الله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه]، ثم قال: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف]، فاعترفا بذنبيهما، فقالا مقرين تائبين عن معصيتهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف]، ولم يقولوا: معصيتنا من الرحمن وإرادته.

والقدرية المجبرة تقول: معصيتنا بقضاء الله وإرادته، خلافاً على أبي البشر آدم ﷺ. وقال الله عز وجل يخبر عن موسى صلى الله عليه: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥]، ولم يقل: هذا من الله ومشيتته. وقال يعقوب ﷺ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ [يوسف: ١٨]، والقدرية تقول: إن الله سؤل لهم ذلك. وقال يوسف صلى الله عليه: ﴿مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]، فيوسف صلى الله عليه يضيف ذلك إلى الشيطان والمجبرة القدرية تضيف ذلك إلى الرحمن؛ خلافاً على الله جل ثناؤه.

وقال يخبر عن يونس عليه السلام: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء]، والقدرية تزعم أن الظلم قضاء رب العالمين. وقال النبي ﷺ: ﴿إِنْ ضَلَّكَ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ: ٥٠]، فجعل ضلالته من قبل نفسه، وهداه من قبل ربه، موافقة لله، إذ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل]، وقال: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى]، وقال: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلوا. وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، فكل ما كان من هدى فقد أضافه إلى نفسه، وكل ما كان من ضلال فقد أضافه إلى خلقه، والله أولى بما أضاف إلى نفسه، والعباد أولى بما أضاف إليهم، وكانوا هم المعتدين الظالمين الجائرين المخالفين لقضائه وقدره تبارك وتعالى.

فأقرت الأنبياء ﷺ بالإساءة والتقصير فيما أغفلت وقصرت، وأضافت ذلك إلى أنفسها وإلى الشيطان؛ معرفة منهم بالله أنهم لم يؤتوا في ذلك من ربهم. وخالفت القدرية والمجبرة كتاب الله ووافقت الشيطان؛ قلة معرفة منهم بعدل الله في خلقه ورحمته لهم وانتفاءهم من ظلمهم، في قول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء]. فقد ذكرنا جملة مما احتج الله به على القدرية الكاذبة على الله في كتابه، وعلى النبيين.

وكيف يتوهم عاقل أو ينطوي قلب مؤمن أنه مصيب مع خلافه لقول الله وقول أنبيائه؟! إن من ظن ذلك فقد جهل جهلاً مبيناً، وضل ضلالاً بعيداً. فزعموا من بعد ما حصرنا مما ذكرنا، وما لم نذكر من حجج الله عليهم وما قد رد الله من مقالتهم وأكذبهم ما لا يحصى، فزعموا أن الله خلق الخلق صنفين وجعلهم جزأين، فجعل صنفاً يعبدونه وصنفاً يعبدون الشيطان، وجعل من

يعبد الشيطان أكثر ممن يعبد الله، فأكذبهم بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات].

ثم زعموا أن الله تبارك وتعالى رضي بذلك وأراده وأحبه، وأنه لا يرضى أن يعبد من أَرْضاه أن يكفر به، تكديماً لقول الله ورداً عليه إذ يقول: ﴿لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، ويقول: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة]، فتعالى الأمر بالعدل والإحسان أن يكون راضياً بالمنكر والعدوان؛ لأنه لا يريد الظلم ولا يشاؤه لأنه عدل، ولا يريد الفساد لأنه مصلح، ولا يحب (١) المنكر لأنه حكيم حاكم بالحق.

وقال سبحانه رداً على من زعم أن الله أراد الكفر والظلم، فقال سبحانه: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء]، فأخبر أنه يريد أن يبين لنا ويهدينا، وأن الشيطان يريد خلاف ذلك بنا؛ إذ كان سبحانه ناظراً لنا رحيماً بنا، وكان الشيطان عدواً لنا مبغضاً، فلا يكون الناظر لنا يريد بنا ما يريد عدونا. وقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف]، وقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء]، في أي كثرة، ولولا طول الكتاب ذكرتها، وفيما ذكرنا كفاية، والحمد لله (٢).

(١) في نخ: ولا يريد.

(٢) في نخ: بحمد الله.

وزعمت القدرية: أن العباد ما شاءوا شيئاً قط، ولا يريدون شيئاً، والله هو المرید للظلم والغراء عليه، فرد الله عليهم بقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، و: ﴿مَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الزمل]، وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ ١١ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝ ١٢ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ۝ ١٣﴾ [عبس]، وقال موسى ﷺ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف]، وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، فذكر الله المشيئة في غير موضع من الكتاب، وذكر أن العباد يريدون ويفعلون ويشاءون؛ تكذيباً لمن قال بخلاف ذلك.

فقد ذكرنا جملة من كتاب الله تبارك وتعالى مما فيه رد عليهم، وحجة بلاغ لقوم عابدين.

ونحن سائلون بعد ذلك، وبالله نستعين، مع أن في المسألة آيات كثيرة مما قد دل الله العباد وبين لهم أنهم يشاءون ويريدون ويرضون ويحبون^(١).

فأما المشيئة فقال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت]، وقال: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان].

وأما الإرادة فقال: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وأما الرضا فقال: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وأما المحبة، فقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، وفي ذلك آيات كثيرة مما لم نذكره.

ثم يقال لمن زعم أن الله خلق أكثر خلقه ليعبدوا غيره: ما حجتك وما

(١) في نخ: ويحبون ويكرهون.

برهانك على ما ادعيت من ذلك؟ أبكتاب الله ما قلت أم بسنة أم بقياس؟

فإن ادعى حجة من الكتاب سئل عنها.

فإن قال: قلت بقول الله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾

[الأعراف: ١٧٩].

يقال له: إنا لم نسألك عما أجبت، وإنما سألتك عن قولك: خلق الله أكثر خلقه ليعبدوا غيره، فمن زعم أن الله خلق أكثر خلقه للكفر والمعصية فلا يجد إلى ذلك سبيلاً. مع أن لقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] تأويل عدل الله، وإنما ذرأ لجهنم من عصاه وابتغى غير سبيله، فجعلهم ذرو جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ويعملون.

ثم يسأل عن قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات]؟ فإن زعم أن ذلك خاص في المؤمنين سئل عن الحجة في ذلك والدليل على ما قال. ثم يعارض فيقال له: إذا زعمت أن ذلك خاص ثم زعمتم أن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فإن كان خاصاً إلى المؤمنين فالمؤمنون قد آمنوا، فما معنى قوله: آمنوا وقد آمنوا؟! فلا يجدون وجه الآية أبداً^(١) إلا قول الحق خاصاً في المؤمنين دون الكافرين، ولا يجحدون فرقاً في ذلك.

ثم يسألون فيقال: أخبرونا عن إبليس، خلقه الله ليعبده أو ليعبد من دونه؟ فإن قالوا: خلقه ليعبده تركوا قوههم. وإن قالوا: ليعبد من دون الله زعموا أنه أول من أشرك بنفسه؛ إذ جعل إبليس ليعبد من دونه ويشركه في عبادته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثم يقال لهم: إن زعمتم أن الله خلق خلقه كفاراً وأمرهم بالإيمان، أفليس قد

(١) في المخطوط: وجه الآية إذاً.

أمرهم أن ينتقلوا عن خلقهم وأن يصيروا إلى خلاف ما خلقهم عليه؟
 فإن قالوا: نعم قيل لهم: فَلَمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْلُقَهُمْ سَوْدًا وَيَأْمُرَهُمْ أَنْ يَصِيرُوا بَيَاضًا،
 كما خلقهم كَفَرًا وَأْمُرَهُمْ بِالْإِيمَانِ؟ فلا بد من إجازة ذلك أو يتركوا قولهم.
 ثم يسألون أيضًا فيقال لهم: إذا خلق الكفار كَفَرًا أَيْجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْكُفْرُ فَعَلَ
 الْكُفْرَ؟

فإن قالوا: نعم قيل لهم: وكذلك يجوز أن يخلق الأبيض أبيض ويكون
 البياض فعله، ويخلق الأسود أسود ويكون السواد فعله.
 وإن سألك فقالوا: إذا زعمت أن الله تبارك وتعالى خلق العباد للإيمان فلم
 يؤمنوا، لم لا يجوز أن يخلقهم للموت فلا يموتوا؟
 فقل لهم: إنما أعني بقولي: إن الله خلقهم للإيمان أريد أن الله خلقهم ليفعلوا
 الإيمان، ولم يخلقهم للموت ليفعلوا الموت، فهذا فرق ما سألتهم عنه.
 فإن قالوا: خلقهم للإيمان فلا يؤمنون؟
 قلنا: نعم، كما أمرهم بالإيمان فلم يؤمنوا.

فإن قالوا: فما أنكرتم أن يخلقهم للإيمان كما خلقهم للموت؟
 قيل لهم: من قَبْلِ أَنْ مَعْنَى قَوْلِي: خلقهم للموت أريد أن الله خلقهم ليميتهم
 ويضطرهم إلى ذلك، فلو كان خلقهم للإيمان كما خلقهم للموت كانوا كلهم
 مؤمنين، كما كانوا كلهم يموتون، ولو كان ذلك كذلك لم يجوز أن يأمرهم بالإيمان
 ولا ينهاهم عن المنكر والكفر، كما لا يجوز أن يأمرهم بالحياة ولا ينهاهم عن
 الموت، ولا يجبرهم على شيء من ذلك ولا يشيهم به. فمن هاهنا أنكرنا ما
 ذكرتم. ثم يقال لهم: إذا زعمتم أن الله خلق الناس كَفَرًا فَمَنْ جَاءَ بِالْكَفْرِ، مَنْ
 خَلَقَهُ أَوْ مَنْ لَمْ يَخْلُقْهُ؟

فإن قالوا: من خلقه يقال لهم: فما معنى قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾^(٨٧)
 تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا^(٨٨) أَنْ دَعَوْا

لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١٦﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿١٧﴾ ﴿مريم﴾، وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا نُكَرًا﴾ ﴿الكهف﴾، فهل يكون هذا على معنائكم وأصلكم ومذهبكم إلا كذبا؟ لأنكم زعمتم أن الله تبارك وتعالى جاء به وقال للكفار: أنتم الذين جئتم به. فلو أردتم أن تصفوا ربكم بالكذب كيف كنتم تقولون؟ وهل يجوز هذا عندكم وفي عقولكم أن يكون للصادق أن يفعل (١) شيئا ثم يقول لغيره: أنت فعلته؟ ولو جاز أن يكون فاعل هذا صادقا جاز أن يكون من فعل شيئا وجاء به وقال: أنا جئت به أن يكون كاذبا. مع أن الله تبارك وتعالى قد عاب فاعل ذلك وذمه فقال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ ﴿النساء﴾.

وإن زعم أن الكفر جاء به من لم يخلقه، ومن خلقه لم يجيء به - خرج من المعقول، ولزمه أن يقول: إن من لم يخلق الموت هو الذي جاء به وخلق، ومن خلقه لم يجيء به، وهذا خروج من عقول الخلائق.

فإن سأل سائل عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فقال: إذا كان الله قد أخبر أنه خلق لجهنم كثيرا من الجن والإنس، كيف تزعم أنه خلقهم لعبادته؟ وإلا فبينوا ما تأويل الآية عندكم؟

فأول ما نجيبه أن نقول له: ينبغي لك أن تعلم أن كتاب الله لا يتناقض ولا يختلف ولا يكذب بعضه بعضا، لأن الاختلاف لا يأتي من عند حكيم، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿النساء﴾، فإذا علمت أن ذلك كذلك فقد وضح لك الأمر، أمر الآية، من قبل أنه أخبرنا أن خلق الإنس والجن لعبادته، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ثم أخبرك من هم فقال: ﴿لَهُمْ

(١) في المخطوط: أن يكون الصادق يفعل.

قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا.. ﴿١﴾ إلى آخر الآية [الأعراف: ١٧٩]،
 فينبغي لك إذا ورد عليك شيء من كتاب الله مما (١) ذهب عنك معناه أن تسأل
 عنه العلماء، فإن الله عز وجل يقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا
 تَعْلَمُونَ﴾ [النحل]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]،
 وليس ينبغي لعقل أن يدع ما علم لما جهل، وليس لك أن تشك في الواضح إذا
 ذهب عنك الخفي، فينبغي للعقل أن يتمسك بالواضح من كتاب الله،
 وبالمحكم من كلام الله، فإن في ذلك تبياناً وشفاء لمن طلب الحق وأرادَه. وقد
 رَغِبَ الخلق في التمسك بالمحكم من كتابه فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ
 الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي
 قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ
 تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧]، وأنا مخبرك
 بتأويل الآية: قال بعض أهل العلم: إن معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا
 مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، يريد الإعادة، ولم يرد ابتدأهم لجهنم، ألا ترى
 أنهم كانوا في الدنيا يتمتعون ويأكلون.

ولكن لما علم تبارك وتعالى أن أكثر عاقبة هذا الخلق يصيرون إلى جهنم
 بكفرهم جاز على سعة الكلام ومجاز اللغة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ وإن كان إنما
 خلقهم في الابتداء لعبادته، وذلك جائز في اللغة. وقد قال نظير ما قلنا في كتابه
 في موسى عليه السلام، قال: ﴿فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرْنًا﴾
 [القصص: ٨]، وإن كانوا إنما التقطوه ليكون لهم قرة عين، وهكذا حكى الله عن
 امرأة فرعون إذ قالت: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ
 نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]، ومثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا

(١) في المخطوط: فما.

إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١﴾ [النساء]، لما كان عاقبة أمرهم إلى ذلك، وإن كانوا لا يأكلون في الدنيا إلا الأخبصة، والفالوذجات، والأطعمة الطيبة.

وقد قال الشاعر ما يدل على ما قلنا من ذلك:
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنينا (١)
وللمنايا تربي كل مرضعة وللحتوف (٢) برى الأرواح باريها
والوجه الثاني قال فيه بعض العلماء: إن معنى قوله: ﴿ذَرَأْنَا لَهُمْ﴾: خلقنا، ومعنى خلقنا: على أن سنخلق، ليس على قد خلقناكم في الابتداء لجهنم، وإنما أراد به في القيامة، كما قال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] على معنى سينادون، وكما قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [سبا: ٣٣]، إنما يريد الله بقوله سنخلقهم بمعنى الإعادة، وهو يوم القيامة في النشأة الآخرة، فهذا تأويل الآية.

وإنما يدخلون جهنم بأعمالهم جزاء بما كانوا يكسبون، وجزاء بما كانوا يكفرون، وجزاء بما كانوا يعملون، قال الله عز وجل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، يعني: لا يتفقهون بها، وقد كانوا يفقهون ما يقولون، ويصرون ما هو ألطف من الخردل، ويسمعون ما يريدون، ويستثقلون ما لا يريدون. فعلى هذا المعنى تأويل الآية وكل آية تشبهها.

ومن سألك فقال: من خلق الشر؟
فقل له: إن الشر على أمرين: شر هو ألم وأذى وعذاب، وشر هو ظلم وجور وكذب وعبث، فعن أي الشرين تسأل؟

(١) ينسب هذا البيت للإمام علي عليه السلام وينسب لسابق البربري.

(٢) في نخ: وللبلايا.

فإن قال: عن الظلم والجور فقل: إن الظلم من أفعال الظالمين، والجور من الجائرين، والكذب من الكاذبين.

فإن قال لك: فالجور مَنْ خلقه؟

فقل له: لم نقل: إنه مخلوق فتسألنا عن خالقه.

فإن قال لك: فلم يخلق الله الكذب والجور؟

فقل له: إن معنى خلقه: فعله، والله لم يفعل الجور والكذب والظلم، لأن الجور والكذب لا يفعله إلا كاذب جائر ظالم.

فإن قال: ما دليلك على أن الحمى والألم شر؟

فقل له: دليلي على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾

[الأنبياء: ٣٥]، وقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج]، وقول القائل: لم أزل البارحة

في شر طويل، من حمى ووجع ضررس أو أذن أو يد، على ما قال المتوجع.

ثم يقال له: أخبرني عن الخير والشر كله من الله؟

فإن قال: نعم.

يقال له (١): فإذا كان الخير كله من الله فهل كان من النبي ﷺ الخير أيضاً؟

فإن قال: نعم ترك قوله، وزعم أن النبي فعل خيراً، وفعل النبي غير فعل الله. فإن

قال: لم يفعل النبي خيراً فقد شك في الحق وكفره، وجحد حق محمد ﷺ وجهله.

ثم يسأل عن إبليس، يقال: هل فعل إبليس شراً قط؟

فإن قال: نعم ترك قوله، وإن قال: لا فقل له: فلا ينبغي لك أن تستعيز من

شر إبليس؛ لأن من استعاذ من شره فهو أحق عابث، وإذا استعاذ من شر من لا

شر له فقد جهل، هذا مع قول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْقَلْقِ﴾ [القلق]،

إلى آخر السورة.

(١) في المخطوط: فقل له.

ومن سأل عن ولد الزنا مَنْ خلقه؟ فيقال: الله خلق ولد الزنا وولد الكافر، والناس أجمعين.

فإن قال: فأراد الله أن يخلقه؟ فيقال: نعم. فإن قال: فقد أراد الله الزنا؟! يقال: إن ولد الزنا غير الزنا، والله لم يغضب من ولد الزنا، وإنما غضب من الزنا، وكذلك لم ينه الزاني عن الولد، وإنما نهاه عن الزنا، فما نهى الله عنه فليس من الله، وما لم يرده فليس منه.

فإن قال: فيكون وَلَدٌ إذا لم يزن الزاني؟

يقال له: يكون الولد بأن يتزوج، فيكون الولد على غير الزنا.

فإن قال: الولد الذي بعد الزنا كان يكون إلا من الزنا؟ يقال له: قد أخبرناك أن الولد لم يكن من الزنا، وإنما كان لأن الله خلقه. فإن قال: فلو لم يزن^(١) الزاني كان الله يخلقه؟! يقال: لا ندري بعد، الله كان يخلقه ولو لم يزن، كأن يتزوج.

فإن قال: أرأيتك إذا زعمت أن الله أراد أن يخلق ولد الزنا ولم يرد الزاني يزني كيف يكون ذلك؟ يقال له: مثْلُ ذلك: رجل اغتصب أرض رجل فبذر فيها وأراد الله أن ينبت، فالله هو أراد أن ينبت الزرع، ولم يرد الرجل أن يبذر في أرض غيره.

فإن قال: فما معنى هذا؟ يقال له: مثْلُ ذلك مثل رجل زنى وسرق فأراد النبي ﷺ أن يقطعه ويجلده ولم يرد أن يسرق ولا يزني، فإن كان النبي ﷺ لا يقطعه ولا يجلده حتى يسرق ويزني فكذلك لم يرد الزنا، وإن كان الولد لا يكون إلا بعد الزنا.

تم الكلام والحمد لله ولي الأنعام. وصلى الله على رسوله

محمد وآله الكرام، وحسبي الله وحده وكفى، ونعم الوكيل.



(١) في المخطوط: فلو لم يكن الزاني.

الرد على الرافضة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على كل حال،

زعمت الرافضة أنه لم يكن قرن من القرون خلا ولا أمة من الأمم الأولى إلا وفيها وصي نبي أو وصي من وصي، حجة لله قائمة عليهم، وعالم^(١) بأحكامه فيهم، مفروضة عليهم طاعته ومعرفته، ليس لأحد ممن معه في دهره حاله ولا صفته، لا يهتدي إلى الله أبداً من ضله، ولا يعرف الله سبحانه أبداً^(٢) من جهله.

فيسألون - ولا قوة إلا بالله - عن فترات الرسل في الأيام الماضية، وما لم يزل فيها لا ينكره منكر ولا يجهله من الأمم الخالية، هل خلت منها كلها فترة وأمة منهم مستقلة أو مستكثرة من أن يكون فيها إمام هادٍ، حجة لله على من معه من العباد، يعلم من حلال الله وحرامه وجميع ما حكم الله به في العباد من أحكامه ما يعلم من تقدمه وكان قبله من كل ما حكم الله به ونزله؟

فإن قالوا: لا تخلو فترة من الفترات مضت، ولا أمة من الأمم كلها التي خلت من أن يكون فيها إمام هادٍ على العباد لله حجة، ليس بأحد معه إلى غيره من الخلق كلهم حاجة محوجة في احتجاج بحق ولا تبين، ولا في حكم من أحكام الدين، من نذارة لغوي ولا ردئ، ولا تبصرة لرشد ولا هدى، كما قالت الرافضة - فلا حاجة إذاً بعد آدم بأمة من الأمم إلى أن يبعث الله فيهم نبياً، ولا يجدد لهم لرشده وحيا، يعلمهم في دين الله علماً، ولا يحكم عليهم الله حكماً، ومن كان من ذلك وفيه فضل لا فاقة بأحد إليه؛ لأنه لا يبعث نبي في فترة ولا أمة مستقلة ولا مستكثرة، إلا ووصيها فيها كافٍ في الحجة عليها، مستغنى به عن التبصرة والتعريف، وما حملها الله من فرض أو تكليف، تامة به النعمة في الهدى من الله عليهم، لعلمه بجميع أحكام الله سبحانه فيهم، وفيما قالوا به من هذا

(١) في (أ): وعليم.

(٢) «أبدأ» ساقطة من (أ).

القول الغنى عن كل نبي أو رسول جاء عن الله بنذارة لجاهل من عباده أو تعليم، أو هداية لضال من خلقه أو تقويم.

وفي هذا من إكذاب كتاب الله ووحيه وخلاف خبره تبارك وتعالى على لسان نبيه ما لا خفاء به ولا فيه عن موحد ولا ملحد، ولا خصم لَدَّ أو لم يلد. والله يقول تبارك وتعالى في إكذاب من قال بهذا القول عليه في كتابه، بما لا يأباه مكابر مرتاب وإن عظمت بليته في ارتياحه، قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ١٦﴾ [الحجر]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ١٧﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ١٨﴾ [فاطر]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ١٩﴾ [فاطر]، مع ما ذكر - لا شريك له - مما يكثر عن أن نحصيه من تبعيته في الماضين للرسول والنذر، وما لم يزل يجدده من نعمه من ذلك في البشر، لا يذكر سبحانه في ذلك كله وصيا، ولا مما ذكرت الروافض في ذلك كله شيئا، ولو كان الهدى يصاب بغير كتب الله ورسله لَعَرَفَ الله في ذلك بمرتته وفضله، ولذكر حجته به على عباده، وما دلهم عليه به من رشاده، كما قال سبحانه فيما أنعم به من وحيه، وَمَنْ بِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ٢٠﴾ [يونس]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ٢١﴾ [النساء]، مع ما يكثر في هذا ومثله من ذكر نعم الله فيه وفضله، وكما قال سبحانه في ذكره لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ٢٢﴾ [الأنبياء]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٢٣﴾

[آل عمران]. وكما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [١٩] وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٢٠﴾ [الأحزاب]، فذكر سبحانه منته على عباده برسوله وكتابه، وما ذكر في ذلك مما تقول الرافضة - بحمد الله - قليلاً ولا كثيراً، ولا أنه جعل غير رسوله كما جعله (١) سراجاً منيراً، فنحمد الله على ما أفرد به رسوله صلى الله عليه وعلى آله من التقدمة والتبيين، إلى الدلالة به لعباده على كل رشد أو دين، فهدى به في أيام حياته وقبل نزول حمامه ووفاته خلقاً كثيراً من خلقه، ودلهم سبحانه به على سبيل حقه، وهو بينهم سوي حي، ينزل عليه - وهم معه أحياء - الوحي، ببيان ما التبس عليهم، وبما من الله به من بعث رسوله فيهم، قد أكمل له (٢) سبحانه قبل وفاته الدين، وأبان لهم به صلى الله عليه وعلى آله التبيين، بأنور دليل وأقوم سبيل، وأبلغ حجة في هدى وتبصير، وأهدى هداية تكون بنذارة أو تذكير.

وفيهما ما يقول سبحانه: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران]، وكما قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، خبراً منه سبحانه عن أنه قد بين لهم دينهم كله جميعاً تبيناً، ومن ذلك ما يقول سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٧] وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ

(١) «كما جعله» ساقط من (أ).

(٢) في المطبوع: لهم.

جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ
إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا
عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا
بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ [الحج]، فجعلهم جميعاً برحمته
وفضله وإكرامه لأبائهم من أوليائه ورسله شهداء على خلقه وعباده، وأمناء في
أرضه وبلاده.

وجعلهم سبحانه أئمة شهداء كما جعلهم، وفضلهم من ولادة إبراهيم
وإسماعيل عليهما السلام بما فضلهم، فبفعلهم للخيرات وعملهم للصالحات في كل ما
حكم به عليهم من فرضه وعدهم ما وعدهم من الاستخلاف لهم في أرضه، وما
وعدهم في ذلك من مواعيده، وتكفل لهم به في الشكر عليه من مزیده.

وأخبر سبحانه بأصدق الخبر عن فسق من كفر منهم نعمه فيه، ولم يؤد من
شكره به ما يجب لله عليه، فقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا
يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْقَاسِقُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ [النور].

فمن لم يفعل من الإيمان ما فعلوا ويعمل من الصالحات كما عملوا فلم يجعل
الله له إيماناً ولا إسلاماً، فكيف يجعله الله في الهدى إماماً؟! وإنما جعل الله الإمام
من هدى بأمره، وعُرف بالجهاد في الله (١) مكان صبره، كما قال الله لرسوله
ﷺ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا

(١) في (أ): في الجهاد بالله.

بِآيَاتِنَا يُوقُنُونَ ﴿١١﴾ [السجدة].

فكيف يكون بالله موقناً أو معتصماً، أو عند الله مؤمناً أو مسلماً من يشبه الله بصورة آدم، وبما فيه من صورة الشعر واللحم والدم؟ وأولئك فأصحاب هشام بن سالم.

أو كيف يكون كذلك من قال بقول ابن الحكم، وهو يقول: إن الله نور من الأنوار، وإنه سبحانه حبة مسدسة المقدار، وإنه يعلم بالحركات ويعقل، وتحف به الأماكن ويتنقل، وتبدو له البدوات، وتخلو منه السماوات؛ لأنهم يزعمون أنه على العرش دون ما سواه، وأنه لا يبصر ما حجب عنه الحجب ولا يراه، ويدنو لما يدنو له من الأشياء المشاهدة، وينأى عما نأى عنه بالمباعدة، فما نأى عنه فليس له شهيد، وما قرب منها إليه فهو منه غير بعيد.

والله سبحانه يقول فيما وصف نفسه لعباده، وما تعرف إليهم به من الصفات في كتابه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام]، أفما في هذا بيان؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون!!

مع ما بين في غير هذا من بعده عن شبه الأشياء، من النور وغيره من كل ظلمة وضياء، من ذلك قوله سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام]، وقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، وقوله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، والكفو: فهو المثل والند. فلو كان كما قال هشام وأصحابه نوراً أو جسماً، أو كان كما قال ابن الحكم لحماً أو دماً لكانت

أكفاؤه عدداً^(١)، وأمثاله سبحانه أشتاتاً^(٢) بدداً، لأن الأنوار في نوريتها متكافية، والأجسام في جسميتها متساوية، وكذلك تكافؤ اللحم والدم كتكافؤ الجسمية كلها في الجسم. ولو كان كما قال أصحاب النور نوراً محسوساً لكانت الظلمة له ضدّاً ملموساً، ولو كان ذلك بينهما كذلك لوقع بينهما ما يقع بين الأضداد من التغالب والتنافي والفساد، فسبحان من ليس له نديكافيه، ولا ضد من الأضداد ينافيه، خالق كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

وما قالت به الرافضة من هذا فقد تعلم أن كثيراً منها لم يقصد فيه لما قصد، أو يعتقد من الشرك بالله في قوله به ما اعتقد، ألا وإن كل ما قالوا به في الله أشرك الشرك بالله، فنعوذ بالله من الشرك بربوبيته، والجهل لما تفرد به من وحدانيته. هذا إلى ما أتوا به من الضلال بقولهم في الوصية، وما أعظموا على الله وعلى رسوله في ذلك من الدعوى والفرية، التي ليس لهم بها في العقول حجة ولا برهان، ولم ينزل بها من الله وحي ولا فرقان.

وما قالت به الرافضة في الأوصياء من هذه المقالة فهو قول فرقة كافرة من أهل الهند يقال لهم: البرهمية، تزعم أنها بإمامة آدم من كل رسول وهدى مكتفية، وأن من ادعى بعده نبوة أو رسالة فقد ادعى دعوة كاذبة ضالة، وأنه أوصى بنبوته إلى شيث، وأن شيثاً أوصى إلى وصي من ولده، ثم يقودون وصيته بالأوصياء إليهم، ولا أدري لعلهم يزعمون أن وصيته اليوم فيهم.

ولو كان الهدى في كل فترة^(٣) كاملاً موجوداً، ولم يكن إمام الهدى في كل أمة مفقوداً— لما جاز أن يقال لفترة من الفترات فترة، ولا كانت للجاهلية في أمة من الأمم قهرة، وقد ذكر الله لا شريك له أنه لم يرسل محمداً ﷺ إذ أرسله ولم يرسل

(١) في (أ): لكانت أكفاؤه أكفاء عدداً.

(٢) في (أ): أشباهاً.

(٣) في (أ): في كل فترة.

من أرسل من الرسل (١) قبله إلا في أمة ضالة غير مهتدية في دينها لحظها، ولا مستحقة على الله بإصابة رشد لحفظها، ولكن رحمة منه سبحانه لها وإن ضلت، وإحساناً منه إليها في تعليمها إذ جهلت، كما قال الله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فأخبر سبحانه أنهم كلهم كانوا ضالين غير مهتدين، ولو كان فيهم حيثنذ وصي وأوصياء لكان فيهم يومئذ لله ولي وأولياء، ولما جاز مع ذلك لو كان كذلك أن يقال لهم: أمة واحدة؛ لأنهم فرق متضادة لا تجمعهم في الهدى كلمة، ولكنهم في الضلال أمة.

وكما قال سبحانه في بعثته لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٢٤]، فما ذكر سبحانه أنه كان فيهم يوم بعثته له إليهم ومته بالهدى فيه عليهم مهتد واحد منهم (٢) بهداه، ولا قائم بها هو الهدى من تقواه، لا رسول ولا نبي، ولا إمام ولا وصي، حتى من تبارك وتعالى عليهم ببعثته لمحمد ﷺ إليهم، فأقام لهم به منار الهدى وأعلامها (٣)، [ونهج لهم سبل الحجج بأنوار أحكامها] (٤)، فبين به من ذلك كله ما قد كان درس وهلك خفاتها، وأحيا به من ذلك كله ﷺ ما كان موأناً، توحداً منه سبحانه بالمنة فيه على خلقه، وإفراداً لرسوله ﷺ بالدلالة على حقه، فلم يبق من هدى المحجوجين من العباد باقية بهم إليها حاجة في رشاد، يكون بها لهم في دنياهم صلاح، ولا لهم فيها عند الله فلاح إلا وقد جاء بها كتاب الله سبحانه منيرة مستقرة، وكرر - لا إله إلا هو - بها فيه بعد تذكرة تذكرة، إحساناً إليهم ورحمة، وتذكرة لهم وعصمة، ومظاهرة

(١) «من الرسل» ساقط من (ب).

(٢) «منهم» ساقطة من (أ).

(٣) قال في هامش المطبوع: في (أ، ب، ج): وأعلامه.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

للنعمه فيهم وإسباغاً، واحتجاجاً بكتابه عليهم وإبلاغاً، كما قال سبحانه: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران]، وقال سبحانه: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف].

فأين ذكر الرافضة في هذا وأمرها من ذكر الله وأمره، وما بين سبحانه من إكذابهم فيما قالوا بخبره؟! فالله سبحانه يخبر أن كلهم كان ضالاً فهداه، وجاهلاً بالهدى حتى علمه الله بمنة إياه، كما قال سبحانه لبني آدم: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل]، وقال سبحانه لرسوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل].

ولا يهتدي أحد أبداً إلا من ضلال، ولا يهتدي من تركه الله في جهالته من الجاهل.

فالله سبحانه يخبر أنهم كلهم كانوا في ضلال وعمى، وقد كانوا جميعاً جهلة بدينه لا علماء. والرافضة تزعم أن قد كانت فيهم يومئذ الأوصياء، وأنها قد كانت تعلم من الدين حينئذ ما كانت تعلمه الأنبياء، ومن كان لبعض علم الهدى وارثاً، وكان هدى الأنبياء ﷺ له تراثاً كان برياً من الضلال، وغير معدود في الجاهل، فإذا كان ذلك في الأوصياء كذلك، وكانوا يزعمون أنهم إنما أخذوا هذا عن الكتاب وقبلوه، وادعوا فيما قالوا به منه حكم الكتاب وتنحلوه - كان فيه للكتاب من التهجين ما يلحد فيه كل لعين، شأنه تعطيل كل

دين، وتلبس كل برهان مبين؛ لأن ما قالوا به من هذا فمن القول المتناقض المستحيل، إذ وصفوا بعضهم بالهدى مع وصفهم لكلهم بالتضليل، لأن في أن يكون كلهم عمياً دليل (١) على أن لا يكون منهم أحد مهتدياً ولا وصياً، وفي أن لا يكون منهم وصي ولا مهتد خبر (٢) عن أن كلهم ضال ردي، وهذا فهو التناقض بعينه، وما لا يحتاج كثير إلى تبينه، والله الحمد في ذلك كله قبل غيره، وبالله نستعين على ما أوجب بالهدى من إجلاله وتكبيره.

ومما يسأل عنه الرافضة - إن شاء الله - فيما يقولون به من الأوصياء أن يقال لهم: حدثونا عن النبي ﷺ أكان وصياً لمن كان قبله من الأنبياء؟ فإن قالوا: نعم قد كان لمن قبله وصياً كان أمرهم في المكابرة جلياً، ولم يخرجهم ذلك من كر المسألة إليهم، وتوكيد الحجة بما في المكابرة عليهم. فيقال لهم: حدثونا عن الوصي الذي أوصى إلى النبي ﷺ بالوصية أمن أهل اللسان العربي كان أم من أهل اللسان العجمي؟

فإن قالوا: إن من أوصى إليه صلوات الله عليه ورضوانه، كان يومئذ وصياً عربياً زعموا أن الوصي حينئذ كان أمياً؛ لأن كل عربي كان حينئذ بغير شك أمياً، لأن الله لم ينزل عليهم يومئذ قرآناً، ولم يتصل (٣) لهم حينئذ بوحي فرقاناً، ولم يكن يومئذ أحد من العرب رسولاً نبياً يجوز أن يكون له أحد وصياً؛ لأنه معلوم عند كل أحد من الأمم غير مجهول أنه لم يكن في العرب بعد عيسى صلى الله عليه رسول، ولا مدع يومئذ وإن أبطل يدعي أن يكون نبياً قد أرسل.

فإن قالوا: فإن الوصي الذي أوصى إلى النبي ﷺ كان أعجمياً قيل: أو

(١) هكذا في المخطوطات.

(٢) هكذا في المخطوطات.

(٣) في (أ): يفصل.

ليس قد كان بعلمه علمه (١)، وكان ﷺ في علمه (٢) به مقتدياً؟! فإذا قالوا: بلى. قيل: فإن الله تعالى يقول في ذلك بخلاف ما تقولونه، ويخبر أنه لم يعلمه يومئذ بشر عربي ولا عجمي، تعلمونه ولا تجهلونه، قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل]، فأخبر أن معلمه صلى الله عليه وآله غير أمي، وأنه (٣) علمه بلسان عربي مبين. ولو كان الأمر كما تقول الرافضة في الإمامة والوصية لما خلا النبي ﷺ فيما نَسَبَتْ إلى عربية أو أعجمية من أن يكون قبل نبوته وبعثته وما وهبه الله بالرسالة من نعمته لم ير وصياً ولم يصل إليه، ولم يعرفه ولم يستدل عليه، فيكونوا هم اليوم أهدى منه يومئذ في معرفة وصيهم سبيلاً، أو يكون الله أقام لهم في معرفة الأوصياء ولم يقم له دليلاً، أو يزعمون أن قد لقي وصي وصي عيسى صلى الله عليه وآله ورآه، وكان مهتدياً يومئذ بهداه، من قبل محيي رسالة الله إليه، وقبل تنزيله سبحانه لوحه عليه، فيزعمون (٤) أن قد كان يومئذ مهتدياً غير ضال، وبرياً قبل نبوته من جهل الجاهل، وعالماً بجميع الإيمان، فيكذبوا بذلك آيا من الفرقان، منها قوله سبحانه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى]، وقوله سبحانه في آية أخرى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى].

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ

(١) في (أ، ب): في عمله.

(٢) في (أ، ب): في عمله.

(٣) في المطبوع: بأنه.

(٤) في (أ، ب): فيزعموا.

لَيْثُ فِيكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ [يونس]، فهو صلى الله عليه لم يكن يدري ما الإيمان حتى أدري، ولا يعلم ﷺ ما الهدى عند الله حتى علم وهدى، وبعض أئمتهم عندهم فقد علم ما الهدى والإيمان وهو وليد طفل، ورسول الله صلى الله عليه لم يكن يعلمه حتى علمه الله إياه وهو رجل كهل، فأى شنة أشنع أو وحشة أفظع من هذا ومثله، وما يلحق فيه بأهله من مزيلة كل حق ومخالفة كل صدق؟! فإن هم أبوا ما وصفنا لتفاحشه، ولما يدخله من شنائع أواحشه، فزعموا أنه لم يكن في الأمم لا في العرب منها ولا في العجم قبل بعثة النبي محمد ﷺ وصي يعلم يومئذ ولا إمام ضل رسول الله ﷺ بجهله، ولا أصاب الهدى يومئذ من قبله، حتى آتاه الله هداه ورشده، وبصره سبيل الهدى وقصده، كما فعل بأبيه إبراهيم صلى الله عليه فيما آتاه قبله من رشده، ودله عليه من الهدى وقصده، إذ يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء]، ويقول فيه عند تلمسه ليقين المعرفة برب العالمين: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنَّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام]، فقرر به ﷺ قرار اليقين في معرفته برب العالمين، حين برئ عنده سبحانه من مذموم الأقول^(١) والزوال، وتصرّف اختلاف التغير والأحوال، وما لا يكون من ذلك إلا في الأمثال المتعادلة، وأشبه الصنع المتماثلة، التي جل الله سبحانه أن يكون لشيء منها مثيلا، أو يكون لشيء منها جل جلاله عديلا.

(١) في (أ، ب): من مذموم الأقوال.

وفي مثل ذلك ما يقول سبحانه لمحمد ﷺ مع إفضائه من يقين المعرفة إلى ما أفضى إليه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ [الأنعام]، فهو ﷺ يخبر أنه أول أمته وقرنه، ومن كان معه من أهل أيامه وزمنه بالله لا شريك له إسلاماً وإيماناً.....(١).

والله يخبر أن قد أرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين، ولو كان معها صلى الله عليهما يومئذ وصي لمرسلين لكان إسلام الوصي وإيمانه قبل إسلام إبراهيم ومحمد وإيمانها، ويقين الوصي بالله وعلمه قبل علمها بالله وإيقانها، ولما جاز أن يقول محمد ﷺ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام]، فيما قد سبقه غيره ممن معه إليه، وإبراهيم صلى الله عليه يطلب يومئذ الدين، ويلتمس حينئذ بالله (٢) جاهداً اليقين، بحيلة كل محتمل بفكره، ويخاف الضلال عن الله مع نظره، ويقول: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام]، ويقول للكواكب: ﴿هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام]، ومعه وصي أيامه ودهره لا يخطر على باله ولا نظره (٣)، ولا يقع على شيء مما يحيل بفكره.

والرافضة اليوم تزعم أنها قد تعلم أنه قد كان معه وصي يلزمه أن يعرفه بعينه، ويعلمه ما يلزمها اليوم من معرفة الوصي، وما تدعي فيه من باطل الدعاوي، فهي عند أنفسها تعلم من الأوصياء في دين الله ما لم يكن يعلمه منهم خليل الله، وتهدي من الرشد فيه ما لم يهد الله خليله إليه. إلا أن تزعم أنه لم يكن مع إبراهيم وفي أمته وصي يهديها، فيكون في ذلك بطلان ما في أيديها، وما يلزمها

(١) هنا بياض في المخطوطتين.

(٢) «بالله» ساقط من (ب).

(٣) في (ب): ونظره.

من هذا في إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما فقد يلزمها في كثير من رسل الله معهما، صلى الله على رسله وأنبيائه، وزادهم الله فيما خصهم من كرامته واصطفائه.

وإمامهم اليوم - فيما يزعمون، وكما في إفكهم يقولون - يدري ما كان رسول الله دارياً، ويدعو إلى ما كان إليه داعياً، ودعوته صلى الله عليه وآله كانت إلى الخير والهدى، وتبين ما كان بين عليٍّ (عليه السلام) من الغي والردى، وإنذار من أدبر عن الله يومئذ وأعرض، وإعلام العباد بما حكم الله يومئذ وفرض.

فهذه صفة رسول الله ﷺ وعلمه وفعله ونعته، وقد يزعمون أن للإمام أحواله كلها لا رسالته. فأين صفة أئمتهم وأحوالهم من صفة النبي صلى الله عليه وعلى آله وأحواله؟ وأين ما نرى من فعال أئمتهم قديماً وحديثاً فيما وصفنا كله من فعاله؟ لا أين، وإن كابروا وأقروا بخلاف ذلك أو لم يقرؤا. أولاً تعلم أنه إذا كان وصيهم غير نذير، ولا مذكر بما أمر الله به من التذكير، ولم يكن إلى ما دعا إليه الرسول ﷺ داعياً - كان عند من يؤمن بالله واليوم الآخر من الهدى برياً قاصياً، وإذا لم يكن بما كان به رسول الله ﷺ على من خالفه محتجاً لم يكن منهجه عند من يؤمن بالله واليوم الآخر لرسول الله ﷺ منهجاً.

تم كتاب الرد على الرافضة والحمد لله رب العالمين، وصلى

الله على سيدنا محمد النبي وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً



الرد على الروافض من
أهل الغلو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افترق من ادعى التشيع على ثلاثة عشر صنفاً، منهم اثنا عشر في النار، وهم الروافض.

فصنف من الروافض يقال لهم: السحابية، وهم يزعمون أن علياً حي لم يمت، يسوق العرب والعجم بعصاه، وهم يزعمون أن علياً في السحاب.

وصنف آخر يقال لهم: الكيسانية، وهم أصحاب محمد بن الحنفية، يزعمون أنه لم يمت ولا يموت حتى يملأها عدلاً كما ملئت جوراً.

وصنف آخر يقال لهم: الرّوندية.

وصنف آخر [يقال لهم: الموصية]^(١) قادوا الوصية إلى جعفر بن محمد، وزعموا أن الوصية انتهت إليه، وهم الروافض.

ثم افترقوا من عند جعفر، وزعموا أن الوصية وراثتاً يرث ابن عن أب.

ثم افترقت منهم طائفة يزعمون أن جعفرأً أوصى إلى ابنه إسماعيل، وإسماعيل مات قبل جعفر، وزعموا أنه لم يمت، وذلك الذي دفنه جعفر جذع نخلة، وغيبه جعفر تقية عليه، وقادوا الوصية إلى ولده، وهم يقال لهم: المباركية، يصومون قبل رمضان بيومين، ويفطرون قبل الفطر بيومين، يزعمون أن الشهر من غيبوبة الهلال إلى غيبوبته.

وصنف آخر يقال لهم: الفطحية^(٢)، منهم زرارة، وحران، وبكير، ومحمد بن مسلم، وعمار الساباطي، ومعاوية بن عمار، وكانوا يزعمون أن جعفرأً أوصى إلى عبدالله ابنه، وهو الإمام من بعده، ثم أوصى عبدالله إلى موسى.

وصنف آخر منهم يقال لهم: المفضلية، زعموا أن موسى وصي جعفر، وهو الإمام من بعده.

(١) ما بين المعوقين ساقط من (أ).

(٢) في (أ، ب): الفتحية.

وصنف آخر يقال لهم: السبطية^(١)، زعموا أن جعفرأ أوصى إلى محمد ابنه، وهو الإمام من بعده، وهو مفقود.

وصنف آخر يقال لهم: الخطابية، زعموا أن الإمامة انتقلت من جعفر إلى الخطاب، والخطاب خليفة جعفر ووصيه وجعفر غائب حتى يرجع.

وصنف آخر من الروافض من أصحاب موسى وقفوا على موسى، وزعموا أن موسى حي لم يمت، ولا يموت حتى يملأها عدلاً كما ملئت جوراً، ويقال لهم: الواقعة والمطورة.

وصنف آخر منهم يقال لهم: القطعية، وهم أصحاب علي بن محمد.

وصنف آخر منهم يقال لهم البشرية، وهم من أصحاب علي بن محمد أيضاً، يزعمون أنا إذا عرفنا إمام زماننا فليس علينا شيء من الأعمال، لا صلاة ولا صوم ولا زكاة ولا حج ولا شيء من الفرائض حتى يظهر حكم صاحبنا؛ لأننا في الفترة، وقد غُيِّرَتْ وبُدِّلَت الأحكام والفرائض، فليس علينا من هذا شيء إلى يوم القيامة.

[أقوال من قال بجعفر من الروافض في الإمام والرد عليهم]

وكل من قال بجعفر من الروافض يزعم أن الإمام يخلق عالماً، وطبعه العلم، والعلم مطبوع فيه، يزعمون أن الإمام يعلم الغيب، ويعلم ما في تخوم الأرضين السابعة السفلى، وما في السماوات السابعة العليا، وما في البر والبحر والليل والنهار عنده مجرى واحداً. فسبحان الله!! وما هذه إلا صفات^(٢) رب العالمين، وكيف يخلقون علماء ورسول الله ﷺ لم يُخلق عالماً؟ ولم يكن طبعه العلم، ولم يعلم إلا بعد تعلُّم، ولم يعرف حتى عُرِّف وكيف وقد حدَّث بعض أهل بيت النبي ﷺ عن آبائه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أنا عبد مخلوق مريبوب، لم

(١) في (أ، ب): السفطية.

(٢) في (أ): صفة.

أكن نبياً فنبئت، ولم أكن رسولاً فأرسلت، ولم أكن عالماً فعُلمت، فلا تقولوا فيّ فوق طولي)).

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، فسماه ضالاً ثم هداة، ولم تكن ضلالة رسول الله ﷺ ضلالة شرك، ولا كضلالة قريش، ولا كضلالة اليهود والنصارى، غير أنه كان ضالاً عن الشرائع، أي: جاهلاً بالشرائع حتى بصره الله وهداه وعرفه، ولم يجهل رسول الله ﷺ رب العالمين.

أما بلغك قول الله سبحانه لنبيه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]؟ وهل تكون الزيادة إلا من نقصان؟ فما لم يكن لرسول الله ﷺ فلا يكون لأحد من خلق الله، وكل عالم بعد جهل يعلم، ولا بد أن يقع اسم الجهل على كل خلقه؛ كيلا يُشَبَّه أحدٌ من خلقه به؛ لأن الله لم يجهل ولم يتعلم ولم يزل عالماً، وكل خلقه بعد جهل تعلموا، والله سبحانه لم يجهل ولم يتعلم. ولو كان على ما قالت الروافض بأن الأئمة علماء غير متعلمين، ولا يجوز الجهل في وقت من الأوقات على أحد من الأئمة، فسبحان الله أفليس قد شبهتموه برب العالمين؛ إذ لم يجهل صاحبكم ولم يتعلم؟ أو ليس قد شبهتموه بالله بقولكم زعمتم: إنه يعلم الغيب، ويعلم أعمال العباد ومواضعهم، كل رجل باسمه ونسبه، ويعلم ما تلفظونه، ويعلم ما في قلوب العباد، فسبحان الله عما يقولون! وهل هذه إلا صفة رب العالمين؟!

وتأولوا قول الله سبحانه في كتابه لقوله: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، فيزعمون أن الله ورسوله والأئمة يرون أعمال العباد، فسبحان الله كيف يرى ما غاب عنه؟ وإنما قال سبحانه: ﴿اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وإنما عنى تبارك وتعالى أي: فسرى المؤمنون والأنبياء في الآخرة أعمالكم إذا ظهر الغيب

وانكشف الستر، وكان فريق في الجنة وفريق في السعير، واستبان للخلق المطيع من العاصي، والكافر من المؤمن، والصالح من الطالح، فكم من مستور عليه يُجرُّ إلى عذاب أليم، وكان عند الناس على خلاف ذلك في دار الدنيا.

ولو رأى أحد ممن وصفت الروافض من الأنبياء والأئمة من غير أن يُخبر لم يكونوا يموتون بالسم، ولم يكونوا ليأكلوا السم فيعينوا على أنفسهم بالقتل وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وليس من أكل شيئاً من السم وهو يعلم أن فيه نفسه فقد أعان على قتلها؟ فإن زعموا أنهم أكلوا السم من الخوف يقال لهم: من أي شيء يخاف؟ فإن زعموا أنه إنما يخاف من القتل فقل لهم: أوليس قتله في السم؟ فلا يأكل حتى يقتل مظلوماً خير له من أن يقتل نفسه وهو معين عليها.

وكيف يعلم وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩]، يعني من حوادث الدنيا، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]، فكيف يرى أعمال العباد؟! هذا كتاب الله يكذب قولكم. ولو كان الأمر على ما وصفتم لم يقل تبارك وتعالى بخلاف قولكم، لقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]. وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، فهل أصحابكم إلا من الأنفس. وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٣]، فقد جمعت هذه الآية جميع ولد آدم؛ لأن كل ولد آدم خرجوا من بطون النساء، كل نبي وغيره، وقد أخبرنا أنهم لم يعلموا شيئاً حتى عُلِّموا، وقد قال تصديق ما قلنا في محكم كتابه: ﴿مَا كُنْتُ تَذَرِي مَآ الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وجميع دعواكم مُكذَّب له كتاب الله، فيا سبحان الله ما أعظم ما تقولون! وهل الشرك إلا دون ما ترعمون؟

فإن زعموا أنهم يجهلون تأويل كتاب الله والنظر فيه، وتحتجون علينا بشيء وتأويله خلاف ما تظنون يقال لهم: كيف ذلك؟

فإن زعموا أنه ليس لأحد ينظر في تأويل كتاب الله ولا يحتاج به إلا الأئمة يقال لهم: أخبرونا عن القرآن كله ليس لأحد ينظر في تأويل كتاب الله، ولا يحتاج به إلا الأئمة، ولا يتدبره إلا هم؟

فإن قالوا: نعم فقل لهم: فلم يتعلم الناس كتاب الله وهم لا يتدبرون فيه؟ وكيف وقد كذب الله قولكم بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد]، أفترى هذا قال الله للأئمة؟!

فإن قالوا: نعم فقل: أفلا ترى أن الله قد عاب أئمتكم إذ تركوا تدبر كتاب الله، وعابهم فقال: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد]؟

فإن قالوا: ليس هذا في الأئمة، وإنما هذا العوام أن ينظروا في كتاب الله. يقال لهم: أفلا ترون أن الله ألزم العباد النظر في كتابه، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠١]، أوليس عابهم لما تركوا النظر في كتابه، ومعرفة ما أمرهم به ونهاهم عنه، ومعرفة الأولياء من الأعداء، فكمما تركوه عابهم بذلك! وقد قال رسول الله ﷺ فيما رويتم وروينا: ((أيها الناس، خلفت فيكم الثقلين فتمسكوا بهما لا تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي)). وقد قال ﷺ: ((أيها الناس، قد كذب على الأنبياء الذين كانوا من قبلي، وسيكذب علي من بعدي، فما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فإن وافق كتاب الله فهو مني، وإن لم يوافق كتاب الله فليس مني))، فكيف كان يدعونا رسول الله ﷺ ويأمرنا بشيء ليس لنا فيه النظر؟ لقوله: ((اعرضوه على كتاب الله)).

وقوله ﷺ: ((تمسكوا بالثقلين))، فإن كان الإمساك بالقرآن هو القراءة فقد قرأه جميع أهل الأهواء، فهم ممن حفظ وصية رسول الله ﷺ وتمسكوا

بكتاب الله.

فإن زعموا أنه لا يكون التمسك إلا بالنظر فيه والقيام بما فيه والعمل به فقد أطلقوا للخلق ينظرون فيه، ويعرفون الحق من الباطل، وقد وجدنا كتاب الله مكذباً لجميع دعواكم.

[قول الروافض: إن الإمامة يرثها الابن عن الأب والرد عليهم]

ثم قالت الروافض: إن الإمامة وراثه يرث ابن عن أب، وتأولوا كتاب الله، وزعموا أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله.

فإن كان الأمر على ما وصفت^(١) الروافض أفليس الابن أولى بالأب من الأخ وأحق بالوراثه وأقرب رحماً؟ لأن الابن من الأب، والأخ ليس من الأخ، أفليس على مذهب قولكم: أن الحسن بن الحسن أولى بأبيه من الحسين؟ أوليس لا يرث الحسين مع الحسن بن الحسن؟! لقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ أَمْرُهُ هَٰذَا لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، أوليس إذا كان الولد قطع ميراث الأخ والعم؟ أوليس الحسن بن الحسن قطع ميراث الحسين بن علي من الحسن؟ إذا كانت الإمامة على ما وصفتم من الوراثه؟

فإن زعموا أن حسيناً أولى برسول الله ﷺ، وأقعد من حسن بن حسن - يقال لهم: أوليس قد خرج الأمر من رسول الله ﷺ إلى علي بعد موته؟ وخرج من علي إلى الحسن؟ فكان يجب على الحسين طاعة حسن، والأمر للحسن دون الحسين، ويخرج من الحسن إلى الحسن، أوليس ابن الحسن أولى بالحسن من حسين؟ فإن زعموا أن الحسن والحسين هما مشتركان في هذا الأمر وورثا علياً جميعاً فقد تركوا قولهم ودعواهم بالوصية إذا كانا مشتركين في هذا الأمر، فمن قام به فهو صاحبه.

(١) في (أ): على ما زعمت.

فإن زعموا أن ليس للحسين أن يقوم في وقت حسن فقد قطعوا الأمر من الحسين في زمان الحسن؛ لأن طاعة حسن واجبة على حسين، وقد حاز الأمر الحسن (١) دون الحسين، وورثه ابنه الحسن بن الحسن.

فإن قالوا: لا يرث حسن بن حسن رسول الله ﷺ وحسين قائم؛ لأن الحسين أقعد برسول الله ﷺ، فمن كان أقرب برسول الله ﷺ وأقعد فهو أولى برسول الله ﷺ؛ لقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وإنما هذه الآية يعني بها أرحام رسول الله ﷺ وحسين أقرب رحماً برسول الله ﷺ من حسن بن حسن.

يقال لهم: قد بطلت دعواكم في صاحبكم؛ لأنه ليس في جميع آل أبي طالب أبعد رحماً من صاحبكم، لا يلحق برسول الله ﷺ إلا بثمانية آباء، وصاحبكم التاسع، وفي ولد فاطمة من هو أقرب برسول الله ﷺ منه، من ليس بينه وبين النبي إلا أربعة آباء، أوليس هذا أقرب رحماً وأقرب قرابة وأقعد (٢) برسول الله ﷺ من الذي زعمتم؟ فليس لصاحبكم مع هذا أمر ولا نهي؛ لأن هذا أقرب قرابة برسول الله ﷺ وأقعد، فهذا أبطل لدعواكم.

فإن زعمت الروافض بأن الحسن بن الحسن كان صبيّاً وحسين بالغ، ولا يكون إمام المسلمين إلا بالغاً، فصدقتم - يقال لهم: أخبرونا عن صاحبكم علي بن موسى حين مات، أليس كان ابنه ابن أربع سنين أو ثلاث؟ وابن محمد حين مات كان ابنه صغيراً؟ فلم نصبتهم الأطفال إذا لم يجز لطفل أن يكون إمام المسلمين؟! هذا يبطل دعواكم، ويدخلكم فيما عبتُم وزعمتم أنه لا يصلح حسن بن حسن أن يكون إماماً لأنه طفل صغير، ثم نصبتهم الأطفال وزعمتم أنهم أئمة، وهما أصغر سناً من حسن بن حسن، وكيف ويحكم يجوز أن يكون طفل

(١) في (أ، ب): وقد جاز الأمر للحسن.

(٢) في (أ): وأقرب.

إمام المسلمين وليس في سنة رسول الله ﷺ ولا حكم الإسلام أن يصلح خلف طفل، ولا تؤكل ذبيحته، ولا تقبل شهادته، ولا يجوز بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه، ولا يؤمن على ماله، فمن لم يؤمن على هذه الأشياء ولا تأمنه على ألف درهم أو أقل أو أكثر فكيف يأمنه الله على أحكام دينه ودماء عباده وفروجهم ويقيم مقام الأنبياء؟ لقوله تبارك وتعالى: {حجة بالغة} (١) فلا تكون الحجة لله في أرضه إلا عند بلوغه.

وقوله تبارك وتعالى في الأطفال اليتامى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، فيا عجبا ممن لم يأمنه الله على ماله إلا عند بلوغه فكيف يأمنه على خلافته؟

وقد روينا أن جعفر بن أبي طالب جلس بين يدي النجاشي فقرأ آية من الإنجيل ففهمها جعفر فضحك، فغضب النجاشي فقال: يا جعفر، أكتباب الله تهزأ؟ والله إن الله أنزل على موسى في التوراة، وعلى داود في الزبور، وعلى عيسى في الإنجيل، وعلى نبيك في القرآن (أن إذا ولي الخلائق الأطفال نزلت عليهم من السماء لعنة، أو أفرغت عليهم من السماء لعنة)، فكيف -ويحكم- يكون الطفل إمام المسلمين؟

وإن زعمت الروافض بأن يحيى بن زكريا كان صبياً وكان نبياً يقال لهم: أحكم الأنبياء وحكم الأئمة واحد؟

فإن قالوا: نعم يقال لهم: فبِمَ بان الأنبياء من غيرهم إلا أن الأنبياء أعطوا ما لم يعط غيرهم من الأئمة، وأعطى الأئمة ما بانوا به من سواهم من الخلائق؟ مع أن يحيى بن زكريا لم يرسل إلى أحد من خلق الله، وكان نبياً ولم يكن مرسلًا، ولم يل أحكام الأئمة، وكانت الأحكام إلى غيره، إلى زكريا مع أن يحيى دعاء زكريا إذ

(١) هكذا في الأصل وليست آية، ولفظ الآية: ﴿الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم]، وقال: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿هَئِذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران]، فوهب الله يحيى^(١) إجابة لزكريا، وكان في وقت يحيى الحجة زكريا.

فإن زعمت الروافض أن عيسى بن مريم تكلم في المهد صبياً يقال لهم: أفترعمون أن عيسى بن مريم وصاحبكم شيء واحد؟! ألا ترى أن الله تعجب به خلقه، وأخبرهم بقدرته إذ قال: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]؛ لأنه لم يكن في ولد آدم مثله خلق من غير أب، ولم يقل: إن صاحبكم وأمه آية، مع أنه يستبين من صاحبكم للناس خلاف ما استبان من عيسى ويحيى وهما نبيان، فتحتجون علينا بحجة الأنبياء، وتساوون أصحابكم بالأنبياء، ونرى أفاعيلهم خلاف أفاعيل الأنبياء، إذ أخذوا التقية من المخلوقين دينا، وهذا يحيى بن زكريا لم يخف غير الله، ولم يدار في دينه استبقاء على بدنه، حتى قتل صلى الله عليه، ومع أن يحيى لم يلبس اللين، ولم يأكل الطيب، وكان باكياً آثار الدموع بخديه، حتى مضى إلى الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا عيسى بن مريم تكلم في المهد صبياً، لم يحبس كلامه تقية على نفسه، وكان يخلق من الطين كهية الطير بإذن الله، فينفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله، وكان يرى الأكمه والأبرص بإذن الله، وكان يحيى الموتى بإذن الله، وكان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، لم يتق أحداً من خلق الله ولا راقبه، وكانوا يقولون: ساحر مجنون كذاب كاهن، فلم يسعه كتمان ما جعل الله فيه بما عاين من تكذيب الخلق له، مع أن فعل عيسى بان من فعل صاحبكم.

(١) في (ب): فوهب الله له يحيى.

وليس كل الأنبياء ولّوا حكم الأمة، وإنما كان بعضهم نبي نفسه، وبعضهم نبي أهله، وبعضهم نبي أهل بيته، وبعضهم نبي قرابته، وبعضهم نبي قومه. وليس حكم الأنبياء كحكم غيرهم ممن دونهم، مع أنه قد مضت سنة بني إسرائيل، وهذه سنة محمد ﷺ.

فإن زعموا أن السنة لم تزل من لدن آدم إلى يومنا هذا فقد كذبوا كتاب الله، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقد حرم الله على بني إسرائيل الصيد يوم السبت^(١) وأحل لنا، وقد حرم الله عليهم الشحم وأحل لنا، لقول الله سبحانه: ﴿وَلَا أُحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، أفلا ترى أن عيسى حلل لأمة الذي حرم موسى على أمة.

فإن زعموا واحتجوا بقول الله: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]، ثم قال: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣١] أي: بالدعوة؛ لأن دعوة الأنبياء واحدة؛ لأن كلهم دعوا إلى طاعة الله ونهوا عن معصية الله، غير أن في الشرائع لكل أمة شريعة، وأحل لأمة ما حرم على غيرها، محنة من الله وامتحانا، مع أن الأئمة من آل محمد ﷺ الصفوة بعد الصفوة، لذلك ورث حسين الإمامة، لأنه كان خير أهل زمانه، مع ما كان فيه من الدلائل في نفسه والآثار من نبيه، وإجماع الأمة بأنه خير أهل زمانه، وهو وأخوه سيذا شباب أهل الجنة، فهل يكون لأحد أن يتقدم على من هو خير منه؟! فالإمامة لا تكون إلا لخير أهل الأرض، يستبين للناس فضله وزهده وعلمه، وإنما الإمامة لقلة^(٢) وصفوة وخيرة، ولم تزل كذلك من لدن آدم تنقل من صفوة إلى صفوة.

ولو أن الإمامة والنبوة كانت وراثية لم تخرج من اليمن إلى غيرها، إذ كان هود

(١) «يوم السبت» ساقطة من (أ، ب).

(٢) في (أ): لعدة.

نبياً، كان يجري الأمر في ولده، فلم يخرج الأمر منه إلى غيره، ولكن إنما هي صفوة بعد صفوة، كذلك يصطفي الله من كل قوم خيرهم، فاصطفى من اليمن هوداً وصالحاً وشعيباً.

فإن زعم زاعم أن هوداً وصالحاً وشعيباً من ولد إبراهيم يقال لهم: ألا ترون أن الله قص علينا خبرهم ثم قال في كتابه عن قول صالح لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٤]، هذا من قبل إبراهيم.

ثم اصطفى الله من الأعاجم إبراهيم خليله، فجرت النبوة والخلافة والإمامة في ولده، ثم جرت من ولده في ولد إسحاق، ثم اصطفى من ولد إسحاق يعقوب، ثم اصطفى من ولد يعقوب يوسف، ثم اصطفى من ولد إسحاق أيوب، وهو من غير ولد يعقوب، ثم جرت الصفوة في ولد يعقوب، حتى انتهت الصفوة إلى موسى بن عمران، ولم يكن موسى من يوسف، ثم جرت الصفوة في يوشع بن نون، وكان يوشع خير أهل زمانه، ثم جرت الصفوة في ولد هارون، وإنما تنتقل الصفوة من بطن إلى بطن من بني إسرائيل حتى انتهت الصفوة إلى عيسى بن مريم.

ثم جرت الإمامة والدعاة^(١) فيمن تبع عيسى بن مريم، حتى انتهت كرامة نبوة الله إلى محمد ﷺ وعلى جميع النبيين، فانتقلت من ولد إسحاق إلى ولد إسماعيل، وجرى الأمر والصفوة في ولد إسماعيل، إذ صار الأمر إلى رسول الله ﷺ، وجرى الأمر في ولد النبي ﷺ الصفوة بعد الصفوة.

(١) في المطبوع: الزعامة.

[صفة الإمام]

وإنما الصفة لا تكون إلا في أخير أهل زمانه، وأكثرهم اجتهاداً، وأكثرهم تعبداً، وأطوعهم لله، وأعرفهم بحلال الله وحرامه، وأقومهم بحق الله، وأزهدهم في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة، وأشوقهم للقاء الله؛ فهذه صفة الإمام. فمن استبان منه هذه الخصال فقد وجبت طاعته على الخلائق.

فتفهموا وانظروا هل كان بيننا وبينكم اختلاف في علي بن أبي طالب؟ ثم من بعده في الحسن بن علي؟ أو هل اختلفنا من بعده في الحسين بن علي؟ أو هل اختلفنا في محمد بن علي؟ أو هل ظهر منهم رغبة في الدنيا أو طلب^(١) أموال الناس؟ أو هل بخلوا بما عندهم؟ أو هل اتخذوا القصور والمراكب والخدم والأتباع؟ أليس قد مضوا إلى الله على البصيرة؟!

فلوا أردنا أن نجحد الحق لجحدناهم من بعد الحسين بن علي، فصيرناه في أهل بيت النبي ﷺ عامة، ولكن اتبعنا الحق حيث أمرنا الله باتباعهم، وأقررنا بفضل من جعل الله فيه^(٢) الفضل، فلم نر فيهم^(٣) طلب الأخماس من التجارة، ولا من صانع ولا من زارع، ولا من حمال يحمل على ظهر رأسه، ولم يستأثروا بما جعل الله لأهل بيت نبيهم عن أهل بيت نبيهم ﷺ، ففي دون هذا التفهم.

فإن زعمت الروافض أن ذا في صاحبنا بما وصفتم من دلائل الإمامة والزهد والفضل.

يقال لهم: ما لنا لا نرى ما تصفون؟

فإن قالوا: إنه في دار تقية.

(١) في (ب): وطلب.

(٢) في (أ): فيهم.

(٣) «فيهم» ساقطة من (أ).

فيقال لهم: أفتظهر منكم معصية الله على التقية؟

فإن قالوا: نعم، يقال لهم: فهل ظهر من أحد من الأنبياء أو الأئمة أو الدعاة إلى الله مثل علي والحسن والحسين، أو علي بن الحسين، أو محمد بن علي، أو غيرهم ممن دعا إلى الله، الذين لم نختلف فيهم إذ كانوا أئمة وجعل الله فيهم ذلك؟ أو هل طلبوا ما ليس لهم من أموال الناس غيرهم؟ أو هل أظهروا المعصية بالتقية استبقاء على أنفسهم مخافة على دمائهم؟ أو ليس صبروا على أمر الله؟ وقاموا بحق الله، حتى قتل بعضهم، ونشر بعضهم، وأحرق بعضهم، وأغلي بعضهم في القدور، ودفن بعضهم أحياء، وغرق بعضهم في البحار، وسمر بعضهم بالمسامير، وعذبوا بألوان العذاب؟! فما كان يمنعهم أن يظهروا التقية فينجوا من أعداء الله، إذا^(١) كانت التقية من المخلوقين ديناً على ما وصفتم؟! وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، وهل الركون إليه إلا الاتباع على ما يريد، وتصديقه وجهة ما يقول، وسكنائه معه في داره على غير منابذة، وهو على غير الدعاء إلى الله وطلب الجهاد، وقد قال الله تبارك وتعالى يُصَبِّرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا يَصِيبُهُمْ فِيهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَل مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤]، ثم قال: ﴿وَإِيَّاي فَاتَّقُونِ﴾^(٢) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ

(١) في (أ، ب): إذ.

اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ [البقرة]، فكيف يجوز لأحد من الأئمة يكتم الحق ويظهر من نفسه خلاف ما يعلم؟ أو ليس من رأى فعله من المستضعفين اقتدى به، لما يعاينون من ظاهر فعله، فهم مصيبون إذ غاب عن المستضعفين الناصر؛ إذا اقتدوا (١) بالإمام؟

فإن قلتم: نعم، فقد وجب لمن خالفكم الإيمان. وإن قلتم: إن الذي رأيتم من الإمام هو التقية، والذي أخبركم خلاف الحق، والحق ما تقولون (٢)، وإنما كتمتم (٣) الحق تقية منكم، أفليس تدعوننا إلى أن نصدقكم على ما قلتم ونكذبه فيما قال لنا؟ فأنتم إذاً أولى بالصدق منه، وأنتم أئمة؛ إذ تأمرونا أن نقتدي بما تقولون، ونترك ما قال.

فإن زعمتم أنه على الحق، وقد رأى الناس خلاف ما تقولون، ورووا منه خلاف ما تنسبون، وسمعوا منه خلاف ما تدعون - فاقصدوا به؛ إذ زعمتم بأنه إمام افترض طاعته! أفليس يجب على الناس أن يطيعوه فيما يأمرهم، ويتمنعوا عما ينهاهم، ثم تكلفون الناس أن يتبعوا قولكم ويتركوا قوله، فأنتم إذاً الذين افترض الله طاعتكم (٤)، فأنتم الصادقون ليس هو!

ثم زعمتم أنه إمام مفترض الطاعة، أفليس على مذهب قولكم هو إمام هدى وإمام ضلالة، إذ هداكم وأضل غيركم آخرين، حين أفتاكم بالحق وأفتى غيركم بالباطل، وعلمكم حكم الله وعلم غيركم خلاف حكم الله؟

وكيف وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

(١) في (أ): إذا اقتدوا.

(٢) في (أ)، (ب): ما يقول.

(٣) في (أ)، (ب): كتمكم.

(٤) في (ب): طاعتهم.

الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ [المائدة]، افترى جميع الحكمين سواء، حكم ما أخبرك وحكم ما أخبر غيرك، هما جميعاً من حكم الله وهما حكمان متضادان؟ إلا أن تقولوا: إنه حجة على بعض دون بعض، لناس مخصوصين، وليس حجة على الآخرين. فإن زعمتم أنه حجة على الكل فالواجب عليه أن يهديهم أجمعين، ويدلهم ويصبرهم ويعرفهم بنفسه.

وكيف يكون حجة يجب نفسه من الناس ولا يبين لهم؟! أرايتم إذا وقفوا بين يدي الله بم يحتج عليهم؟ أبما دعاهم فعصوه؟ أم بما بين لهم فخالفوه؟ أو بما حجبهم^(١) نفسه فجعلوه؟ فكيف تثبت له عليهم حجة ولم يُبَلِّغْهُمْ حجة ولم يعرفوا اسمه ولم يعرف بنفسه؟

فإن زعمتم بأن له أن يكتم لأن الله قال في محكم كتابه: ﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [غافر: ٢٨]، وهو قال لهم: {رجل}، ولم يكن الرجل بحجة؛ لأن الحجج فيما مضى أنبياء وأوصياء الأنبياء، وهذا رجل مؤمن أثنى الله عليه، ولم يكن بنبي ولا حجة.

فإن زعموا أن لصاحبنا أن يكتم كما كتّم المؤمن.

يقال لهم: أوليس زعمتم أن صاحبكم حجة، وهل للمؤمنين أن يبينوا ما بين الحجج، يسع المؤمن أن يكتم ولا يسع الحجة أن يكتم؟! مع أن مؤمن آل فرعون كتّم الإيمان قبل أن يبين الله لخلقه، فلما بين الله لخلقه لم يسعه الكتمان بعد البيان، مع أنه كان في عبدة الأوثان، وفي دار من يدعي الربوبية من دون الله، ويحسد رب العالمين، وصاحبكم في دار الإقرار والمعرفة وتصديق النبي ﷺ وإن جهلوا الأحكام والشرائع، فليس لأحد أن يكتّم العلم من طالبه بعد بيان الأنبياء، وليس الحجة حجة إلا من احتج على خلق الله، ولم يلبس دين الله.

(١) في (أ، ب): جحدهم.

فإن زعموا أن رسول الله ﷺ كتم حين ظهر.

يقال لهم: ومتى كتم رسول الله ﷺ؟ أوليس قال الله لنبيه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۖ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر]، وقال رسول الله ﷺ وهو مستند إلى الكعبة والناس يومئذ مشركون جهال عبدة أوثان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، لم يتق أحداً من خلقه، واحتمل الأذى، وصدع بأمر الله، وقام بحق الله، واحتج على خلق الله، وصبر على ما أصابه، حتى أبلغ ﷺ السامع والعاصي، والخاص والعام، والأسود والأبيض^(١)، فمرة يرمون ساقيه، وأخرى يرمونه، ويتشاورون في قتله، فثبتت حجته على الخلق.

فإن زعمتم أن الأئمة يقومون مقام الأنبياء فالواجب عليهم أن يحتملوا الأذى كما احتمله الأنبياء.

ولا يكون حجة إلا داعياً إلى الله مجتهداً، زاهداً فيما في أيديكم^(٢)، عالماً بحلال الله وحرامه، أقوم خلق الله وأبصره بدينه، وأرأفه بالرعية، وأقومه لدين الله، أمين الله في أرضه، صادق اللسان، سخي النفس، راغباً فيما عند الله، زاهداً في الدنيا، مشتاقاً إلى لقاء الله.

فإن زعموا: أن هذا في صاحبهم.

يقال: أوليس إظهار التقية استبقاء على نفسه من الموت، ورغبة في دار الدنيا على أن يترك فيها ولا يفتن له فيقتل؟ فليس هذا الزهد ولا الرغبة؛ إذ أظهر من نفسه خلاف ما يعلم من الحق. فسبحان الله ما أبين تكذيب دعواكم! وأبطل قولكم وعيب ما أنتم فيه؛ إذ يرى فيكم ضعفاء فقراء محاويج، من شيخ ضعيف، أو أرملة ضعيفة، أو يتيم طفل، أو مديون مغموم، أو عزب محتاج إلى

(١) في (ب): والأسود والأحمر.

(٢) في (أ): زاهداً بما في أيديهم. وفي (ب): لما في أيديكم.

النكاح، أو فقير لا حيلة له ولا مبيت^(١) عنده، وزعمتم أنه يعرف مكانكم، ويرى أفاعيلكم، ويعلم حالكم، أوليس يجب عليه أن يغير حالكم، ويفرج على مغمومكم، ويقضي عن مديونكم؟! إذ زعمتم أنه قام مقام النبيين.

وقد قال الله تبارك وتعالى في نبيه: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب]، فكان ﷺ يعطي ضعفاء أمته حتى يؤثرهم على نفسه وعياله، وقد قال الله تبارك وتعالى في أهل بيته ﷺ: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان]، فلم ييخلوا بطعامهم على الأسير وهو كافر، وآثروه على أنفسهم، فكيف ينبغي لصاحبكم أن يستأثر بالمال على المستضعفين الفقراء من أصحابه؟ وقد قال الله سبحانه في أهل بيت نبيه ﷺ: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر]، وقد قال في المؤمنين: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فقد وصف المؤمنين بالرحمة بعضهم لبعض، فكيف يسع حجة الله إذ^(٢) كان حجة على ما وصفتهم أن يستغل^(٣) الألوف، ويأخذ خمس أموالكم، ويوكل في كل بلاد لقبض الأموال، ولا يفرج على أحد من خلق الله، ولا يقسمها في الفقراء والمساكين؟! فلم تُر منه صفة النبي ﷺ إذ قال الله في نبيه: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [٥٣]، ولم تُر منه صفة المؤمنين من أصحاب النبي ﷺ إذ قال الله فيهم: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحشر: ٨].

فلا يرى فيه أن يفرج على أحد من فقراء المؤمنين إن ظلم أو قتل، ولم يُر فيه النصب حرباً لأعداء الله، ولا يسير فيما يسخط الأعداء، ولم ير إلا طلب أخذ

(١) في (أ، ب): مبيت.

(٢) في نخ: إذا.

(٣) في (أ): يستحل. وفي (ب): يشغل.

الأموال من غير أن يقسمها في المستضعفين، فكيف يسعنا أن نقول فيه: هو حجة وليس يرى فيه صفة الحجج؟!

وأما قولكم: إنه يعلم ما نفعل ويعلم ما سرائرنا، ونحن نرى فيكم شراب الخمر، ونرى فيكم الزنا واللواط، وأخذ أموال الناس، وظلم العباد، والتقاطع والجفاء، والمسير بغير ما أمر الله، والقتل، وزعمتم بأنه يعلم منكم هذه الخصال؛ إذ زعمتم أنه يرى أفعال^(١) العباد وهو يتولاكم على هذه الخصال التي فيكم، فإن كان يتولاكم على هذا فليس من الله في شيء، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتُمْسِكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم]، وقوله: ﴿لَا تَحْجِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، فقد أمره الله سبحانه أن لا يتولى أصحاب الدنيا، ويصبر على الذين يريدون الآخرة، فلم نر من صاحبكم إلا طلب الدنيا مجتهداً للمكاثرة.

وإن كان وصفتم^(٢) من الأشياء ما ليس فيه وزعمتم أنه يرى أفعال العباد وأعمالهم، وهو شاهد عليهم، وليس فيه الذي وصفتم بأنه يرى أفعال العباد، فإن كان يرى على ما وصفتم من أفاعيلكم فليس له أن يتولاكم، ولا يأخذ منكم شيئاً من عرض الدنيا، وإن كان لا يرى منكم ما وصفتم فيه فقد كفرتم وعبدتموه من دون الله، وهل هذه إلا صفة رب العالمين؟! أيرى ما غاب عنه،

(١) في (أ): أفاعيل.

(٢) في (أ): وصفهم.

ويسمع من غير أن يُسمع، وأن يعلم ما في قلوبكم من غير أن يُخبر؟! فتعالى الله عما تقولون علواً كبيراً، ما أعظم افتراءكم على الله إذ شاركتكم في فعله أحداً من خلقه، وكيف يكون ذلك كما زعمتم وهو يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، ثم قال: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ٦٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ٦٧﴾ [الجن]، يعني سبحانه: بالوحي؛ لقوله: ﴿يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ٦٧﴾ الوحي فقد أخبر بأن لا يعلم الغيب إلا الله ومن ارتضى من رسول، يوحى إليه بخبر ما يريد، فإذا مضى رسول الله انقطع الخبر والوحي، وحجب عن الخلق أمر الوحي وعلم الحادثات سوى علم ما جاءت به الأنبياء، وبعلم الأنبياء يشهدون، فكيف يعلم أحد الغيب من غير وحي الله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله.

فإن زعمتم أن في الأرض اليوم من يوحى إليه فقد زعمتم أنه نبي؛ لأنه لا يكون الوحي إلا إلى نبي، وإنما سمي نبياً لأنه نبأ عن الله، فمن أنبأ عن الله فهو نبي، فويلكم متى آمتتم بالله وقد كذبتكم كتاب الله؟! لقوله: ﴿وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، فكيف يكون محمد خاتم النبيين وقد نصبتم الأنبياء من بعده؟

ويقال للروافض: أخبرونا عن أعراب البادية والمستضعفين الذين لا يعلمون لصاحبكم اسماً ولا نسباً هل لصاحبكم عليهم حجة؟
فإن قالوا: نعم.

يقال لهم: هل بلغتكم منه الحجة فيكون حجة عليهم؟
ويقال للروافض: هل لصاحبكم أن يتبع أثر رسول الله ﷺ ويكون تابعاً لرسول الله ﷺ لا مخالفاً له؟

فإن قالوا: نعم هو تابع لرسول الله ﷺ.
يقال لهم: هل رأيتم فيه ما رأيتم في رسول الله ﷺ من الزهد وغير ذلك؟
فإن قالوا: نعم. يقال لهم: فهل رأيناه فرج على أحد منكم أو غير حاله؟ وقد رأينا

منه أفاعيل لا يجوز أن تكون في نبي ولا في مؤمن، ونستحي أن نصفه في كتابنا؟
ويقال للروافض: هل يكون حجة الله إلا بالغاً؟ كما أن الله لم يبعث محمداً إلا في
وقت بلوغه، وكيف يجوز أن يكون حجة لله طفلاً وقد قال الله: ﴿حُجَّةٌ بِالْغَةِ﴾ (١)
فكيف يكون صبي في ثلاث أو أربع حجة؟! ونحن في أمة محمد، وستتنا سنة
الإسلام، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾
[المائدة: ٤٨]، فمن شرائع محمد أن لا يُصلى خلف طفل، ولا تجوز شهادته، ولا تؤكل
ذبيحته، ولا يجوز شراؤه ولا بيعه ولا نكاحه، فكيف يجوز أن يكون إمام المسلمين
طفلاً صغيراً؟!

فإن زعمتم أنه صاحب الأمر في حال طفوليته فإذا بلغ كان حجة.
يقال لهم: أفلا ترون أنه قد خلت الأرض من حجة؟! ولو جاز أن تخلو الأرض
طرفة عين لجاز أن تخلو ألف عام.
ويقال للروافض: أخبرونا عن أهل بيت رسول الله ﷺ أمشركون أو كفار أو
مسلمون؟

فإن زعموا أنهم مسلمون- يقال: فقد أجمع أهل بيت رسول الله ﷺ
وعلماءهم بأنكم على غير طريقة الإسلام.
فإن زعموا بأنهم قد يعلمون الحق ويحسدون حسداً منهم.

يقال لهم: فنحن نرى منهم أنهم إذا استبان لهم من واحد منهم الفضل والزهد
والعلم انقادوا له وأقروا بفضلهم ونزلوا عند حكمه، فكيف حسدوا صاحبكم ولم
يحسدوا ذاك؟! فلو كان الأمر على ما وصفتم أنه لا يمنعهم من الإقرار إلا الحسد

(١) هكذا في الأصول، وليس هناك آية هكذا، وإنما هي: ﴿الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ وهناك آية أخرى: ﴿حُكْمٌ بِالْغَةِ﴾ اه سيدي الفاضل نريد توضيح استدلال الإمام عليه السلام هنا؟ قد أراد الإمام القاسم عليه السلام الاستدلال بآية: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، وليس في طفل عمره سنة أو... حجة مقنعة للعقول؛ فالمكلفون لا يفتحون آذان قلوبهم للأطفال، ولا يصغون إليهم، بل يرون الجحد معهم في الكلام والمخاطبة منقصية. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبد الله عوض المؤيدي حفظه الله).

لكانوا لا يقرون لأحد، وكل واحد منهم يجر إلى نفسه ولا يقر بفضل صاحبه. ولكن كذبتهم عليهم، لأننا قد رأينا قولهم يصدقه كتاب الله، وقولكم يكذبه كتاب الله، وهم أولى بالصدق منكم، ونحن نرى معهم من الزهد ما لا نرى من غيرهم، فهم أعرف بأهل بيته منكم، وهم أعرف بعضهم لبعض منك يا مدعي ما ادعيت بالباطل، وتريد أن نقبل باطلك بغير بيان ولا برهان ونكذب أهل بيت النبي ﷺ!!

أليس ينبغي لصاحبكم أن يتبع رسول الله ﷺ ويقتدي بفعله إذ كان حجة كما زعمتم؟ وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، أوليس ينبغي لصاحبكم أن ييدي نصيحته لأهل بيته قبل العوام، كما أمره الله تعالى فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء]، فجمع رسول الله ﷺ أربعين رجلاً من بني عبدالمطلب وعبد مناف، ورجالاً من بني مخزوم فيهم أبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، وفي القوم أبو بكر، ومن بني أمية عثمان وصخر بن حرب أبو سفیان، فأنذرهم بعلم ما أوحى إليه، وأخبرهم بما أوحى الله إليه، وأبدى لهم نصيحته، ودعاهم إلى نصرته، فأجابه من أجابه وخالفه من خالفه، لم يخف منهم التكذيب ولا الجحد والحيود، وكان حجة لمن اتبعه وحجة على من عصاه، أفليس يجب على صاحبكم أن يبين لأهل بيته كما بين رسول الله ﷺ لأقربائه؟

فإن قالوا: يخاف منهم أن لا يقبلوا منه، ويكذبوه ويحسدوه.

يقال لهم: - ويلكم ما أعظم افتراءكم على أهل بيت رسول الله ﷺ، افتراهم أشرم من وصفنا من قريش الذين بلغهم رسول الله ﷺ؟! وتزعمون أن أخيار آل محمد وزهادهم، مثل زيد بن علي بن حسين بن علي، وعمر بن علي بن حسين، وعلي بن علي بن حسين، وحسين بن علي بن حسين، والحسن بن الحسن، وعبدالله بن الحسن بن الحسن، الذي روت الأمة فيه ما روت، وقال محمد بن علي بن حسين: ((يكون هذا خير أهل زمانه، يقتل شر أهل زمانه، لقاتله مثل ثلث عذاب أهل النار، ويموت قاتله قبل دخول الحرم))، فلما قام أبو جعفر قال عبد الصمد بن علي: سمعتم

ما روى ابن أخي، والله ما له قاتل غيره.

ومثل الحسن بن الحسن بن الحسن، ومثل علي سيد العابدين بن الحسن بن الحسن بن الحسن، ومثل حسين بن علي، ومثل محمد بن عبدالله النفس الزكية، الذي قال فيه رسول الله ﷺ وروى ذلك جعفر بن محمد قال: ((هذا النفس الزكية يقتل بالثنية، ويبلغ دمه حجر الزيت)).

ومثل إبراهيم بن عبدالله بن الحسن، ومثل يحيى وإدريس وسليمان وجعفر وموسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن، ومثل يحيى بن زيد، وعيسى بن زيد، ومحمد وحسين ابني زيد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب، ومثل أحمد بن عيسى بن زيد، ومثل عبدالله بن موسى بن عبدالله، صاحب سويقة، ومثل القاسم بن إبراهيم، ومثل محمد بن إبراهيم، ومثل الحسن بن إبراهيم، ومثل أحمد بن إبراهيم، ومثل علي بن إبراهيم، ومثل جعفر بن عبدالله.

فلو وصفتهم لك لطل عليك المجلس، الذين كانوا أزهد الخلق، وأعلم الخلق، وكانوا فرجا للمستضعفين من عباد الله، الذين كانت وجوههم كصفائح الفضة، ملس ييس من خوف الله، صفر الألوان من سهر الليل، قد انحنت أصلابهم من العبادة، باكية أعيانهم من خوف الله وشفقة من عذاب الله، لم يستحلوا ما استحل غيرهم من قبض أموال الناس، ولا يستأثرون بشيء من فيء المسلمين مثل ما استأثر غيرهم، أحدهم إذا وصل المؤمن وصله بمائة ألف فما دونها من صميم أموالهم، وخرجوا من أموالهم زهداً في الدنيا ورغبة لما عند الله.

أفترّون أن جميع هؤلاء، وجميع أهل بيتهم كانوا أجهل للحق، وأشد حسداً وأشد بغياً وأشد إنكاراً من أبي جهل بن هشام، ومن الوليد بن المغيرة، ومن أبي لهب، وأبي سفيان، ومن معاوية بن أبي سفيان، ومن قريش الذين كان جمعهم رسول الله ﷺ وأنذرهم، وأبدى لهم النصيحة كما أمره الله سبحانه وتعالى لقربته؟ أفليس كان يجب على صاحبكم أن يبدي نصيحته لأهل بيته وهم مسلمون أخيار كما أبدى رسول الله ﷺ نصيحته لبني عبد مناف، ونفر من بني مخزوم، وزهرة، لأنهم كانوا أخواله؟

أفترى هؤلاء أهل بيت النبي الذين سميناهم في كتابنا ومن لم نسّم في كتابنا أجد من قريش هؤلاء الذين جمعهم رسول الله ﷺ الذين وصفنا (١) في كتابنا ما لا تنكرهم الأمة؟! فإن رسول الله ﷺ أبدى نصيحته لهم أول الخلق، فكيف تزعمون أن صاحبكم بيدي لكم الحق ويكنمه أهل بيته! عظم افتراؤكم (٢) على أهل بيت رسول الله ﷺ، ووصفتهم فعل صاحبكم مضاداً لكتاب الله وفعل رسول الله، ومن خالف رسول الله فقد خرج من حيز رسول الله ﷺ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء]، فأمر الله بصلة الأرحام، ونهى عن قطيعة الأرحام، أفترى أن صاحبكم وصلكم وقطع رحمه؟! وأي قطيعة أعظم من أن يكتنم دين الله، والحق الذي به يتقرب إلى الله، ودينه الذي به يعبد الله، فكتم أرحامه فهلكوا بزعمكم حتى استوجبوا النار لتركهم الحق، فأى قطيعة أعظم من هذا وقد أمر الله أن توصل؟

ولكن كذبتهم وغيرتم وأظهرتم الباطل، فلما أنكر عليكم أهل بيت نبيكم رويتم فيهم ما رويتم كذباً وبهتاناً، وخلاف كتاب الله؛ لأن يصدق باطلكم في زماننا هذا- بأن زعمتم أنه يبين لنا ويكنم غيرنا؛ لأنه يعلم منا أنا لا نذيع سره، لما أعطاه الله من العلم علم الغيب، وتأولتم كتاب الله على غير تأويله، وزعمتم أنهم المتوسمون، لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر]، وقد عرف منا صاحبنا النصيحة ما لم يعرف من غيرنا، وأخبرنا بما نحتاج إليه، وعرفنا نفسه؛ لما علم منا النصيحة والكتمان عليه، وأنا لا نذيع سره، وقد كتمكم إذ علم منكم غير ما علم منا. يقال لهم: أوليس قد كذبتهم قولكم، وجهلتم صاحبكم؟! إذ زعمتم أنه علم منكم أنكم لا تذيعون سره، أوليس قد ادعيتهم وقتلتم للناس واحتججتم على من

(١) في (أ، ب): هؤلاء الذين جمعهم رسول الله ﷺ أجد من قريش الذين وصفنا في كتابنا.

(٢) في (أ): فراؤكم.

خالفكم، ووصفتهم فيه ما لم يدعه هو لنفسه، مثل علم الغيب، ومثل قولكم يرانا في كل بلاد، ويرى حالنا وأعمالنا وأفاعيلنا، ويسمع كلامنا، ويخبرنا أننا نرجع إلى الدنيا بعد موتنا، وأشباه هذا مما لو وصفناه لكثير وطال؟!

فيا سبحان الله! أوليس يكفي دون ما وصفنا لمن وهب الله له أدنى فهم، واستقر في قلبه أدنى إيمان، أن يعرف اختلاف قولكم، وتكذيب دعواكم، وعيوب ما أنتم فيه من باطلكم^(١)، ولكن الله يهدي لدينه من يشاء.

زعمتم يخبركم لمعرفة بقبولكم، ويحكم غيركم لمعرفة بجحودهم، فسبحان الله ما أين هذا الفعل أنه مضاد لفعل رسول الله ﷺ؛ إذ زعمتم أن صاحبكم يقوم مقام رسول الله ﷺ، ويهتدي بهدي رسول الله ﷺ، ويفعل أفاعيل رسول الله ﷺ، أفهكذا كان فعل رسول الله ﷺ أن يحكم بعضاً ويخبر بعضاً؟ أو أخبر الجميع قبله من قبله وعصاه من عصاه؟

فإن زعمتم أنه أخبر بعضاً وكنتم بعضاً فقد عظم فرائضكم على رسول الله ﷺ، وزعمتم بأنه لم ينصح للعباد؛ إذ نصح قوماً دون قوم، وزعمتم بأنه لم يبلغ رسالات الله إلا قوماً دون قوم، ويلكم وكيف وقد قال الله لنبيه أن يبلغ الناس لقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ولقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فوعده أن يحفظه ممن كان يحذره رسول الله ﷺ ويخلي أهله، فأبلغ الثقلين الجن والإنس عامة كافرهم ومؤمنهم، فقبل من قبل، وعصى من عصي، فكان حجة لمن قبل، وحجة على من عصي، وعلى أهله^(٢)، وبدون هذا يكتفي المؤمن.

وأول من حاز الوصية وادعى علم آدم قوم يقال لهم الإبراهيمية، وجعلوا الوصية وراثية من أب عن أب، وهم من الهند يقال لهم الإبراهيمية، وهم سادات البلاد،

(١) في (أ، ب): وعيوب ما أنتم فيه وباطلكم.

(٢) في (نخ): ويخلي أهله.

وزعموا أن آدم أوصى إلى شيث، وشيث أوصى إلى ابنه، وقادوا الوصية إلى أنفسهم، وزعموا أن الوصية فيهم اليوم، وزعموا أن كل نبي ادعى النبوة من بعد شيث مدع كاذب؛ لأنه^(١) لا يخبرنا بعلم آدم.

وقالوا: إن الله علم آدم الأسماء والعلم كله، فدفعت كل رجل إلى وصية العلم كاملاً، ثم ادعوا بأن العلم الذي نزل من السماء فيهم كامل، وأبطلوا كل نبي بعثه الله من ولد آدم.

ثم قادوا الوصية قوم من اليهود، وزعموا أن الوصية انتهت إلى ولد داود، فجعلوا الوصية في ولد داود، وجعلوها وراثته، وزعموا أنه يرث ابن عن أب، وهم بالعراق يقال لهم: رأس الجالوت، يدفعون إليه خمس أموالهم، وعن الذكر البكر من الولد والمواشي والدواب، وإذا ذُبِح ثور حُمِلَ إليه درهم قفلة وثلاث وثمان كبده، وإذا تزوج أعطاه أربعة دراهم قفلة، وإذا بنى أحدهم داراً أعطاه مثل ذلك، وإذا تزوج لا يقدر أن يطلق إلا بأمره أو أمر وكيله، فإذا طلقها أخذوا منه أربعة دراهم قفلة، وعليه أن يربي أولاد الزنا من اليهود ومن لا يعرف له أب حتى يكبر، فإذا كبر كان مولاه إن شاء أعتقه وإن شاء باعه، وهم الذين يحملونه إذا خرج من منزله لا يتركونه يمشي، ويقولون: إن اليهود فيهم، فإن أيديهم أطول من أيدي الناس، وأنه يبلغ الركبتين إذا استوى قائماً، كذباً وزوراً، واسمهم: رأس الجالوت. ويزعمون أن موسى وهارون سيرجعون إلى الدنيا، فتكون لهم الدولة على المسلمين. وكل نبي بعثه الله في بني إسرائيل من غير هؤلاء ونسلهم كذبوه وقتلوه، وقالوا: بأنه لو كان نبياً لكان من ولد هؤلاء ونسلهم، الذين قادوا فيهم الوصية، فقال الله سبحانه تصديق ما قلنا: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة]، فقد ارتكبت هذه الأمة ما ارتكبت بنو إسرائيل القذة بالقذة، والحذو بالحذو كما قال رسول الله ﷺ.

(١) «لأنه» ساقطة من (أ).

فرحم الله عبداً تفهم ونظر لنفسه قبل لقاء الله، ونظر في سنة الماضين وما ارتكبوا من البدع والضلالة، وما جحدوا من الحق والبيان، وحذر أن يكون كأحدهم.

وإنما صفة الإمام الحسن في مذهبه، الزاهد في الدنيا، العالم في نفسه، بالمؤمنين رؤف رحيم، يأخذ على يد الظالم^(١)، وينصر المظلوم، ويفرج عن الضعيف، ويكون لليتيم كالأب الرحيم، وللأرملة كالزوج العطوف، يعادي القريب في ذات الله، ويوالي البعيد في ذات الله، لا ييخل بشيء مما عنده مما تحتاج إليه الأمة، من أتاه مسترشداً أرشده، ومن أتاه متعلماً علمه، يدعو الناس مجتهداً إلى طاعة الله، ويصبرهم عيوب ما فيه غيهم، ويرغبهم فيما عند الله، لا يحتجب عمن طلبه، فهو من نفسه في تعب من شدة الاجتهاد، والناس منه في أدب، فمثله كمثله الماء الذي هو حياة كل شيء، حياته تمضي وعلمه ييقى، يصدق فعله قوله، يعرف منه الخاص والعام، لا ينكر فضله من خالفه، ولا يجحد علمه من خالطه، كتاب الله شاهد له ومصدق له، وفعله مصدق لدعواه، وشواهد في كتاب الله، والدليل عليه كتاب الله، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، من الدعاة من أهل بيتي.

أليس وصف لنا رب العالمين هاهنا بأن حجته داع إليه، كما بدأ برسول الله ﷺ فقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فقال رب العالمين: إن الحجج هم الدعاة، فمن رأيتم من أهل بيت نبيكم دعا إلى الله علانية غير مكتم إلا ما قلنا؟ فإن أنكرتم لم تنكر الأمة الذين قالوا بخلاف قولنا وقولكم، فلنا عليكم البيان من غير أهل مقاتلتنا بأن قوماً من أهل بيت النبي مخصوصين دعوا^(٢) إلى الله، وجاهدوا في سبيل الله، وقتلوا وقتلوا، ومضوا إلى الله على سبيل جدهم محمد ﷺ وعلي والحسن والحسين، الذين جاهدوا في الله حق جهاده حتى أتاهم اليقين.

(١) في (أ، ب): بيد الظالم.

(٢) في (ب): بأنهم دعوا.

وقال الله تبارك وتعالى في الأئمة من أهل بيته: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فبم يكونون شهداء عليهم، بما دعوا الأمة فخالفوهم وعصوهم؟! أو بما لم يدعوهم وجلسوا في بيوتهم؟! أفترى بم يشهدون عليهم يوم القيامة، أبكتماهم الحق وجلوسهم في منازلهم وإظهارهم التقية، أو في إظهارهم الحق ودعائهم إلى الله، وبيان الحق؟ فأيم أحق وأولى أن يكون شاهداً في كل زمان من أظهر وبيّن ودعا أو من كتم وأقر؟! وشواهدنا في كتاب الله من دلائل الإمام، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهل شك أحد من خلق الله في زيد بن علي ومن قام مقامه من أهل بيت نبيه ومن مضى من أهل بيته من الأئمة أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وجاهدوا في الله حق جهاده علانية غير سر، فيا ويحكم أليس هذه دلائل من كتاب الله؟! ينبغي^(١) للعاقل أن يكتفي بها إن شاء الله.

تم الرد على الروافض، وصلى الله على رسوله سيدنا محمد

النبي وآله وسلم

(١) في (أ، ب): ما ينبغي.

جواب مسأله لرجلين
من أهل طبرستان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الحسين^(١) بن القاسم: سألت أبي رحمة الله عليه لرجلين من أهل طبرستان وهما: عبيد الله بن سهل، وهشام بن المثنى عن توحيد الله ومعرفته، وما اختلف فيه المختلفون من صفته، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اكتب: سألتما أعانكما الله وهداكما، ونفعكما بما بصركما من الهدى وأراكما، عن توحيد الله ومعرفته، وما اختلف فيه المختلفون من صفته، فتوحيد الله والمعرفة به وتيقنه الذي لا يسع أحداً من المكلفين جهل شيء منه، جهلٌ قليله في توحيد الله كجهل كثيره، وأصغر ما يجهل منه في الشرك بالله عند الله ككبيره، ومن جهل من ذلك شيئاً واحداً لم يكن بالله موقناً، ولا له مؤحداً أن يعلم أن الله واحد أحد، ليس له نذ من الأشياء ولا ضد؛ لأن الند لما يُنَادُهُ مكافٍ، وال ضد لما يضاده منافي، وليس من الأشياء كلها ما يكافيه، ولا يضاده جل جلاله فينافيه، فليس هو جل ذكره كشيء، وهو الأول قبل كل بدي، لم يلد سبحانه فيكون ولده له مثلاً، ولم يولد فيكون والده له بدءاً وأصلاً، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص]، والكفو: فهو النظير والمثيل والشبيه والند. ولبعده سبحانه من شبه الأشياء ومماثلتها، ولتعالیه عن مشابهة جزئية الأشياء وكلّيتها لم تدركه ولا تدركه أبداً عينٌ ولا بصر، ولا يحيط به من الناظرين عيان ولا نظر، كما قال سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝﴾ [الأنعام]، وقال جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ [الشورى]، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والحي القيوم فهو الذي يبقى سرمداً ويدوم، وليس شيء من

(١) في (أ): الحسن.

الأشياء يبقى فلا يفنى، ولا يصح له أبداً هذا الذكر والمعنى، إلا الله وحده ذو البقاء والدوام، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن]، و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [القصاص]، ولكفى دليلاً ببقائه وفناء كل ما سواه على تعاليه عن مشابهة الأشياء لقوم يعقلون.

وكيف يشبه الباقي الفاني في معنى ما كان من المعاني؟

فمن توهم الله جل ثناؤه أجزاء أو أعضاء، أو أبعاضاً يصل بعضها بعضاً، أو اعتقد أنه يرى، أو رؤي قط فيما خلاء بعين أو بصر أو رؤية أو نظر، أو أنه يدرك بحاسة من حواس البشر، أو وصفه سبحانه بكف أو بنان، أو بقم أو لهوات أو لسان فقد شبهه بما خلقه جل ثناؤه من الإنسان، وبرئ واصفه بذلك من المعرفة له والإيقان، وقال في الله من ذلك بالزور والبهتان، وخالف كل ما نزل الله في ذلك من النور والفرقان، فهو لرب العالمين من أجهل الجاهلين، وهو بالله جل ثناؤه من المشركين، وبما اعتقد في ذلك من أهلك الهالكين، فهذه صفته تبارك وتعالى في الإثنية والذات، وهي صفة واحدة ليست فيه جل ثناؤه بمختلفة ولا ذات أشتات، ولو كانت فيه مختلفة غير واحدة لكان اثنين وأكثر في الذكر والعدة، وإنما صفته سبحانه هو، وأنه كذلك في التوراة، قال تعالى لموسى صلى الله عليه عند المناجاة: (يا موسى إني أنا الله إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب).

وكذلك قال لرسوله ﷺ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ [الحشر]، فوصف نفسه تبارك وتعالى في أول الآيات بأنه هو، ثم ذكر سبحانه من ملكه وخلقته وقدسته ما ليس له فيه نظير ولا

مثيل ولا كفو.

فمن وصفه جل ثناؤه بغير ما وصف به نفسه من العلم والقدس والحكمة، وما ذكر جل جلاله من العز والرافة والرحمة، فقد خرج صاغراً بصفته من العلم بالله ومعرفته.

والسنة التي ذكر الله أنها لا تأخذه ولا تعرض له جل جلاله هي قليل النوم ويسيره، لا النوم نفسه وكثيره، فنفى سبحانه عن نفسه من قليل مشابهة خلقه ما نفى تبارك وتعالى عن نفسه من كثيرها، تعالياً عن صغير مماثلة خلقه وكبيرها؛ لأن ذلك كله في التشبيه له سواء، يثبت به كله أن له نظيراً في التشبيه وكفواً.

ومن معرفة الله والإيمان به الإيمان بجميع رسله وكتبه، ومن أنكر آية من تنزيله أو جحد رسولاً واحداً من رسله خرج بذلك من التوحيد والإيقان، وزال عنه لما أنكر من ذلك اسم الإيمان؛ لأنه من أنكر آية من آيات الله أو رسولاً واحداً من رسل الله كمن أنكر أن صنع السماء والأرض من الله، ونسب ما كان من آية أو علم أو دلالة إلى غير الله؛ لأنه إذا زعم أن ما جاء به رسول من رسل الله من أعلامه ودلائله، أو أن آية من آيات كتب الله وتنزيله ليست من الله ولا عن الله - ثبت وزعم أن ذلك من غير الله، ومن أضاف شيئاً من صنع الله في أرضه وسماؤه أو في سوى ذلك كله من خلقه وإنشائه إلى غير الله فقد ألد وكفر، وجحد وأنكر، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ [النساء]، فمن فرق من ذلك بين ما جمع الله وألف خرج بتفريقه ذلك مما أقر به من توحيد الله وعرف، وكان منكراً لذلك كله بإنكاره لما أنكر من أقله.

وقد سأل عن هذا بعينه وما قلنا به من تبينه نصراني كان يغشاني من قبط أهل مصر يقال له: سلمون، وكان ربما اجتمع عندي هو والمتكلمون، وكان هو يزعم في عيسى خلاف ما تزعم النسطورية واليعقوبية والروم؛ لأن أولاء كلهم يزعمون أن عيسى عليه السلام ابن وإله، ومنهم من يقول: إنه الله، وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

وكان هذا النصراني الذي ذكرنا يقول: إن عيسى عليه السلام عبد مربوب، وصنع مخلوق، وإن من لم يقل من النصارى بقوله وينسب عيسى صلى الله عليه إلى الخلق والعبودية فليس بنصراني، وهو مشرك خارج من النصرانية.

فسأل يوماً وهو عندي جماعة من الموحدين، وفيهم حفص الفرد البصري، وكان من المتكلمين، فقال: يا هؤلاء، أخبروني - فقد زعمتم أنكم تنصفون، وأنكم لا تقولون إلا بما تعرفون - من أين زعمتم أن من أنكر محمداً وجحدته، ولم يقر بما كان من النبوة عنده، منكرٌ لله جاحد؟ والله فغير محمد، الله معبود ومحمد عابد؟ وإنكارٌ واحد ليس بإنكار اثنين؛ لأن الشيء الواحد ليس بشيئين، فقد سألت منكم كثيراً عن هذه المسألة فأجابوني فيها بجوابات مختلفة غير مقنعة، وكيف أكون لك منكرًا بإنكاري لغيرك؟ وهل تراه يصح في فكرك أن أكون بإنكاري لمحمدٍ لله منكرًا، وأنا بالله مقرر، وله مؤحدٌ مجلٍّ معظمٌ مكبرٌ؟ فأجابوه فلم يفتنع بجوابهم، ولم يسمع لمقاهم.

وكان مما أجبته به في مسألتها، وما كان فيها من مقالته، أن قلت: أخبرني يا هذا إذ أنكرت محمداً وما جاء به من رسالاته، أليس قد زعمت أن ما كان معه من آيات الله ودلالاته، وما كان يُري الناس من الأعاجيب وينبئهم به من السر والغيب، ليس كله من الله، ولا شيء منه بصنع الله، وأضفت ذلك كله إلى غير الله؟ فقال: بلى، لا شك ولا امتراء.

فقلت: أفلا ترى أنك لو أنكرت أن تكون السماء والأرض من الله، والله خلقا

صنعاً، مفتطراً بدعاً، كنت بإنكار ذلك لله منكراً، وإن كنت بالله عند نفسك مقراً؟ فكان في هذا الجواب بحمد الله ما حجّه وقطعه، وكفاه في الاحتجاج عليه، وكفّه عن التشنيع ومنعه، ولم يتكلم بعده - علمتُ - في مسألتها بكلمة واحدة، وأمسك في مسألتها عن الإكثار والشغب^(١) والملاذّة.

ومن الدلائل على ما ذكرنا وقلنا به في ذلك وفسرنا قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلُ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ ٣١ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رُبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ ٣٢ [الإسراء]، يقول صلى الله عليه: لقد علمت ما افتطر وجعل وخلق وأنزل ما جئتكم به من الآيات والدلالات إلا من خلق وجعل وافتطر الأرضين والسموات، فلما أزال فرعون صنعهن وخلقهن عن الله، ونسبهن إلى السحر ازداد بذلك شركاً وكفراً إلى ما كان فيه من الشرك والكفر، وكذلك لو لم ينكر إلا آية واحدة مما بُصِّرَ وأُري من آيات الله لكان بإنكارها مشركاً صاعراً راغماً، ليس له بالله معرفة ولا إيقان، ولا بعد إنكاره لها توحيد ولا إيمان.

ومن توحيد الله ومعرفته وما هو أهله من حكمته أن تعلم أنه لم يكلف ولا يكلف أبداً من عبده ما لا يتسع له ولا يمكنه، ولا يأمره بما لا يستحسنه، ولا يريد أبداً منه ما ينهائهم تعالى عنه، ولا يجره أبداً فينهائهم عما يريد من الأمور ويشاؤه؛ لما في ذلك كله من خلاف الحكمة والرحمة، وما لا يجوز أبداً أن يوصف به من الصفات المستقبحة المذمومة، التي لا يلحق بالله جل ثناؤه منها صفة، ولا تحملها من المعارف بالله سبحانه معرفة؛ لما يزول بها من الأسماء الحسنی، والأمثال الكريمة العلى، والله جل ذكره من ذلك كله ما طاب وزكى، ومن قال في الله بخلاف ذلك فقد قال

(١) الشغب بالتسكين: تهيج الشر، ولا يقال: شَغِبَ بالتحريك.

شركاً، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس]، وقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة].

ومن الإيمان بالله بعد التوحيد لله إثبات الوعد والوعيد، فمن أنكرهما ولم يكن مثبتاً لهما ضلالة وتأويلاً خرج بذلك من التوحيد، وكان بإنكاره لهما متعدياً ضالاً، وعمياً جاهلاً، وإن هو أنكر شيئاً من آيات تنزيلها كان بالله مشركاً، ومن توحيد الله خارجاً، وله تاركاً.

وكذلك كل من أنكر فريضة من فرائض الله كلها تنزيلاً، فإن كان إنكاره لها عمية وتأويلاً كان إنكاره لذلك فسقاً وحرماً، وكان جهله بذلك له من الإيمان مخرباً. وكل فريضة فرضها الله تنزيلاً على عبد من عبيده فعليه من معرفتها والإقرار بها ما عليه من الإقرار بمعرفة الله وتوحيده، إذ لزمته حجتها، وحضره وقتها، فإن كان بتنزيلها جاهلاً وله منكرأ كان جهله بها منه لله شركاً وكفراً، وإن كان منكراً لتأويلها مقراً بتنزيلها كان بإنكاره فيها للتأويل فاسقاً فاجراً، ولم يكن مع إقراره فيها بالتنزيل بالله مشركاً ولا به كافراً.

فهذه جوامع الإيمان الواجبة اللازمة، المشتبهة في حكم الله المتفقة المتلائمة، التي لا تختلف مجملها، ولا يسع مكلفاً جهلها، والحمد لله كثيراً، وصلواته على سيدنا محمد وآله الطيبين الذين طهرهم من الرجس تطهيراً.

فهرس المحتويات

٥	مقدمة مكتبة أهل البيت (ع).....
١٦	مقدمة التحقيق.....
٢٠	عملنا في التحقيق.....
٢١	نبذة عن الكتاب.....
٢٣	مواضيع كتب هذا المجموع المبارك:.....
٢٤	ترجمة الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي عليه السلام
٢٤	شيء من فضائله:.....
٢٥	صفته:.....
٢٥	أولاده:.....
٢٥	[بعض من أخذ عنه العلم].....
٢٥	ومن مؤلفاته:.....
٢٧	[نبذة عن الاجتماع التاريخي لبيعة الإمام القاسم بن إبراهيم (ع)].....
٢٩	[ومن كتاب نهاية التنويه في إزهاق التمويه].....
٣٢	نبذة مختصرة عن النسخ المعتمدة.....
٣٤	صور من المخطوطات المعتمدة.....
٤١	السند إلى مؤلفات الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام
٤٣	الدليل الكبير.....
٦٣	[الخلاف فيما تحت الأرض].....
٧٧	[الدلائل على أن الله تعالى لا يشبه الأشياء].....
٨٣	[أول ما يتبدى به طالب فعل الصالحات].....
٩٥	الدليل الصغير.....
١٢٣	الدليل الصغير.....
١٥١	في العدل والرد على المجبرة.....
١٥٣	كتاب المسترشد.....

- الرد على من زعم أن الله في السماء دون ما سواها..... ١٥٤
- الرد على من قال إن الله نفساً كنفس الإنسان..... ١٥٧
- الرد على من زعم أن الله نور كالأنوار المخلوقة..... ١٦٠
- الرد على من أنكر من الجهمية أن يكون الله سبحانه شيئاً..... ١٦٤
- الرد على من أنكر أن يكون الله واحداً ليس بذي أبعاد..... ١٦٨
- الرد على من زعم أن لله وجهاً كوجه الإنسان..... ١٧٣
- الرد على من زعم أن الله تدركه الأبصار وتحيط به الأعين تعالى عن ذلك..... ١٧٧
- كتاب العدل والتوحيد..... ١٩١
- [التوحيد الخالص]..... ١٩٢
- [ما اعتل به المشبهة والجواب عليهم]..... ١٩٥
- [العدل وما يتعلق به]..... ٢٠٠
- [الرد على افتراءات القدرية]..... ٢٠٤
- [الدليل على أن أفعال العباد منهم]..... ٢٠٨
- [بعض ما يعتل به القدرية من الآيات المتشابهات في أن الله قَدَّر المعاصي،
والرد عليهم]..... ٢٠٩
- [بيان من القدرية والمرجئة والتحذير منها]..... ٢١١
- [ما يلزم العبد بعد إقراره بتوحيد الله وعدله]..... ٢١٢
- [موالاة أولياء الله]..... ٢١٥
- [معاداة الكافرين]..... ٢١٦
- [معاداة الفاسقين]..... ٢١٧
- [التوبة]..... ٢٢١
- [وجوه التوبة وتفسيرها]..... ٢٢٢
- [التوبة من القتل والجراحات]..... ٢٢٤
- [التوبة من الأيأان]..... ٢٢٨
- [التوبة من ترك الصلاة وسائر العبادات]..... ٢٢٩

أصول العدل والتوحيد.....	٢٣٣
مسائل في التوحيد.....	٢٣٩
ومن كلامه عليه السلام : [الأصول الخمسة].....	٢٤٠
ومن كلامه عليه السلام : [في ذكر أمهات فروض الله].....	٢٤١
ومن كلامه عليه السلام :	٢٤٢
[ومن كلامه عليه السلام في تعداد أصول الدين].....	٢٤٣
تفسير العرش والكرسي.....	٢٤٥
صفة العرش والكرسي وتفسيرهما.....	٢٤٦
[معنى المجيء والإتيان في حق الله تعالى].....	٢٦٨
[معنى: ثم استوى على العرش].....	٢٦٩
تثبيت الإمامة.....	٢٧٣
[الدليل على وجوب الإمامة].....	٢٧٥
[أدلة أخرى على وجوب الإمامة].....	٢٧٧
[مناقشة من قال: طريق الإمامة اختيارهم للإمام].....	٢٩٠
الإمامة.....	٢٩٥
الإمامة.....	٣٠٣
[من لا يصلح للقيام مقام الرسول ﷺ ومن يصلح لذلك].....	٣١٧
[الوصية وذكر بعض صفات الإمام وحكم إمامين في عصر واحد].....	٣١٩
إمامة علي بن أبي طالب.....	٣٢١
القتل والقتال.....	٣٢٣
الهجرة للظالمين.....	٣٣٧
[حكم من والى عدواً من أعداء الله].....	٣٤٢
[تأكيد الله لأمر المهاجرة وتشديده لفريضته فيها].....	٣٥٠
الرد على الملحد ومناظرته.....	٣٧٧
[الدليل على أن حكم الأصول حكم الفروع].....	٣٨٤

- [الدليل على أن صانع العالم واحد]..... ٣٨٧
- [الحكمة في خلق العالم]..... ٣٨٩
- [الدليل على أن الصانع له رسول]..... ٣٩٤
- [الحكمة في إمارة الإنسان وإفناء العالم]..... ٣٩٦
- [الدليل على ثبوت البعث وكيفيته]..... ٣٩٦
- الرد على الزنديق ابن المقفع..... ٣٩٩
- [قول ماني والرد عليه]..... ٤٠٠
- [أقوال ابن المقفع والرد عليها]..... ٤٠٦
- الرد على النصاري..... ٤٥٩
- [القول بالولادة والمثابرة يستلزم إبطال الإلهية]..... ٤٦٦
- [ذكر جميع أصول النصاري]..... ٤٧٥
- [بداية الرد عليهم]..... ٤٨٠
- الرد على المجبرة..... ٤٩٩
- الرد على الرافضة..... ٥١٣
- الرد على الروافض من أهل الغلو..... ٥٢٧
- [أقوال من قال بجعفر من الروافض في الإمام والرد عليهم]..... ٥٢٩
- [قول الروافض: إن الإمامة يرثها الابن عن الأب والرد عليهم]..... ٥٣٣
- [صفة الإمام]..... ٥٣٩
- جواب مسألة لرجلين من أهل طبرستان..... ٥٥٥
- فهرس المحتويات..... ٥٦٣

